جول فيرن

رواية

الرحلة العلمية

في قلب الكرة الارضية

عربت من الفرنساوية بقلم اسكندر انطون عمون

رواية

الطواف

حول الارض في ثمانين يوماً

عربت من الفرنساوية بقلم يوسف اصاف

طبعت بمطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية سنة ١٨٨٥

الرحلة العلمية

في قلب الكرة الارضية

معرّبة بتصرف

بقلم

الفقير اليه تعالى

اسكندر انطون عمون

وكيل الحضرة الخديوية لدى محكمة مصر الابتدائية الاهلية



(طبعت بمطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية سنة ١٨٨٥ — ١٣٠٢)

اهداء الكتاب

اما بعد فهذه رواية الرحلة العلمية في قلب الكرة الارضية اخترت تعريبها من مؤلفات العلامة الشهير جول فيرن الفرنساوي التي وضعها على اسلوب الحكايات وضمّنها من المطالب العلمية والمباحث الادبية اعمها نفعًا واحسنها لدى النفوس وقعًا وقد تصرفت في تعريب معانيها وترجمة مبانيها بما ناسب اللغة العربية حتى جآءت مع مطابقة الاصل موافقة لذوق ذوي الادب من ابناء العرب واهديتها للامير الجليل والسيد النبيل صاحب الفضل المشهور والاثر المنشور مولاي عطوفتلو عبد الرحمن باشا رشدي ناظر ديوانَي المعارف والاشغال العمومية وناشر لوأي العلم والادب في الديار المصرية فاولاها من حسن القبول ما قضى بِهِ كرم فضائله ولطف شمائله ادامه الله عونًا للعلم وابنائه وعقدًا بالفضل واوليائه

الرحلة العلمية

في قلب الكرة الارضية

معرّبة بتصرف

بقلم

الفقير اليه تعالى

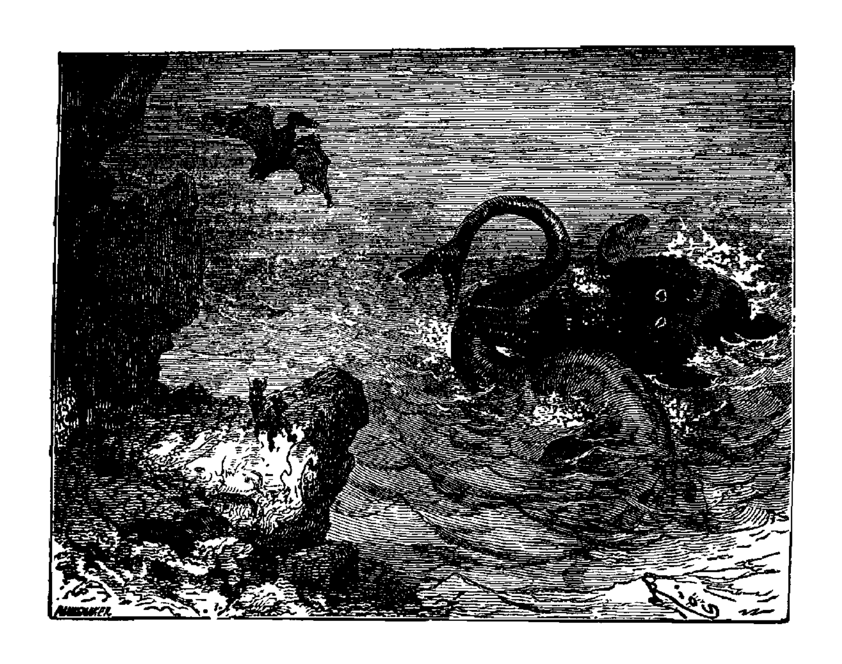
اسكندر انطون عمون

باشكاتب قلم النيابة العمومية لدى محكمة الاستئناف الاهلية

في محروسة مصر



(طبعت بمطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية سنة ١٨٨٥ — ١٣٠٢)



الفصل الاول

حدث اكسيل ليدنبروك عن نفسه قال ـ ولدت في اواخر سنة ١٨٤٤ في مدينة همبرج من مدن المانيا وما كدت ابلغ الحلم الا وانا يتيم من الاب والام وكان لي عم صرور يدعى اوتوليدنبروك فاحتضنني واعتنى بامري فكان عندي بمثابة الوالد وانا عنده بمنزلة الولد وكان قد تبنى ابنةً يتيمةً من اقاربنا تسمى غريبه تقاربني في السن ولكونها من اترابي تخذتها رفيقةً لي في العابي وربيت على حبها فلم يكن يطيب لي عيش الا بالقرب منها وكان في البيت خادمة مسنة تدعى مرتا وهي التي باشرت امر تربيتي وتربية ابنة عمي وكانت سليمة القلب صافية النية صادقة الطوية على جانب عظيم من السذاجة تحبنا محبة الوالدة لاولادها او اشد ونحن نحبها لذلك ونكرمها واما عمي فكان جاد الطبع صعب المراس ألوى بعيد المستمر اذا طلب شيئًا هجر الوسن في

-

سبيل ادراكه واذا كلف نفسه امراً اعكف عليه وانقطع اليه فلا يهناء له بال قبل ان يتمه وكان عجولاً عنيفاً مستبداً برأيه وبحكمه فكان اهل بيته يخشونه ويتقون شره على انه لم يكن في الحقيقة شريراً ولكن الحدة كانت غالبة عليه متسلطة على ارادته بل كان مجبولاً عليها من طبيعته وهو طويل القامة رقيق الجسم عصبي المزاج اشقر اللون ازرق العينين كبيرهما على ان عينيه كانتا متواريتين غالباً وراء نظارته العظيمة الحجم حيث كان لا يزال يقلبهما بين الارض والسماء وكان انفه طويلاً رقيقاً كانه نصلة مدية وقد زعم البعض انه ممغنط بحيث يجذب الحديد وهو اختلاق صرف وافتراء محض فانه ما كان يجذب الا السعوط ولكن بكمية وافرة

وكان الاستاذ اوتو من علماء الجيولوجيا والمعادن الذين يشار اليهم بالبنان فانه كان من مجرد رائحة المعدن او منظره او صلابته او رنته او طعمه او من كيفية ذوبانه او من صوت كسره يعرف حقيقته ويعينه من بين الستمائة نوع المعروفة وقد بلغ من الشهرة مبلغاً عظيماً حتى ان كثيرين من علماء العصر سعوا اليه وزاروه في منزله منهم همفري ديفي وهمبولد وسابين وكان كثيرون من العلماء يسترشدون برأيه في ادق المسائل الكيمياوية كبيكريل وايبلمن وبروستر ودوماس وميلن ادواردس وسنت كلير دوفيل لانه توصل في هذا العلم الى اكتشافات مهمة ورفع النقاب عن اسرار غامضة وقد وضع في التبلور النظري كتاباً طبع في مدينة ليبسيك سنة ١٨٥٣ ولكن ذلك الكتاب مع ما حواه من فرائد الفوائد لم يتم بنفقة طبعه

وكان عمي من جملة اساتذة المدرسة الكبرى بهمبرج حيث كان يدرس علم المعادن وكان كلما القى درساً لا بد ان تأخذه الحدة مرة او مرتين على الاقل ذلك انه كان في لسانه ثقل في النطق وحبسة في الكلام وكانت تزداد لعثمته اذا قام في منبر الخطابة فان علم المعادن يشتمل على كلمات متعقدة لم يكن



وهو طويل القامة رقيق الجسم (صفحة ٤)

ينطق بها لسان الاستاذ الا بعد التردد الشديد والمقاومة العنيفة. فطالما وقف في اثناء خطابه يحاول لفظ كلمة من تلك الكلمات الثقيلة وبعد الجهد والمشقة نطق لسانه بلعنة او لفظة شتم بدلا من ان ينطق باسم من الاسماء العلمية .

يستصعب النطق الصريح لسانه ويجئ بعد عنائه بالمبهم
واذا عصاه مراده يعتاضه بالسب والقول الشديد المؤلم

نعم ان تلك الكلمات المركبة من اللاتينية واليونانية يصعب لفظها على كثيرين كجيلمينيت وفنجاسيت وملبدات الرصاص وتنجستات المغنيسيا وتيتانيات الزيرقون فلا عجب اذا تعذر لفظها على لسان ألكن ولا حرج عليه بذلك

على ان كثيرين من ظرفاء المدينة كانوا يأتون المدرسة لمجرد حضور مقالات الاستاذ اوتوليدنبروك وكانوا يقفون له بالمرصاد عند المواقع الخطرة اي الكلمات الثقيلة فاذا تلعثم لسانه عندها طفقوا يضحكون فيزداد الاستاذ غيظاً ويستشيط غضباً من تلك الكلمة المستعصية فاذا اعاد لفظها وهو في تلك الحالة من الحدة ازداد شططاً ولم ينطق لسانه الا بفرقعة عنيفة تنجلي بعد برهة عن لعنة بسيطة

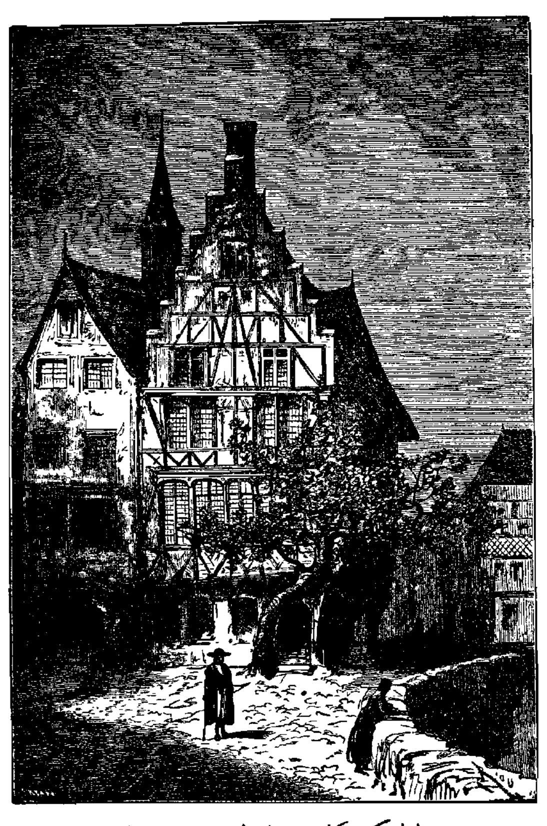
وكان عمي في الوقت نفسه متوليًا حفظ مجموعة الموسيو استروف سفير الروسية التى كانت من الانتيكخانات المشهورة في جميع أوروبا

واما سكنه فكان في المنزل نمره ١٩ بشارع كونيغستراس الذي نجا من حريق سنة ١٨٤٢ وهو اقدم شوارع المدينة وبيته من اقدم بيوت الشارع المذكور نصفه مبني بالخشب والنصف الآخر بالطوب وكان مختلاً قليلاً بحيث ان احد حيطانه كان مائلاً نحو الشارع ووسطه منحنيًا الى الوراء كقبعة عساكر البحرية ومع ذلك فقد الفناه على تلك الحالة ولعله لم يسقط لانه كان متكئًا على شجرة دردار قائمة بلصق الحائط

وما حسن بيت له زخرف   تراه اذا زلزلت لم يكن

وكان عمي قد اتخذني مساعدًا له في امتحاناته وتحضيراته الكيمياوية وكنت مائلاً بالطبع الى علم المعادن ولذلك كنت اتلقى الدروس عنه باجتهاد وانتباه زائدين ولم اكن امل من الاقامة بين شذور مجموعته الثمينة لا سيما اذا كانت ابنة عمي معي

وبالجملة فان ايامنا التي قضيناها في ذلك البيت كانت هنيئةً وعيشتنا فيه رغيدة رغما عما كان يخامرها من الكدر بسبب حدة عمي وهياجه وتقارب غضبه لاسيما انه كان يحبني محبةً شديدة هذا فضلاً عن اننا مع الوقت ألفناه على علاته وتعودنا على معاملاته وكنا نعذره لعلمنا أن تلك الطباع متمكنة منه متسلطة



واما سكنهُ فكان في المنزل نمره ١٩ (صفحة ٦)

على نفسه فكان اذا زرع نباتًا واستبطاء نموه يأتيه في كل يوم ويجذبه من اوراقه بقصد تعجيل نموه واذا مشى قاصداً جهة من الجهات ينهب الارض نهبًا وهو يعدو الجمزى وكفاه منقبضتان شأن الرجل العنيف الطباع ولذلك كان ينفر منهُ كل من يراه عند اول وهلة وكثيرًا ما كان يكسر ادواته الكيماوية لاستعماله اياها بالعنف والقسوة

يستحضر الجسم المراد بحكمةٍ　　ويـنال من اعماله المطلوبا
لكن اذا مسَّ الجهاز بقوةٍ　　اذرى الوقود وكسَّر الانبوبا

الفصل الثاني

في يوم الخميس الواقع في ٢٤ مايو سنة ١٨٦٣ خرج عمي من البيت صباحاً كجاري عادته وكان لا يعود عادةً الا لمناولة الطعام اذا انتصف النهار فقمت بعد خروجه بساعة الى شرفة من شرف المنزل اتنسم الهواء النقي واسرح الطرف في الخلاء وبينما انا على ذلك حانت مني التفاتة الى الشارع فرأيت عمي عائداً الى المنزل بسرعة غير سرعته الاعتيادية وكانت الخادمة مرتا بجانبي فظننت انها تأخرت في الطبخ عن الميعاد لان الطعام كان لم ينضج بعد بل لم يكن للقدر غطغطة فقلت في نفسي ان كان عمي جائعاً مع ما هو عليه من قلة الصبر فسنرى منه الساعة شراً عظيماً ثم انبهت مرتا ان عمي عاد قبل ميعاده ولذلك لاحرج عليها اذا لم تكن هيأت الطعام فسكن جاشها وقالت واي داعٍ اذن لحضوره في مثل هذه الساعة فوالله ما اتانا مرةً قبل الميعاد الا لامر عظيم ثم انصرفت الى المطبخ بعد ان اوصتني بتسكين غضبه انا ما اخذه الغضب على اني كنت ابعد الناس عن اتباع مشورة مرتا لاني كنت ادراهم بطباع عمي وعناده ولذلك عزمت على دخول غرفتي لا توارى عن نظره فلم اشعر الا وقد فتح الباب الخارجي ثم ردَّ بقوة وعنف فاهتزت جدران البيت بينما كانت قوائم السلم الخشبية ترقص تحت وطأة الاستاذ وحينما دخل القاعة رمى بعصاه احدى زواياها والقى قبعته الواسعة على الطاولة وابتدرني بهذه الكلمات : يا آكسيل اتبعني ودخل مخدعه فهرولت نحوه مسرعاً خوفاً من ان يستبطئني ومع ذلك فما ادركته الا وقد فرغ صبره

وكان مخدع الاستاذ متحفاً حقيقياً يحتوي على جميع اجناس المعادن وانواعها وهي موضوعة فيه بغاية الترتيب والانتظام مقسومة الى اقسام ثلاثة بحسب التقسيم العام قسم للمعادن القابلة الاشتعال وقسم للمعادن الفلزية وآخر للمعادن اللينية وكنت اعرف تلك الشذور والاركزة حق المعرفة بل كنت

كلفًا بها كلف العاشق بمعشوقته فكم من يوم صرفته في تنظيفها وفرزها بدلاً من ان اصرفه في اللعب مع اقراني وكم من ليلةٍ احييتها بالتأمل فيها اجيل الطرف بين البلماجين والانتراسيت والخث واللكنيت والزفت والبيت والحمر والكبريت والفناديوم والروبيديوم والزركونيوم والليثيوم والغلوسينيوم والكلسيوم والسترنتيوم والتربيوم واليتريوم والاربيوم والسريوم والديديميوم والروثينيوم والروديوم والنيوبيوم والباريوم والبلاديوم والاسميوم والاريديوم وسائر المعادن الفلزّية والاملاح العضوية وكلها متساوية في القيمة من حيث الفائدة العلمية بيد اني لما دخلت المخدع على اثر عمي لم انظر الى هذه الدرر ولا افتكرت فيها لانني كنت مشغولاً عنها بعمي وكان وقتئذٍ جالسًا على كرسيه محدقًا نظره الى كتاب بيده يتصفحه مرددا عبارات الاعجاب والابتهاج وكان ولوعًا بالكتب مغرمًا بجمعها ولكنه لم يكن يعتبر كتابًا الا اذا كان نادر الوجود او كان على الاقل باليًا رثًا بحيث تتعذر قراءته وبعد ان وقفت امامه برهة نظر اليَّ بوجهٍ متهلل فرحًا وقال ما قولك في هذا الكتاب انهُ لكنز ثمين وقد عثرت عليه في هذا الصباح في دكان هيفيليوس اليهودي فاجبته في الواقع هو درة يتيمة

على اني لم اكن اعرف ما هو ذلك الكتاب ولكن لم يكن في وسعي الا الاقرار على رأي عمي وكان يقلبه بين يديه ولوائح الرضا والابتهاج تلوح على وجهه وهو يخاطب نفسه ويجاوبها قائلاً هل من كتاب اثمن منهُ كلا فلله در مؤلفه ودر مجلده فما احكم جمعه واتقن صنعه وما اطوعه اذا فتح وما اضبطه اذا اغلق فشتان بين مجلده وامهر مجلدي هذا العصر بل من يراه ويظن ان لهُ في عالم الوجود اكثر من مائة سنة مع انهُ قد تجاوز عشرة الاجيال بخ بخ بهٍ بهٍ

وكان في اثناء ذلك يفتح الكتاب ويطبقه ويأخذه تارةً باليمين وطورًا بالشمال فلم يسعني الاَّ ان اسألهُ عن موضوعه وكنت انظاهر بالاندهاش لحسن

ذلك الكتاب مجاراةً له ورغبةً في ارضائه فاجابني بعجب وافتخار قائلاً

تسألني عن هذا الكتاب فاعلم انه كتاب الحيوان تأليف ابي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ امام الفصحاء والمتكلمين الذي توفي في اواسط الجيل الثالث للهجرة

فقلت أليس هو الذي قيل فيهِ

لو يمسخ الخنزير مسخًا ثانيًا   ما كان الادون قبح الجاحظِ

قال بل هو الذي قيل فيه مما فضل الله تعالى به امة الاسلام على غيرها من الامم عمر بن الخطاب بسياستهِ والحسن البصري بعلمهِ والجاحظ ببيانهِ

قلت وهل هذه هي ترجمة ذاك التأليف الى اللغة الالمانية

قال أفٍ لك وما هي قيمة الترجمة فهل تظن اني كنت اكترث بها فاعلم ان هذا الكتاب هو التأليف الاصلي الذي وضعه مؤلفه في اللغة العربية اشرف اللغات واغناها وان هجرها الجاهل وعاداها

قلت وهل حرفه جميل

فنظر اليَّ الاستاذ شزرًا وقال اتحسبه مطبوعًا يا غافل مع ما رأيت من شغفي به فاعلم انه كتب اليد بالخط الكوفي الذي اخذته طي عن كاتب الوحي للنبي هود عليه السلام

ثم اردف كلامه قائلاً انظر الى هذه الكتابة ايها الغر الجاهل وتأمل هذه الحروف ايها الكافر ولتأخذنك الدهشة من هذه الرموز الالهية

وكان يقول هذا الكلام بجدة وحرارة ونظره هائم في قفار التصور وكانت حالته اشبه بحالة رجل سلب عقله او غاب رشده ولا حرج عليه فان العلم كان معبوده والعلماء رسله وانبياءه واما انا فلما لم اجد لديَّ جوابًا ابديه هممت بان اجثو على ركبتي احترامًا للكتاب واجلالاً لرموزه غير انه عرض امر حوَّل الحديث عن موضوعه وكفاني عناء الركوع . ذلك انه سقط من الكتاب بينما كان عمي يقلبه

بيديه رقعة قذرة صفراء كانت محفوظة فيه. فانقض عمي عليها انقضاض البازي على البغاث وانتشلها ويداه ترتجفان ثم بسطها بحرص واعتناء على مكتبه وكان طولها نحو خمس اصابع وعرضها نحو ثلاث وعليها كتابة حروفها عربية الاَّ ان كلماتها بربرية

ولما كانت هذه الكتابة قد حملتني وعمي على سفرة لم تخطر ببال عاقل من اهل العصر التاسع عشر فقد حفظت رسمها وهذه صورتها

مهبران بتخاس سكتقاها وليولن نسلالا كتمايظك سيوفير ريسيب رطنيتة اضورله اريتاو نارلف الهكفن االشسبم

الفصل الثالث

تأمل الاستاذ هذه الكتابة برهةً ثم نظر اليَّ وقال لاشك ان هذه الاحرف عربية ولكن كلماتها بربرية لا ارى لها معنىً .

فقلت لهُ من اين لنا ان نحكم بانها عربية مع علمنا ان حروف اللغات العربية والفارسية والتركية واحدة في الرسم

قال لا فان هاتين اللغتين تشتملان على حروف اربعة لا وجود لها في اللغة العربية وهي الباء والجيم والزاي والكاف الفارسيات والحال اني لا ارى منها شيئًا في هذه الرقعة مع انها تشتمل على اربعة وثمانين حرفًا

وكان الاستاذ يعرف جميع اللغات المألوفة لا اريد بذلك لغات الارض اجمع التي يبلغ عددها نحو الالفين فضلاً عن الالسن التي تبلغ اربعة الاف بل الشهيرة منها وبينما نحن على ذلك دق ناقوس الظهر وفي ذلك الوقت فتحت مرتا الباب وقالت: سكبت الشوربا:

فاجابها عمي لعنة الله على الشوربا والف لعنة على من طبخها وعلى من يأكلها .

واما مرتا فلم تسمع اخر العبارة لانها هربت من اول لعنة فتبعتها على وجل وجلست على المائدة في محلي المعتاد وبعد ان انتظرت الاستاذ برهة ولم يحضر ايقنت ان لا فائدة من انتظاره فاكلت على عجل وانا خائف من ان يفتقدني ولا يراني في مخدعه فينبذ فيَّ غائلة غضبه المسبب من الرقعة ومع ذلك فقد وجدت الطعام لذيذًا جدًا ولعل ذلك ناتج عن اللعنة التي افرغها عمي عليهِ وقبل ان افرغ من الاكل ناداني الاستاذ بصوته الجهوري فوثبت مذعورًا ودخلت مخدعه باقل من طرفة عين فسمعته يقول لاشك ان هذه الحروف عربية ولكن في هذه الكتابة سرًا لا بد لي ان اقف عليهِ ثم نظر اليَّ وقال اجلس امام هذه الطاولة واكتب

ففي الحال جلست في المحل المعين واخذت القلم بيدي وبعد برهة قال لا بد ان تكون هذه الكتابة منقلبة الوضع وان كانت كذلك فلا بد انها تشتمل على اكتشاف عظيم او سر من الاسرار الغامضة ولكن من لي بمفتاح هذا المعنى وكيف الوصول الى معرفة الوضع الاصلي

اما انا فكنت ارى ان تلك الكتابة خالية من المعنى من اصل وضعها على اني لم ابدِ ذلك الرأي لاني كنت ارى اصابع الاستاذ تضطرب اضطرابًا مخيفًا

ثم ان الاستاذ اخذ الكتاب باحدى يديه والرقعة بالاخرى وبعد ان ردد الطرف بينهما برهةً قال ان الكتاب اقدم من الرقعة ولي على ذلك دليل قاطع وهو ان الرقعة مكتوبة بالخط المألوف في هذا العصر والكتاب محرر بالخط الكوفي والحال ان الكتابة العربية لم تنتقل الى الطريقة التي هي عليها الان الَّا في اواخر الجيل الثالث للهجرة اي بعد وفاة الجاحظ تقريبًا

قلت اجل على اي طريقة كانت الكتابة العربية قبل الخط الكوفي وكيف انتقلت الى الطريقة التي هي عليها الان

قال اول من كتب بالعربية هم اهل اليمن قوم هود وكانت تسمى كتابتهم

المسند الحميري وكانت حروفها كلهـا منفصلة وكانوا يمنعون العامة من تعلمها فلا يتعاطاها احد الاَّ باذنهم حتى تعلمها مرامر بن مره واسلم بن سدره وعامر بن جدره وهم من عرب طي على كاتب الوحي للنبي هود عليهِ السلام فتصرفوا فيهـا ووضعوا الخطَّ الكوفي وسموه بخط الجزم لانهُ جزم اي اقتطع وولد من المسند الحميري ثم علموه اهل الانبار ومنهم اشتهرت الكتابة في البلاد العربية ثم سمي فيما بعد بالخط الكوفي وكان الخط غفلاً والحروف مبهمة الى ان خالطت العرب الاعاجم وتغيرت السنتهم فكثر اللحن والتصحيف في قرآة المصحف الشريف فوضع ابو الاسود الدؤلي الشكل في ايام معاوية ووضع نصر بن عاصم النقط افرادًا وازواجًا في ايام عبد الملك بن مروان منعًا للاشكال والابهام واستمرت الكتابة بالخط الكوفي الى اواخر القرن الثالث للهجرة اذ جاء ابن مقلة الوزير ابو علي ونقلها الى الطريقة المألوفة في ايامنا او ما يقاربها ثم جاء بعده علي بن هلال البواب الكاتب البغدادي فهذب طريقته ونقحها فصارت على ما هي عليهِ الان

فعجبت لسعة اطلاعه ورأيت حكمه في محله

ثم اضاف قائلاً يظهر من ذلك اذًا ان شخصًا من الذين تداولوا هذا الكتاب حرر هذه الرقعة السرية ولكن من هو ذلك الشخص يا ترى ألم يضع اسمه على احدى اوراق هذا الكتاب قال ذلك ثم نزع نظارته واخذ عدسية قوية وامرَّ نظره بواسطتها على الصفحة الاولى ثم الثانية من الكتاب فوجد في اسفلها كلفًا اشبه بلطخ من الحبر اذا نظر اليه بالعين المجردة فتأملهُ قليلاً وتبين لهُ انهُ كتابة معقدة لم يبقَ منها الا الاثر وبعد انعام النظر والتدقيق قرأ اسم أرن سكنوسيم مكتوبًا بحروف ايسلاندية تعرف بحروف اودين وهذا رسمه

ولما قرأ ذلك الاسم تهلل وجهه بالفرح ثم قال بصوت الظافر

أرن سكنوسيم هو من اهالي ايسلاندا من علماء العصر السادس عشر وهو كيمياوي شهير

ثم اضاف قائلاً ان هولاء الكيمياويين كابن سينا وباكون وبرسليز هم علماء زمانهم دون غيرهم فقد اكتشفوا اسراراً علمية لا نزال نعجب منها ومن المحتمل ان يكون سكنوسيم اكتشف امراً عظيماً واودع سره هذه الرقعة المبهمة نعم لا بد ان يكون كذلك لان سكنوسيم كان من اشهر العلماء ولو لم يقصد اخفاء امر ذي شأن عن ابناء عصره لما اختار لغة غريبة دون اللغات الاوربية وجعل الكتابة على ما هي عليه من الاشكال .

فقلت ولماذا اختار سكنوسيم اللغة العربية دون بقية اللغات الشرقية فلو كان قصده اخفاء سرٍ ما عن ابناء عصره لكان الاولى به ان يكتبه بلغةٍ اقل انتشاراً من اللغة العربية

قال لا بد ان يكون لذلك داعٍ

ثم اطرق لحظةً وقال لكل لغةٍ عمر محدود وان طال فاذا انقضى اندثرت اللغة واضمحلت او انتقلت من حال الى حال الا اللغة العربية فانها آمنة من بوائق الحدثان ولا تتغير بتغير الزمان لان الله انزل فيها كتابهُ فما دام على وجه الارض مسلم فهي قائمة لا يخشى عليها من النسيان واظن ان ذلك هو السبب الذي حمل سكنوسيم على اختيارها دون بقية اللغات لانهُ لم يقصد ملاشاة امر اكتشافه بالمرة بل اخفاءه حيناً من الدهر

فقلت لا بد ان يكون الامر كما قلت ولكن ماذا عسى ان يكون حمل ذلك العالم على اخفاء اكتشاف من الاكتشافات الغريبة

قال وهل ادري ذلك أما اخفى غليليو اكتشافاته المتعلقة بزحل عن اهل زمانه ومع ذلك فستنجلي لنا الحقيقة وحرام عليَّ الطعام والمنام قبل ان اقف على سر هذه الرقعة

فتأوهت لذلك فقال وعليك ايضًا يا آكسيل

فحمدت الله الذي الهمني التهام الطعام حين كان عمي مشتغلاً برقعته يلعن الشوربا وطابخها ومن ياكلها

الفصل الرابع

بعد أن بقي الاستاذ برهة يعمل الفكرة وهو يناجي نفسه قال نعم هذه الكتابة عربية لا شك فيها ولكن احرف الكلمة الواحدة مختلطة باحرف الكلمة الاخرى ولا بد من الوصول الى فرزها

فقلت في نفسي أن تيسر لك ذلك يا عماه فانت ادهى من ابي مره

ثم رجع يخاطب نفسه فقال هذه الرقعة تحتوي على اربعة وثمانين حرفًا مختلة التركيب اختلالاً واضحًا وكل ستة منها جعلت كلمة واحدة ولا اظن ابدًا ان هذا الوضع نتيجة الصدفة بل لا بد ان الكاتب اقتفى فيهِ قاعدة ما فلا بد ان تكون العبارة كتبت اولاً كتابة صحيحة ثم انقلب وضعها بطريقة مجهولة وهي الطريقة التي يجب علينا ان نبحث عنها فمن وقف على مفتاح هذا المعمى قرأ هذه الكتابة وفهم مضمونها ولكن من لي بهذا المفتاح عسى ان تكون وجدتهُ يا آكسيل

اما انا فلم اجبه على سوآله وذلك لان نظري كان قد وقع على رسم لابنة عمي غريبة معلق على الحائط فحال النظر اليهِ والفكر في صاحبتهِ بيني وبين الاجابة وكانت يومئذٍ عند احدى اقاربها في ألتونا وهي قرية بجانب المدينة وكنت حزينًا لفراقها كئيبًا لبعادها لاني كنت كثير الشغف بها والميل اليها

ملأ القلب حبها وهواها ... يعلم الله صار اكبر همي
ونسيت الوجود طرًّا فلا غر ... وَ اذا ما نسيت اقوال عمي

وكنت قد خطبتها بدون علم عمي لانهُ لم يكن يدرك عواطف المحبة وعوامل الغرام اذ ان كلفه بالعلوم قد اشغل فؤادهُ وعقله عما سواها



وكانت غريبة صبوحة الوجه وضاحة الجبين (صفحة ١٦)

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

وكانت غريبة صبوحة الوجه وضاحة الجبين شقراء الشعر زرقاء العينين بارزة النهد مائلة الى الجد والرصانة بعيدة عن الهزل والطيش وهي مع ذلك شديدة الولع بي فلما وقع نظري على رسمها خفق فوادي لذكراها ونسيت عمي ورقعته وسكنوسبم ورقاعته وغصت في بحار الافكار فذكرت ايام قرب حبيبتي والاوقات التي كانت تساعدني فيها في تنظيف مجموعة العم وكانت مائلةً الى علم المعادن راغبة في اتقانهِ فكم من ساعةٍ صرفناها معاً نبحث في ادق المسائل الجيولوجية وكم من مرة حسدت الشذور والركزان التي كانت تقلبها يداها اللطيفتان

وهل في عالم الانسان احلى من العلم المعزز بالجمالِ
لصاحبه على الارواح بطش فاما بالخلال او الدلال

ثم ذكرت اوقات النزهة اليومية اذ كنا نسير سويةً حيث لا عذول ولا رقيب نجوس خلال الرياض ونحن نتجاذب اطراف الحديث واعطاف الكلام ونتراوح الروايات الادبية والابحاث العلمية حتى اذا بلغنا شاطئ البحيرة انثنينا على ضفة نهر الألب فنقف هناك برهة نراقب البجع يغتسل في مياههِ ثم نعود الى المنزل على قارب بخاري

وبينما كنت اتذكر ذلك واتلهف على تلك الايام الماضية ايام السرور والهناء ضرب عمي المكتب بيده ضربة قوية فانتبهت من غفلتي مجفلاً اجفال الظبي المذعور وغاب خيال ابنة عمي عن عيني ورأيت شخص الاستاذ منتصباً امامي كأنهُ مارد من مردة الجن فكنت كمن سقط من جنة النعيم الى قاع الجحيم

وكان عمي اذ ذاك يكلم نفسه قائلاً اذا اراد احد ان يحل ترتيب احرف جملةٍ ما فارى ان اول فكرٍ يطرأ عليه هو ان يضعها على خط عمودي بدلاً من ان يضعها على خط افقي

فقلت في ذلك نظر

ثم خاطبني قائلاً سنرى نتيجة هذا الامتحان فخذ يااكسيل هذه الورقة واكتب عليها اي جملة خطرت ببالك ولكن بدلاً من ان تضع حروف الكلمات متتابعةً مرتبطةً ببعضها ضعها منفصلة على خطوطٍ عمودية ستة

فادركت قصده وفي الحال اخذت القلم وحررت بيتًا من الشعر كنت في ذلك الوقت اردده بفكري ووضعت حروفه بحسب اشارتهِ على الاسلوب الآتي

ب م ي و م ا
ا ي ب ا ي ك
ب ي ة ن ف ف

ي ا ف ا و د

و غ ا و ق ا

ا ر ك ع ذ ك

ولما فرغت من الكتابة عرضت الرقعة على الاستاذ فالقى نظره عليها بدون ان يقرأها وقال احسنت فضم الان حروف كل خطٍ افقي الى بعضها بحيث يصير كل خط كلمة واحدة

ففعلت كما اشار وقرأت الالفاظ الاتية

بيوما ايايك بيتنفف يافاود وغاوقا اركعذك

ولم اتم القرآة حتى اختطف عمي الورقة من يدي قائلاً نعم نعم هذه الالفاظ اشبه شيءٍ بكلمات الرقعة السرية ولعل سهمي اصاب الغرض

ثم نظر اليَّ وقال اني لم اقرأ الجملة التي كتبتها فاذا اردت ذلك فليس لي الا ان آخذ الحرف الاول من كل كلمة ثم الثاني فالثالث وهلمَّ جرًّا فانال المقصود

ثم فعل كما قال وقرأ البيت الاتي ولوائح الدهشة والتعجب ظاهرة على وجهه

بابي وامي يا غريبة فاكِ وانا وعمي فوق ذاك فداكِ

واما انا فكنت اشد منهُ حيرةً ودهشةً لاني كتبت ذلك البيت بدون انتباه ففضحت نفسي واطلعت عمي على سري وما زاد في الطين بلة هو اني جعلتهُ فدىً لغريبة فلعنت قريحتي ووقفت موقف الخجل المذنب انتظر من عمي اشد التبكيت وامر التعنيف

واما هو فبعد ان قرأ البيت نظر اليَّ نظرة المعلم الصارم وقال بصوت المتوعد تحب غريبة وانا وانت وابوك وامك فدىً لها

فاردت المجاوبة ولكن ارتج عليَّ وارتبكت الى ركبتي فقلت لا ثم قلت نعم ثم قلت لا واما عمي فبقي يردد قولهُ تحب غريبة وتفديها بي ولكنهُ كان يقول ذلك

بدون انتباه وافكاره مشتغلة بحل كتابة الرقعة فحمدت الله الذي حوّل غضبه عني واثنيت على كاتب الرقعة التي شغلته ونسيت اني لولا تلك الرقعة لما فرط مني ما فرط وكان عمي لا يزال يردد تلك الكلمات ثم نظر اليّ وقال

ان صح ذلك فلنستعمل هذه الطريقة لحل الرقعة السرية

فقلت في نفسي ان كان حل الرقعة موقوفًا على صحة محبتي لغريبة فبشر الاستاذ بفوز قريب

ثم اخذ يسرد عليّ حروف الرقعة السرية بحسب الطريقة التي وضعناها فانعكست حروفها بالكيفية الاتية

م ي س و ن ك
س ن ر ا ا ن
ا ا ه ت ك ل
س ق ي ر ط ض
ر ا ل ا ب ل
ق ي ل ا و ي
ن و ي ر ه ش
ر خ ا و ا ي
ف س ي ر ت ر
ك س ا ا ه ل
ل ظ ي ي ث ل
ا ل ف ي ن س
ا ن ا ك ر ب
ه ه و ف ن م

وفي اثناء ذلك كان الاستاذ يضطرب اضطرابًا هائلاً كالمقامر اذا راهن على جميع مالهِ دفعةً واحدة وازفت دقيقة فصل الخطاب وكانت عيناه تلمعان ويداه ترتجفان وكنت انا مشاركًا لهُ بعض المشاركة في حاساتهِ وانفعالاتهِ ولما اخذ الورقة من يدي حبست نفسي واعرتهُ اذنًا صاغية منتظرًا منهُ كشف القناع عن سر تلك الرقعة

اما هو فبعد ان تأمل الكتابة برهة قال ميسونك سنرا آن آ آ . . . ما معنى هذه الالفاظ ثم اخذته الحدة وضرب المكتب بيده ضربةً هائلة فسقط القلم من يدي واندفق الحبر من الدواة وبعد ذلك اندفع الاستاذ من الباب كحجر المنجنيق وخرج من البيت وهو يرغي ويزبد كالفنيق فسكن جاشي لانصرافهِ وانفكت قيود اسري

وكانت مرتا قد سمعت قلقلة المفتاح في القفل فاسرعت نحوي وقالت أخرج عمك

فقلت نعم

قالت ولكنهُ لم ياكل بعد

قلت لن ياكل ابدًا

ففزعت من ذلك وقالت كيف هـذا

فقلت لها اعلمي يا عزيزتي مرتا ان عمي قد حرم الاكل على نفسه وعلى كل اهل بيتهِ حتى يتوصل الى حل معمى هو اعقد من ذنب الضب

فجزعت مرتا لذلك الخبر واصفر وجهها وارتعدت فرائصها وبعد ان اطرقت برهةً قالت قضي علينا اذن بالموت جوعًا

وكنت اخاف فعلاً ان يكون ذلك ما قدر علينا نظرًا لما اعهده في عمي من العناد ولما رأيته في الرقعة من الاشكال واما مرتا فانصرفت الى المطبخ وهي في حالة يأس بين



واما مرتا فانصرفت الى المطبخ وهي في حالة يأس بيّن (صفحة ٣٠)

الفصل الخامس

بعد انصراف عمي خطر ببالي ان اتوجه الى قرية التونا حيث كانت غريبة
اقص عليها الامر وكنت اعلم بانها لا تستطيع ان تحوله عن عزمهِ ولكن
شكوى المصاب تخفف الم العذاب

يسرّى عن الانسان ان بث حزنه   ويرتاح للشكوى لمن يتعشق

غير اني خشيت من ان يعود الى البيت في اثناء غيبتي لامتحان طريقة اخرى فلا
يجدني وخوفًا من العاقبة بقيت في مكاني ثم تذكرت ان صديقًا لعمي من علماء
الجيولوجيا كان قد اهدانا في امس ذلك اليوم بعض قطع سليكية وهي حجارة تبلور قلبها

فاخذت اشتغل بفرزها ووضعتها في المحلات المعدة لها ولما فرغت من ذلك اتكأت على كرسي عمي واخذت ادخن ورأسي ملقىً على ظهر الكرسي وعيناي تراقبان صعود الدخان وكنت اتأمل صورة الحوارية المنقوشة على الحجر التي بعد ان كانت تحاكي الثلج بناصع بياضها اصبحت زنجية حالكة السواد بسبب فعل الدخان المستمر وكان لم يزل فكري مشتغلاً بامر الرقعة السرية وما نجم عنها فقلت يا ترى هل من عامل من العوامل الطبيعية قادر على تبديل حدة عمي بالاعتدال وشدته باللين كما تبدل بياض تلك الصورة بالسواد. وضعت ذلك السؤال ولم استطع عليه جواباً ومهما يكن من ذلك فاني كنت معتقداً كل الاعتقاد ولا اظنني مخطئاً ان عمي كان في تلك الساعة تائهاً في برية المدينة يقرع الشجر بعصاه ويدوس الزهور برجليه وهو يقاتل خياله ويكافح سرباله وما كنت ادري ايرجع فائزاً منصوراً ام يعود كئيباً آيساً من حل تلك الكتابة التي كادت تسلب عقله ثم اخذت بيدي الورقة التي حررتها بخطي وكنت بعد ان سمعت ما اقام عمي من الادلة ايقنت ان تلك الحروف لم توضع عبثاً ولا كان اختلال تركيبها جزافاً فقلت في نفسي اذا تقرر ذلك فلا بد ان يكون لهذه الكتابة شأن ولربما تحتوي على اكتشاف عظيم لان نفس تعقيدها بالكيفية التي هي عليها هو دليل كافٍ على ذلك والا لما كان يحرص محررها على ما حوته فلا شك ان تعقيدها كان بقصد حفظها وصيانتها من ايدي العامة ثم حاولت ان اركب من تلك الحروف كلمات مفيدة فلم يتيسر لي ذلك وبعد ان اشتغلت بها ساعةً اعياني التعب وكلت عيناي فرفعت نظري عن الورقة الا اني بقيت ارى الاربعة وثمانين حرفاً تحوم حولي كانها شهب نارية او خطوط فوسفورية وكان قد كلل وجهي العرق فصرت اتروح بالورقة بحيث كان يقع نظري تارةً على وجهها وتارةً على ظهرها وبينما كان ظهرها متجهاً نحوي والكتابة تتلألأ عليها منقلبة وقع نظري على السطرين الاخيرين منها فقرأت (من فوهة بركان) فوقفت يدي عن الحركة واضطربت جميع اعضائي

واحدة لاني في تلك اللحظة ادركت سر ذاك المعنى وعرفت ان العبارة كتبت حروفها اولاً على خطوط عمودية ستة يحتوي كل منها على اربعة عشر حرفاً ثم ضمت حروف كل خط افقي الى بعضها بحيث صارت كلمة واحدة ثم وضعها كاتبها على الرقعة منعكسة مبتدئاً من آخرها ومنتهياً باولها رغبةً في زيادة الاشكال فتحقق لي ان عمي محق في حكمه على لغة الكتابة بانها عربية مصيب في اختيار القاعدة التي استعملت لتغيير ترتيب الحروف بحيث صارت الكلمات مبهمة معقدة كما رأيناها وفي ذينك الامرين كانت الصعوبة الحقيقية وما كان باقياً بينهُ وبين الفوز الا شيء يسير جداً فذلك الشيء اليسير الذي فات عمي ادركتهُ انا بمجرد الصدفة

ولربما كدح الحكيم لفكرةٍ وسواه ادركها باول نظرةٍ

ففي تلك الساعة كنت مضطرباً اضطراباً زائداً وقلبي يخفق خفقاناً شديداً شأن من فاجأه الظفر وابتدرتهُ الامنية فانبهر ولم يكن لي الا ان اقرأ الكتابة بالقلب مبتدئاً من آخرها لكي اقف على السر الذي تضمنتهُ ولكني تركت الرقعة على المكتب وذهبت الى احدى نوافذ المخدع وتنسمت الهواء البارد برهةً حتى سكن روعي وهدأ اضطراب اعصابي ثم رجعت الى محلي واتكأت على المكتب فوق الرقعة وتلوتها منعكسة بدون ان اتوقف فيها البتة فجاءت عبارة عربية فصيحة صريحة وهذا نصها

(من فوهة بركان اسنيفل التي يظللها اسكرتريس في اواخر شهر يونيو الى قلب الارض طريقة سلكتها انا ارن سكنوسيم)

ولم اتم قرآة العبارة حتى اخذتني الرعشة ثم لبثت برهة لا ابدي حراكاً كمن غاب رشده وبعد ذلك انتبهت كمن يستيقظ من حلم وظننت ان ما نظرتهُ هو مجرد رؤيا فقرأت الكتابة ثانية وثالثة حتى لم يبقَ عندي ريب في الامر فاخذني العجب الشديد من جسارة ذلك الرجل ثم داخلني الريب في صدق الرواية لانى

لم اكن اتصور امكان حصول ذلك الامر الغريب ثم تذكرت عمي فوثبت من على الكرسي خائفًا مرتعدًا لاني قلت في نفسي ان عرف هذا الامر فلا بد من ان يقتفي اثر سكنوسيم فانهُ ليس دون المذكور جنونًا وهو مائل بالطبع الى الاكتشافات متهالك على مشاهدة المستغربات وكم يتحفى باستكشاف صغير فكيف بامر مثل هذا خطير فليس من سبيل الى تحويله عن عزمهِ بل لا بد لهُ من ان يأخذني بصحبته وليس بعد تلك الرحلة من رجوع وفي نفس ذلك الوقت افتكرت في غريبة والعذاب الذي اقاسيه اذا فارقتها فاخذت على نفسي اخفاء الامر عن عمي وقلت أن ابقيت هذه الرقعة فلربما توصل ولو بعد مدة الى حلها كما توصلت انا الى ذلك بطريق الصدفة وفي ذاك الوقت كنت ارى حلها سهلاً جدًا كما يحصل لكل احد بعد اطلاعه على حل معمى او لغز ولذلك عزمت على احراق الرقعة التي حررتها بيدي ورقعة سكنوسيم ايضًا فاخذتهما بيدي وتقدمت نحو الموقدة واذا بالباب قد فتح فرأيت عمي داخلاً مسرعًا فارجعت الرقعتين الى محلها على عجل وسلمت الامر لله

اما الاستاذ فدخل صامتًا وجلس على كرسيه امام المكتب وهو غائص في بحار الافكار ثم اخذ القلم بيده وشرع يحرر ارقامًا حسابية ومعادلات جبرية ويداه في ارتعاش فاخذت اراقب عمله وحركاته خائفًا من ان تؤدي تلك الطريقة الجديدة الى الغاية المقصودة على ان خوفي كان في غير محلهِ اذ ان الطريقة الوحيدة التي تؤدي الى المطلوب هي التي توصلت بها الى قرآة الجملة فكل طريقة سواها فاسدة بالطبع

فبقي عمي نحوًا من ثلاث ساعات يكتب ويشطب ويثبت ويمحو ويجرب طريقةً ثم يعدل عنها ويذهب الى رأي ثم يلوي عنهُ فكلما عرض لهُ فكر سار معهُ كالسائر المتخبط وكنت اعلم جيدًا انهُ اذا قلب وضع احرف الرقعة بكل الكيفيات الممكنة يتوصل الى تركيب الجملة على صحتها ولكني كنت اعلم ايضًا ان عشرين حرفًا فقط تركب على ٢٤٣٢٩٠٢٠٠٨١٧٦٦٤٠٠٠٠ وجه فكيف باربعة وثمانين فلا ريب ان عدد الوجوه التي تركب عليها يكاد لا ينطق بهِ لسان الانسان ولذلك

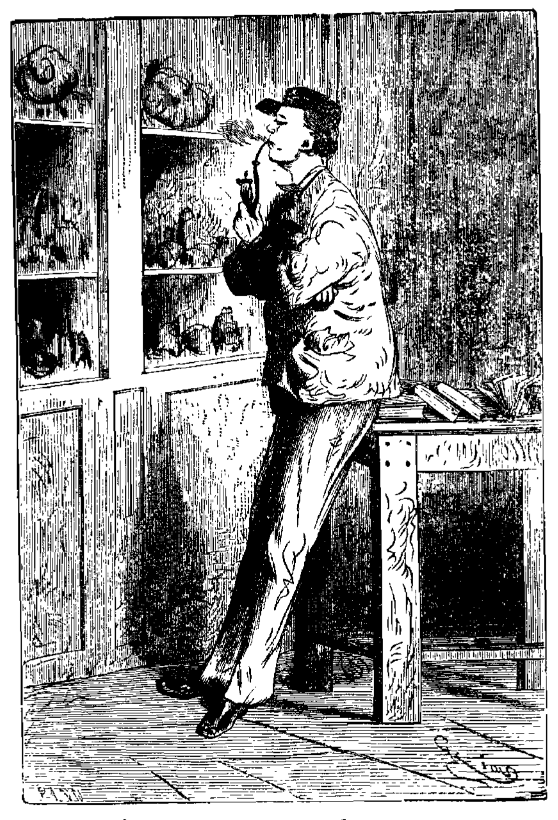
كنت مطمئناً من ذاك القبيل فجلست على كرسي بازاء عمي وتركتهُ يخبط في ارقامه خبط عشواء

وكانت قد غربت الشمس ففتحت مرتا الباب وقالت هل سيدي عازم على تناول الطعام الليلة

فلم يسمعها الاستاذ لانهُ كان غائصاً في بحار الافكار فقفلت راجعة من حيث اتت واما انا فبعد ان بقيت ساعةً تأخذني الافكار وتجيء بي غلب عليَّ النعاس فنمت على الكرسي حتى الصباح اذ اقرسني البرد فاستيقظت وكان عمي لم يزل الى تلك الساعة مكبًا على عملهِ عاكفًا على شغله وعلى وجهه شحوب وفي عينيه احمرار فعلمت انهُ قاسى اشد العناء وهو يحاول المستحيل وكان من وقت رجوعه اخر مرة الى البيت لم يعاوده الغضب فقط بل لم يفه ببنت شفة فاخذتني الشفقة عليهِ وخشيت من ان يطرأ عليهِ عرض فجاةٍ بسبب استمرار تنبيه افكاره وانحصار الانفعالات النفسانية في فواده وكان في امكاني ان انشله من الضيق الذي كان فيهِ بكلمة واحدة ولكنني لم افعل ولم يكن سكوتي عن قساوة مني فاني لما شاهدت عمي في تلك الحالة كاد قلبي يتفطر ولكن الحالة قضت عليَّ بالتزام السكوت لمصلحة عمي نفسه لاني كنت معتقداً كل الاعتقاد انهُ لو اطلع على ذلك لما تأخر عن اقتفاء اثر سكنوسيم ولو كان دون ذلك اهوال ولهذا كنت مصمماً على اخفاء ذلك السر الذي اطلعتني عليه الصدفة وقلت ان اطلع عليه عمي من تلقاء نفسه فليفعل ما يشاء واما انا فلا اريد ان اكون سبباً في هلاكه وبناءً على ذلك اقمت في مكاني منتظراً الفرج من الله

وفي تلك الساعة ارادت الخادمة مرتا ان تتوجه الى السوق لاجل شراء بعض المأكول فوجدت الباب مقفلاً والمفتاح منزوعًا منه واظن ان عمي فعل ذلك حين رجوعه الى البيت في اخر مرة على اني لم اعلم هل فعل ذلك عمدًا او على غير انتباه فقلت في نفسي ان كان في عزمهِ ان يحرم الاكل علينا فعلاً فذلك

عين الجور ومنتهى الظلم لانهُ اي يدٍ لي ولمرتا في السبب الذي حمل سكنوسيم على
على وضع سره في صورة ذاك المعمى واي ذنبٍ لنا ان عجز عمي عن حله وكيف
يحق لهُ ان يجازينا بذنب غيرنا ان كان في المسألة ذنب ثم تذكرت انهُ سبق لعمي
ان ابقانا مرة بدون اكل مدى ثماني واربعين ساعة وذلك من بضع سنوات حينما كان
يشتغل في ترتيب مجموعتهِ المعدنية وتذكرت ايضاً ان ذلك الصوم العلمي
سبب لي آلاماً شديدة في المعدة ولما لم يكن في اليد حيلة لم ارَ اولى من الاعتصام
بالصبر الجميل ووطدت العزم على كتمان سري مهما بلغ مني الجوع وكنت في ضيق
من حبسي في المنزل وعدم استطاعتي الخروج اشد من ضيقي من الجوع وذلك
لاسباب لا تخفى على فطنة القارئ اما مرتا فكانت في بأس شديد لا ترى من الموت
مناصاً واما عمي فكان غائصاً في بحار التامل ولذلك لم يشعر بشيءٍ من الاحتياجات
الطبيعية وعند الظهر اشتد بي الجوع وكنت لهوماً من طبعي الا اني سكت على مضض
وكانت مرتا قد اكلت في عشية اليوم السابق كل بقايا الطعام حتى لم يبقَ
للجرذان ما تسد به الرمق وعند الساعة الثانية بعد الظهر اشتد جوعي حتى كدت
اسقط على الارض مغشياً عليَّ وصرت ارى الاشياء على غير الوانها وحينئذٍ قلت
في نفسي ان الاهمية التي رأيتها للرقعة هي وهمية او بالاقل ليست في الدرجة التي
توهمتها وان عمي لا يصدق بحصول تلك الرحلة بل يعتبر المسألة من قبيل الكذب
والاختلاق وعلى فرض انهُ اعتقد بصحة الرواية فلا يصعب توقيفه عن السفر ولو
بالرغم عنهُ هذا اذا اراد السفر وانهُ من الممكن مع ذلك ان يقف على مفتاح المعمى
من تلقاء نفسه فاكون قد تحملت عذاب الصوم على غير فائدة على ان الهلاك كان
ميقوناً لو دام الامر على هذا الحال يوماً ثانياً وهو في السفر مظنون فقط فقلت
موت مظنون خير من موت ميقون ولو فرضنا تساوي الدرجتين فاولى من هلاك
معجل هلاك مؤجل فهذه الملحوظات لو عرضت لي في اليوم السابق لما اكترثت
بها ولكن للجوع تأثيراً على الافكار فرأيتها في تلك الساعة حرية بالاعتبار بل لمت



وبناء على ذلك اقمت في مكاني منتظرًا الفرج من الله (صفحة ٣٥)

نفسي على سكوتي لحد ذاك الوقت

وبناءً على ذلك اعتمدت ان اطلع عمي على السر الذي شغل افكاره وبينما كنت افتكر في كيفية القاء الامر عليهِ قام عن كرسيه واخذ قبعته بيده واستعد للخروج فاضطربت وجلاً وقلت ان خرج وتركنا محبوسين فسنقاسي امر العذاب لاسيما اذا طالت غيبته فلم يخطُ خطوةً نحو الباب حتى ناديتهُ قائلاً يا عماه فلم يسمعني فكررت عليه النداء قائلاً بصوت عالٍ يا عماه ليد نبروك

فالتفت نحوي كمن استيقظ من غفلةٍ وقال مالك

قلت هل وجدت المفتاح

قال اي مفتاح تعني أمفتاح الباب

قلت بل مفتاح المعمى

فنظر اليَّ بتامل ورأيت عينيه شاخصتين اليّ من وراء نظارته ولعلهُ نظر على وجهي علامةً مرت فانعطف نحوي بسرعةٍ واخذ ذراعي بيده ونظر اليّ وهو غير قادر على الكلام الا ان نظرته كانت سوالاً غاية في الفصاحة

فجاوبته محركًا رأسي من اعلى الى اسفل

اما هو فاشار برأسه اشارة تدل على عدم اعتقاده بصدق قولي ونظر اليَّ كمن داخله الريب في سلامة عقلي اني كررت اشارتي للتاكيد فلمعت عيناه ومد يده نحوي كانه يتهددني ولولا اهمية الامر الذي كنا في صدده لضحكت من تلك المحاورة الخرساء وكنت اردت المطاولة في المسألة خوفًا من ان يؤثر الفرح الشديد بعي تأثيرًا وخيم العاقبة او ان يحملهُ السرور على معانقتي فيضمني الى صدرهِ بعنفه المعتاد فتذهب روحي شهيدة فرحه ولكني اضطررت اخيرًا الى الافصاح فقلت لهُ نعم مفتاح المعمى وجدتهُ بالصدفة فاضطرب وقال احق ما تقول

فقدمت لهُ الورقة التي كنت حررتها بخطي وقلت لهُ خذ واقرأ

فاخذ الورقة وجعدها باصابعه قائلاً واي معنى لهذه الكتابة لا معنى لها البتة

قلت لا معنى لها ان قرأتها كما هي ولكن اقرأها بالقلب مبتدئًا من آخرها

فما اتممت كلامي حتى صرخ صرخة دونها زئير الضراغم وكان في تلك اللحظة قد ادرك سر المسألة ثم قرأ الكتابة على صحتها بصوت مرتعش ولم يفرغ منها حتى وثب من مكانه كمن لمس سلكًا كهربائيًا واخذته خفة الطرب فصار يذهب ذات اليمين ويعود ذات الشمال وهو يهمهم ويجمجم وينقل الكراسي من محلاتها ويجمع كتبه التي كانت على المكتب ثم يفرقها وكان يضرب باحدى يديه الحائط وبالاخرى الطاولة وبعد ساعة سكن هيجانه وهدأ اضطرابه فاستلقى على كرسيه

وقد اعياه التعب ثم نظر اليّ وقال في اي ساعةٍ نحن من النهار

قلت في الساعة الثالثة

قال فما بالي اذن اجوع من ذؤالة قم بنا نتناول الطعام وبعد ذلك ننظر في تحضير معدات السفر

قلت أأنت مسافر

قال نعم وانت ايضاً

قال ذلك ودخل قاعة المائدة فاخذني القلق وقلت هذا ما كنت اخشاه وكنت اعلم ان عمي لا يعدل عن السفر الا اذا اقنعتهُ البراهين العلمية بعدم امكان تلك الرحلة فاخذت انظر في تلك البراهين فرأيتها قاطعةً فاطمأن بالي نوعاً

الفصل السادس

لما دخل عمي قاعة المائدة لم يرَ طعاماً على الخوان فاخذ يشتم ويلعن فافهمته ان السبب في ذلك هو تحريمه الاكل علينا منذ صباح اليوم الفائت وكان قد برح عن فكره هذا الامر فقبل العذر خلافاً لعادتهِ وسمح لمرتا بالتوجه الى السوق لشراء بعض المآكل والمشرب وبعد ذلك بساعةٍ جلسنا نتناول الطعام وكانت لوائح الطرب والسرور ظاهرة على وجهه بادية في حركاته وكان يمزح ويضحك ولما فرغنا من الاكل اومأ اليّ ان اتبعني ودخل مكتبه فتبعته ولما استقر بنا المقام نظر اليّ وقال بصوت لطيف انت نبيه جداً يا اكسيل وقد صنعت معي جميلاً لا انساه بارشادي الى طريقة حل المعمى بعد ان اعياني التعب وعزمت على ان اضرب عنهُ صفحاً فتأكد يا بني ان لك حقاً في جانب عظيم من الفخر الذي سيعود علينا

فقلت في نفسي ان الاستاذ الآن في حالة صفاء ويمكنني معارضته في امر الرحلة واقامة الادلة على عدم امكانها ·

ثم اردف كلامه قائلاً اني اوصيك يا آكسيل بكتمان السر فان لي حساداً واعداء كثيرين بين العلماء وان علموا بالامر سبقونا الى السفر فيجب ان لا يدري احد بامرنا الا بعد عودتنا

فقلت وهل تظن يا عماه انهُ يوجد كثيرون من الذين يقدمون على مثل هذه الرحلة

فقال من ذا الذي لا يخاطر بنفسه لاكتساب الفخر والشهرة فوالله لو عرف العلماء بوجود هذه الرقعة ومضمونها لتهافتوا على اثر سكنوسيم تهافت الفراش على السراج

قلت فيصيبهم ما يصيب الفراش

قال ماذا تعني بذلك

قلت هل تسمح لي بان ابدي كل ما لديَّ من الاعتراضات على صحة مضمون هذه الرقعة

قال لك ذلك فانك لم تعد عندي بمنزلة التلميذ بل بمنزلة المثيل

قلت اخبرني اولاً ما هو جبل اسنيفل

قال ائتني بالخارطة التي اهدانيها صديقي اوغسطس باترمان

فاتيتهُ بما طلب فقال هذه الخارطة رسمها هندرسون وهي احسن خارطة عملت لايسلاندا وستجد بها ما تروم الوقوف عليهِ

فانحنيت فوقها فقال اتبعني بنظرك الى الجهة الغربية من ايسلاندا فاذا نظرت قصبتها ريكياويك اصعد خطة تلك القرى التي يتخلل البحر سواحلها وقف تحت الدرجة الخامسة والستين من العرض وقل لي ماذا ترى هنالك



فانحنيت فوقها فقال انبعني بنظرك الى الجهة الغربية من ايسلاندا (صفحة ٣٠)

قلت ارى شيئًا كشبه جزيرة تخاله عظمًا جُرِّد من اللحم يعلوه شيء كعظم لرضفة

قال صدقت في هذا التشبيه يا ولدي أَفلا تنظر شيئًا على ذلك العظم

قلت ارى جبلاً كأني به قام في البحر

قال هذا هو اسنيفل وارتفاعه خمسة الاف قدم عن سطح البحر وهو من اعظم جبال الجزيرة وإن كان من فوهته طريق الى قلب الارض فهو لاشك اشهر جبال الكرة

نقلت وكيف الولوج به ان كان هائجًا

قال اعلم ان عدد البراكين المائجة اليوم على وجه الارض يبلغ الثلاثمائة تقريبًا ولكن عدد البراكين المنطفئة اكثر منها بكثير فجبل اسنيفل هو من البراكين المنطفئة وقد مضى عليه اجيال عديدة لم يهج الامرة واحدة وذلك في سنة ١٢١٩ ومن ثمَّ اخذ يهدأ رويدًا رويدًا حتى انطفأ تمامًا

فاطرقت برهةً ثم قلت وما معنى كلمة اسكرتريس واي دخل لشهر يونيو في هذه القضية

فقال يظهر ان لاسنيفل فوهات كثيرة ولكن التي تؤدي الى قلب الارض واحدة ولما رأى سكنوسيم ذلك اراد ان يعين الفوهة المؤدية الى قلب الارض تعيينًا نافيًا للاشتباه والغلط فرأى ان اسكرتريس وهو راس من رؤوس اسنيفل يظلل الفوهة المقصودة في الايام الاخيرة من شهر يونيو فذكر ذلك في رقعته فاذا سافرنا الى تلك الجزيرة صعدنا الجبل ونزلنا في الفوهة الموصلة الى قلب الارض بدون تردد فان اسكرتريس هناك يرشدنا اليها

فعجبت من ذكاء عمي وفطنته وقلت في نفسي لم يبقَ لي الا الاعتراضات العلمية فان كانت كافية لتحويل عزمه عن السفر كان به واما ان دحضها فلا مناص من السفر لعنة الله عليكِ يا سكنوسيم ولا وقيتَ من الشر يا هيفيلوس اليهودي

ثم نظرت الى عمي وقلت انهُ سلمت ان الرقعة هي بخط سكنوسيم وبانهُ توجَّه فعلاً الى جبل اسنيفل ونظر قمة اسكرتريس مظللة تلك الفوهة في الايام الاخيرة من شهر يونيو ولكني لا اصدق ابدًا انهُ توصل من تلك الفوهة الى قلب الارض حتى ولا انهُ حاول الامر بل اظن انهُ سمع من شيوخ بلده ان تلك الفوهة تؤدي الى قلب الارض فذكر الامر في رقعة مدعيًا انهُ سافر تلك السفرة المستحيلة

فقال الاستاذ ولماذا هي مستحيلة

قلت لان القواعد العلمية تنفي امكان حصولها

قال بالله اصحيح ذلك فلعن الله هذه القواعد التي اذهبت تعبنا سدى ومنعتنا من اتمام مشروعنا

فعلمت ان الاستاذ يتهكم عليَّ غير اني صممت على تثبيت قدمي في مقام الجدل فقلت انهُ لمحقق ان حرارة الارض تزداد درجة تحت كل سبعين قدماً من العمق وبما ان نصف قطر الارض يبلغ نحوًا من عشرين مليون قدم فالحرارة في قلبها اكثر من مائتين وثمانين الف درجة وعلى ذلك فكل المواد التي فيهِ لا بد ان تكون غازًا ملتهبًا اذ لا معدن ولا صخر قادر على احتمال حرارة هذه شدتها فقل لي بالله هل تشوق نفسك الى الاقامة في ذاك العالم

فقال يظهر لي من كلامك يا اكسيل ان الحرارة هي الشاغلة لافكارك

فقلت نعم لاننا اذا نزلنا الى عمق خمسة فراسخ فقط نصل الى حدود القشرة الارضية حيث تبلغ الحرارة نحوًا من الف وثلاثمائة درجة

قال وانت خائف من الذوبان

قلت ان كنت تزعم ان جدي سمندل فخوفي في غير محله

فاجابني الاستاذ بجد قائلاً اما رأيي يا بني فهو ان ما من احد يعلم بالتحقيق على اي حالة قلب الكرة الارضية وذلك لان العلماء لم يتوصلوا بعد الاتعاب الكلية والجد المتوالي الا الى معرفة قسم من سمكها نسبته الى نصف قطرها نسبة ١٢ الى ١٠٠٠ فالعلم لم يزل في مهد الطفولية وكلما وضعت قاعدة جاءت قاعدة اخرى فدحضتها وقد كان يظن العلماء لحين ظهور فوريه ان الفضاء الاثيري تزداد برودته كلما ازداد بعدًا واما اليوم فقد علموا ان اشد برد الطبقات الاثيرية لا يبلغ اكثر من اربعين او خمسين درجة تحت الصفر فان كان للبرودة في الطبقات الاثيرية حد لا تتعداه فلماذا لا يكون لحرارة الارض الداخلية حد تقف عنده بدلاً من ان تستمر على الازدياد حتى تذيب المعادن والمواد الاصعب ذوبانًا وقد قال بعض العلماء المشاهير ومن جملتهم بواسون انهُ لو كان في قلب

الارض حرارة تبلغ مائتي الف درجة لتمددت الغازات الناشئة عن المواد الذائبة تمددًا قويًا حتى تنفرقع قشرة الكرة الارضية كما تنفرقع حيطان الخلقين البخارية بقوة البخر

قلت، انما ذلك رأي بواسون

قال ورأي كثيرين غيره من علماء الجيولوجيا الذين يحكمون بان قلب الارض غير مكون من غازات او من مياه اذ لو كان الامر كذلك لاقتضى ان يكون ثقل الارض اقل مما هو عليه مرتين

قلت يمكنك بالارقام ان تثبت كل ما اردت فاسدًا كان ام صحيحًا ولكن عند العمل يتميز المرعيّ من الهمل

قال مالنا وللارقام فهل تنكر ان عدد البراكين المائجة قد قل كثيرًا عما كان في العصر الاولى لعالمنا اوَ ليس في ذلك برهان على ان حرارة الارض الداخلية ان كان هنالك حرارة آخذة في التناقص

قلت ان اردت الجولان يا عماه في ميدان الاحتمالات فلا تنتظر مني جوابًا

قال وانا اخبرك بان مشاهير العلماء قد وافقوا على افكاري وارتأوا رأيي ألست تذكر ان الكيمياوي الانكليزي الشهير همفري ديفي زارني في سنة ١٨٢٥

قلت لا لاني ما ولدت الا بعد تلك الزيارة بتسع عشرة سنة

قال اعلم اذن ان همفري ديفي حين مروره بهمبرج في تلك السنة زارني مرة وتباحثنا في امور عديدة وبالجملة بحثنا في مذهب القائلين بسيلان قلب الارض فكنا كلانا متفقين على ان ذلك المذهب فاسد لسبب لا يقبل المدافعة ولا يمكن معهُ منازعة

فتعجبت بعض العجب وقلت ما هو ذلك السبب

قال هو انهُ لو كان قلب الارض سائلاً لكانت تلك المواد السائلة عرضة تأثير جاذبية القمر فيها كالاوقيانوس ولترتب على ذلك حصول مدٍ وجزرٍ

داخليين يرفعان قشرة الكرة الارضية مرتين في اليوم فيحدثان فيها زلازل دورية

قلت نعم ولكن من المعلوم ان سطح الارض كان ملتهباً فيجوز لنا ان نفرض ان القشرة الخارجية اخذت في البرودة اولاً بينما كانت الحرارة تنحصر في الداخل

قال ذلك عين الغلط فان الكرة الارضية اتتها الحرارة باشتعال سطحها فقط وذلك ان سطح الارض كان يشتمل على كمية وافرة من المعادن التي تلتهب بمجرد ملامستها للهواء والماء كالبوتاسيوم والصوديوم فهذه المعادن اشتعلت حينما تحولت الابخرة الجوية الى ماء وسقطت على الارض مطرًا ولما تخللت المياه قشرة الكرة الارضية شيئًا فشيئًا احدثت اشتعالاً في داخلها فنشأ عنهُ تفرقع وقذف وتلك هي علة البراكين وسبب كثرتها في الادوار الاولى للارض

فاستحسنت ذلك التعليل وقلت حبذا ما قلت ان كان ذلك صحيحًا

فقال ذلك صحيح لاريب فيهِ وقد اثبتهُ همفري ديفي امامي في هذا المنزل نفسهِ بطريقة بسيطة ذلك انهُ صنع كرةً معدنية على شكل كرتنا الارضية وادخل في تركيبها قسمًا كبيرًا من المعادن التي ذكرتها فكنا اذا القينا على سطحها نقطًا صغيرة من الماء كقطر الندى ينتفخ سطحها ويتاكسد فيكوّن جبلاً صغيرًا ثم ينفتح في قمته فوهة وتأخذ في القذف فتمتد الحرارة الى كل الكرة بحيث لا يعود يستطاع امساكها باليد

وكان عمي يتكلم بعزم شديد واعتقاد اكيد فاثر فيَّ كلامه وانفعلت نفسي بخطابه ورأيت الادلة التي اقامها جديرة بالاعتبار

ثم اردف كلامه قائلاً تبين لك اذن يا اكسيل ان اراء العلماء في هذه المسألة متناقضة متباينة وليس لهم برهان قاطع يثبت رأيًا منها وابعدها عن الثبوت هو رأي القائلين بسيلان قلب الارض اما انا فاحتم بعدم وجود الحرارة الداخلية اذ لا ارى وجودها ممكنًا ومع ذلك فسنقف على حقيقة الامر ونرى قلب الارض رأي العين كما فعل ارن سكنوسيم

فطربت لهذا الكلام وخفق فؤادي كأن عمي نفث فيَّ من روحه فملت الى تلك السفرة بقدر ما كنت انفيها وكنت ارغب عنها فصرت ارغب فيها واجبت الاستاذ بحرارة قائلاً اجل لا بد من العمل وان كانت العين ترى في قلب الارض فسنرى ما هنالك

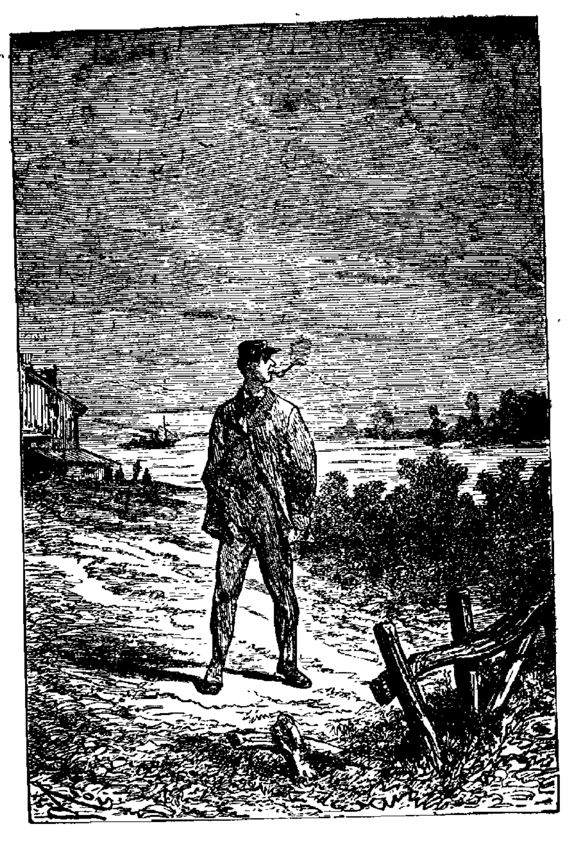
فقال ولماذا لا نرى فهل يستحيل وجود ظواهر كهربائية تنير قلب الارض وفضلاً عن ذلك فان الهواء نفسه عند قلب الارض ربما كان كافيًا للانارة بسبب شدة الضغط الذي عليه

قلت نعم نعم ذلك ممكن

قال لا تقل ذلك ممكن بل قل ذلك واجب حتمًا ولكن اياك ان تفوه بكلمة واحدة عن امر هذه الرحلة فالتزم الصمت التام لئلا يسبقنا احد الى هذا الاكتشاف

الفصل السابع

علمت ما كان من تلك المحاورة وما انتهى اليهِ امرها فلو دعاني الاستاذ الى الرحيل على اثرها لعمدت الى ذلك بنشاط وابتهاج ولكني بعد ان تركته رأيت نفسي في حاجة الى استنشاق الهواء البارد وكانت شوارع المدينة ضيقة في عينيَّ فطلبت البر الفسيح متوجهًا نحو نهر الالب وريثما هداه غليان دمي وسكن تنبيه افكاري تذكرت المحاورة التي سردناها ونظرت اليها بعين التدبر فراجعني الريب في صحة الامر ثم تذكرت الادلة التي اقامها الاستاذ فملت الى رأيه بعض الميل ثم عدلت ايضًا الى الريب وبقيت ساعة بين الشك واليقين حتى زال ما كان باقيًا لي من هيجان الافكار فتغير حكمي في المسألة تغيرًا كليًا فتراءى لي ان عمي على شطط بيّن وان عزمهُ على السفر لا يوافقهُ عليهِ الا كل مجنون ثم داخلني الريب في سلامة عقله وبعد برهة داخلني الريب في حصول المحاورة



فطلبت البر المسيح (صفحة٣٦)

نفسها فقلت كل ما سمعتهُ ورأيته كان في الحلم لا في اليقظة وفي اثناء ذلك كانت رجلاي تذهب بي على غير قصد مني على طريق ألتونا ولما رجعت الى نفسي رأيت ابنة عمي غريبة على قيد رمحين مني عائدة الي همبرج فحال ما ابصرتها ناديتها باسمها ووثبت نحوها فنظرت اليَّ باسمة وقالت مرحباً بك يا اكسيل فان كنت اتيت لاستقبالي فلك مني مزيد الشكر.

ثم نظرت على وجهي دلائل الاضطراب ولوائح الحيرة فقالت مالي اراك حائرًا مضطربًا

فاطلعتها بوجيز العبارة على وقائع المسألة واوقفتها على عزم عمي وكنت اخال انها لا توافق على رأيه غير انها بعد ان اطرقت برهة تتروى في الامر نظرت اليَّ وقالت نعم الرأي يا اكسيل ونعمت الرحلة

فوثبت من محلي عند سماعي هذه الكلمات من فم محبوبتي فاردفت كلامها قائلة نعم يا اكسيل ان هذه الرحلة جميلة وسينالك منها شرف رفيع وعز منيع واعلم انه يحسن بالمرء ان يشتهر بين الخاص والعام بامر من الامور العظام فاذا ذكرت طبقات الناس دخل في عداد الرجال والتحق بطائفة من الابطال واذا نشبت بجسمه مخالب المنون بقي اسمه في منتديات الفنون على ان المجد لا سبيل اليه الا بالمخاطره ولا مجال لادراك المنى بسوى الدأب والمثابره أنسيت قول الشاعر العربي

لا تحسب المجد تمرًا انت آكلهُ لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فاجبتها أهذا ما تقولين وقد كنت انتظر منك لو وجدتني مصممًا على السفر ان تحوليني عن عزمي

قالت معاذ الله ان احول عزمك عن مشروع عظيم نبيل الغاية ولو لم يكن بوجودي معكما تثقيل عليكما لصحبتكما في هذه الرحلة

قلت أتقولين الجد ام انت تمزحين

قالت لا اقول الا الجد

فلما رأيت تلك الفتاة تشجعني على رحلةٍ كنت منها في وجل علا وجهي احمرار الخجل وفكرت في امر النساء وعلمت ان فيهن سرًا لا يدرك فقد جمعن في طبيعتهن كل نقيض فاما ان تكون المرأة اجبن المخلوقات واما اجسرها وكانت غريبة مع ذلك تحبني محبة شديدة فقلت لها سننظر يا غريبة أتبقين على هذا الرأي ام تعدلين عنهُ في الغد

فقالت ان رأيي غدًا يا عزيزي اكسيل هو رأيي اليوم

ثم توجهنا نحو المنزل صامتين وكنت في تلك الاثناء افكر في الرحلة وما يكون من امرها ثم قلت في نفسي بيننا وبين آخر يونيو زمن طويل فعسى الايام تشفي عمي من جنونه غير ان الاستاذ كان قد صرف بقية النهار منذ فارقته بمشترى الادوات اللازمة للرحلة من حبالٍ وفؤوس ومعاول وغير ذلك فلما دخلت الدار رأيته بين جماعةٍ من العتالين مشتغلاً بوضع تلك الادوات في دهليز المنزل وهو يذهب يمينًا ثم يعود شمالاً فلا يستقر لهُ قدم والغبار قد كسا رأسه وعارضيه وعلا على اهدابه وحاجبيه وكانت مرتا حائرة مندهشة لانها لم تكن تدري لذالك التأهب من سبب

فحالما وقع نظر الاستاذ عليّ ناداني عن بعدٍ قائلاً اسرع يا اكسيل ودع عنك التواني فهل حضَّرت امتعتك وثيابك وهل تجهل ان اوراقي تحتاج الى الترتيب ابحث عن مفتاح صندوقي فاني قد اضعته وكذلك لا ادري اين وضعت نعل السفر

فاخذتني الحيرة وتقيد لساني عن الكلام ولم احر جوابًا ثم قلت بترددٍ وصوت منخفض اذن نحن على اهبة السفر

قال اي وربك لا محيص عنه ولا مناص منه وأراك بدلاً من ان تصرف هذا الوقت الثمين في الاستعداد للرحيل صرفتهُ في التنزه والتجول

قلت في اي يوم نسافر

قال بعد غدٍ صباحًا

فلما سمعت هذه الكلمات علمت ان قد قضي الامر وصعدت الي غرفتي فصرفت تلك الليلة في قلق شديد ولم يغمض لي جفن حتى الصباح اذ سمعت ابنة عمي تناديني بصوتها الرخيم فخرجت اليها فقالت لي اعلم يا عزيزي اكسيل اني تباحثت طويلاً مع عمك في شأن المسألة وقد رأيت منهُ عالمًا جسورًا فاذكر ان دمه يسري في عروقك وقد اطلعني على افكاره وامانيه والاسباب التي بني عليها آماله



فلما دخلت الدار رأيتهُ بين جماعةٍ من العتالين (صفحة ٣٩)

فلم يعد عندي شك في نجاح المشروع فما اجمل خدمة العلم وما اعظم الشرف الذي سينال الاستاذ ليدنبروك ورفيقه فاذهب اذن يا اكسيل وارجع سالمًا ليطير صيتك في الآفاق وتصبح من اقران عمك فيصير لك الحق اذ ذاك في التكلم والتصرف ويمكنك حينئذٍ ان . . . .

وهنا وقفت عن الكلام وامسكت عن الاتمام وقد احمر وجهها فكان لكلامها وقع حسن في فوادي فقلت شهد الله يا غريبة ان الموت هين في سبيل رضاكِ

ان كان في موتي رضاكِ فحبذا   قتلي وما قتل المحب حرامُ

ولكني لا طاقة لي على فراقك فامرك مطاع الا بابعد عنك واذا فرضنا ان عمي مصيب في رأيه ولم تحرقنا النار المتأججة في قلب الارض فهل اسلم من حريق النار المستعرة في فوادي واقل ما اخشى فقد البصر من فرط البكاء شوقًا اليك

اخشى على عينيَّ من فرط البكا   واخاف فقدهما ولو بهواكِ
ما الخوف من فقد العيون وانما   خوفي باني لا اعود اراكِ

فقالت مهلاً يا اكسيل ما هذه الا تصورات شعرية والشعراء اكذب من على البسيطة الم تقل لي مرة انك لو تنفست في البحر لتحول ماؤه الى بخار بسبب النار التي في قلبك ومع ذلك لم تحترق بل بقيت والحمد لله متمتعًا بالصحة التامة وقد كتبت اليَّ مرة تقول

ما كنت اعلم كيف عمَّ مقدمًا   طوفان نوح سائر الآفاقِ
فعلمت حقًا بعد نأيك انهُ   ما كان الا من بكا العشاقِ

فان كنت صادقًا في القولين فلتبرد دموعك لظى فوادك

فاطرقت محجمًا عن الجواب على انني كنت لم ازل اعلل نفسي بامل عدول عمي عن عزمه فدخلت مخدعه برفقة غريبة وقلت لهُ هل عزمت اذن كل العزم على السفر

فقال ويك يا اكسيل وهل عندك ريب في ذلك

فقلت لا ولكني لا ارى موجبًا لهذه السرعة اذ اننا في ٢٥ مايو وامامنا شهر يونيو بطوله

قال اتظن ان السفر الى ايسلاندا سهل وما تدري انهُ لا يقوم من كوبنهاغن الى ريكيافيك الا مركب واحد في كل شهر وذلك في اليوم الثاني والعشرين منه فان لم نسافر في الشهر القادم ونبلغ الجبل قبل دخول شهر لوليو فاني لنا معرفة الفوهة المقصودة

فلما لم ارَ سبيلاً الى المحاولة رجعت الى غرفتي وكانت غريبة قد تبعتني فوضعت الثياب اللازمة لسفري في صندوق صغير وكانت في اثناء ذلك تقيم الادلة المؤيدة لذهب عمي وهي مع ذلك باسمة لا يخالجها اضطراب ولا يعروها انبهار كانما نحن على اهبة سفر الى البحيرة او الى ضفة نهر الألب

واما انا فكان يأخذني الحنق احيانا على انها لم تكن تكترث بذلك ولما فرغنا من اعداد لوازمي نزلت الى صحن الدار فرأيت عمي كما في عشية الامس بين جماعة من العتالين حاملاً بعضهم اسلحة وبعضهم آلاتٍ علمية واجهز كهربائية وكانت مارتا في غاية الحيرة والاندهاش فلما نظرتني اقبلت عليَّ وقالت لي همساً هل طرأ عارض على عقل الاستاذ

فاومأت براسي ان نعم

فقالت وهل يصحبك في رحلته

فابديت اشارة الجابية

قالت الى اين

فاشرت بيدي الى قلب الارض

فقالت أ الى السرداب

قلت الى اعمق من ذلك

قالت اذن الى الجحيم

قلت امي وابيكِ

وبعد ان وضع عمي الادوات والآلات التي اشتراها في الصناديق المعدة لها دخلنا قاعة المنزل فقال لي موعدنا بالرحيل صباح غد فكن على استعداد

وكانت غريبة بجانبي فنظرت اليها متنفساً الصعداء وقلت همساً

لا مرحبا بغدٍ ولا اهلاً بهِ ان كان تفريق الاحبة في غدِ

وكان كلام الاستاذ في تلك الليلة يشف عن شدة شوقه الي الرحيل وفروغ



وريثما دخلت العربة سارت بنا الخيل خببًا على طريق النونا (صفحة ٤٤)

صبره من الانتظار فكان لسان حاله يعارضني قائلاً

قالوا اللقاء غداً بمنعرج اللوى واطول شوق المستهام الى غدِ

وعند الساعة العاشرة اضطجعت على فراشي فكان نومي متقطعاً وقضيت ليلي احلم بهوايا مخيفة فاستيقظ مذعوراً ثم انام فيأتيني طيف الاستاذ بانياب حداد واظافر كالمناجل ويتشلني بمخالبه كما ينتشل العقاب فريسته ثم يهوي بي الى هوية لا قعر لها فافيق مرعوباً وبقيت على ذلك حتى الساعة الخامسة بعد نصف الليل فخرجت من غرفتي وتوجهت الى قاعة المائدة فوجدت عمي يتناول الطعام وغريبة

بجانبه وكنت لم ازل تحت تأثير الحلم فاقشعر بدني لما رأيته ثم خالسته نظرةً شرسة وجلست بعيداً عنهُ وعن الطعام وبعد برهة سمعنا دوي عربة وقفت امام باب المنزل وكان قد طلبها عمي لنقلنا ونقل لوازمنا الى محطة السكة الحديدية فخرجنا من قاعة المائدة وفي برهة قصيرة شحن عمي العربة بامتعة السفر ثم التفت اليَّ وقال اين صندوقك

فقلت انهُ حاضر وبقيت في مكاني لا استطيع حراكاً

فدفعني بيده دفعة عنيفة وقال ائت به حالاً لئلا يفوتنا القطار

فقلت لم يبقَ الى النجاة من سبيل وعلمت ان الله قضى عليَّ بشر ميتة فصعدت الى غرفتي واحضرت صندوقي ووكلت امري الى الله وكان عمي اذ ذاك يسلم ادارة منزله لغريبة وبعد ان فوضها في امر بيته تفويضاً مطلقاً ودعها فقبلت وجهه ثم دنت اليَّ فعانقتني وقد اغرورقت عيناها بالدموع فضممتها الى صدري وقد خنقتني العبرة ثم نفرت منها تخلصاً من عذاب الوداع وريثما دخلت العربة سارت بنا الخيل خبباً على طريق ألتونا

الفصل الثامن

ألتونا قرية بضواحي مدينة همبرج وفيها المحطة الاولى من خط السكة الحديدية المعروفة بسكة كيال وكان وصولنا اليها في منتصف الساعة السابعة فنقلنا امتعتنا الى احدى العربات وعند ابتداء الساعة الثامنة سار بنا القطار قاصداً سواحل البلت من مملكة الدانمرك

يطوي الفدافد لا يرام غباره سهم الى كبد الفلاة مفوقُ

كالشمس افق الغرب ودعها ولم يمضِ الدجى حتى حواها المشرقُ

وكنت لم ازل كارهاً تلك الرحلة غير جازم بنجاحها الا ان النسيم اللطيف الذي كان يلعب بشعري وانا متكئٌ على نافذة العربة والمناظر البديعة التي

كانت تنتشر وتنطوي امام عيني الهتني عن المصيبة التي كنت فيها

واما عمي فكان غير مكترث بهذه المناظر لا يبتغي الا سرعة الوصول واظن انهُ كان يرفس العربة برجلهِ حيناً بعد حين لكي يعجل سير القطار وبعد مسير ثلاث ساعات وقف بنا القطار في محطة كيال القائمة على شاطىء البحر وفي الحال نقلنا امتعتنا الى المركب البخاري المدعو آليونورا وكان وصولنا في الساعة العاشرة صباحاً وموعد سفر المركب في الساعة العاشرة مساء

ولما علم عمي بذلك اخذه الغضب فصار يلعن الوابورات وادارتها ويذم الحكومة التي تغض النظر عن مثل ذلك الاهال فضحكت في سري من حدة عمي ومذهبه في الملاحة الا اني وافقتهُ على رأيه في الظاهر ونددت بتصرف مصلحة الوابورات التي تضيع الوقت سدًى غير مكترثة بمصالح العموم اما الاستاذ فقصد الربان وهو محتدم غيظاً واراد ان يقنعه بوجوب السفر حالاً فظنه الربان مجنوناً واعرض عنه غير مكترث بكلامه فعاد وقد ازداد غيظه وبقي حتى وقت السفر يقوم ويقعد وينظر تارة الى الشمس وطوراً الى الساعة ويلعن كل ربانٍ على العموم وربان الآليونورا على الخصوص

ولما ازفت ساعة الرحيل رفعت مرساة السفينة وكان قد اشتد ضغط بخارها فسارت تشق عباب الماء وعمي يجول على ظهرها وعيناه متجهتان نحو سواحل ايسلندا الغربية التي كنا شاخصين اليها وكان الليل حالك السواد فلم أرَ من مدينة كيال بعد ان ابتعدنا عنها ميلاً الا بعض انوار متفرقة وفي تلك الليلة شاهدت منارة ساطعة النور في اثناء مسيرنا وذلك كل ما اتذكره من تلك السفرة

وعند الساعة السادسة من الصباح رست بنا السفينة بالقرب من شاطىء مدينة كورسور وفي الحال نزلنا اليها وكان شحن السفينة قليلاً فلم يمض الا ساعة من الزمن حتى نقلت امتعتنا الى احدى عربات قطار السكة الحديدية الممتدة بين

تلك المدينة وعاصمة الدانمرك وكانت المسافة بين المدينتين ثلاث ساعات فقط وبعد ان سار بنا القطار ساعة اشرفنا على جون فصرخ عمي هوذا السوند

وكان على شمالنا بناية متسعة اشبه بمستشفى فاشار اليها احد المسافرين وقال هذا بيمارستان

فقلت في نفسي هذا هو المأوى الذي يحق بي وبعمي ان نصرف بقية ايامنا فيه ومهما كان اتساعه فهو ضيق في جانب عظم جنون الاستاذ ليدنبروك

وفي الساعة العاشرة وصلنا الى كوبنهاغن وفي الحال نقلنا الامتعة على عربة الى فندق يعرف بنزل فينيكس وبعد أن صرفنا ساعة في ترتيبها وتغيير ملابسنا خرجنا من الفندق قاصدين دار الانتيكخانة لأن مديرها كان صديقاً لقنصل همبرج وكان عمي مصحوبا بكتاب توصية له

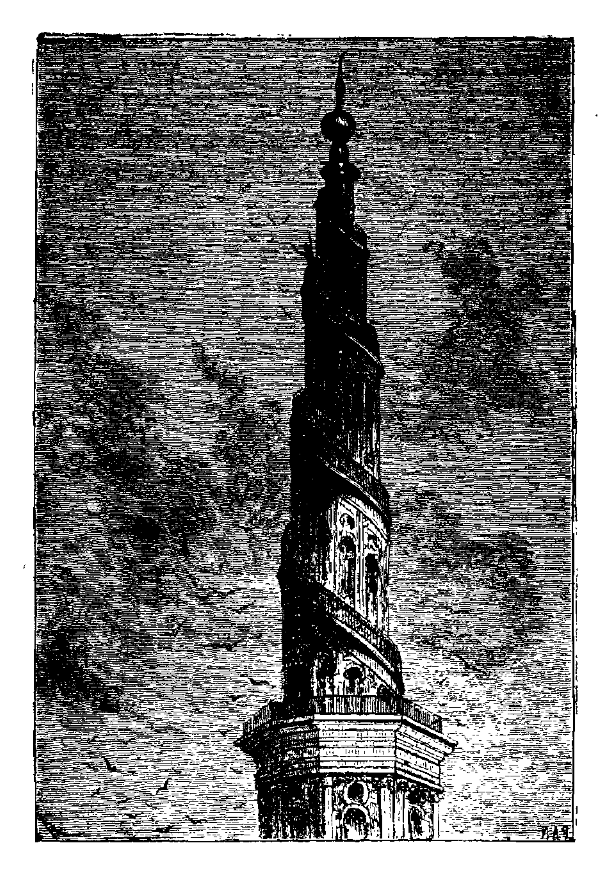
اما الانتيكخانة المومأ اليها فتعرف بالانتيكخانة الشمالية وهي شهيرة تحتوي على آثار ثمينة من الدورين الحجري والبرنزي نادرة الوجود وكان مديرها من العلماء المعتبرين وكنت اعلم ان العلماء على وجه العموم لا يحسنون استقبال بعضهم الاّ ان مدير الانتيكخانة استقبلنا بخلاف ما كنت انتظر فاخبره عمي باننا قاصدون الرحيل الى جزيرة ايسلاندا للتسوح فيها فقام في الحال معنا الى المينا على امل ان نجد مركبًا على عزم السفر الى تلك الجزيرة فقيل لنا ان سفينة شراعية دانمركية تعرف باسم فلكيريا ستقلع من كوبنهاغن شاخصة الى ريكياويك قصبة ايسلاندا في اليوم الثاني من شهر يونيو فقصدناها وقابلنا ربانها الموسيو بيجرن وبعد ان تحقق الاستاذ منه صحة الخبر اعتنقه وضمه الى صدره بطرب وسرور فتعجب الربان من ذلك لانه لم يأت امرًا يستوجب الثناء اذ ان الملاحة بين الدانمرك وايسلاندا مهنته اما عمي فكان يرى ذلك منه عظيما خارقا للعادة فلما رأى منا الربان تلك الرغبة اخذ منا اجرة اظنها ضعف الاجرة الاعتيادية ثم اخبرنا ان السفر يكون في الساعة السابعة من صباح الاثنين وبعد ذلك انصرفنا وعمي يشكر لمدير

الانتيكخانة سعيه المبرور ويثني على نشاط الربان وهمته وكان وجهه متهللا فرحًا
تبقي بحمد الصدفة التي اسعفت بحاجته حتى وصلنا الى لوكندة فرنساوية بالقرب
من نقطة عسكرية عند الساحة المعروفة بميدان كونجنس نيتورو وفي تلك النقطة
مدفعان قديمان لم يوضعا الا للزينة او للتهويل فقط لانهما معطلان فتناولنا
الطعام في تلك اللوكندة بلذة وقابلية واعترفنا بفضل طباخها المدعو فينسان
ثم اخذنا نجول في اطراف المدينة وشوارعها وكان عمي يتبعني اينما سرت وهو
غائص في بحار افكاره مشغول بها عن ابنية المدينة ومعاهدها الا انهُ بعد ساعة
وقع نظره على قبة كنيسة في جزيرة اماك القائم عليها القسم الجنوبي الغربي من
المدينة فانعم النظر فيها برهة ثم قال اتبعني وسار نحوها على عجل ولما وصلنا الى
المعدية اخذنا سفينة تجارية وفي اقل من خمس دقائق حللنا بالجزيرة وسرنا في
ازقة ضيقة حرجة فرأيت فيها بعض المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يشتغلون
باصلاح الطرق وتمهيدها وكانت اثوابهم طرزًا واحدًا نصفها اصفر والنصف
الآخر رمادي اللون ورأيت حولهم جماعة من العساكر المنوطين بحفظهم وكانوا
اذا تمهل احد منهم في شغله او اسرع يضربونهُ بالسوط ضربًا اليما فاثر فيَّ ذلك
المنظر واشمأزت نفسي من اولئك العساكر بقدر توجعها على حالة هولاء المجرمين
فحولت نظري عنهم وبعد برهة وصلنا الى الكنيسة المقصودة وكان بناؤها بسيطًا
عاديًا الا ان قبتها تزاحم الكواكب في احيازها وتباري النجوم بهلالها وسلمها
الخارجي يلتف عليها من اسفلها الى اعلاها على شكل حلزوني وذلك ما استدعى
عمي الى الالتفات اليها فلما وصلنا اليها دعاني عمي الى الصعود فامتنعت خوفًا
من الدوار

فقال لا بد من ذلك لانهُ يجب عليك ان تتغلب على الدوار بالعادة
فتوقفت برهة ولكن الاستاذ اخذني بيده وسار امامي لا يلتفت اليَّ ولا يصغي لكلامي
فتبعته على وجل وكان قلبي يخفق ورجلاي ترتجفان على اننا كنا لم نزل

في السلم الداخلي فبعد ان صعدنا نحو مائة وخمسين درجة وصلنا الى الد
الخارجي فوقفت هناك برهة اتنسم الهواء البارد ونظرت الى اعلى القبة فرأيت
باسقة ينطح رأسها اعلى السحاب وسلمها يزداد ضيقاً كلما ازداد ارتفاعاً وخيل
ان لا نهاية له فوقفت مرتاباً وامتنعت عن التقدم فوبخني الاستاذ ووصفني بالجبن
ثم اخذ يدي بيده وجرني بعنف وسرعة فلم يمكني الا الانقياد فقبضت على يد
باحدى يدي وعلى متكاء السلم بالاخرى وسرت وراءه ملتصقاً بعمود القبة
مبتعداً عن طرف السلم جهد امكاني وفي تلك الاثناء حانت مني التفاتة الى الارض
فرأيت بيني وبينها مسافة شاسعة راعتني فاشتد بي الدوار وخيل لي ان الارض
تميد بي ورأيت القبة تميل ذات اليمين وذات الشمال فوهن عزمي وطاش لبي
واقبلت زحفاً على الركبتين ادب دبيباً وعيناي مغمضتان وكان الاستاذ يجرني
بيده وهو يسير امامي منتصباً كأنه يسير في شوارع همبرج فلما بلغنا قمة القبة نزع
يده من يدي وكنت احسب اننا لم نزل في صعود فاخذني الخوف وقبضت على
رجليه قبضة اعمى او غريق فجذبني من اذني فانتصبت واقفاً رغماً عني فنظر اليّ
باسماً وقال انظر الى ما دونك بتؤدة وسكون وسرح الطرف براً وبحراً فانت
في حاجة الى هذا التمرين لانك ستسير عما قليل على سلالم لا متكاء لها ودونك
اعماق لا يسبر النظر غورها

فسكنت جاشي وثبت قدمي ونظرت الى المدينة وكان ضباب المداخن منتشراً
فوقها كالرواق الممدود فرأيت بيوتها معربة بالخفض لاسيما التي كانت بالقرب
من الكنيسة فاني كنت اراها غائرة جداً ثم نظرت الى السماء فرأيت فوق رأسي
غيوماً خفيفة غير متصلة خيل لي انها ثابتة وان القبة سائرة بي وبعمي بسرعة
الطير ثم سرحت طرفي يمنياً فرأيت سهولاً شاسعة ورياضاً نضرة وجنات بهجة
قد كساها الربيع حللاً مدبجة بالازهار مطرزة بالانوار ونظرت شمالاً فرايت
البحر ازرق صافياً واشعة الشمس تنعكس عليه ساطعة والسفن الشراعية تتمايل



واقبلت زحفًا على الركبتين ادب دبيبًا (صفحة ٤٨)

على مياه جون السوند مع الهواء كانها طيور بحر نشرت اجنحتها وكانت سواحل اسوج تلوح على بعد من جهة الشرق كالغمامة السوداء وبعد ساعة نزلنا من القبة وبينما كنت احمد الله على خلاصي اخبرني عمي باننا سنعيد هذا التمرين في الغد وكان ما قال وبقينا على ذلك خمسة ايام متوالية حتى نجحت في ذلك الفن الجديد الذي كان يسميه الاستاذ فن التجلي وحينئذٍ كف شره عني

الفصل التاسع

لما جاء وقت السفر ودعنا مدير الانتيكخانة وكان قد اصحبنا بكتب للكونت ترامب حاكم ايسلاندا وللقس بكترسون النائب الاسقفي وللمسيو فنسين شيخ صلح مدينة ريكياويك قصبة الجزيرة توصيةً بنا فشكر لهُ عمي صنيعهُ واثنى عليه ثناء جميلاً وقبل حلول الساعة السادسة انتقلنا الى السفينة بامتعتنا وبوصولنا تقدم عمي الى الربان وسألهُ عن الريح

فاجابه هي ريح الأزيب وليس اوفق منها لرحلتنا

سأل متى نصل الى ايسلاندا فيما تظن

قال بعد عشرة ايام ان لم تقاومنا ريح الجربياء وراء جزائر فيروي

سأل هل اتفق لك فيما مضى ان تتأخر عن الوصول اكثر من عشرين يوماً

قال لا ياموسيو ليدنبروك فكن مطمئن البال

وبعد ذلك بقليل اقلعت السفينة وساعفتها الريح فسارت كالطير في السماء او السهم في الهواء ولم تنقض ساعة حتى توارت كوبنهاغن عن اعيننا وراء الامواج ومرت بنا السفينة بالقرب من سواحل السونور وفي المساء مررنا امام رأس اسكاجن وهي النقطة الشمالية من بلاد الدانمرك وفي الليل تجاوزنا اسكاجراك ثم رأس ليدنيس من اراضي مملكة نروج ودخلنا البحر الشمالي وبعد يومين مررنا بالقرب من سواحل اسكوتسيا على قيد ميل من رأس بيترهيد ومن ثمَّ سارت بنا السفينة نحو جزائر فيروي مارةً بين جزائر اوركاد وسيتلاند وكنا قد احتللنا مياه الاوقيانوس الاتلنتيكي فهناك هبت ريح شمالية قوية وجرت بما لا تشتهيه سفينتنا فعارضتنا معارضة شديدة فما بلغنا جزائر فيروي الا بعد اللتيا والتي وفي اليوم الثامن من الشهر مررنا ازاء جزيرة ميكانيس ومن ثم سارت بنا السفينة نحو راس بورتلند في جنوبي ايسلاندا فاقبلنا عليه في اليوم الحادي عشر ولما كانت تلك الشواطئ خطرة المسالك لم تقترب السفينة منها بل بقيت سائرةً نحو الغرب

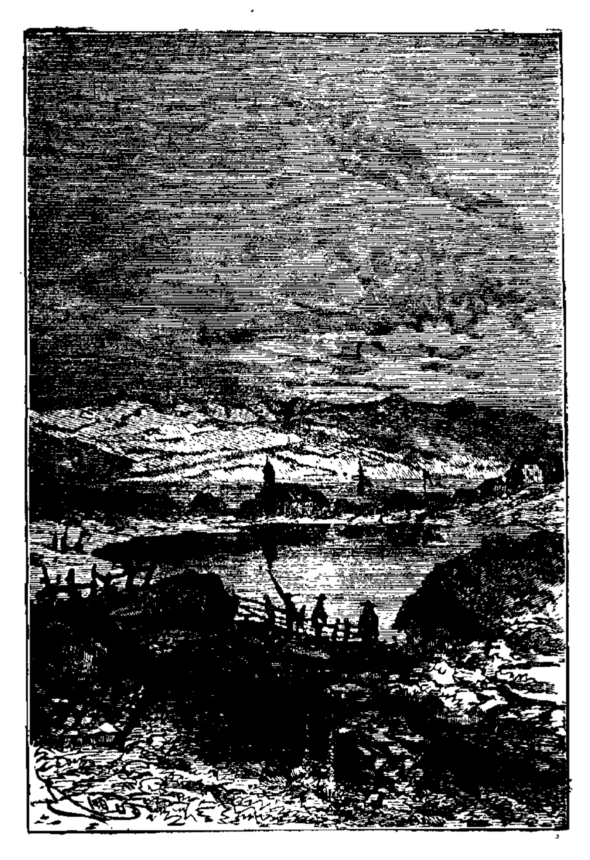
على خط مستقيم والحيتان تسايرها من اليمين واليسار واحياناً تقابلها من الامام وإذنابها قائمة قيام دفة السفينة فصرت اتأمل في اشكالها البديعة ومناظرها المريعة وتحقق لي ما كنت اسمعهُ قبلاً من ان الانسان اهتدى الى اتخاذ السفن باشكال الحيتان

وبعد ساعةٍ اشرفنا على جزائر ويسمن فغرضناها ذات اليمين ثم ازورَّت بنا السفينة نحو الجهة الشمالية مارةً امام رأس ريكيانيس وهو الزاوية الغربية لايسلاندا وبعد ثماني واربعين ساعة وقفت بازاء مدينة ريكياويك على بعد ثلاث ساعات من الشاطئ حذراً من الصخور الممتدة تحت المياه عند رأس اسكاجن فاتى اليها ملاح ايسلاندي يقودها بين تلك الصخور الخطرة وبعد ثلاث ساعات رست بنا امام المدينة في فرضة فيكسا

فخرج حينئذ الاستاذ من مخدعه وكان لا يصدق بالخلاص من سجنه لانهُ فضلاً عن شدة شوقهِ الى الوصول قاسى في تلك الرحلة من الم الدوار اشده غير انهُ قبل ان يبارح السفينة اخذني على ناحية منها واشار بيده الى جبلٍ عالٍ وقال بصوتٍ منخفض ذاك هو اسنيفل مر عليه حين من الدهر زمن الشبوبية يقذف النيران من جوفه ثم جاءت ايام الشيخوخة فامست نارهُ رماداً واشتعل راسه شيباً فرأيت جبلاً شاهقاً كساه الثلج حلةً بيضاء وله راسان مخروطيا الشكل كانهما قرنان

اناقا باعنـاء السماء واشرفا على الجو اشراف السماك او النسر

وبعيد دخولنا ريكياويك قابلنا الكونت ترامب حاكم الجزيرة والموسيو فنسين شيخ صلح قصبتها وسلمها عمي كتب مدير الانتيكخانة الشمالية فترحبا بنـا ورفعا مقامنا ووعدا الاستاذ بمساعدته في كل ما يحتاج اليه واما النائب الاسقفي فلم نتمكن من مقابلته لانهُ كان غائباً عن المدينة يتجول في انحاء ابرشيته وفي ذاك النهار زارنا احد اساتذة مدرسة ريكياويك وهو شاب لطيف يدعى فريدريكسون



رست بنا امام المدينة في فرضة فيكسا (صفحة ٥١)

وكان لا يتكلم الا باللاتينية والايسلاندية فحالما نظرته مال قلبي اليه ولم نلبث ان ارتبطنا بعرى المودة الحقيقية فكان انيسي الوحيد في كل المدة التي اقمناها في ريكياويك وكان لفريدريكسون بيت يشتمل على ثلاث غرف فاخلى لنا اثنتين منها والح علينا بالاقامة عنده فاجبناه الى طلبه شاكرين صنيعه ونقلنا متاعنا الى منزله في ذلك اليوم نفسه

ولما خلا المكان بي وبعمي نظر اليّ بوجه متهلل فرحًا وقال هان الامر يا اكسيل

قلت ماذا تريد بذلك

قال اريد انهُ لم يبق علينا الا النزول الى قلب الارض

قلت وهل الرجوع الى ظاهرها ليس عندك بامر ذي بال او تريد ان نقيم في قلب الارض ابدًا

قال لا يهمني الان امر الرجوع فمتى تم لنا الذهاب ننظر في الاياب ثم اخذ فبعته وعبداه وقال انا ذاهب الى المكتبة علّي اجد بها شيئًا لسكنوسيم

قلت وانا ذاهب اتجول في المدينة واتعهد معاهدها فهل لك ان تفعل مثل ذلك يا عماه

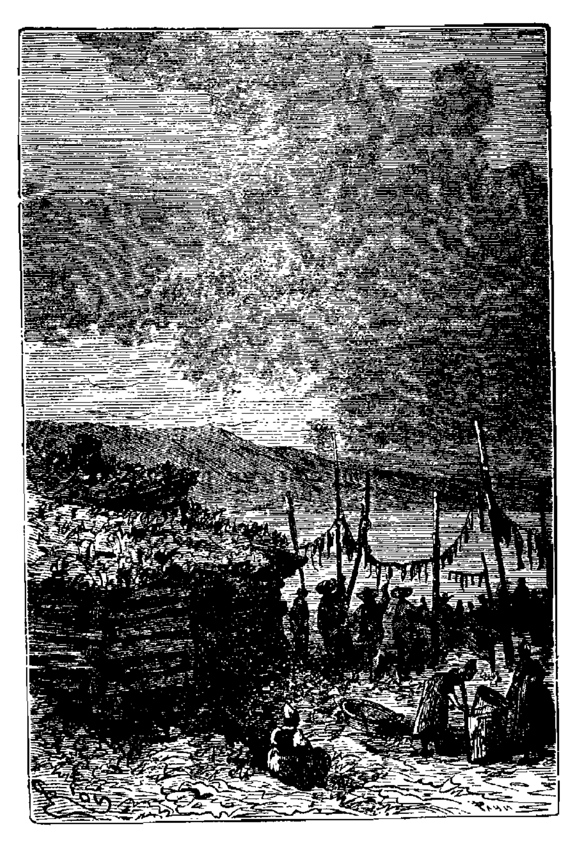
قال لا فان الذي تتوق نفسي اليه انما هو قلب ايسلاندا لا وجهها

ثم خرجت اتجول في اسواق المدينة سائرًا حيثما ساقتني قدمي اما ريكياويك فهي مدينة صغيرة قائمة بين رابيتين وعلى احد جانبيها كثيب تألف من المواد البركانية ينتهي الى البحر ومن الجانب الآخر فرضة فيكسا التي تمتد من الجهة الشمالية حتى قاعدة جبل اسنيفل ولم يكن فيها وقتئذٍ من السفن غير السفينة فلكيريا التي حملتنا الى تلك الديار ولريكياويك شارعان فقط احدهما يمتد على خط موازٍ للشاطئ وهو مقر التجار وارباب الحرف والصنائع والآخر واقع في الجهة الغربية منها وفيه دار الاسقفية ومنازل بقية الاهالي الذين لا يتعاطون التجارة وهو اصغر من الشارع الاول فتجولت برهةً في ذينك الشارعين فرأيت منظرها تنقبض لهُ الارواح وتشمئز منهُ النفوس

لا تكاد العيون تبصر فيه   قط غصنًا يهفو اليه النسيمُ

ومتى انتجت الى العين انسًا   بلدة قحلـــة وارض عقيمُ

ولما وصلت الى نصف الشارع الثاني رأيت الجبانة العمومية وهي ارض فسيحة يحيط بها سور من تراب ومعظمها خالٍ من القبور وعلى مسافةٍ قريبة منها سراي الحاكم وهي دار بديعة بالنسبة الى اكواخ الاهالي كما انها اشبه بكوخ في جانب سراي همبرج وللمدينة كنيسة واحدة قائمة بين ذلك الشارع وبحيرة صغيرة



بحيث ان سطوح المنازل هي في الواقع اخصب ارض المدينة واجودها تربةً (صفحة ٥٣)

واقعة في الجهة الغربية وهي مبنية بحجار متكلسة قذفتها البراكين من افواهها الملتهبة وسطحها مسقوف بالطوب الاحمر واظن ان سقفها يتجدد مرةً في كل عام لان الرياح بالطبع تبدده في فصل الشتاء واما المدرسة الوطنية فهي مبنية على كثيب بالقرب من الكنيسة وهي تحتوي على اربعين تلميذاً ويدرس فيها اربع لغات فضلاً عن العلوم وهي اللاتينية والانكليزية والفرنساوية والدانمركية

وبيوت الاهالي مبنية باللبن وحيطانها قليلة الارتفاع منحنية الى الداخل

وسطوحها مكسوة بالعشب لان حرارة المنزل الداخلية تساعد على نموه وقد علمت ان الاهالي يقطعون ذلك العشب ويقدمونه علفًا لمواشيهم اذ ان تربة المدينة صلعاء جدباء لا يكثر فيها الا ما قذفته البراكين من الصخور النارية والمواد الكبريتية بحيث ان سطوح المنازل هي في الواقع اخصب ارض المدينة واجودها تربةً وعند رجوعي الى شارع التجار رأيت كثيرين من الاهالي يشتغلون بتقديد السمك ومعظم تجارة المدينة بالسمك القديد

اما الاهالي فالرجال منهم اقوياء البنية ولكنهم بطيئو الحركة* فهم اشبه بالالمان من سواهم واللون الاشقر عمومي فيهم وهم ابعد الناس عن الهزل والمجون فلا ترى فيهم خفةً ولا تسمع لضاحكهم قهقهةً فكأن قلوبهم في حزن دائم وما ذاك الا لانفرادهم عن بقية العالمين في بلاد واقعة على حدود دائرة القطب واما لباسهم فقبعة واسعة وعباء (سترة) من صوف وسروال (بنطلون) مخطط بشريط احمر ونعل ذات قبال واما النساء فمنظرهنَّ مقبول وعلى وجوههنَّ سمات الحزن وانكسار النفس والبنات منهنَّ يثنين الشعر ذوائب ويلبسن عراقية سمراء تحيكها ايديهن واما من كانت ذات بعل فتعصب الرأس بعصابة ملونة تعلوها قطعة من نسيج الكتان بهيئة ريشة نعام

وفي مساء ذلك اليوم بينما نحن على المائدة نتناول الطعام دار الكلام بين الاستاذ والموسيو فريدريكسون على مواضيع علمية وكان الاستاذ ينقدني بعينه تنبيهًا لي الى التزام السكوت عما يتعلق برحلتنا

وفي اثناء ذلك سألهُ الموسيو فريدريكسون عما وجده في المكتبة من الكتب النفيسة فاجابه الاستاذ بانهُ لم يجد فيها كتابًا واحدًا جديرًا بالالتفات فاخبرنا الموسيو فريدريكسون ان المكتبة غنية تشتمل على ثمانية الاف كتاب قديمة العهد اكثرها نادر الوجود فضلاً عن الكتب الجديدة التي يزداد عددها سنةً عن سنة غير ان الايسلانديين لما كانوا مائلين بالطبع الى العلم لا يجهل احد منهم القرآة

فهم يتداولونها لمطالعتها ويرون ان تلفها بين ايديهم خير من ان تقضمها الجرذان وهي في طبقات المكتبة ثم سأل الاستاذ عن الكتب التي يروم الاطلاع عليها

فاجابه الاستاذ هي مؤلفات آرن سكنوسيم

فقال فريدريكسون آرن سكنوسيم ذلك العالم الذي عاش في الجيل السادس عشر امام العارفين بالعلوم الطبيعية واستاذ الكيمياويين واجسر السواح

قال نعم هو بنفسه

قال فخر ايسلاندا واشهر رجال عصره

قال هو هو بعينه فأين مؤلفاته

وكان وجه الاستاذ متهللاً فرحاً عند سماعه مديح سكنوسيم فاجابه فريدريكسون ان مؤلفات ذلك العالم غير موجودة

فتعجب الاستاذ وقال كيف لا توجد مؤلفات هذا العـــالم الشهير في أيسلاندا وطنه

فقال فريدريكسون لا يوجد منها شيء لا في ايسلاندا ولا في سواها من البلدان وسبب ذلك ان آرن سكنوسيم اتهم بالكفر واضطهد من اجل ذلك وفي سنة ١٥٧٣ احرقت مؤلفاته في كوبنهاغن بيد الجلاد

فانبسط وجه الاستاذ وقال الآن انكشف لي سر المسألة وعرفت السبب الذي حمل سكنوسيم على اخفاء اكتشافه . . . .

فسألهُ فريدريكسون بشوقٍ قائلاً اي سر واي اكتشاف أوقفت على شيء من آثار هذا العالم

فبدت على وجه الاستـــاذ علائم الارتباك وقال لا . . . ولكني . . . افرض . . .

فقلت مخاطباً فريدريكسون دار الكلام مرةً بيني وبين عمي على سكنوسيم وعجبنا من كونه لم يترك شيئاً من المؤلفات مع تضلعهِ من العلوم وانفراده بين رجال

عصره بفنون كثيرة

فقال الاستاذ نعم نعم كنت اعجب كيف ان هذا العالم لم يترك اثرًا يذكر به فانكشف لي الان سر المسألة وعرفت السبب الذي قضي باخفاء اكتشافاته العلمية

فاكتفى فريدريكسون بهذا الجواب واقتصر عن استقصاء الحقيقة تأدبًا وبعد برهة قال للاستاذ اظن انك لا تبارح جزيرتنا قبل ان تأخذ مجموعة من معادنها

اجاب لا بد لي من ذلك ولكن قل لي هل غادر العلماء الذين سبقوني اليها بقعةً لم يستوفوا البحث فيها

فقال لم يأتِ جزيرتنا من العلماء حتى الآن الا عدد قليل جدًا وابحاثهم قاصرة على قسم منها وعندنا كثير من الجبال المتجلدة والبراكين المنطفئة لم تطأه ارجل العلماء حتى الآن وههنا جبل بركاني يدعى اسنيفل ذاك الذي تراه ينطح السحاب بقرنيه لا يقصده السواح الا في النادر مع انهُ اولى من غيره بالبحث والاستقراء

فتجاهل الاستاذ وقال هل هو منطفئ

قال منذ نيف وخمسمائة سنة

فاطرق الاستاذ برهةً ثم قال نفسي تحدثني بان ابدأ باستقراء هذا الجبل السنفل ... الفسل ... كيف دعوته

قال اسنيفل

اما انا فكنت اغالب الضحك ويغالبني حتى دمعت عيناي واحمر وجهي واهتز جسمي وكاد يستخفني العجب لما رأيت عمي يتظاهر بالجهل والسذاجة وهو يقعنس على كرسيهِ مجهدًا نفسه في اخفاء ظواهر الفرح التي كانت بادية في حركاتهِ وسكناتهِ

ثم نظر الاستاذ الى الموسيو فريدريكسون وقال قد اعتمدتُ على اتباع

مشورتك وبودي السفر غداً بالنفس ان كان ذلك ممكنًا

قال فريدريكسون يا حبذا لو كانت تسمح لي اشغالي بان اصحبك في هذه الرحلة ولكن . . . .

فقطع الاستاذ كلامه قائلاً لا لا فاني لا اريد ان اتعب احدًا على اني لن انسى لطفك ابدًا

قال فريدريكسون لا شك انك سترى في هذا الجبل ما تقر بهِ عينك ولكن على اي طريق تذهب اليهِ

قال الاستاذ اظن ان السفر بحرًا اقرب الطرق واسهلها

قال نعم لو كان ذلك في الامكان ولكنك لن تجد في كل المدينة قاربًا واحدًا خلا السفن الميرية المخصصة لخدمة المينا

قال كيف ذلك أيخلو ثغر تجاري من قارب

قال فريدريكسون تلك هي الحقيقة فليس لك اذن الا السفر برًا

قال ان لم يكن في اليد حيلة فعلينا ان نبحث عن دليل يصحبنا

قال اطمئن بالاً من هذا القبيل فانا آتيك غدًا بدليل امين نبيه يعوَّل عليه في كل امر

فشكر لهُ الاستاذ غيرته شكرًا جزيلاً وكان قلبه طافحًا فرحًا لانهُ وقف في ذلك اليوم على عدة امور يهمهُ الوقوف عليها منها قصة سكنوسيم وسبب كتبه الرقعة السرية وعدم امكان الموسيو فريدريكسون مرافقتهُ في سفره وحصولهُ على دليل موافق في وقت قريب ثم انصرف كل منا الى مضجعهِ

الفصل العاشر

لما كان اليوم الثاني جاء الدليل الذي وعدنا بهِ فريدريكسون وهو رجل طويل القامة عريض الصدر والكتفين تلوح على وجههِ علائم الهدو والسكينة



وهو قوي البنية جداً (صفحة ٥٩)

وهو قوي البنية جداً بعينين زرقاوين صغيرتين فيهما نور الذكاء والنباهة وشعر طويل ضارب الى الحمرة مرسل على اكتافه وصنعته العادية جمع ريش الايدر الذي هو من اعظم اسباب ثروة الجزيرة واقوى وسائط رياشها والايدر طير شبيه بالاوز يألف الاقطار الشمالية يطلبون ريشه لنعومته وهم يجمعونه بالكيفية الآتية

تبتني انثى الايدر وكرها في اوائل الصيف في الصخور القائمة على شطوط الخلجان الضيقة ثم تكسوه بريش تنزعه من بطنها فيجمع الصياد ذلك الريش اختلاساً فتعود الانثى الى نزع غيره والصياد الى سرقته حتى اذا صار بطنها

املط جاء الذكر ونزع من ريش بطنه ما يكسو بهِ الوكر فيعرض عنهُ الصياد لانهُ خشن لا قيمة لهُ فتبيض الانثى بيضها فيهِ وتربي فراخها فاذا جآءت السنة التالية عادت الى العمل وعاد الصيادون الى الاختلاس

وكان اسم دليلنا هنس ابيالك وقد رأَيت منهُ حين محاورته مع عمي رجلاً قليل الكلام بعيدًا عن الحدة ضنينًا بالحركة جامعًا بين السكون والسكوت وهذه الطباع بعيدة عن طباع عمي بعد الضب عن الحوت الا انهما رغمًا عن مباينة طباعهما توافقا بسهولة فتعاهدا على ان الدليل يقدم لنا اربعة افراس لنقلنا ونقل لوازمنا الى قرية استابي التي بسفح الجبل ويبقى هو برفقتنا ما دام الاستاذ يرى لوجوده معنا لزومًا وذلك بمقابل ثلاثة ريالات في الاسبوع يدفعها لهُ الاستاذ آجلاً في مساء يوم السبت ثم اوصاه عمي بالتأهب للرحيل بعد يومين وقبل انصرافه عرض عليه شيئًا من النقود فأَبى قائلاً ان ذلك مخالف للشروط

ولما خلا بنا المكان قال الاستاذ ان هذا الرجل قد جمع بين النباهة وقوة البنية فسيكون لنا منهُ فائدة كبرى في رحلتنا

قلت أتزعم ان تصحبه الى حيث تؤمل الوصول

قال نعم الى قلب الارض

ثم اخذنا نتفقد الآلات والادوات التي اشتراها الاستاذ قبل قيامه من همبرج فوجدناها سليمة صحيحة خالية من الشوائب والعيوب فصرفنا قسمًا كبيرًا من النهار نشتغل في ترتيبها وربط كل نوع منها على حدة وهي كثيرة العدد مختلفة الانواع اقتصر على ذكر الاهم منها

اولاً ترمومتر (مقياس الحرارة) سنتيكراد من عمل ايجل ينقسم الى ١٥٠ درجة وهذا العدد فيما ارى اما زائد عن اللزوم وذلك اذا كان المقصود منهُ معرفة درجة حرارة الهواء لاننا قبل الوصول الى ذاك الحد من الحرارة ننضج كما ينضج الطعام واما اقل من اللازم وذلك اذا اردنا معرفة درجة حرارة الينابيع

الحارة او غير ذلك من المواد الذائبة

ثانيًا مانومتر (مقياس الضغط) قائم على الهواء المضغوط وموقع بكيفية يتيسر بها تعيين درجات ضغط الهواء متى فاقت على درجة الضغط على سطح الاوقيانوس وكانت هذه الآلة ضرورية لنا لانهُ من المعلوم ان الهواء تزداد كثافته كلما تعمقنا في قلب الارض فالبارومتر العادي لم يكن وافيًا بالغرض

ثالثًا كرونومتر (ساعة تعرف بقياس الوقت) موقع بغاية الضبط على خط الطول المار بهمبرج

رابعًا ابرة مغنطيسية

خامسًا نظارة ليلية

سادسًا مصباحان كهربائيان من مصابيح رومكورف وهي ساطعة النور سهلة النقل مأمونة الخطر

سابعًا بندقيتان من معمل بورليمور وغدارتان من ذوات الست طلقات وكمية وافرة من البارود والقطن البارودي الذي لا يتلف بالرطوبة وقوة ذاك القطن الدافعة عند الالتهاب اشد كثيرًا من قوة البارود المعروف

ثامنًا سلم من حرير طوله ثلاثمائة قدم وعدة حبال طويلة ذات عقد منظمة على ابعاد متساوية

هذا فضلاً عن الفؤوس والسكاكين والمعاول والازاميل والمسافين والاسافين والمطارق والمسامير على اختلاف انواعها والآلات الجراحية بين مقصات ومشاريط ومجسات وغير ذلك والادوية المختلفة من الكحول عطري ومحلول خلات الرصاص واثير وخل ونشادر وبركلورور الحديد وما اشبه وكان معنا من اللحم القديد والبقسماط مؤونة ستة اشهر الا ان قربنا كانت خالية من الماء وكان يقول الاستاذ انه سيملأها من قلب الارض ولم يكترث بما قلته عن حرارة المياه الداخلية التي تكون كافية لسلق امعائنا وعن امكان عدم وجود

ماء على الاطلاق.

وفي مساء ذلك اليوم أدب لنا الكونت ترامب مأدبة حضرها كثيرون من وجهاء المدينة واعيانها وكان كلامهم باللغة الدانمركية فلم افهم شيئاً من الحديث سوى ان الاستاذ تكلم طول الوقت .

وفي اليوم الثاني اهدانا الموسيو فريدريكسون خارطة لجزيرة ايسلاندا مصغرة الى ....٠٠٠/١ وهي اوفى واحسن من خارطة هندرسون فسرّ بها الاستاذ كثيراً واثنى على الموسيو فريدريكسون ثناء جميلاً .

ولما جاء يوم السفر ودعنا الموسيو فريدريكسون وداع الصديق الحميم وانطلقنا على اثر هنس وكان خبيراً بمسالك الجزيرة عالماً بمفاوزها ومجاهلها فسار بنا على اقرب الطرق واسهلها وكانت مطايانا قوية على التعب متدربة على المسير في الاراضي الحجرة الا انها قصيرة جداً فكان الاستاذ يخط الارض بقدميه وهو منتصب فوق جواده كانه مارد من مردة الجان

فبعد ان سرنا ساعتين على شاطئ البحر في اراض مجدبة صلعاء وصلنا الى قرية تعرف باسم جوفون فاقمنا فيها ريثما تناولنا الطعام ثم استأنفنا المسير على طريق صعبة تحفها الصخور من جانب والبحر من الجانب الاخر .

فوصلنا في مبتدأ الساعة الرابعة بعد الظهر الى قرية سوربيورالتي على شاطئ خور الولفيود وهو مرفأ طبيعي محاط بصخور هائلة يبلغ علو بعضها ثلاثة الاف قدم ولاصطدام الامواج عليها هدير مستمر ودوي مستديم وعرض الخور من الجهة التي كنا فيها الى الجهة الاخرى يبلغ نصف ميل وكان لا بد لنا من اجتيازه الا انهُ لم يكن هناك الا قارب شراعي لا قوة له على مقاومة المد والجزر فلا يمكنه المسير الا اذا بلغ المد حده اذ يحصل فترة لا يكون فيها للمد والجزر فعل محسوس ولكن الاستاذ لم يشأ ان ينتظر الوقت المناسب فتقدم بفرسه في المياه زاعماً اجتياز الخليج على ظهره فأبى الفرس الانقياد فحثه الاستاذ



وكان الاستاذ يخط الارض بقدميهِ (صفحة ٦٣)

بالمهماز فجمح به حتى كاد يلقيه الى الارض فاخذته الحدة والهب الفرس بالسوط ضربًا فازداد جموحًا ثم انسل من تحته وتركه واقفًا فوق صخرين في وسط المياه كأنهُ صنم رودُس فاخذ الاستاذ يشتم ويلعن وقد غشى وجهه الخجل فلم يمكني ان املك نفسي عن الضحك لما رأيته على تلك الحالة ثم انتقلنا بخيلنا وادواتنا الى القارب وعند الساعة السادسة بعد الظهر بلغ المد الغاية المطلوبة فسار بنا القارب سيرًا بطيئًا جدًا فلم نبلغ الشاطئ الاخر الابعد مضي ساعة ونصف وبعد ذلك بنصف ساعة وصلنا الى قرية تعرف باسم جردار

وكان وصولنا في الساعة الثامنة مساء على ان الشمس كانت لم تزل ظاهرة في الافق ولا عجب فان جزيرة ايسلاندا واقعة في منطقة الخط الخامس والستين من العرض فلا ليل فيها مدى شهري يونيو ولوليو غير اني شعرت بالبرد ولا سيما بالجوع فطرقنا باب اول منزل وصلنا اليه وهو لاحد الفلاحين فاستقبلنا الرجل بهشاشة عربية وادخلنا قاعة الضيوف وهي احسن قاعات المنزل الا ان سقفها قريب من الارض جدًا فكان الاستاذ اذا قام فيها لا يمشي الا مطأطئًا رأسه ولتلك القاعة نوافذ قامت فيها جلود الغنم مقام الزجاج فكان النور ينبعث منها الى الداخل ضعيفًا وللبيت باجمعه رائحة السمك القديد وحامض اللبن فبعد أن وضعنا حقائبنا في زاوية دعانا صاحب المنزل الى المطبخ لنصطلي فتبعناه الى حجرة تحجبت من الدخان وجلسنا حول نار وقودها السرجين والفحم الحجري وعظام الاسماك المجففة وحينئذ اتى الينا صاحب المنزل وقبل كلاً منا بوجهه مستأنفًا السلام كانه لم يرنا من قبل ثم جاءت امرأته وفعلت كفعله تلك عادة عندهم من تلقي الضيفان ما عرفتها قبل

ومن لم يسر بين البلاد واهلها يفته كثير من شهود الغرائب

وفي هذا المقام اقول ان المرأة كانت امًا لتسعة عشر ولدًا جمعتنا واياهم النار نار المطبخ وكلهم دون سن البلوغ فهم اشبه بلفيف من الملائكة بشرط ان يكون مضى عليهم مدة لم يغتسلوا في مياه الكوثر فبشِشنا بوجه هولاء الاطفال فاستأنسوا وبعد برهة صعد ثلاثة او اربعة منهم على اكتافنا ومثلهم على ركبنا واقام الباقون بين ارجلنا وكان القادرون منهم على الكلام يترحبون بنا كل منهم بنغمة غير نغمة الآخر واما الاطفال فكانوا يصيحون صياح الفرح فعلت ضجتهم حتى لم يعد لغيرهم سبيل الى الكلام وما زالوا على ذلك حتى جاء صاحب المنزل ودعانا الى تناول الطعام فسكنت الضوضاء دفعة واحدة وفي ذاك الوقت دخل هنس وكان قد اطلق الخيل في تلك السهول المجدبة على امل ان تجد شيئًا من العشب



والهب الفرس بالسوط ضرباً فازداد جموحاً (صفحة ٦٢)

تسد به الرمق ولما دخل حتى صاحب المنزل وامرأته وقبل وجهيهما ثم انعكف يقبل اولادهما التسعة عشر ولما فرغ من عمله هذا الذي استغرق مدةً من الزمن جلسنا على المائدة وكان عددنا اربعة وعشرين شخصاً اما عدد الكراسي فكان اقل من ذلك بكثير لان اكثر الاولاد جلس على ركبنا فاصاب الواحد منا اثنين على الاقل فاكلنا المرق اولاً ثم جيء بجفنة رذوم من السمن القديم والسمك القديد والايسلانديون يفضلون السمن القديم على الجديد لحرافة طعمه وبعد ذلك جيء بطاجن يشتمل على نيف وثلاثين بيضة من بيض الدجاج قليت

بالسمن يتبعه قصعة من اللبن الرائب

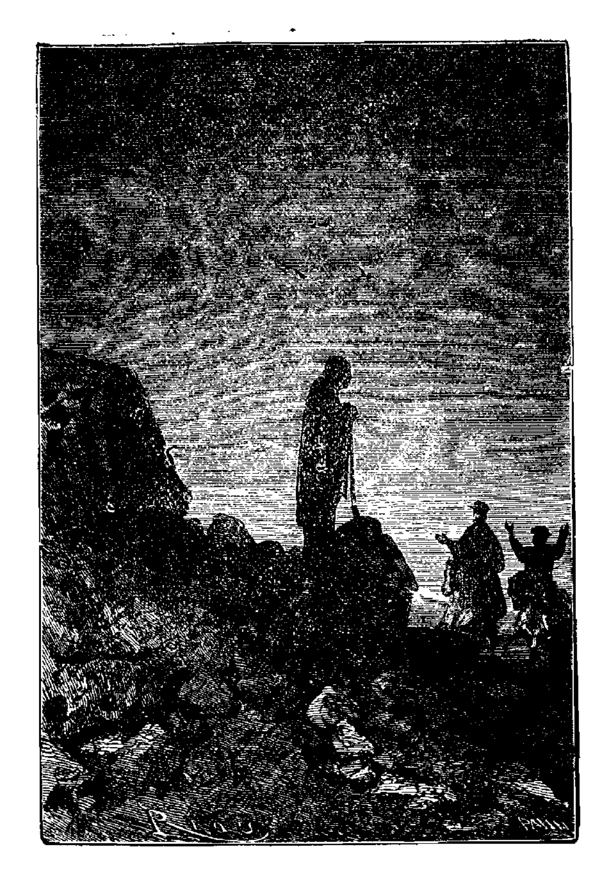
وبعد الاكل ذهب الاولاد الى مخدعهم وبقينا نحن وصاحبا المنزل حول الموقدة ساعة من الزمان نصوب من شدة البرد رأي المجوس في عبادة النيران ثم قمنا الى القاعة لاننا كنا في حاجة الى الراحة فجاءت صاحبة المنزل لتنزع احذيتنا وسراويلنا بحسب العادة المألوفة عندهم فامتنعنا بلطف شاكرين لها مزيد التفاتها فانصرفت وكان قد اعد صاحب المنزل لكل منا فراشًا من قش وغطاء من صوف فنمنا جميعنا نومة هنيئة

وفي صباح اليوم الثاني ودعنا صاحب المنزل وعرض عليه عمي شيئًا من النقود فأبى اخذه رغما عن الحاحه فدفع المبلغ مخالسةً الى احد اولاده وانصرفنا شاكرين لذلك الرجل كرمه

ولم نبتعد عن جردار قيد غلوة حتى دخلنا في وهدة على كثرة مياهها خالية من النبات ومسالكها متشعبة فكنا في كل برهة نلاقي جدولاً نضطر الى الخوض فيه محترسين على المؤونة والذخائر من البلل

اما المناظر التي شاهدناها في ذلك اليوم فمحزنة تنقبض لها النفس فان الارض التي مررنا فيها جدباء صلعاء خالية من العشب اليابس فضلاً عن الاخضر وكنا نصادف حينًا بعد حين اناسًا رماهم حادث البرد بداء البرص فهجروا العالم واهلوا تلك البرية المقفرة وكان هولاء المساكين اذا ابصرونا عن بعد مقبلين عليهم يتوغلون بين الصخور القائمة على جوانب الطريق لكي يحتجبوا عن نظرنا واما اذا اشرفنا على احد منهم قبل ان يبصرنا فكنت ارى رجلاً منتفخ الرأس لامع البشرة امعط الوجه وكنت اشاهد من خلال اثوابه الرثة قروحًا دامية صديدية منتشرة في كل بدنه يؤثر منظرها في النفس واي تأثير

وعند المساء نزلنا في حظيرة مهجورة بعد ان تجاورنا نهرين هناك يعرفان بالألفا والهيتا ولعل في هاته التسمية حكمة تاريخية غير معلومة اليوم بين القوم



فكنت ارى رجلاً منتفخ الرأس لامع البشرة امعط الوجه (صفحة ٦٦)

فقضينا في تلك الحظيرة ليلة شديدة القر

وفي اليوم الثاني لم نصادف في طريقنا غير ما صادفناه في ذلك اليوم وكان مبيتنا في قرية كروزولبت .

وفي يوم ١٩ يونيو قمنا من تلك القرية صباحًا وما ابتعدنا عنها ميلاً حتى دخلنا ارضًا كستها البراكين المجاورة ايام هيجانها مواد بركانية وقد تجمدت تلك السوائل على شكلها الاصلي فهي اشبه شيء بالامواج وبعضها ملتف على نفسه كالحبال وفي ذلك اليوم صادفنا على طريقنا عدة ينابيع حارة ولما كان الاستاذ لا يطلب

الا سرعة الوصول الى فوهة اسنيفل لم يلتفت الى تلك المواد بل بقي سائراً الى الامام لا يلوي عناناً ولم نزل نجد السير حتى وصلنا الى قرية بُدير القائمة على شاطىء البحر فقضينا ليلتنا فيها وكان نزولنا في بيت من اولاد عم دليلنا هنس فاكرمنا صاحب المنزل غاية الاكرام وكان بودي الاقامة عنده يوماً او يومين لاني كنت في اشد الاحتياج الى الراحة من نصب المسير وتعب الركوب واجتياز الاغوار والانجاد فاشرت على الاستاذ بذلك ولكنهُ لم يلتفت الى كلامي

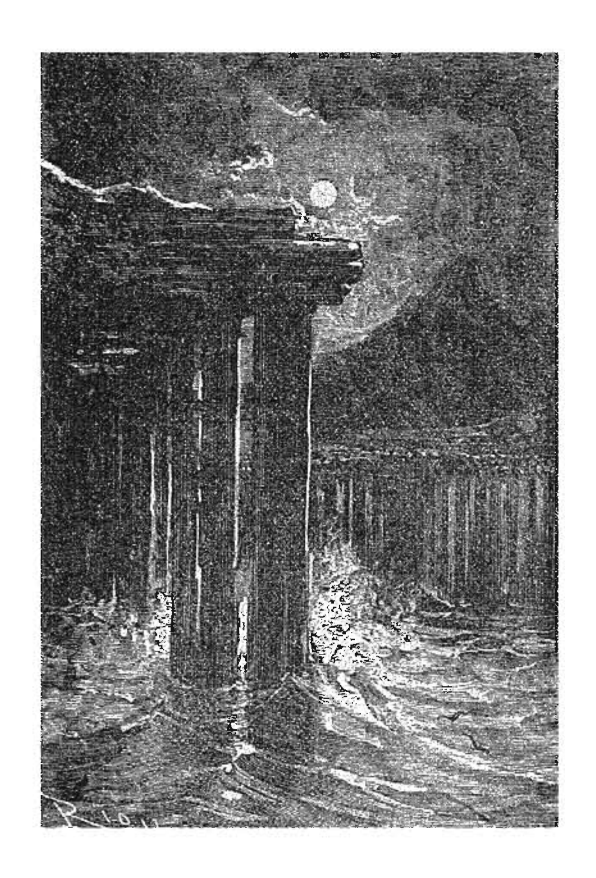
وفي صباح اليوم الثاني قمنا من بدير قاصدين قرية استابي وكان بيننا وبينها مسافة اربع ساعات فدخلناها عند منتصف النهار ووقفت بنا الخيل من تلقاء نفسها امام دار القس.

الفصل الحادي عشر

استابي قرية تشتمل على نحو من ثلاثين بيتاً وهي قائمة بسفح جبل اسنيفل على اكمة تألفت من المواد البركانية وبجانبها فرضة صغيرة يحيط بها سور طبيعي من البازلت غريب الشكل عجيب التركيب

البازلت صخر اسمر اللون ناري الاصل وهو يتكوَّن احياناً على اشكال منظمة تنظيماً هندسياً تقضي بالعجب فقد قرأت عن عجائب بابل وسمعت وصف غرائب ابنية اليونان ولكنها ليست بشيء في جانب ما شاهدته ذلك اليوم في استابي فان الطبيعة قد اقامت على شاطىء البحر سلسلة من العمد البازلتية علوها ثلاثون قدماً وعددها لا يكاد يحصى وهي في غاية الضبط والتناسب وضعاً وشكلاً ولها سقف ممتد من اولها الى اخرها في غاية الاحكام والاتقان وكلها قطعة واحدة

اما بيوت القرية فبناؤها بسيط وجدرانها قصيرة كبيوت غيرها من قرى الفلاحين وبيت القس لا يختلف عن غيره بشيء فلما وقفت بنا الخيل في عرصة الدار رأيت رجلاً ينعل فرساً وقد شمر عن ساعديه حتى بان سواد ابطيه



وهي في غاية الضبط والتناسب وضعاً وشكلاً (صفحة ٦٨)

وتمنطق بمنطقة من جلد تدلت على حجره فحياه الدليل بالسلام وكان ذلك الرجل القس بنفسه فبعد أن ناجى الدليل برهة ادخل اصابعه الوسطى والسبابة من كلتي يديه في فيه وصفر صفرةً قوية فبرزت في الحال امرأة جاحظة العينين قبيحة المنظر مهزولة الجسم وهي اطول ما رأيت من النساء فخفت من ان تقبلنا قبلة الترحاب ولكنها لم تفعل والحمد لله بل قطبت حاجبيها لما بصرت بنا وعبست

بوجه تستعيذ الجن منهُ   وتنفر من بشاعته السعالى

ثم ادخلتنا المنزل كارهةً وبقي القس يباشر عمله

اما قاعة الضيوف فأردأ قاعات المنزل فهي قذرة منتنة ليس فيها شيء من الاثاث سوى حصير تقادم عهده ومقعدة من خشب اظنها من بقايا سفينة نوح فعلمت ان بيت القس ليس ببيت ضيافة وريثما فرغ الكاهن من ا نعال الفرس شرع في تصليح قفل لبعض الاهالي ثم انقلب نجاراً ثم حداداً ثم صياداً ولم أره ساعة واحدة كاهناً

نعم ان الشغل العالي غير محرم على القسس لاسيما اذا كانوا في حاجة الى السعي في طلب الرزق ولكن معاطاة بعض الحرف تستلزم غالباً الاتصاف بصفة اربابها فالبيطرة مثلاً تستلزم زجر الخيل في كل آن زجراً عنيفاً فاذا اعتاد المرء ذلك صارت فيه الشراسة ملكةً وقد ذهب بعضهم الى ان الزجر لا يجدي نفعاً الا اذا كان مصحوباً بلعنة وقد ثبت لي في تلك الليلة اذ اجتمعنا بالقس ان الامر انتهى به الى تلك الحال

وكان في عزم الاستاذ ان يقيم بضعة ايام في استابي لاجل الراحة من عناء السفر ولكنه لما علم بما هو عليه ذلك القس من قبح الطباع وسوء الاخلاق صمم على ان يعاجله بالفراق فاوعز الى هنس بالتأهب للسفر في صباح يوم ٢٢ يونيو اي بعد وصولنا بيومين فاستأجر الدليل ثلاثة رجال من اهالي القرية لتنقل على ظهورها الامتعة الى ضهر الجبل لان الطريق غير صالحة لمسير الخيل عليها

وفي نفس ذلك اليوم اي يوم وصولنا الى استابي انذر الاستاذ هنساً بانهُ عازم على استقصاء البركان الى اقصى حدوده الداخلية فحنى الدليل راسه بمعنى انه مستعد لذلك اما انا فادركني الخوف والوجل وعاودتني الحال التي كنت بها في مبتداء الامر بعد ما كان شغلني عنها السفر منذ شخوصنا من همبرج فاخذت افكر في الاخطار التي نكون عرضةً لها اذا دخلنا في جوف الارض فخطر ببالي امر لم يجل في خلدي من قبل زادني قلقاً واضطراباً ذلك اني تذكرت انه مر على بركان اسنيفل في العصر الخالية حين من الدهر هادئاً مستكناً حتى جعل في عداد

البراكين المنطفئة ثم عاد في سنة ١٢١٩ الى القذف والهيجان فباي شيء يثبت لنا الآن ان ناره انطفأت حقيقةً واي بلاء نلاقيه اومكروه تقع فيه اذا كانت ناره كامنة تحت الرماد واججها عامل من العوامل الطبيعية بينما نحن متوغلون في قلب الارض سائرون في مجاريها

وكنت اعلم ان الاستاذ لا يحول عن عزمه ولو حالت دون غايته طوائف الانس والجن لاسيما بعد ان صار عند قاعدة جبل اسنيفل على اني اتيت اليه في صباح اليوم الثاني والقيت عليه المسألة بصفة فرض بسيط بعيد الاحتمال

فاجابني قائلاً ان هذه المسألة جديرة بالالتفات وقد ترويت فيها البارحة طويلاً اذ لا ينبغي للعاقل ان يتورط في امر قبل التبصر في عقباه والتدبر في منتهاه

وكان الاستاذ يتكلم بجد فقلت لعلهُ ترك العناد واتبع طريق الرشاد

ثم استطرد الكلام قائلاً نعم انهُ مضى على هذا البركان ستة اجيال ولسانهُ منعجم ولكن من الممكن ان ينطلق يومًا ما غير ان لذلك دلائل معروفة ومظاهر معينة تنذر بقرب الهيجان فقد استقصيت الاخبار من بعض الاهالي وبحثت في الارض وراقبت المظاهر الجيولوجية فلم ارَ شيئًا من تلك الدلائل فعلمت انهُ لا خوف علينا مما نخشى

فلما سمعت منهُ ذلك الكلام وقفت حائرًا فقال ان كان عندك ريب في كلامي فاتبعني ثم خرجنا من القرية وسرنا صعدًا حتى بلغنا رابيةً اشرفنا منها على سهول شاسعة ترصعت بالصخور النارية من بازلت وصوان وترلشيت وغير ذلك من المواد البركانية كانها برد امطرته عليها السماء او عصابة من حبب بستها الصهباء وقد شح جبينها بالماء ورأيت عن يميني وشمالي عدة ينابيع حارة يتصاعد منها بخار ابيض كثيف فاشار اليها الاستاذ وقال أرأيت هذا الدخان يا اكسيل



ينصاعد منها بخار ابيض كثيف (صفحة ٧١)

قلت نعم وكفى به دليلاً على ان خوفنا في محله

قال لا بل هو الدليل القاطع على ان خوفنا في غير محله

فاخذني العجب من كلامه وقلت كيف تستنتج هذه النتيجة مع انهُ لا شيء منبي عن وجود النيران اكثر من تصاعد الدخان

حقق الامر بالدليل وفكر فدخان من غير نارٍ محال

فقال هذه اقوال تركن اليها الرعاديد لا تليق بمثلك من الصناديد ولقد حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء أما تعلم انهُ من المحقق للعيان الثابت

بالمشاهدة في كل زمان ان مثل هذا الدخان اذا اقترب وقت هيجان البركان يزداد كثافة من دقيقة الى اخرى حتى اذا ابتداء القذف ينقطع كليًا وذلك لان البخار ينبعث اذ ذاك من مجرى البركان بدلاً من ان يتخلل قشرة الكرة الارضية وفضلاً عن ذلك اذا ازفت ساعة الهيجان انقطع المطر وسكنت الريح وثقل الهواء والحال اننا لا نرى شيئًا من هذه الدلائل فاذن يمكننا ان نحكم بانهُ لا خوف من هيجان قريب

فعجزت عن الجواب ورجعت الى القرية حزينًا كئيبًا آيسًا من السلامة وكنت قد عللت نفسي بامل فارغ فقضيت تلك الليلة في قلق واضطراب تروعني الاحلام وتفزعني الخيالات وكنت اذا غفوت رأيت نفسي متقذفًا من فوهة البركان الى اقصى كواكب النظام الشمسي تارةً بصورة صخر ناري وطورًا بصورة سائل ملتهب واذا استيقظت لا ازال ارى لسان اللهيب مندلعًا نصب عيني

ولما جاء اليوم الثاني خرجنا مشاة طالبين رأس الجبل وكان القس وامرأته ينتظراننا في فناء المنزل فلما اقبلنا نودعهما قدما لنا قائمة المصاريف التي تكبداها بسببنا وهي تشتمل على قيمة الهواء الفاسد الذي تنشقناه في قاعة الضيوف فضلاً عن قيمة ما لحق بالحصير والمقعدة من التلف بسبب جلوسنا عليها فنقدها عمي المبلغ بدون ان يبدي اعتراضًا وانطلقنا على اثر هنس والاشخاص الثلاثة الحاملين لادواتنا وقد تأبط كل منا قربة ممتلئة ماء وتقلد عصا ملبسة حديدًا وما ابتعدنا عن القرية قيد فرسخ حتى دخلنا منجمًا من الفحم الحجري تخلف عن الغياض القديمة وهو يشغل بقعة طويلة عريضة وسمكه في بعض المحلات يبلغ السبعين قدمًا وفيه من الفحم ما يقوم باحتياج الجزيرة جيلاً كاملا على انهُ لم يزل بكرا ومن ثم انتهينا الى طريق حجرة حرجة فسرنا عليها الواحد وراء الاخر بحيث كان يتعذر علينا المحادثة فاخذت افتكر في تاريخ الجزيرة الجيولوجي وفعل البراكين فيها وتذكرت ما ذهب اليه اكثر مشاهير العلماء من ان جزيرة ايسلاندا حديثة

العهد اي انها برزت من تحت المياه من مدة قريبة وارتأى بعضهم انها لم تزل ترتفع شيئاً فشيئاً حتى الآن بحركة غير محسوسة فان صدق قولهم فهي ناشئة عن فعل النيران الداخلية وان صح ذلك فقد ثبت فساد مذهب همفري ديفي وكذبت رقعة سكنوسيم واتضح خطاء الاستاذ

اما اكتشافها فكان في سنة ٨٦٠ وهي واقعة بين ٦٣° ٢٤' و ٦٦° ٣٣' من العرض الشمالي و ١٣° ٣١' و ٢٤° ١٧' من الطول الغربي وقد وافق اسمها مسماها وطابق لفظها معناها لان ايسلاندا معناها ارض الجليد ومساحتها ٣٠٥٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٧٠٠٠٠ نفس وهي ارض بركانية يشغل القسم الاكبر من سطحها سلسلة رسوبات كلسية بالاغونيتية مرتفعة يتخللها تراشيت وفي جوانبها كثير من البازلت والبازلت اقدم تلك التراكيب ويليه البالاغونيت ثم السوائل البركانية المتجمدة وينطوي تحتها الطبقات التي تكونت بفعل البراكين الحديثة وبعض جبالها مكلل ابداً بالثلج كجبل اسنيفل وفي داخلها برية كبيرة مغطاة بمواد بركانية والفعل البركاني ظاهر في بقعة عريضة منها ممتدة من رأس ريكجانس في الجنوب الغربي الى كرفلا في الشمال وفيها من المعادن النحاس والحديد والرصاص والفضة والكبريت والفلدسبار والكورتز والخلكيدوني والبنفش والزبرجد والدهنج والحجر السماقي والاوبال وغير ذلك

فبعد ان راجعت جميع ذلك في فكري ودققت النظر في تربة الارض التي كنا نسير عليها اقتنعت كل الاقتناع بصحة رأي اولئك العلماء وايقنت ان قلب الجزيرة لم يزل ملتهباً وان كل المواد التي فيه سائلة فاطمأن بالي نوعاً من الاطمئنان وعلمت ان الاستاذ سيكره على الرجوع بخفي حنين اذا توغل بضعة اميال في جوف الارض اذ تبلغ درجة الحرارة مبلغاً لا نسمح له بالتقدم هذا اذا كان من فوهة البركان طريق الى قلب الارض

وبعد ان سرنا ثلاث ساعات في صعود مستمر وصلنا الى قاعدة الجبل



فاخذنا نتسلق الصخور البازخة ونتسور الجنادل الشامخة (صفحة ٧٥)

الحقيقية فاقمنا هناك ريثما تناولنا الطعام ثم استأنفنا المسير بهمة ونشاط وكانت طريقنا هذه اوعر من طريقنا الاولى فاخذنا نتسلق الصخور الباذخة ونتسور الجنادل الشامخة مستعينين بالعصي التي بايدينا وكان الايسلانديون الذين صحبونا يسيرون امامنا بسهولة غريبة مع انهم حاملون من الاثقال احمالا ومن الاحمال اثقالا وكذلك الاستاذ مع انهُ غير معتاد على المسير في الاراضي الوعرة وكان سائراً بالقرب مني لا يغفل عني طرفة عين ولولاه لسقطت مرة او مرتين في هوايا بعيدة القعر

ولم نزل نتسنم غوارب الصخور محاذرين من سقوطها بنا الى ان وصلنا بعد مسير ساعة الى منطقة الجليد المنتشر على القسم الاعلى من الجبل فسهل علينا المسير لان الجليد تجمد على الحجارة فصيرها كالدرج المشيد وعند الساعة السابعة وصلنا الى قاعدة المخروط القائم على رأس الجبل

وكان قد اعياني التعب واضناني النصب حتى لم يعد لي قدرة على نقل رجلي الا بشقة عظيمة ولما رأى الاستاذ مني ذلك اشار الى هنس بالوقوف فابى الدليل الا المسير فسأله الاستاذ عن السبب فاشار بيده الى السهول الممتدة في اسفل الجبل وقال (اعصار) فرأيت عجاجة سوداء تألفت من الرمل الاسود ودقيق الحصى وقد انتصبت كالعمود طرفها الاسفل في الارض والآخر في السماء وهي تدور على نفسها بسرعة تدهش البصر مرتفعة نحو الجبل وامثال تلك العاصفة كثيرة في ايسلاندا اذا هبت الريح من الجبال المتجلدة فلما رآها قومنا الايسلاندبون اضطربوا خوفاً لانها كانت مقبلة علينا بسرعة غريبة فقصدنا الجهة المخالفة من رأس الجبل وقد رجعت اليَّ قواي فاخذنا نعدو عدواً غير مبالين بما دوننا من الهوايا ولا مكترثين بما فوقنا من الصخور المتدلية علينا وهي على شرف السقوط وكان الاعصار مقتفياً اثرنا حاجباً عين الشمس فما ابتعدنا عن محل الخطر قيد غلوة حتى انطبق على الجبل بقوة الصاعقة فكان لانطباقه دوي كقصف الرعد المتواصل وثار الغبار في السماء حتى خيم على الارض فاقتلع الصخور الهائلة ورفعها في الجوّ ثم رمى بها الارض فتدحرجت الى سفح الجبل بقرقعة تصم الاذان . وفي تلك الساعة عرفت عظم الخطر الذي نجونا منهُ لاننا لولا نباهة هنس لانطبق الاعصار علينا ومزق اجسامنا كل ممزق وتركنا هباء منثوراً

وكان لم يزل بيننا وبين راس القمة علو ١٥٠٠ قدم الا ان الطريق صعبة جداً فكنا لا نرتفع قدماً الا بعد ان نسير عدة خطوات يميناً او شمالاً فلم نصل الى اعلى الجبل الا عند نصف الليل وكانت الشمس اذ ذاك في الافق ترسل



وثار الغبار في السماء حتى خيم على الارض (صفحة ٧٦)

اشعة ضعيفة لا حرارة فيها فوقفت هناك برهةً اتأملها ثم لحقت باصحابي الى الوكر الذي اختاروه للمبيت فتناولنا الطعام الذي حضره لنا الدليل وما فرغت من الاكل الا وانا اتمايل من النعاس فقمت الى فراشي اتهادى في مشيتي كالنشوان وانطرحت كالقتيل حتى الصباح

الفصل الثاني عشر

ما قضيت في العمر ليلةً حلا لعيني فيها مواصلة الكرى وراق بجفني معانقة

الغض مثل الليلة الفائتة مع اني لم افترش غير صخر من الصوان ولم اتوسد سوى رزمة من الحبال ولكن التعب كان قد انهك قواي فوجدت للنوم لذةً لم اعرفها من قبل وما استيقظت من نومي الا وقد اقبل السحر بكواكبه يتهادى بين مواكبه من طل يتحالى وهو بارد ويخفف وهو جامد ونسيم يؤلم بوخزه الجلود ويتخلل مسام الجسد فيبث فيه سم الجليد ولما فتحت عيني رأيت نفسي نشيطاً فانتصبت على قدمي وقمت اسرح الطرف في المناظر التي كانت منبسطة امامي وكنت اذ ذاك على قمة اسنيفل الجنوبية وهي تشرف على القسم الاكبر من الجزيرة فرأيت اوديتها كالآبار وبحيراتها كالدراهم وانهرها كالجداول وجداولها كالافاعي وجبالها المكللة بالثلج كالامواج المتلاطمة ورأيت الاوقيانوس بكل عظمته ممتداً في الجهة الغربية وآخره مختلط بالسماء اختلاط الخمر بالماء او العين بالضياء

فكأن السماء بحر محيط ٌ وكأن البحر المحيط سماء

وكانت اشعة الشمس ساطعة تتكسر على رؤوس الجبال المتجلدة فترى العين الوانًا باهرة تزري بقوس السحاب فاخذتني الدهشة من تلك المناظر العظيمة وبينما انا على ذلك دنا مني الاستاذ وقال مشيرًا بيده الى الغرب اي شيء هذا الذي تراه يا اكسيل

قلت سحابة بيضاء منتشرة على سطح البحر

قال اعد نظرًا ما هي سحابة وانما هي جزيرة غرينلانده وهي لا تبعد عنا اكثر من تسعين ميلاً وكثيرًا ما تأتي منها الى ايسلاندا الدباب فرادى وزرافات تسير بها قطع من الجليد سير السفن تزجيها الرياح

ثم نظر الاستاذ الى هنس وسألهُ عن اسم القمة التي نحن عليها فقال هي قمة اسكرتريس فتبسم الاستاذ تبسم العجب ثم قال لهنس هيا بنا الى الفوهة

اما فوهة اسنيفل فهي على شكل مخروط منقلب وهي اشبه بقمع او خرطوم فيل وقطرها من اعلاها يبلغ الميل تقريبًا وعمقها نحو الفي قدم وقطرها من اسفلها

خمسمائة ولما وقفت على حافتها افتكرت في الايام التي كانت غاصة فيها بالنار واللهيب فارتعدت فرائصي واضطربت جميع اعضائي على ان هنساً سار امامنا بدون خوف ولا تردد فتبعته مع بقية القوم وكنا نسير على مهل محاذرين من العثار لان الطريق منحدرة انحداراً مخيفاً وكان بعض الحجارة يتدحرج من تحت ارجلنا فيسمع لهُ صدى غريب يستمر زمناً ومن الفوهة قسم متجلد فكنا لا نسير عليه الا بغاية الاحتراس وفي المفاوز الخطرة كنا نربط بعضنا بحبل طويل حتى اذا عثرت رجل احدنا يتمكن الباقون من انتشاله على ان تلك الطريقة كانت من جهة اخرى شديدة الخطر لانهُ من الممكن ان يترتب على سقوط الواحد سقوط الجميع

وعند منتصف النهار وصلنا الى اسفل القمع سالمين ولم يسقط منا الا رزمة حبال افلتت من يد احد الايسلانديين فسبقتنا الى حيث كنا قاصدين متبعة اقرب الطرق

وفي اسفل القمع ثلاث فوهات يبلغ قطر الواحدة مائة قدم تقريباً ومنها كانت تندفق المواد البركانية في ايام الهيجان فتأمل الاستاذ مواقعها برهة ثم ترنح طرباً واخذ يجهز من امام الواحدة الى امام الاخرى كالليث في وثباته وثبانه وهو يهمهم ويجمجم وكان هنس ورفقاؤه الايسلانديون جالسين على صخر ينظرون اليه كمن داخله الريب في سلامة عقله وبعد بضع دقائق صرخ الاستاذ صرخة دوت لها الهوية فظننت انهُ سقط في احدى الفوهات فالتفت اليه مرعوباً فرأيته واقفاً امام صخر من الصوان وعلائم الدهشة ظاهرة على وجهه فهرولت نحوه فاشار بيده الى كتابة رسمت على الصخر وقال انظر يا اكسيل وقل لي ان كنت لم تزل في ريب من صحة الامر فنظرت الى الكتابة واذا هي اسم آرن سكنوسيم فراجعني الخوف من ان تكون الرواية صادقة ثم رجعت حزيناً الى المحل الذي كنت فيه واعتمدت رأسي بيدي واخذت افتكر في امر تلك الرحلة وما لاقيته



فنظرت الى الكتابة واذا هي اسم ارن سكنوسيم (صفحة ٧٩)

بسببها من الاتعاب وما عسى الاقيه فبقيت مدة طويلة تائهاً في قفار الافكار ضالاً في غياهب الخيالات ولما رجعت الى نفسي لم أرَ حولي الا هنساً والاستاذ وكان الايسلانديون الثلاثة قد عادوا الى قريتهم

اما هنس فكان راقداً بجانب صخر متوسداً جندلاً من السوائل المتجمدة واما الاستاذ فكان يدور في ارض القمع كأنهُ نمر في قفص ولم يكن لي همة ولا قوة على اتباعه فاضطجعت حيثما كنت موثراً الاقتداء بهنس ولم يطب لعينيَّ في تلك الليلة منام اذ كان متقطعاً غير هنيءٍ وكان يخيل لي تارةً اني اسمع دوياً مريعاً

وطورًا ان الارض ترتجف من تحتي ارتجافًا مخيفًا

ولما اصبح الصباح استيقظت من نومي فرأيت السماء مغبرة الوجه والغيوم منتشرة فوق الجبل كالسرادق الممدود والافق حاجب عين الشمس بغينه وكان الاستاذ مقطبًا وجهه وظواهر الكدر بادية عليه لانه كان يخشى من ان يستمر الطقس على تلك الحالة حتى دخول شهر لوليو فيضطر الى تأجيل رحلته الى سنة اخرى اذ ان معرفة الفوهة المؤدية الى قلب الارض موقوفة على وقوع ظل اسكرتريس عليها وذلك لا يتيسر ما لم تبرز الشمس من وراء الغيوم فكان حكم تلك القمة حكم المزولة لا فائدة منها الا اذا كانت الشمس ظاهرة في السماء فسررت لذلك الاتفاق الذي لم أكن انتظره واما الاستاذ فانقطع عن الاكل والشرب والكلام وبقي من الصبح حتى المساء محدقًا نظره بالسماء وكان وجهه ينقبض مرة وينبسط اخرى بحسب تكاثف الغيوم وانقشاعها فكأنه مرآة تتلألاء عليها الغيوم او آلة يعرف بها مقدار تراكمها على ان النهار انقضى ولم تظهر الشمس دقيقة واحدة

وفي اليوم التالي وهو السادس والعشرون من شهر يونيو امطرت السماء وأثلجت من الصباح حتى المساء فابتنى هنس بيتًا من الصخور البركانية على نقطة مرتفعة لا يصيبها السيل واستمرت الغيوم حاجبة عين الشمس في اليوم الثاني ايضًا فبلغ الغيظ من الاستاذ مبلغًا عظيمًا لانه رأى مساعيه في خطر الحبوط بعد ان قاسى ما قاسى من التعب وبذل ما بذل من النقود حتى بلغ الفوهة المؤدية الى قلب الارض فكان اشبه براكب سفينة قاوم العواصف وصادم الرياح ونجا من اشد المخاطر ولما دخل المرفاء اغتالته المنية وابتلعته لجج البحار اما انا فبت تلك الليلة في سرور عظيم وكنت انضرع الى الله ان يبقي الطقس على تلك الحال يومين اثنين فقط حتى اذا انقضى شهر يونيو والشمس محجوبة بالغيوم يفعل بعد ذلك ما يشاء فيحبس المطر عن ايسلاندا الدهر ان اراد ويحرقها بوهج الشمس اذا

شاء ولكن ابت المقادير الا معاندتي وما جاء اليوم الثلاثون من الشهر الا والسماء رائقة صافية فبرزت الغزالة في الافق ساطعة الانوار تمزق بسهام اشعتها اديم الضباب وتنادي عمي بلسان حالها

لبيكَ لبيكَ هذي طلعتي برزت | وذا محياي منهُ الضوء يزدهرُ
فراقب الظل واصنع ما اردت ولا | يضع هباءً عليك السير والسفرُ
وطب اذا انت احسنت الغراس في | يطيب في الخافقين الحب والثمرُ

فيجيبها لسان حالي

اذا سترتِ بكم السحب وجهكِ عن | عيوننا بعض ايام فما الضررُ
وانتِ شرقية والشأن عندكمُ | ان الملاح ذوات الحسن تستترُ

ولما بلغت الشمس غاية ارتفاعها ارسلت حبالها الى قعر الفوهة فجاء كل صخر بظله وكان ظل اسكرتريس شاغلاً المحل الاعظم من ارضها فتهلل وجه الاستاذ فرحاً واخذته خفة الطرب فصار يجمز حول الفوهات ويرقص حتى خفت عليه من السقوط واما انا فكنت بعكس ذلك حزين النفس منقبض الصدر فوقفت مطرقاً وقد استولى على قلبي الخوف والوجل وعاودني اليأس بعد الامل

بذا قضت الايام ما بين اهلها | مصائب قوم عند قوم فوائد

وما زال ظل القمة يدور مع الشمس كيفما دارت الى ان انتصف النهار فوقع على طرف الفوهة الوسطى واذ ذاك صرخ الاستاذ قائلاً ها هي الطريق المؤدية الى قلب الارض ثم نظر الى هنس وقال هيا بنا واشار بيده الى الهاوية فاضطربت جميع اعضائي مرة واحدة عند سماعي تلك الكلمات واما هنس فكان هادئاً ساكن البال كأن السفر الى قلب الارض من الامور العادية عنده فانتصب على قدميه عند سماعه كلام الاستاذ وتقدم نحو الفوهة واخذ يستعد للنزول بدون ان يبدي اعتراضاً او يسأل سؤالاً وكان لم يزل في وسعي الامتناع عن المسير

ولكني لم افعل بل لم افه ببنت شفة لاسيما اذ رأيت اقدام هنس مع انهُ اولى مني بالامتناع

قلت ان قطر الفوهة يبلغ مائة قدم وكنت لم انظر بعد الى جوفها فتقدمت اليها وانحنيت فوق صخر تدلى على حافتها فتبين لي ان جدرانها الداخلية تكاد تكون عمودية الا ان فيها صخوراً بارزة تساعد على النزول اذا كان الانسان ممسكًا بيده حبلاً مربوطًا باحد الصخور التي على طرف الفوهة غير اننا لو فعلنا ذلك لتعذر علينا حل عقدة الحبل اذا انتهينا الى اخره ولكن الاستاذ لم يكن من يخجلون بشعرة ويعثرون بالنوى فانهُ بعد ان تبصر في الامر برهةً وتروى فيه لحظة عمد الى حبل طوله اربعمائة قدم وغلظه كابهام اليد وجعل وسطه على صخر مرتفع الرأس مشرف على الهوية وارخى طرفيه احدهما عن يمين الصخر والآخر عن شماله بحيث صار في امكاننا اذا تدلينا الى عمق مائتي قدم قابضين على طرفي الحبل معًا ان نجره من احد طرفيه ثم نعيد العمل بهذه الطريقة الى ما لا نهاية ·

وبعد ان فرغنا من تركيب الحبل بالكيفية التي ذكرناها قسمنا الآلات والادوات التي يخشى عليها من الكسر الى ثلاثة اقسام جعلنا كل قسم منها رزمة واحدة ثم شددناها الى ظهورنا فخصَّ الاستاذ بالآلات اللطيفة مع شيء من الزاد واخذت انا شيئًا من الاسلحة وقسماً آخر من الزاد واما بقية الادوات والزاد فكانت لهنس ثم عمد الاستاذ الى الملابس والحبال والسلالم وجعلها رزمة واحدة والقاها من الفوهة بدون تردد ثم انحنى فوق الهوية يراقب سقوطها الى ان غابت عن بصره فوقف وعلائم الرضى تلوح على وجهه وبعد ذلك نظر الينا وقال هيا بنا نحن الآن

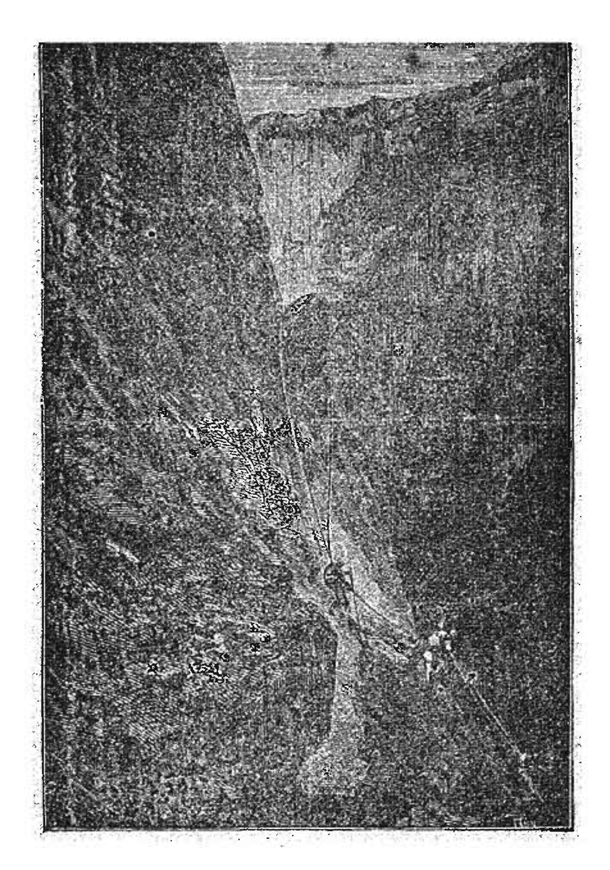
الفصل الثالث عشر

مضى اوان المشاق والمتاعب وجاء وقت الاخطار والمصاعب مضى علينا منذ قيامنا من همبرج خمسة وثلاثون يوماً قضيتها بين لعل وعسى تتنازعني عوامل الخوف والوجل ودواعي الاطمئنان والامل الى ان وقفنا على حافة الفوهة المؤدية الى قلب الارض فعلمت ان قد قضي الامر ونفذ المقدور فسلمت نفسي للاستاذ ووكلت امري لله

اما هنس فاعتلى الصخر المشرف على الفوهة بجنان ثابت وجمع طرفي الحبل بين يديه وتدلى امامنا ثم تبعه الاستاذ ولما جاء دوري ارسلت الى خيال ابنة عمي قبلة الوداع وتدليت وراء الاستاذ وكان نزولنا بغاية التأني والاحتراس فما كنا نسمع الا صدى وقع الحجارة التي كانت تتفتت من الصخور من تحت ارجلنا وتتساقط الى عالم الظلمات وكان هنس يجس الصخور برجليه قبل ان تستقر قدمه عليها فيحذرنا ما كان منها غير متين وبعد نصف ساعة وقفنا على صخر بارز في حائط البئر وكنا قد اتينا على اخر الحبل فاخذ هنس احد طرفيه بيده وتركه تنكأ فافلت طرفه الاخر من الصخر فسقط علينا وهو يكنس كل ما صادفه في اثناء سقوطه من فتات الحجارة ودقاق الحصى ثم ثنيناه نصفين حول الصخر الذي كنا عليه كما فعلنا في المرة الاولى وتدلينا ثانيةً حتى اتينا على اخر الحبل وبعد ان سرنا بهذه الكيفية ثلاث ساعات كاملات وقفنا برهة لنرتاح ونقضي لاجسامنا حقاً لا تعبث بوجوبه مظنات الفلاح

روح الفتى رأس ماله فاذا　　ضاعت فلا ربح بعد ينتظرُ

وكان قعر الهوية لا يزال محجوباً وراء الظلام ليس لمرامي الانظار لاصابته من مرام فقال لي الاستاذ كلما تعمقنا في الارض أزداد ثقةً بالنجاح فان وضع هذه الاراضي البركانية وتركيبها يؤيدان مذهب ديفي ويدحضان مذهب القائلين بالحرارة الداخلية فالتربة التي نحن عليها الان هي التربة الاصلية التي حصل



وكان نزولنا بغاية التأني والاحتراس (صفحة ٨٤)

فيها التهاب المعادن باتحادها بالهواء والماء

اما انا فكان لي في توقع الاخطار في نزولنا ما يكفي لاشتغالي عن مراقبة انواع الاراضي التي تجاوزناها فلم انظر اليها نظرةً واحدة بعين الجيولوجي بل لم ادرِ أَمعدنية هي ام نباتية ام حيوانية ولذلك بقيت صامتاً فحسب الاستاذ سكوتي دليلاً على اقتناعي

وبعد نصف ساعة استأنفنا المسير وكنا اذا اعيانا التعب نقف بضع دقائق طلباً للراحة ثم نعود الى التدلي ولم نزل على ذلك حتى الساعة الحادية عشرة

مساء فسمعت هنساً يقول انتهى فامسكت عن النزول وقلت مهيم

قال الاستاذ وصلنا الى قعر البئر العمودية

قلت أليس منها طريق ما

قال بلى فاني ارى دهليزاً من الجهة اليمنى وسنستقصيه غداً اما الآن فعلينا ان نهتم اولاً بالاكل ثم بالنوم

وكان الظلام غير حالك فتدليت حتى استقرت قدمي ثم فتح هنس جعبة الزاد فاكلنا حتى اكتفينا واخذ كل منا مضجعهُ متوسداً بوسادة اعدها لنفسه من فتات الصخور البركانية وكنا قد تدلينا في ذلك اليوم بواسطة الحبل اربع عشرة مرة فعلمت أن عمق البئر ٢٨٠٠ قدم تقريباً لان طول الحبل مثنياً مائتا قدم كما سبق غير بعيد

ولما جاءت الساعة الثامنة من الصباح استيقظت من نومي ونظرت الى اعلى الفوهة فرأيت دائرتها بيضية الشكل وذلك لما في الجدران من الاعوجاج وكان ضوء النهار يدخل منها فيقع على جدرانها اللامعة ثم ينعكس على سطوح الصخور الصوانية والسوائل البركانية المتجمدة فيرسل اشعته الينا كالشرر في حالك الدجى على ان ذلك النور كان كافياً لمعرفة الاشياء المجاورة لنا وحالما ابصرني الاستاذ واقفاً تقدم نحوي وقال بوجه باش ما قولك يااكسبل هل قضيت عمرك في همبرج ليلةً هادئة مثل هذه فاين نحن من دوي العربات وصياح التجار وضجة الملاحين

قلت نعم نحن في راحة من كل ذلك في قعر هذه البئر ولكن السكون ذاته الذي يحيط بنا هو مخيف في حد نفسه وله تأثير في القلوب

قال ويحك يااكسبل الم يأن لك ان تترك هذه الاقاويل فان من لازمه جبن الحياة قلما يبرح من ضائر الخمول او يحظى ببلوغ المأمول

حب السلامة يثني عزم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل

فان جئت اليه فاتخذ نفقًا في الارض او سلمًا في الجو فاعتزل

فتبسمت قائلاً واي نفق اعمق مما نحن فيه حتى اتخذه واي فسيح اوسع من ظاهر الارض حتى انتبذه

قال دع عنك هذه التصورات يا اكسيل فان كنت تحدث الان بمثل هذا الكلام حال كوننا لم نتبطن من الارض شبرًا فما بالك اذا توغلنا في احشائها

قلت ماذا تعني بقولك لم نتبطن من الارض شبرًا

قال اعني بذلك اننا الآن على مساواة سطح الجزيرة فان هذه الانبوبة العمودية التي تنتهي الى بركان اسنيفل يساوي طرفها الاسفل سطح الاوقيانوس او يكاد

قلت هل انت على يقين من ذلك

قال نعم وها هو البارومتر واقف فيه الزئبق على الدرجة التاسعة والعشرين وذلك هو معدل ثقل الهواء على سطح البحر وكلما تعمقنا في جوف الارض يزداد ثقله بازدياد الضغط عليه وعما قليل لا يعود البارومتر كافيًا لتعيين درجته فنستعيض عنه بالمانومتر

قلت ولكن اذا استمر ثقل الهواء على الازدياد باستمرارنا على التوغل في جوف الارض أفلا يكون استنشاقه مضرًا بنا

قال لا لان نزولنا بطيء فتعتاد رئاتنا على استنشاقه بالتدريج ولأن نشكو كثرة الهواء خير لنا من ان نشكو قلته فحالتنا افضل من حالة راكبي الرياح الذين يقل عنهم الهواء كلما ارتفعوا في الجو بعكس ما نلاقيه نحن

ثم اخذنا نبحث على رزمة الحبال التي القيناها من اعلى الفوهة قبل نزولنا فرأيناها عالقة بصخر على علو مائة قدم تقريبًا فوق رؤوسنا ففي الحال نزع هنس حذاءه واخذ يتسور جدار البئر بخفة ومهارة تعجز عنها القطاط وما مضت لحظة

حتى وصل اليها والقاها الى الارض وبعد رجوعه جلسنا نتناول الطعام فاوصانا الاستاذ بان ناكل كفوء الواجب للقيام بالمشاق التي تنتظرنا ولما فرغنا من الاكل اخذ من جيبه دفترًا سماه بدفتر المحوظات وحرر عليه النتائج الاتية بعد ان تحقق من صحتها بواسطة الاته المتنوعة

بوم الاثنين اول لوليو

كرونومتر	ق ١٧ س ٨ صباحًا
بارومتر	شعره ٧ قيراط ٢٩
ترمومتر	درجة ٦
وجهة	شرق الجنوب الشرقي

وكان القصد بالوجهة وجهة الدهليز المظلم وقد عينتها الابرة المغنطيسية وبعد ذلك نظر اليّ الاستاذ طربًا وقال الان ابتدأت رحلتنا الحقيقية في جوف الارض

ثم اخذ مصباح رومكورف بيدٍ وكان معلقًا برقبته وفتح المجرى الكهربائي باليد الاخرى فسطع نوره قويًا في الدهليز وسطا بكتائبه الخاقانية على جيوش الظلام النجاشية وبدد بتلك الكتائب احزاب الغياهب وكان هنس حاملاً المصباح الآخر ففعل كفعله ولهذه المصابيح فائدة جليلة اذ يمكن المرور بها في وسط الغازات القابلة الالتهاب بدون ان يخشى منها ضرر ثم سرنا في الدهليز حاملاً كل منا الرزمة التي تعينت له وكان هنس يتقدمنا وهو يدحرج رزمة الحبال امامه وقبل ان نتوارى فوهة البئر عن نظري تزودت من سماء ايسلاندا بنظرة كانت نظرة الوداع وقد قدر علي ان لا اراها بعدها

اما الدهليز فمبطن بقشرة سميكة من السوائل المتجمدة وهي شديدة اللمعان فكان النور الكهربائي ينعكس عليها فيزداد سطوعًا وارضه منحدرة على خمس واربعين درجة تقريبًا الا ان فيها نقطًا شاخصة واخرى منخفضة مما يسهل

المسير عليها قليلاً فهي اشبه بدرج تقادم عهده فقرضته انياب الحدثان، ولعبت به ايدي الزمان وعلى جانبي الدهليز اعمدة متدلية من سقفه بعضها متصل بالارض والبعض الاخر ينتهي على علو بضع اقدام اما السقف فرصع بصخور من بلور الكورتز غير الشفاف المعروف بدب الملح وعلى هذا البلور كريات من الزجاج الصافي فكانت اذا وقعت عليها اشعة مصابيحنا تنير حالاً بنور ساطع يبهر البصر ويغشي النظر فكانما تلتهب التهاباً والناظر اليها يحسبها ثريات زيّن بها جن الهاوية مسكنهم اكراماً لنا واحتفالاً بقدومنا

فلما ابصرت تلك المناظر اخذني العجب فقلت للاستاذ لله ما اجمل هذه المناظر وما ابدعها الا ترى كيف ان هذه السوائل المتجمدة تتدرج من اللون الاحمر القاني الى الاصفر الفاقع

فما زهر الرياض اذا تبدّى ... بابهج قط من تلك المرائي

ولا قوس السحاب اذا تجلى ... ولا الاقمار في كبد السماء

وكيف لا تندهش من هذه الكريات البلورية المنيرة فوق رؤوسنا كالبدور في منازلها والشموس في بروجها

فتبسم الاستاذ وقال الحمد لله اذ راقت هذه المناظر في عينيك على انها ليست بشيء في جانب ما ستراه من العجائب اذا وصلنا الى مركز الارض

وكانت طريقنا متجهة الى الجنوب الشرقي بغاية الضبط لا تنحرف يمنةً ولا يسرة اما الحرارة فلم ترتفع الا قليلاً جداً وبعد ان سرنا ساعتين نظرت الى الترمومتر فرأيت ان الحرارة لم تبلغ الا الدرجة العاشرة فاخذني العجب من ذلك ثم قلت لعل الطريق التي سلكناها كانت افقية اكثر ما ظننتها وكان الاستاذ يس زوايا الانحراف والانحدار في اثناء مسيره ويعلق نتيجة عمله على دفتر الملحوظات السابق الذكر بحيث يتوصل متى شاء الى معرفة العمق الذي وصلنا اليه بغاية الضبط والتدقيق

ولما جاءت الساعة الثامنة بعد الظهر امر الاستاذ بالوقوف وكنا اذ ذاك في محل أشبه بمغارة فعلقنا مصابيحنا على الجدران وجلسنا بالقرب منها وفي ذاك الوقت شعرت بنسيم لطيف يمر علينا فعجبت من ذلك ولم اعلم ما هو المحرك للهواء في ذاك المحل على اني لم اطل البحث في امره لاني كنت في شدة من السغب وحاجة الى الاستراحة من التعب ثم اخرج هنس شيئاً من الزاد ومده على صخر من السوائل المتجمدة فاكلنا بقابلية لا مزيد عليها وكان معنا من الزاد ما يكفينا لمدة طويلة الا ان الماء الذي اذخرناه نفد اكثره ولم يكن باقياً معنا الا مؤونة خمسة ايام وكان الاستاذ يؤمل ان يملأ القرب من الينابيع التي في قلب الارض فنبهته الى ذلك لاننا منذ دخولنا في جوف الارض لحد ذاك الوقت لم نجد للماء اثراً

فقال الاستاذ هل في عدم وجود الماء ما يقضي بالعجب

قلت بل ما يقضي بالعطب

قال اطمئن بالاً فاننا سنجد من الماء فوق ما نشتهي

قلت متى يكون ذلك

قال متى انتهينا من هذه القشرة المتخلفة عن السوائل البركانية ألا ترى كيف ان هذه القناة طليت بها فكانت كالملاط لا ينفذ منها الماء

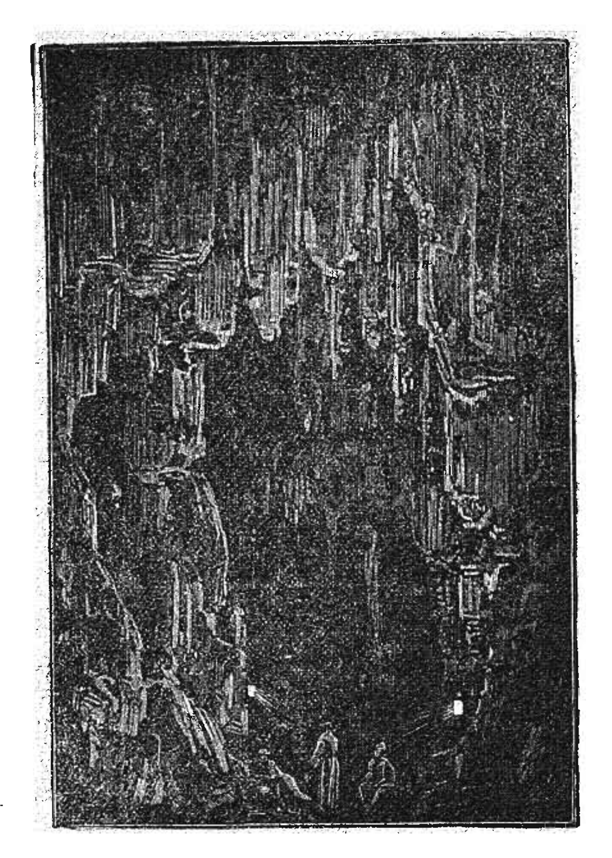
قلت اجل ولكن من المحتمل ان هذه القشرة تنتهي الى عمق بعيد ونحن لم نزل فيما ارى على عمق الف قدم تحت سطح البحر او اكثر من ذلك بقليل

قال ماذا حملك على هذا الظن

قلت لو كنا على اكثر من هذا العمق لكانت درجة الحرارة فوق ما هي الان

قال ذلك لو صح مذهبك ولكن اي درجة بلغ زئبق الترمومتر

قلت هو على الدرجة الخامسة عشرة وكان على السادسة قبل دخولنا في الدهليز فالزيادة ليست الا تسع درجات



فعلقنا مصابيحنا على الجدران وجلسنا (صفحة ٩٠)

قال وماذا تستنتج من ذلك

قلت ثبت بالتجربة ان الحرارة تزيد في جوف الارض درجة تحت كل سبعين قدماً وقد يختلف هذا العدد باختلاف التربة من حيث صلاحيتها لتوصيل الحرارة فقد تبين بالامتحان ان الحرارة في مدينة باكوست من مدن سيبيريا تزداد درجة لكل ٣٦ قدماً واما اذا كان الحفر في تربة نيسية بجوار البراكين المنطفئة فلا تزداد درجة الا بمائة وخمس وعشرين قدماً فلنتخذ اذاً هذا المعدل الاخير قياساً اذ انهُ يصدق اكثر من غيره على الارض التي نحن فيها

قال افعل وقل لي ما هو العمق الذي وصلنا اليه على زعمك

فاخذت رقعة ورقمت عليها العدد ٩ وهو عدد درجات الحرارة التي زادت منذ دخولنا في الدهليز وضربتها في العدد ١٢٥ فكان الحاصل ١١٢٥ قدماً واذ ذاك قرأتها على سمع الاستاذ

فقال اصبت في الضرب ولكن هيهات ان يصدق قولك

قلت كيف ذلك

قال نحن الآن على عمق عشرة الاف قدم تحت سطح البحر

قلت أذلك ممكن

قال ان صح ان مجموع اثنين واثنين اربعة فحسابي صادق لا ريب فيه

وكان حساب الاستاذ صادقاً حقيقة فالعمق الذي وصلنا اليه في ذلك اليوم يزيد ستة الاف قدم على ابعد الاعماق التي توصل اليها الانسان من قبل كمناجم ريتزبال في ولاية تيرول ومناجم ويتمبرج في ولاية بوهيميا وكانت الحرارة مع ذلك في الدرجة الخامسة عشرة بدلاً من ان تكون في الحادية والثمانين فداخلني الريب مذ ذاك الوقت في صحة مذهب القائلين بالحرارة الداخلية

الفصل الرابع عشر

لما جاء اليوم الثاني من شهر لوليو استأنفنا المسير وكانت طريقنا لم تزل هي هيه من حيث الوجهة والانحدار والتركيب وعند الظهر انتهينا من القناة التي كنا فيها الى فسحة رحبة يتفرع منها طريقان احداها الى الشرق والاخرى الى الغرب فوقف هنس ريثما استعلم من الاستاذ عن ايها يتبع فاشار الاستاذ بيده الى الطريق الشرقية بدون تردد كأنهُ على معرفة تامة بها وذلك لكيلا يظهر على نفسه الريب امامي وامام الدليل على ان التردد لم يكن يفيد شيئاً اذ ان كلتي الطريقين على شكل واحد وكلتاها ضيقة وليس من اثر او كتابة او

رسم يميز احداهما عن الاخرى فلم يكن لنا اولى من الاتكال على التقادير وترك التعلق بحبال التدابير فسرنا على الطريق الشرقية وهي كالقناة الاصلية مطلية بالسوائل البركانية المتجمدة الا انها اضيق منها جداً حتى اننا في بعض الاحيان كنا ندب على الارض دبيباً لقرب سقفها وكان اكثر مسيرنا تحت سلاسل من القناطر الطبيعية او بين صفوف من العمد المختلفة الاشكال كاننا في هيكل عظيم بنته الجبابرة الاول معاصرو الموتن والكركدن القديم وغيرها من الحيوانات الهائلة التي لم يبقَ منها الا الآثار

وبعد ان سرنا على تلك الطريق ميلاً او اكثر اخذ انحدارها يخف شيئاً فشيئاً حتى صارت افقية بحتة وكانت الحرارة لم تزل على درجتها الاولى لم تتغير الا تغيراً خفيفاً لا يعبأ به ولما جاءت الساعة السادسة بعد الظهر امر الاستاذ هنساً بالقاء عصا التسيار كعادته عندما ينهار النهار على ان النهار والليل عندنا سيَّان فما دامت مصابيحنا معنا فنحن في نهار دائم وان المت بها عوارض التلف امسينا في ليل لا صباح له ولما تناولنا الطعام التف كل منا بعباه واضطجعنا للمنام آمنين من الوحوش الكاسرة والقبائل المتوحشة التي يخشى شرها على سطح الارض وكذلك كنا لا نخاف البرد اذ ان الهواء في قلب الارض ساكن مستمر على درجة واحدة من الحرارة ليلاً ونهاراً

وفي صباح اليوم الثالث من الشهر عدنا الى المسير بهمة وعزم الا ان الطريق صعب سلوكها وعثر انتهاجها اذ بعد ان كانت افقية صارت ترتفع بالتدريج حتى صار المسير عليها متعباً وما جاءت الساعة العاشرة الا وقد اعياني التعب فتأخرت عن الاستاذ بضع خطوات فنظر اليَّ وقال بفروغ صبر مالك لا تتقدم

قلت لقد اخذ مني التعب مأخذه وادرك النصب غايته حتى كلت اعضائي ووهنت قواي ولم يعد لي طاقة على المسير

قال أهذا ما تقول بعد مسير ثلاث ساعات على طريق سهلة منحدرة كهذه



وكان اكثر مسيرنا تحت سلاسل من القناطر الطبيعية (صفحة ٩٢)

قلت مهلاً انت تقول منحدرة ولكني ارى انها صاعدة واذا استمرت على ذلك فلا يبعد ان نعود الى سطح الارض

قال لا بد من المسير ولأن تنتهي بك هذه الطريق الى سطح الارض احب اليك من ان تنتهي الى قلبها ثم اعرض عني واشار الى هنس بالمسير فعلمت انهُ عارف بتغير الطريق ولكن غيظه من ذلك وعناده حملاه على المكابرة فكأنما رأى الاعتراف بالخطاء زلة وحسب التردد مذلة على حد قول الشاعر

اذا اخترت من بين المذاهب مذهباً فاياك ان تعتاض عنهُ بديلا

وما عشت لا ترضَ التردد انهُ   يعود به المرء العزيز ذليــلا

ولما لم يكن لي عن متابعته مندوحة سرت على حسب الامكان على اثر هنس وكانت الطريق تزداد صعوبةً بازدياد ارتفاعها

ولما صار وقت الظهر اخذ النور المتكسر على الجدران يضعف انعكاسه بالتدريج فعلمت اننا انتهينا من القشرة المتخلفة عن السوائل المتجمدة وتفرست في الصخور التي حولنا فعلمت أنها من الصخور النارية وهي عديمة الحياة اي لا اثر فيها للحيوان والنبات على اننا لم نتقدم الا قليلاً حتى دخلنا في الصخور المائية وهذه الصخور تكونت من حتات الصخور النارية وفتاتها بحك المياه وغيرها لها وجرف الماء حكاكتها الى حيث رسبت وتحجرت منضدة طبقة فوق طبقة حتى بلغ سمكها اميالاً ولذلك يقال لها المنضدة كما يقال للنارية غير المنضدة فتبينت نوع تلك الصخور وإنما هي من الصخور التي تعرف بالورنشية وهي الرتبة الاولى من الصخور القديمة الحياة وما لبثنا ان دخلنا صخور الرتبة الثانية منها وهي الكمبرية فوجدت فيها اثار نبات بحري وحيوانات دنيئة الرتبة كالمرجان والاسفنج والحيوانات الرخوة الصدفية وذوات القشرة وثقوب ديدان بحرية فاستدعيت التفات الاستاذ اليها لكي اثبت له اننا كلما توغلنا في تلك الطريق ابتعدنا عن قلب الارض ولكن الاستاذ ابى الا المكابرة لشدة غيظه وعناده فلما اريته الاثار التي ذكرتها والتربة الطباشيرية المتكونة من اصداف الحيوانات والمرجان وبقايا حيوانات اخرى قال وعلى اي شي يدل هذا

قلت على اننا بعد ان كنا في الصخور النارية صرنا في تربة الدور الذي ابتداء فيه ظهور الحيوان والنبات على الارض وهذا يثبت إن طريقنا صاعدة لا منحدرة

قال أتظن ذلك

قلت لم يعد محل للريب فانظر بنفسك الى هذه الهياكل المرسومة على الصخور

وتأملها . . .

فلم يكترث بكلامي بل بقي سائرًا الى الامام لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً ولا اظنه الا اقتنع بصحة قولي ولكنهُ ابى الا التقدم اما من قبيل العناد فقط واما لاجل استقصاء الطريق حتى آخرها

ثم بعد ان تقدمنا نحو ميل وانا اراقب تغيرات الصخور وآثار الدفائن التي عليها رأيت انواعًا اخرى من الحيوانات التي لم تظهر الا في الدور الثالث للصخور القديمة الحياة كشقيق البحر والتوتيا وصليب البحر فعلمت اننا في الصخور السيلورية وذلك الدور كثرت فيه انواع الاصداف والابواق والمرجان وحيوانات اخرى من الحيوانات الشبيهة بالنبات وفي اخره ظهرت الاسماك وهي ادنى ذوات الفقرات رتبةً واما نباتاته فاعشاب بحرية من ادنى النبات رتبة وجراثيم نباتات اعلى منها كالطحالب فاخذت بوقًا محفوظًا على حالته الاصلية واريته للاستاذ

فقال هذا البوق من نوع التريلوبيت اي المثلث النصوص وقد انقرض الان من عالم الحياة

قلت ألم تزل مرتابًا في كوننا تجاوزنا الصخور النارية وصرنا في الصخور المنضدة

قال من المحتمل ان اكون اخطأت في اتباع الطريق الشرقية ولكني لا اقتنع بغلطي الا اذا بلغنا آخرها

قلت لولا ان ما اذخرناه من الماء على وشك النفود لما كنت اعارضك فيما تفعل

قال ان كان ماؤنا قليلاً فسنقتصر في الشرب على القدر اللازم لحفظ الحياة وكيفما كان الامر لا بد لي من استقصاء هذه الطريق

فقلت لنفسي لم يبقَ لي الا الرضى بالقضا وضرب الصفح عن التفكر فيما مضى ما قد قضي يا نفس فاصطبري لهُ . ولك الامان من الذي لم يقدرِ

وتيقني ان المقدر كائن حتماً عليك صبرت ام لم تصبري

ولم يكن معنا من الماء الا مؤونة ثلاثة ايام فقط فلما جاء وقت العشا سكب الاستاذ لكل منا مقدار عشرة دراهم او اقل وفي اليوم الثاني عدنا الى المسير تحت سلسلة من القناطر لا نهاية لها وكانت الطريق لم تزل افقية وهي محفوفة على الجانبين بصخور من الرخام والطباشير وعلى اكثر ذلك الرخام آثار حيوانات دنيئة الرتبة الا انها اعلى رتبةً من الحيوانات التي رأينا دفائنها في اليوم السابق فكأنما كانت تلك الطريق تاريخ الحياة الحيوانية منذ ظهورها فكنا كلما تقدمنا فيها خطوة نشاهد آثار حلقة من حلقات تلك السلسلة التي اولها الاسفنج والمرجان وآخرها الانسان

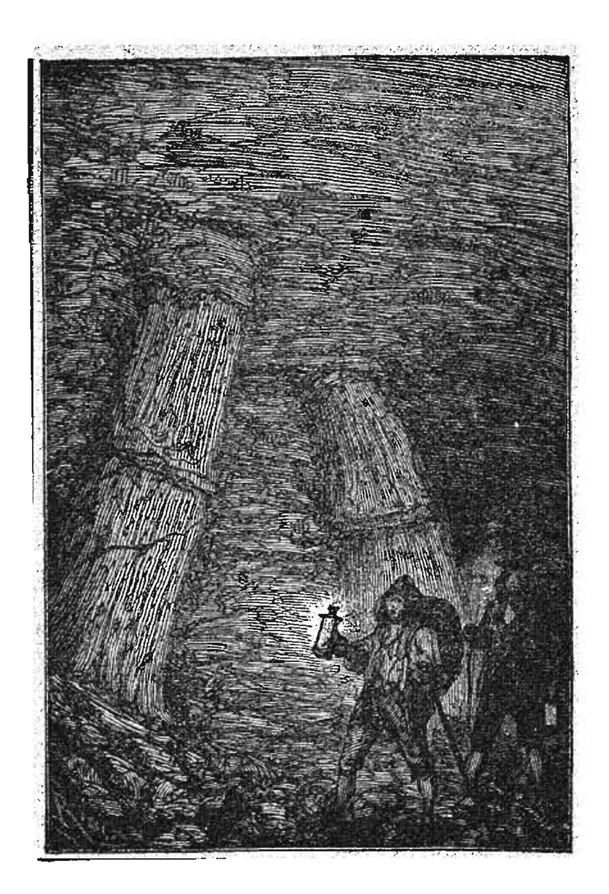
وفي اليوم التالي الذي هو اليوم الخامس من الشهر دخلنا بعد مسير ميل واحد في الصخور الديفونية وهي الرتبة الرابعة من الصخور القديمة الحياة وفي ذلك الدور تكاثرت انواع الابواق والاصداف والمرجان عما قبله واختلفت عنها في التركيب فالحيوانات القشرية المشابهة للسراطين أبدلت بحيوانات كبيرة الجسم هائلة المنظر يختلف طولها بين اربع اقدام وست ورأيت من آثار الاسماك انواعاً عديدة بعضها مغطى بصفائح عظيمة والبعض الاخر بحراشف صلبة جداً ولبعضها حسك كبير عظمي في رأسها لا اظنه الا آلة للمهاجمة والقتال وللبعض الآخر رؤوس كالتروس او دروع عظمية محببة تتقي بها شر الاولى

وما زلنا نسير بين الصخور الطباشيرية والرخامية وانا اراقب دفائن حيوانات ذلك الدور حتى المساء فتغيرت هيئة التربة تغيراً بيناً فبعد ان كانت تنكسر عليها اشعة مصابيحنا بنور ساطع صارت قاتمة اللون فاقتربت من الحائط ولمسته بيدي فاسودت فعلمت اننا في منجم من الفحم الحجري وكنا قد انتهينا من الصخور الديفونية الى الصخور الكربونية وهي صخور الرتبة الخامسة وهو الدور الذي تعاظمت فيه الانهار واتسعت مصابها وكثر طوفانها فجادت التربة وكثرت الرطوبة واعتدل

الهواء فكثر النبات وإخصب حتى صارت اعشابه كالاشجار العظيمة في زماننا وكست سطح الارض فصارت غياضاً متسعة تكوّن منها الفحم الحجري وفي ذلك الدور تكاثرت الزحافات والاصداف والاسماك وتعاظمت جثثها وكثر هيجان البراكين وإنقلاب البحار وخسوف الارض وشخوصها

وكان قد جاء المساء وحان وقت العشاء فاكلنا ولكن قليلاً مخافة ان يشتد بنا أوار العطش وما معنا من الماء لا يبرد غلة ظمآن ثم لعب النوم باجفاننا فاثقلها وبرؤوسنا فميلها فاضطجعنا للرقاد على فراش شديد السواد كاننا في حداد فقضينا ليلنا في وسط ذلك المنجم وفي اليوم الثاني اي السادس من الشهر استأنفنا المسير قبيل الساعة السادسة من الصباح وكنا جميعنا ملتزمين الصمت اما الاستاذ فلغيظه من بقاء الطريق افقية واما انا فلكدري من عناده وخوفي من نفود الماء واما هنس فلكون السكوت من طبيعته وكانت الحرارة باقية على الدرجة التي كانت عليها قبل خروجنا من مجرى السوائل البركانية واما طريقنا فكانت سهلة غير متعبة الا اني كنت متضايقاً بعض المضايقة من رائحة بي كربونات الهيدروجين المنبعثة من الفحم الحجري ولو كانت مصابيحنا من المصابيح العادية لاتقد الغاز المنتشر في ذلك المنجم واحدث تفرقعاً هائلاً كما يحدث احياناً في المناجم التي يستخرج الفحم منها وكانت انضمت بقايانا الى دفائن الحيوانات التي عاشت قبل الانسان بملايين من السنين بحيث لو دخل احد ذلك المنجم بعدنا ورأى اثارنا لاتخذها دليلاً على ان الانسان وجد على الارض في الدور الكربوني

وقرب العصر تبين لي ان لون الفحم اختلف عما قبل فانهُ بعد ان كان اسود حالكاً براقاً صار اسمر كالحاً فتأملتهُ عن قرب واذا هو لم يزل في حالة اللكنيت الظاهر فيه كل بناء الخشب فاخذت فلذةً منهُ بيدي وتفرست في حويصلاتها فاتضح لي انها من شجر الصنوبر فعلمت اننا دخلنا في صخور الرتبة



فعلمت اننا في منجم من الفحم الحجري (صفحة٩٧)

السادسة من الصخور القديمة الحياة وهي المعروفة بالبرمية وذلك الدور هو آخر ادوار الصخور القديمة الحياة

وبينما انا غائص في بحار الافكار الجيولوجية اتأمل في كيفية تحليل الفحم الحجري بفعل الطبيعة واتعجب من عظم اتساع ذلك المنجم الذي لم تنظره عين الانسان من قبل وقف الاستاذ وهنس عن المسير فانتبهت لوقوفهما واذا نحن في آخر القناة وبعد البحث تحقق الاستاذ ان طريقنا مسدودة لا منفذ لها فقال وقد علا وجهه بعض الخجل الآن طاب لي الرجوع فقد ايقنت اني لست على

الطريق التي أتبعها سكنوسيم فليس لنا الآن نرجع على اعقابنا وبعد ثلاثة ايام نكون في مجمع الطرق فنتبع الغربية منها وهي توصلنا الى قلب الارض

قلت هذا اذا بقي فينا قدرة على السير او مسكة من الحياة

قال وما تخاف وماذا عسى تخشى

قلت غداً لا يبقى عندنا من الماء لا قليل ولا كثير

فنظر اليَّ شزراً وقال . أو ما يبقى عندك ايضاً شيء من الشجاعة

فلم اجسر على المجاوبة وكان قد جاء وقت العشاء فتناولنا الطعام بنفس متقبضة وصدر ضيق ثم اضطجع الاستاذ وهنس فنسيا اتعابهما بالنوم واما انا فلم يغمض لي جفن حتى الصباح

الفصل الخامس عشر

لا ارى لزوماً للاسهاب في الكلام على الاتعاب التي قاسيناها في رجوعنا بل اقول بالاختصار اننا كنا نصل سرى الليل بسير النهار خوفاً من ان تدركنا المنية قبل وصولنا الى الطريق الغربية حيث علتنا الآمال بوجود الماء على ان زيادة التعب زادت عطشنا وكان ماؤنا قد نفد في آخر اليوم الاول فامتنعت عن الاكل واستولى عليَّ اليأس وانحطت قواي فصرت اجر نفسي بكل عناء وانا آيس من الحياة وكان الاستاذ يشجعني بالكلام ويجهد نفسه في احياء بعض الامل في فؤادي وكان هو نفسه في ضيق عظيم من شدة العطش والتعب الذي انهك قواه الا انه كان يتجلد مظهراً من الضعف قوة واما هنس فكان يسير امامنا صامتاً كعادته لا يعرف للشكوى مذاقاً ولا يدري للألم طعما

استوت عنده الامور وامسى عنده السهل والصعاب سواء

وما زلنا نغالب العطش والتعب حتى وصلنا في صباح اليوم التاسع من الشهر الى ملتقى الطرق وكنت على آخر رمق فسقطت على الارض كالقتيل وقد

طاب الموت في عيني تخلصاً من العذاب الذي كنت فيه اما الاستاذ فبعد ان تناول شيئاً من الطعام مع هنس تقدم الي واخذني بين ذراعيه والقى علي نظرة ملآنة شفقة وحنواً وكنت اعلم انهُ منزه عن التمليق فعرفت انهُ لم يظهر ما اظهر من الشفقة الا بعد ان طفح فؤاده محبة فادركتني هزة حركت اليه جوارحي فاخذت يديه بيديَّ المرتجفتين ونظرت اليه وانا غير قادر على الكلام فاغرورقت عيناه بالدموع ثم اخذ السقاء عن جنبه وادناه بعد فك وكائه الى فمي وقال اشرب وكان قد حفظ تلك الجرعة من الماء لمثل هذه الساعة فشربتها بلذة لا يقوم القلم بحق وصفها فانتعش فؤادي ورجعت اليَّ قواي فوقعت على يدي الاستاذ اقبلها شاكرًا لهُ صنيعه لاننا كنا كلانا في حالة واحدة من العطش الا انهُ اقوى مني على الصبر واقدر على التجلد فبدلاً من ان يبرد غليل ظماه بتلك الجرعة جاد عليَّ بها فكأنما جاد علي بروحه

وكان قد انطلق لساني فقلت للاستاذ لم يعد لنا الان الا الرجوع على اعقابنا سريعاً لعلنا نبلغ فوهة البركان وفينا بقية رمق فحوَّل الاستاذ وجهه عني بينما كنت اخاطبه وصار يتحاشى ان يقع نظره على نظري فكررت عليه الكلام بالحاح فاطرق برهة ثم نظر اليَّ وقال كنت آمل ان الجرعة التي اسقيتك اياها تحيي فيك النخوة والشجاعة فما رأيتك الا ازددت ضعفاً ويأساً

فعجبت من كلامه لاني ما كنت اظن انهُ يمانع في الرجوع بعد ان صار هو نفسه على شرف الهلاك من شدة العطش وقلت لهُ ألم تزل مصمماً على التقدم في جوف الارض بعد ان صرنا على الحالة التي نحن عليها

قال عمرك الله يا اكسيل ماذا تقصد بهذا الكلام أتريد ان اعدل عن هذه الرحلة بعد ان صرت على يقين تام بنجاحها

قلت حياتنا رهن اشارتك فان كان لا بد لك من التقدم فافعل ما تريد ولكن اعلم انك انت الذي قضيت علينا بالموت



فشربتها بلذة لا يقوم القلم بحق وصفها (صفحة ١٠١)

قال معاذ الله ان استصحبك كارهاً فعد مع هنس ودعني وشأني فاني قد آليت على نفسي ان لا اعود من هذه الرحلة ما لم اتمها

فعجبت من قوة عزمه وشدة صبره على الشدائد ووقفت حائراً متردداً بين الرجوع الذي كانت تدفعني اليه احكام الطبيعة قانون التشبث بالحياة وبين البقاء معهُ الذي كانت تقتضيه واجبات المروءة والولاء الا ان الرجوع كان عندي ارجح الكفتين واقوى الاحتمالين

اما هنس فكان واقفاً ينظر الينا بسكونه المعتاد ويسمع محاورتنا بسكينته

المعهودة غير مكترث بما يؤول اليه الامر مستعدًا للاقدام والاحجام بحسب اشارة الاستاذ فكأنه ليس بذي شأن في المسألة او كأن حياته ليست عنده بشيء فتقدمت اليه واخذت بده بيدي فتركني افعل فاشرت له الى فوهة البركان قائلاً هذه هي الطريق لا طريق الا هيه فاشار الى عمي قائلاً هوذا صاحب الامر فاخذتني الحدة وقلت له ويلك أعلى حياتك هو صاحب الامر يا مغفل ام انت تجهل اي حالة نحن فيها من الخطر الا تعلم انه لا مناص لنا من الموت ان وافقناه على غيه الا ترى ان العناد قد اعمى بصيرته فهو لا يعقل ماذا يفعل فاعلم انك اذا جاريته ترتكب اثمًا فظيعًا وحوبًا كبيرًا اذ تكون انت الجاني على نفسك وعلينا فهيا بنا نرجع به رغمًا عنه

الله في ارواحنا يا هنسُ ولّى الرجاء ونولى اليأسُ
فعد بنا فقد ازيل اللبسُ وان تفض يا هنس منا النفسُ
لا طلعت من بعد ذاك شمسُ

ثم جذبته بيدي فبقي ساكنًا ساكتًا كأنه صخر اصم

واذ ذاك تقدم نحوي الاستاذ. قال دع عنك هذه الحدة يا اكسيل واصغ لكلامي فانك لن تنال شيئًا من هذا الرجل الامين فملت بجانبي نحوه مصغيًا فقال اعلم يا هداك الله انه ليس من مانع يحول الان دون بغيتنا الا الماء فان كنا لم نرَ منه نقطة واحدة في الطريق الشرقية بين المواد البركانية والصخور الكلسية وطبقات الفحم الحجري فليس في ذلك ما يقطع باننا لا نصادف منه بقدر ما نشتهي في الطريق الغربية

فاومأت براسي بمعنى اني غير مؤمل ذلك فاستطرد الكلام قائلاً اعلم انني بينما كنت انت منطرحًا هنا على الارض فاقد الشعور توغلت قليلاً في هذه الطريق استكشف تربتها واستطلع تكوينها فرابتها تتخلل الصخور الاصلية وهي شديدة الانحدار فاذا اتبعناها لا نسير الا بضع ساعات حتى نبلغ منطقة

الصخور المخبية حيث لابد من وجود ينابيع غزيرة فان طبيعة تلك الصخور تستلزم وجود الماء وقلبي دليلي على ذلك

ثم اردف كلامه قائلاً اذكر ان خريستوف كولومب لما كان يبحث على العالم الجديد وطلب رجاله الرجوع الى بلادهم لشدة الضيق الذي كانوا فيه والامراض التي استولت عليهم سألهم مهلة ثلاثة ايام فاجابوه الى طلبه وفي خلالها اكتشف قارة اميركا اما انا مكتشف هذه الارض الجديدة فلا اسألك الا يوماً واحداً فاذا انقضى ولم نجد ما نبتغي اعود معك الى حيث تشاء

فلما رأيت عمي يقابل شدتي برخاء ويلتقي زعزعي برُخاء ويعاملني باللين الذي لم يكن في طبيعته رق له قلبي رغما عن الحدة التي كانت مستولية عليَّ فقلت له لك ما طلبت واني اسأل الله ان يحقق املك

ثم تقدمنا الى الطريق الغربية يتقدمنا هنس بحسب عادته ولم نبتعد مائة خطوة حتى دنا الاستاذ من حائط السرداب وقال هنا تبتدىء التربة الاصلية

فدنوت منه وانعمت النظر في الصخور فتاكدت صحة قوله وكنا اذ ذاك في طبقة صخور الشيست اولى الطبقات الثلاث المركبة منها التربة الاصلية وهي منضدة ركاماً على ركام تتلألأ بين الاخضر والازرق كعنق الحمام يتخللها خيوط من النحاس والمنغنيس والذهب والبلاتين وكنا ندوس بارجلنا تلك المعادن ونطأها بنعالنا اذ هي على ارتفاع قيمتها العرفية التي قدرها لها الانسان تسهيلاً للمبادلة التجارية عديمة القيمة عندنا اذ ذاك وجرعة من الماء كانت خيراً لنا منها وما اصدق من قال

والتبر كالترب ملقىً في اماكنه والعود في ارضه نوعٌ من الحطبِ

ولله در من يقول

احبُّ لغلـة الظمآن يوماً مسيل الماء من سيل النضارِ

وبعد قليل انتهينا من صخور الشيست الى طبقة النيس المتـازة بتناسب

صفائحها وانتظامها الهندسي ثم الى الميكاشيست الذي يدهش البصر بناصع بياضه

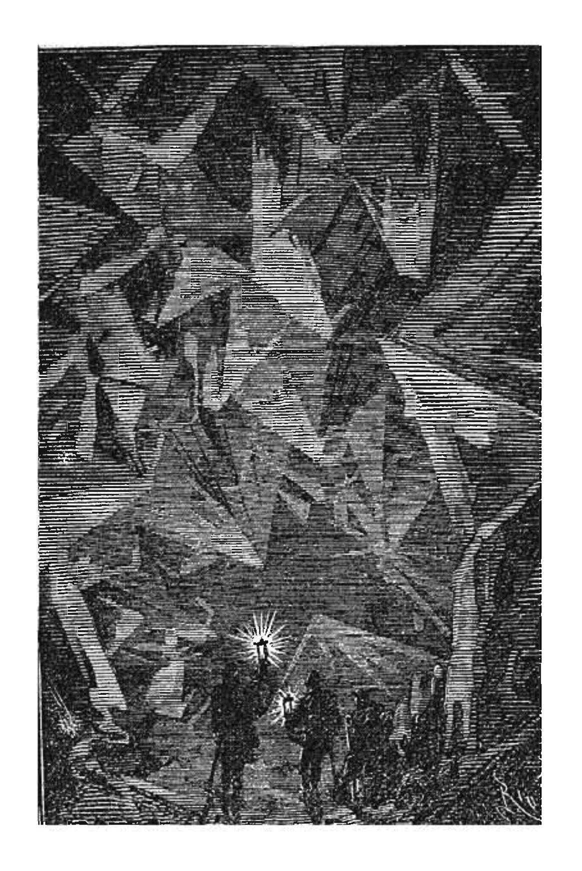
ولم نزل نسير حتى الساعة السادسة بين تلك الصخور المتبلورة كاننا نسير في قلب ماسة مجوفة او كاننا في قصور الجنة الا انهُ نضب كوثرها ثم تغيرت هيئة الصخور تغيراً بيناً وضعف انعكاس النور عليها وكنا قد دخلنا منطقة الصخور المحببة اصلب الصخور واقواها

ولما حانت الساعة الثامنة من المساء اعياني التعب واشتد بي العطش ولكنني لم اظهر شيئًا على نفسي اشفاقاً على الاستاذ من ان يضطر الى الوقوف فيستولي عليه اليأس لانقضاء المهلة التي طلبها بدون ان يجد شيئًا من الماء غير اني بعد ان تجلدت ساعة غلب عليَّ التعب والأين حتى لم اعد قادرًا على نقل رجلي كانما ادركني حين الحين فصرخت صرخةً وسقطت على الارض فاقد القوى فانثنى نحوي الاستاذ ووقف يتأملني برهة وعلائم الحزن ظاهرة على وجهه ثم قال بصوت الآيس قطع الرجاء وفي ذاك الوقت غبت عن الهدى ولما عاد اليَّ رشدي رأيت عمي والدليل مضطجعين على قيد رمح مني ملتفاً كل منهما بعباه فلم ادرِ اهما في يقظة ام في منام اما انا

فكان الغمض عن عيني بعيداً وكان مجافيًا للنوم جفني

وكيف ينام من يرى شخص الموت قادمًا اليه ماثلاً بين عينيه وقد صدق عمي اذ قال قطع الرجاء لاني في الحالة التي كنت فيها من الضعف لم اكن قادرًا لا على التقدم في قلب الارض ولا على الرجوع الى سطحها

وكان فوقنا من القشرة الارضية سمك ثلاثة اميال فخيل لي انها متحاملة على نحري بكلكلها مرتكزة على صدري بكل ثقلها وكنت اجهد نفسي لكي اتقلب من جنب الى اخر فلا استطيع حراكاً وبينما انا في تلك الشدة قام هنس من مضجعه واخذ المصباح بيده وسار في الدهليز حتى توارى عن عيني فاضطربت وجلاً لذهابه وحسبت انهُ تركنا قاصداً الرجوع الى سطح الارض وكان الاستاذ



كاننا نسير في قلب ماسةٍ مجوفة (صفحة ١٠٥)

لم يزل راقداً فاردت ان اوقظه ولكن لساني انعجم عن الكلام فصرت انادي ولا اسمع لصراخي صوتاً فكنت كمن ينادي في حلم غير اني بعد برهة تعقلت الامر فخجلت لسوء ظني في ذلك الرجل الذي لم ارَ منهُ حتى ذاك الوقت الا الامانة والولاء ثم فطنت الى انهُ توجه نحو قلب الارض فلم يبقَ عندي محل للريب في امره اذ لو كان قاصداً الرجوع لذهب الى الوراء وليس الى الامام

الفصل السادس عشر

بعد ذهاب هنس اخذت افتكر فيما عسى ان يكون السبب الذي حمله على الانسلال تحت جنح الدجى فترجح عندي بعد الاخذ والرد انه سمع هدير ينبوع من الماء في ذلك الليل الهادئ فذهب يستقصيه

وبعد أن مضى على ذهابه ساعة قضيتها بين عاملي اليأس والامل سطع نور مصباحه في اقصى الدهليز فرأيته مقبلاً على عجل فتوسمت في ذلك خيرًا وما زال نظري يرافقه حتى وصل الى الاستاذ وايقظه فقال له عمي خيرًا يا هنس فهل من شيء حدث

قال نعم ماء سمعت هديره

فلما سمعت تلك البشرى زالت في الحال اوجاعي وانطلق لساني قائلاً

يا هنس بشرت بخير دانِ　　وعدت باليمن وبالامانِ

احييت في نفوسنا الاماني　　شكرًا لمسعاك مدى الزمانِ

بالقلب يا هنس وباللسانِ

ثم وثبت نحو الدليل واخذت يديه بيدي وجعلت اشكر له سعيه واهتمامه وكان الاجدر بي ان اطلب عفوه جاثيًا على ركبتي لاساءتي الظن به بينما كان يسعى في سبيل انقاذي من الهلاك ولكن الخجل منعني من ذلك

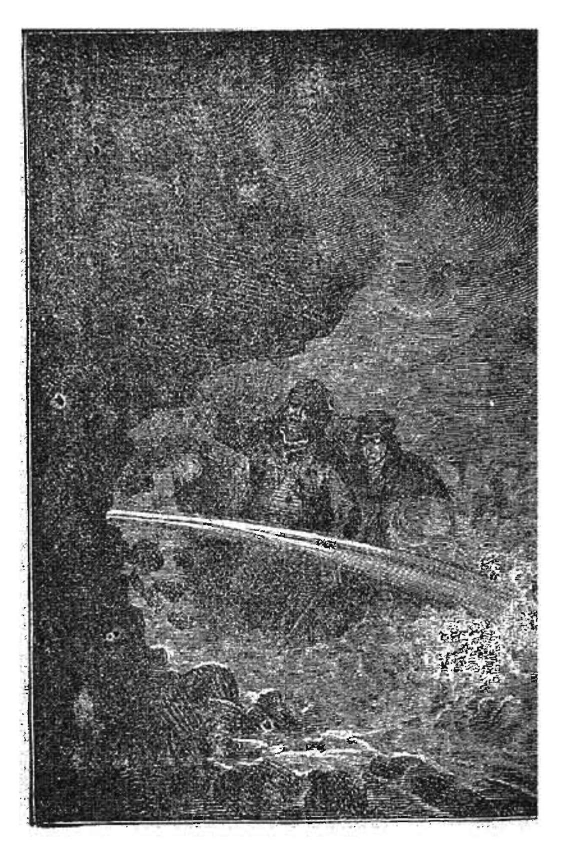
ثم سأله الاستاذ اين يوجد الماء فاشار بيده الى اسفل الدهليز فانطلقنا في الحال على اثره ونحن لا نصدق بالنجاة وبعد ان سرنا ميلاً سمعت دويًا بعيدًا في قلب الصخور التي تتخللها الطريق ثم اخذ ذلك الدوي يزداد بالتدريج بتقدمنا حتى صار كهدير البحر الزاخر فقال الاستاذ نعم هذا صوت نهر غزير يجري في قلب هذه الصخور القائمة حولنا ثم اخذنا نجد السير وقد احيي الامل قوانا رجاء ان نعثر على مصبه او نهتدي الى منبجس منه فننقع الصدى ونكون قد وجدنا على الصوت هدى

اما النهر فبعد ان كان يجري فوق روؤسنا تحول الى يسارنا وقرب منا مجراه حتى لم يعد بيننا وبينهُ الا حاجز من الغرانيت سمكه قدمان او ثلاث فصرت امرّ يدي على الحائط حيناً بعد حين على امل ان اصادف صخراً راشحاً فارطب بنداه لساني ولكني لم اجد للماء عيناً ولا اثراً

ثم سرنا ميلاً آخر بدون ان نصادف الماء فعلمت ان الدليل لم يتجاوز في اثناء غيبته المحل الذي وصلنا اليه بل قفل راجعاً حالما تحقق ان الدوي الذي سمعهُ هو هدير ماء وبعد برهة تبين لنا ان الطريق اخذت تبتعد شيئاً فشيئاً عن مجرى النهر فرجعنا على اعقابنا الى ان وصلنا الى المحل الاقرب من صوته واذ ذاك دنا هنس من الحائط ووضع اذنه على الصخر واخذ يبحث عن النقطة التي يسمع منها هدير الماء اقوى مما يسمع من غيرها ولم يكن كحل عقال حتى اهتدى اليها وهي في الحائط الايسر على علو ثلاث اقدام من الارض

وكنت في اثناء ذلك اراقب عمله غير عالم بما يقصد ولكنني لم البث ان فطنت الى مراده وذلك لما رأيته عمد الى المعول فايقنت ببلوغ الآمال ثم طفق ينحت الصخر نحتاً بضرب خفيف متواصل حذراً من ان يتكسر فتنطبق علينا صخور الدهليز بما فوقها من طبقات القشرة الارضية فتسحقنا سحقاً او ينفتح في الحائط فوهة كبيرة فيتحول النهر الى الدهليز فنضطر الى الشرب فوق ما نشتهي على انهُ كان يخيل لي اذ ذاك لشدة ما بي من الظماء اني قادر على شرب ماء النهر باجمعه مهما كان غزيراً

ولم يمضِ ساعة من الزمن حتى بلغ عمق الثقب قدمان واتساعه بضع اصابع وكان صوت الماء يزداد قوة بالتدريج على اثر الضرب وبينما نحن على ذلك واذا بصوت كصفير الخلقين البخارية خرج من الصخر وانبجس الماء على اثره بشدة فوقع على الحائط الايمن وكاد يلقي هنساً على الارض بقوة اندفاعه فصفقت قائلاً



وانبجس الماء على اثره بشدة (صفحة ١٠٨)

يعيش هنس ويرقى   اوج السعود ويبقى
ولا يزال دواماً   يسعى لخير ويلقى

وفي الحال مددت راحتيَّ لآخذ بهما من الماء ما ابرد به غليل الظماء ولكنني اضطررت الى ارجاعهما صفراً لان الماء كان في درجة الغليان وبعد دقيقة نعج السرداب من البخار وجرى الماء جدولاً يتعوج بين الصخور منساباً انسياب الافعى فاخذنا منه شيئاً وشرعنا نبرده بتفريغه من ركوة لشكوة وريثما صارت حرارته في الدرجة الخمسين اخذنا نعب عباً كالجمال حتى اكتفينا فانتعشت

ارواحنا بعد ان كادت تزهق وانشرحت صدورنا بعد ما اوشكت ان تتمزق من الحرج فصرنا نمزح ونضحك ثم قدمنا لهنس فروض الشكر وتوافقنا على تسمية ذلك الجدول باسمه فدعي منذ ذاك الوقت بجدول هنس

وبعد ذلك جلسنا نتناول الطعام وكنت قد انقطعت عنه منذ ثلاثة ايام فاكلت بقابلية بل بشراهة عظيمة ولما اكتفينا قلت للاستاذ يجب علينا الان ان نسد الفوهة التي فتحناها لكي يكون لنا مخزن من الماء نعود اليه وقت الحاجة

فقال لا ارى لذلك لزوماً لاني اظن ان هذا الينبوع دائم لا ينقطع

قلت دعنا نفعل ذلك احتياطاً فما المحاذر بخاسر وليس في الاحتراس من باس

ثم ملأنا القرب جميعها وشرع هنس يحاول سد الفوهة ولكنه لم يتمكن من ذلك لقوة اندفاع الماء فلم ينل الا احراق اصابعه

فقلت للاستاذ يظهر من شدة الضغط الذى على الماء ان سطحه عالٍ جداً

قال لا شك في ذلك فان كان منبعه على مساواة سطح الارض فيكون علوه اثنين وثلاثين الف قدم وقوة ضغطه تعادل قوة ضغط الف جلد

ثم قال دعنا من هذا فقد خطر ببالي امر حري بالالتفات

قلت هات

قال ارى ان سد الفوهة هو عين الغلط لاننا اذا نفد الماء من قربنا ولم نجد ينبوعاً آخر نملأها منه لا يمكننا الرجوع الى هنا لاننا نكون اذ ذاك على بعد عشرة ايام من هذا المحل فالاولى ان نترك الجدول جارياً امامنا فاننا نهتدي به الى طريقنا ونستقي منه وقت الحاجة

قلت بارك الله فيك يا عماه ونعم الرأي رأيك فوالله ان كان هذا الجدول مؤنساً لنا في رحلتنا فلا بد من نجاحها

فتبسم الاستاذ فرحاً لما رآني قد نفيت عن قلبي اليأس ووثقت بالنجاح



فيؤنسنا بهديره ويطربنا بخريره (صفحة ١١٢)

وقال هكذا احب ان اراك

ثم تأبطت قربتي استعداداً للمسير فقال مهلاً يا اكسيل ماذا تفعل فان النهار لم يطلع بعد ونحن في حاجة الى النوم

وكنت قد نسيت الوقت فنظرت الى الكرونومتر وعلمت اننا في الساعة الثالثة بعد نصف الليل فاضطجعنا للرقاد منشرحي الصدر مرتاحي البال

ولما استيقظت من نومي في اليوم الثاني عجبت في بادئ الامر من زوال عطشي لاني كنت قد ألفت الظمأ في الايام الاخيرة كما يألف السقم السقيم بغير

اني لم البث ان انتبهت لخرير الماء فتذكرت ان ايام الشدة انقضت فانتصبت على قدمي بنشاط وجعلت انتقل فوق الصخور التي تتخلل مجرى الجدول وانا منشرح الصدر منبسط الوجه وكنت ارى نفسي خفيف الجسم قوي العزم عليَّ الهمة فلو دعاني الاستاذ اذ ذاك الى الرجوع على اعقابنا لعارضته أشد المعارضة وافرغت جعبة البراهين في سبيل اقناعه بوجوب اتمام الرحلة على انهُ لم يحوجني الى ذلك بل ريثما تناولنا الطعام أمر هنساً بالتقدم وسار على اثره فتبعتهما والسرور ملء فوادي

اما الطريق التي سلكناها في ذلك اليوم واليوم التالي فتكاد تكون افقية الا انها كثيرة الاعوجاج والانحراف ومرجعها الى الجهة الجنوبية الشرقية وكان عمي لا يزال يراقب انحدار السطوح وانحرافها ويعلق نتيجة حسابه على الدفتر المخصص بذلك وكان جدول هنس يصحبنا فيؤنسنا بهديره ويطربنا بخريره فيخيل لي اني اسمع صوت مناجاة الارواح التي تأهل المياه

كأن خرير الماء يجري على الحصى   وقد نشر الليل البهيم جناحهُ

وخيم فوق الارض والارض بلقعٌ   مناجاة ارواحٍ أهلنَ صفاحهُ

ولما جاء المساء مساء اليوم العاشر من شهر لوليو راجع الاستاذ حسابه فتبين لهُ اننا على عمق خمسة وثلاثين الف قدم تحت سطح البحر وعلى بعد اربعين ميلاً من ريكياويك الى الجنوب الشرقي

وفي صباح اليوم الحادي عشر من الشهر اخذت الطريق تزداد انحداراً شيئاً فشيئاً حتى كادت تصير عمودية فصرنا تارة نتدرج الى الامام ونحن نتوكاء على عصينا وطوراً نتدلى بواسطة الحبل بالكيفية التي ألفناها وكنت قد تعودت التدلي فيما مضى فلم اصادف في ذلك اليوم صعوبة لا سيما ان القسم الاكبر من الطريق على شكل لولب فكنا نسير عليها بسهولة كأننا نسير على درج بنته الجبابرة الاوائل بالجنادل وما جاء اخر النهار الا ونحن على عمق عشرة اميال تحت سطح

البحر

ولم تزل طريقنا على الدرجة نفسها من الانحدار او ما يقاربها حتى اليوم الخامس عشر من الشهر فاخذ انحدارها يقل حتى صارت بين الافقية والعمودية ولما جلسنا للغذاء في وقت الغداة اخبرني الاستاذ اننا صرنا على بعد خمسين ميلاً من ريكياويك فقلت له ان صح حسابك فلم نعد تحت جزيرة ايسلاندا

قال أنظن اننا الان تحت الاوقيانوس

قلت سنتحقق من ذلك ثم اتيت بالخارطة واخذت قياس الخمسين ميلاً بالبيكار وقست تلك المسافة من ريكياويك الى الجنوب الشرقي فاتضح لي اننا تجاوزنا راس بورتلند وصرنا تحت مياه الاوقيانوس

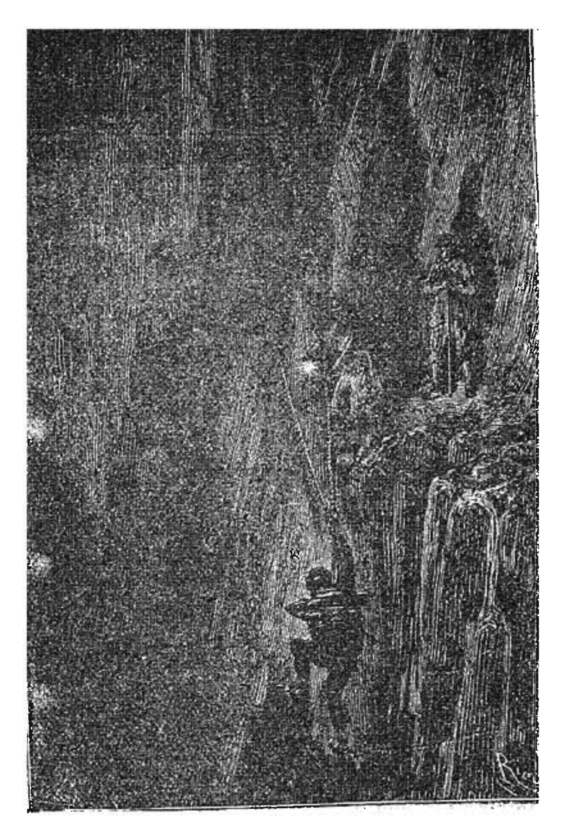
ولما اخبرت الاستاذ بذلك اهتز طرباً وقال اذن نحن الان تحت البحر تسير فوق رؤوسنا السفن وتتصادم الامواج وتتلاعب الاسماك

اما انا فاخذني القلق لما تيقنت اني اتجول تحت مياه الاوقيانوس على انهُ في الحقيقة لا فرق بين وجودي تحت الجبال او تحت المياه اذا كان الدهليز متيناً اما اذا خسف سطحه تحت الثقل فالموت واحد سواء كان سحقاً او غرقاً

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الاسباب والموت واحدُ

ثم تذكرت ان في مدينة نيوكاستيل مناجم من الفحم الحجري تمتد تحت البحر الى مسافة بعيدة والناس مع ذلك تدخلها بلا خوف وتستخرج الفحم منها فسكن جاشي واطمأن بالي

وفي مساء اليوم التاسع عشر من الشهر وصلنا الى مغارة فسيحة وكان ذلك اليوم يوم سبت فنقد الاستاذ هنساً ثلاثة ريالات بحسب الشروط المبرمة بينهما وتواعدنا على ان نقضي نهار الاحد في ذلك المحل لاننا كنا فى اشد الحاجة الى الراحة



وطورًا نتدلى بواسطة الحبل بالكيفية التي النناها (صفحة ١١٣)

الفصل السابع عشر

من لم يزل يذكر عهد المدرسة وما يلحق الصبيان من الفرح عندما يمنحهم رئيسها يوم اجازة غير معتادة يمكنه ان يتصور مقدار ما الم بي من السرور وقت ما سمعت بشرى الاستاذ بالانقطاع عن المسير في اليوم التالي فنمت في تلك الليلة جزلاً منشرح الصدر لاني كنت في اشد الحاجة الى الراحة اذ اننا منذ دخولنا في جوف الارض لم ننقطع يوماً واحداً عن المسير ولما جاء الصباح اخذت اتجول في المغارة التي كنا فيها وهي فسيحة الجوانب عالية السقف مسطحة الارض وفي

وسطها جدول هنس يستل استلال الافعوان وقد بردت مياهه لبعد المسافة بين منبعه والمغارة

ثم اخذت اتفكر في كيفية تكوين السرداب الذي سرنا فيه كل المدة الماضية فقلت من المعلوم ان الارض كانت ملتهبة فلما بردت قشرتها لكثرة ما اشعت من الحرارة انكمش جسمها واخذ في الصغر حجمها فتباعدت اجزاؤها من جهة وتقاربت من جهة اخرى فحدث فيها شقوق عديدة صارت تنبعث منها المواد البركانية التي كانت تقذفها الحرارة الداخلية وما الدهليز الذي نحن فيه الا واحد منها على اني عجبت كيف ان السوائل البركانية لم تترك اثراً على جدران القسم الاسفل منه كما فعلت في القسم الاعلى وبينما انا في وادي التفكر اجوب واجول وارسل رائد التأمل بين عرضه والطول دعاني الاستاذ لتناول الطعام وما فرغنا من الاكل حتى اخرج دفتر الملحوظات اليومية من جيبه وقال يجب عليّ الان ان اعين النقطة التي نحن فيها بغاية الضبط والدقة لكي يمكنني بعد رجوعي ان ارسم خارطة الطريق التي سلكناها والحقها بالكتاب الذي ساحرره في شرح رحلتنا هذه

قلت سيكون هذا الكتاب جليل الفائدة ولكن هل تكون تلك الخارطة على جانب كافٍ من الصحة

قال نعم فاني قد اخذت قياس كل انحدار وكل انحراف في الطريق منذ خطونا فيها الخطوة الاولى وانا واثق بصحة تلك القياسات

ثم نظر الى الابرة المغنطيسية وبعد ان حرر بعض ارقام بوجه السرعة قال نحن الان على بعد واحد وثلاثين فرسخاً من قاعدة جبل اسنيفل الى الجنوب الشرقي وعلى عمق ستة فراسخ من سطح البحر

فقلت وقد اخذني العجب أعلى عمق ستة فراسخ نحن الان

قال نعم

قلت ستة فراسخ ثمانية عشر ميلاً هاشمياً

قال ثمانية عشر ميلاً هاشمياً وان شئت قل خمسة وثلاثين كيلومترًا او مائة وخمسة آلاف قدم

فبقيت شاخصاً الى الاستاذ ولوائح الدهشة ظاهرة على وجهي

فقال مالك

قلت اذن قد تجاوزنا اقصى الحدود المقررة للقشرة الارضية

قلت هذا مما لا ريب فيه

قلت وكان من الواجب بناء على مذهب القائلين بالتهاب قلب الارض ان تكون الحرارة هنا على درجة الف وخمسمائة

قال كذا لولا ان ذلك المذهب فاسد

قلت وان تكون هذه الصخور التي حولنا ذائبة

قال ها قد رايت رأي العين فساد هذا المذهب وكيف ان الحوادث جاءت بحسب العادة مكذبة اقوال العلماء

وكم زاعمٍ ان الحقائق خيمت لديه ويأبى الدهر تصديق زعمهِ
فيحسب ان الحق لم يعدُ رايه ويرجع عنه بعد حين برغمهِ

قلت لم يعد لي سبيل الى المناضلة والانكار ولكني لا ازال متعجبًا مما ارى

قال من يعش يرَ ما لم يكن في الحسبان فكم درجات الحرارة الآن

فنظرت الى الترمومتر وقلت سبع وعشرون

قال ليس الفرق بين الحقيقة واقوال العلماء الا ١٤٧٣ درجة فقد اتضح لك اذن يا اكسيل ان مذهب تدريج الحرارة فاسد وان همفري ديفي لم يغلط في حكمه واني لم اركب متن الشطط بموافقتي لرأيه فبماذا تجيب

قلت قطعت جهيزة قول كل خطيب

وكنت في الحقيقة متعجبًا غاية العجب مما رأيته لاني كنت ابعد الناس عن

الاعتقاد بصحة مذهب ديني وبعد ان فكرت في الامر برهة قلت في نفسي لمَ لا يجوز ان تكون التربة التي نحن فيها ليست كغيرها وما المانع من ان تكون لها احوال خصوصية من حيثية التركيب بحيث لا تنفذ منها الحرارة على اني لم ابدِ ذلك الفكر خوفًا من ان يعده الاستاذ من قبيل المكابرة والمقاومة في الحق الواضح

ثم قلت لهُ اني معتقد كل الاعتقاد بصدق حسابك فاسمح لي ان ابني عليه حكمًا يهمنا النظر في امره

قال قل ما بدا لك

قلت ان نصف قطر الارض في المنطقة التي نحن فيها منطقة ايسلاندا يبلغ نيفًا وسبعة ملايين قدم

قال سبعة ملايين وستة وثلاثين الفًا وبضع مئات

قلت قل سبعة الاف كيلومتر

قال ايهِ

قلت من اصل السبعة الاف كيلو متر تجاوزنا خمسة وثلاثين

قال نعم

قلت بعد ان سرنا مائة وستة وثمانين كيلومترًا افقيًا

قال نعم

قلت وذلك في مدى عشرين يومًا

قال ايهِ

قلت فالمسافة التي قطعناها ليست الا جزءًا من مائتي جزء من نصف قطر الارض فاذا استمررنا على المسير بهذه الكيفية لا نبلغ مركز الارض الا بعد اربعة الاف يوم اي احدى عشرة سنة تقريبًا

فاطرق الاستاذ واحجم عن الجواب

فاردفت كلامي قائلاً وهناك ملحوظ اخر جدير بالالتفات وهو اننا اذا كنا لا

تتعمق فرسخاً الا بعد ان نسير مسافة خمسة فراسخ افقياً فسنخرج من دائرة الكرة الارضية قبل ان نبلغ مركزها بزمان طويل

فاحتدم الاستاذ غيظاً وقال بحدة شديدة ما هذه القياسات الكاذبة والاستنتاجات الفاسدة والسفسطة العمياء والمجاجة الشنعاء او ما انت الذي كنت قست الطريق التي نحن فيها بالطريق الشرقية وطلبت الرجوع الى ظاهر الارض فما لبثت ان كذبك العيان وليس بعده برهان

قلت بلى

قال ومن اين علمت اننا لا نصل قريباً الى طريق عمودية تنتهي الى مركز الارض على خط مستقيم على انهُ قد سلك هذه الطريق رجل قبلي وانتهى منها الى قلب الارض وانا سائر على اثره فلا بد لي من ان افوز بالنجاح كما فاز هو من قبلي

قلت ذلك ما ارجوه غير انهُ يجوز لي ....

فقطع كلامي قائلاً لا يجوز لك الا السكوت متى اردت ان تأتي بمثل هذا الهذيان

فعلمت ان عمي على وشك الظهور بمظهره المعهود ووقفت منهُ على حذر ثم بعد ان سكت برهةً نظر اليَّ وقال على اي درجة ترى المانومتر

قلت على درجة عالية جداً

قال ألم ترَ كيف اننا تعودنا بالتدريج استنشاق الهواء الكثيف وانا اناشدك الله يا اكسيل هل تجد نفسك تشكو من هذا الهواء ضرراً

قلت لا اللهمَّ سوى بعض الالم في الاذنين

قال ذلك لا يعباء به ويمكنك ازالة هذا الالم بسرعة التنفس بحيث لا ينحصر الهواء في صدرك طويلاً

وكنت قد آليت على نفسي ان لا اعارض الاستاذ في شيء فقلت اجل واني لواجد لذة في الاقامة في وسط هذا الهواء الكثيف ألا ترى باي قوة ينتقل

نبه الصوت

قال بلى واظن ان الرجل الاصم اذا اقام هنا زمنًا يسيرًا يعاوده السمع

فقلت في نفسي بل اظن ان الرجل الصحيح يصيبه الصم بعد مدة ثم قلت بصوت عالٍ لا بد ان هذه الكثافة لا تزال تزداد شيئًا فشيئًا كلما اقتربنا من مركز الارض

قال نعم ولكن ثقل الاجسام يخف بالتدريج ايضًا فانك لا تجهل ان الثقل ليس الا نتيجة فعل الجاذبية في الاجسام وذلك الفعل يبلغ اشد قوته على سطح الارض ويتلاشى تمامًا في مركزها حيث لا ثقل للاجسام البتة

قلت نعم كما انهُ لا ثقل لها في المنطقة الحاجزة بين الارض والقمر فهناك الكوكبان يتنازعان الجسم فيبطل فعل الواحد فعل الاخر وفي قلب الارض تتنازع الجسم اشعة الجاذبية المنتشرة حوله واذا كانت كلها متساوية من كل الجهات فتتوازن القوى ويقال اذ ذاك ان الجسم في حالة توازن

فقال ايه

قلت أفما يصير الهواء بقوام الماء اذا استمرت كثافتهُ على الازدياد شيئًا فشيئًا

قال بدون شك وذلك تحت ضغط سبعمائة جلد وعشرة اجلاد

قلت وماذا يكون منهُ وراء ذلك

قال تستمر كثافتهُ على الازدياد بالتدريج

قلت وكيف نتمكن اذ ذاك من التقدم

قال نملأ جيوبنا حصىً لتثقل أجسامنا

قلت لله درك يا عماه فانت فكاك المشاكل وعندك لكل سؤَال جواب وكأنما عناك من قال

سله عما شئت فيما شئته ‌ ‌ ‌ ‌ وتعجب بعد ذا مما يساق

ووقفت عند هذا الحد من البحث لانني خشيت من ان انتهي الى وجود

مانع يحول دون الوصول الى مركز الارض فتعاود الاستاذ الحدة على انه من الامور المقررة ان الهواء اذا بلغ ضغطه بضعة الوف من الاجلاد يتجمد فيصير كالصخر فعلى فرض اننا نجد وسيلة لاجتيازه وهو بقوام الماء بدون ان تتمزق رئاتنا من ثقله فهل من سبيل الى التقدم بعد ان يصير بقوام الجليد غير انني لم ابين للاستاذ هذا الاعتراض ولو فعلت لجاوبني بان سكنوسيم سار قبله ونجح الخ مع انه من المعلوم ان البارومتر والمانومتر لم يكونا معروفين في الجيل السادس عشر فكيف تحقق سكنوسيم من وصوله الى قلب الارض

ثم صرفنا بقية النهار في المباحثة والمداولة وكنت اوافق الاستاذ على جميع ارائه واغبط هنساً على راحة فكره لانه لم يكن يكترث بما نحن في صدده ولا يتعب فكره وقلبه في البحث عن العلل والنتائج بل كان يسير خلي البال كيفما ساقته المقادير

الفصل الثامن عشر

بعد قيامنا من المغارة التي كنا فيها اخذت طريقنا تزداد انحداراً شيئاً فشيئاً حتى صارت اقرب الى العمودية منها الى الافقية فصرنا نتعمق في الغالب مسافة فرسخ او اكثر في اليوم اما التربة فلم تختلف بشيء عما كانت عليه في الايام الاخيرة ولذلك اصبح السير في تلك الطريق مملاً فلا مناظر تلهو بها العيون ولا حوادث تساق اليها الاحاديث والحديث ذو شجون

اذا طال الطريق عليك يوماً ... وضقت به ولم تطق المسيرا

فشدّ من الحديث له جياداً ... تكاد من الفروهة ان تطيرا

وكنا نسير في كل يوم اثني عشرة ساعة لا يتكلم الواحد منا في اثنائها الا بضع كلمات تدفع اليها الضرورة

فكأننا خرس بدون اشارة ... وعلى الاحق جوامد تتحرك

ولم نزل على ذلك اياماً عديدة بدون ان يحصل لنا فيها شيء يستحق

الذكر حتى اليوم السابع من شهر اغسطس يوم نحس مستمر لا ازال حتى الان اضطرب لذكره اضطرابًا وارتعش لهولهِ ارتعاشًا

كان ذلك اليوم يوم خميس وكنا قد بلغنا من العمق اثنين وعشرين فرسخًا اي انهُ كان فوق رؤوسنا من الصخور والمدن والبحار ما يبلغ سمكه مائة ونيفًا وثلاثين كيلومترًا وكانت طريقنا في ذلك اليوم قليلة الانحدار فبينما انا سائر في المقدمة وبيدي مصباح من مصابيح رومكورف مرّ ذكر ابنة عمي في خاطري فتأججت في فؤادي نيران الاشواق اليها وبقيت ساعة افتكر فيها وفيما عسى ان يحل بها اذا طالت غيبتنا عنها ولما انتبهت لنفسي لم اسمع لصاحبيَّ حسًّا ولا جرسًا فالتفت الى الوراء فلم اجدهما فقلت لعلي اسرعت في المسير على غير انتباه حتى تواريت عن نظرهما او عرض لهما امر اوقفهما عن المسير فانثنيت راجعًا على عقبي لاتبين خبرهما ولكني سرت نحوًا من نصف ساعة بدون ان اصادفهما فوقفت مرتابًا في امري ثم اخذت اناديهما باعلى صوتي فلم اسمع سوى رجع الصدى وعقبه سكوت مخيف

ففي تلك الساعة داخل نفسي القلق وخامر قلبي الوجل واقشعر بدني لوحدتي في جوف الارض ثم اخذت اسكن جاشي فقلت بصوت عال مهلاً يا اكسيل فليس في الامر ما يوجب القلق فانت على الطريق التي عليها صاحباك ولا خوف عليك من ان تضل اذ لا طريق سواها فاذا استمررت على المسير تلحق بهما بدون شك لانك متأكد انك كنت سائرًا امامهما فهدأ روعي بعد ذلك ثم سرت نصف ساعة ووقفت منصتًا علي اسمع نداء او حسيسًا والهواء على ذلك العمق ينقل الصوت بقوة غريبة لشدة كثافته فلم اسمع شيئًا على الاطلاق مع ان المسافة التي قطعتها ايابًا منذ انتبهت لنفسي تزيد على المسافة التي قطعتها ذهابًا منذ وقع نظري على صاحبيَّ آخر مرة فراجعني اذ ذاك الخوف واشتد خفقان قلبي حتى صرت اسمع ضرباته المتداركة باذني وكنت لا اريد ان اقتنع

باني تهت عن الطريق فقلت لربما ان عمي وهنسًا لما افتقداني ولم يجداني رجعا على عقبهما كما فعلت انا ظنًا منهما اني متأخر وراءهما وان كان الامر كذلك فسادركهما عن قريب قلت ذلك وانا غير موقن بصحة ظني على اني اخذت اعدو عدوًا غير مبالٍ بالصخور المتذربة التي كنت اسير عليها ولا شاعر بتعب المسير وفي اثناء ذلك تذكرت جدول هنس زاعمًا اني سائر واياه غير ملتفت الى انقطاع خرير المياه فحمدت الله الذي الهم الاستاذ ان يطلقه على طريقنا واطمأن بالي لعلمي اني اذا سايرته لا بد ان اهتدي الى محل وجود رفيقيَّ ثم تنبهت الى اني غير سامع صوت خريره فوقفت مضطربًا ونظرت الى الارض فلم ارَ للماء من اثر فطارت اذ ذاك نفسي شعاعًا وانخلع فؤادي وجلاً وارتياعًا وبقيت برهة تختبط في رأسي الافكار اختباط الامواج في البحار فلا اقدر على جمع شتاتها ولما هدأ اضطرابي بعض الهدو تعقلت الامر فعلمت اني بينما كنت سائرًا امام صاحبي غارقًا في ابحر افكاري دخلت شقًا يتفرع من الدهليز ولم انتبه لانقطاع خرير الماء وبقي الجدول سائرًا مع صاحبيَّ على الفرع الاخر الذي لا بد ان تكون ارضه اشد انحدارًا من هذا

ففي تلك الساعة ارهقني النزع وغمرني الجزع وادركني الوله والهلوع وغرقت في بحرين من الافكار والدموع وايقنت اني هالك لا محالة واستولى علي اليأس وما ادراك ما اليأس هو عامل لا يقوم القلم بحق وصفه ولا تساعد اللغات البشرية على التعبير عن تاثيره في النفوس فلا يدركه الانسان الا اذا وقع فيه عامل يخنق النفس خنقًا ويسحق القلب سحقًا يضيق فسيح الارض في عين الانسان ويبدل بالسواد سائر الالوان وكفاه وصفًا ان الموت لولاه ما كان مرًا

ألا لا حبذا ساعات يأس تشيب بيأس روعتها الجنينا

وما يرجو ابن آدم من حياة اذا ما اليأس كان له قرينا

ثم اردت ان افتكر فيمن تركت على سطح الارض فلم يمكني جمع افكاري



ذكرت الله فانتصبت جاثيًا على ركبتي (صفحة ١٢٤)

المتضعضعة ثم خيال ابنة عمي ورسم بيته ومدينة همبرج امام عينيَّ مرور الاشباح في الحلم ثم مرت في ذهني حوادث السفر والمناظر التي شاهدناها منذ خروجنا من همبرج حتى دخولنا في جوف الارض فرأيت مدينة كوبنهاغن وقبة كنيستها وريكياويك والموسيو فريدريكسون وقس استابي وجبل اسنيفل والاعصار ثم رجعت الى نفسي وتاملت الوحدة التي انا فيها والميتة التي قضي علي بها والروح عزيزة فانطرحت على الارض واخذت ابكي بكاء الاطفال وقد عظم الامر في عيني ثم صحت من فواد جريح قائلاً لك الله يا عمي على ما فعلت

تلك هي الجملة الموجودة التي لفظتها شفتاي حقًا على الاستاذ ورحمة به لاني كما كنت اعلم انهُ هو السبب في كل هذه البلايا كنت معتقدًا انهُ سيقاسي من فقدي امرَّ العذاب

وبعد ان بقيت ساعة اذرف دموعًا سخينة ذكرت الله فانتصبت جاثيًا على ركبتي وتضرعت اليه تعالى بنفس حزينة وقلب منسحق مستغيثًا بلطفه متمسكًا باهداب رحمته العميمة راجيًا من كرمه ان يرمقني بعين الرأفة وما فرغت من الصلاة حتى سكن جاشي بعض السكون فنظرت الى حالتي بتأنٍ وهدو بال واخذت اتبصر في الامر علّي اجد مخرجًا من تلك الورطة الوبيلة التي كنت فيها وكان معي من الزاد مؤونة ثلاثة ايام ومن الماء ملء قربتي فقلت في نفسي اذا اهتديت الى الجدول هنيئ قلبي ببعض الامل بالاجتماع برفيقي بل ربما امكنني الرجوع الى سطح الارض فانتعش فوادي املاً بالنجاة وعجبت كيف اني لم افطن الى هذا الامر قبل ذاك الوقت ثم اخذت اجد السير صعودًا لاني قلت في نفسي ان الطريق التي انا عليها تنتهي بدون شك الى الدهليز الذي يجري عليه الجدول فاخرج من حيث دخلت وصرت في اثناء رجوعي اتفرس في صخور الجدران على امل ان اتذكر منها شيئًا ما رأيته في اثناء ذهابي غير اني لم ارَ علامة او سمة خصوصية يعول عليها وكذلك لم اجد على الارض اثرًا لقدميَّ لانها كلها من الصخور الحبيبة فلا تؤثر فيها النعل

فبعد ان سرت نحوًا من نصف ساعة انتهيت الى صخر عظيم قائم في وجه السرداب فلما تحققت ان لا منفذ منه اضمحل املي الاخير وعاودني القنوط وكان قد اعياني التعب واثرت فيَّ الانفعالات النفسانية تأثيرًا شديدًا فسقطت على الارض كمن اصيب بصاعقة ولتمام النحس سقط المصباح من يدي على صخر متدرب فاختل الجهاز الكهربائي واخذ نوره يخف شيئًا فشيئًا وجيوش الظلام تقترب مني بالتدريج راسمةً على الجدران خيالات متنقلة اشكالاً متنوعة

وبعد دقيقة كانت عندي كدقيقة النزاع اشرق النور مرة اخرى كما يصحو الميت قبيل أن يسلم الروح ثم انطفاء تماماً وبقيت وحيداً تحت جنح الظلام الحالك

تقلبني الافكار شرقاً ومغرباً على انني لم انتقل من مكانيا
كما يذهب الظل اليمين ويسرة وذو الظل في مثواه ما زال باقيا

الفصل التاسع عشر

مهما اشتد الظلام على ظاهر الارض فلا ينقطع النور بالمرة بل يبقى منهُ بعض اشعة خفيفة ضعيفة تختلط بالظلماء اختلاط الخمر بالماء. فتستأنس بها العين بل ربما تنتهي بالالفة الى مشاهدة الاشياء وتمييزها

اما في جوف الارض فالظلام صرف لا تألفه العين ابداً ولذلك لما احاطت بي كتائبه السود من كل جانب ضاقت في وجهي المذاهب اذ اصبحت كالاعمى سواء علي افتحت عيني ام اغمضتها وللظلام هيبة ووقار فضاع عقلي وطاش لبي واخذني الرعب فصرخت من صميم فؤادي صرخة هائلة وقمت امشي بقدم الاخنب ويداي ممدودتان امامي لاتقاء الصخور ارفع احداها واخفض الاخرى كمن يطلب السباحة في الهواء ثم خيل لي ان طوائف الجن سائرة في طلبي والمردة معترضة في طريقي والخوف يصور للانسان اغرب الغرائب ويقرب لهُ المستحيلات كما قيل

من ذا يلوم المرء في روعه فالروع ذهاب بعقل الرجال
كم مستحيل ردّه جائزاً وجائز عاد به كالمحال

فاشتد خفقان قلبي واضطراب اعصابي واخذت اعدو على غير هدى خابطاً في ارض الدهليز خبط عشواء وانا اصرخ من شدة الخوف واليأس صراخ من طار صوابه او كثر عذابه ولم ازل بين سقوط وقيام وهبوط واصطدام وقد تهشم وجهي وتمزق جسمي حتى كلت قواي ووهن عزمي فسقطت على الارض فاقد الشعور غائباً عن الهدى

ولما افقت من غشيتي بعد مدة من الزمن لا اعلم مقدارها وجدت نفسي مضرجاً بدمي وقد انحطت قواي بسبب النزيف الذي اصابني ثم اخذت احرك اعضائي الواحد بعد الاخر فتبينت انها سليمة من الكسر فحمدت الله على ذلك كمن لم يزل مومِلاً في الحياة وما ذاك الالان الضعف الذي كنت فيه ضرب على ذهني حجاباً فلم اتذكر في بادئ الامر اني هالك على اي حال

وربما رجعت اليَّ قواي العقلية حزنت على بقائي في قيد الحياة وتمنيت لو اني قضيت نحبي في اثناء غشيتي وكفيت عذاب النزاع الذي ينتظرني ·

وفي ذاك الوقت شعرت بألم الرضوض التي بجسمي فجررت نفسي بكل عناء حتى الحائط واتكأت عليه وقد عاودني الضعف وانحطاط القوى حتى كدت افقد الشعور ثانيةً وبينما انا على تلك الحالة واذا بصوت شديد كقصف الرعد قد طرق آذاني فجلست منصتاً وبقيت برهة اسمع دويه يتناقص شيئاً فشيئاً حتى انقطع بالكلية فعجبت من ذلك الحادث واخذت افتكر في امره فترجح عندي انهُ ناشئ عن سقوط طبقة من الصخور المجاورة او عن تفرقع مسبب من اشتعال غاز من الغازات السريعة الالتهاب ثم بقيت نحواً من ربع ساعة مصغياً اتسمع الصوت ثانيةً فلم اسمع شيئاً واذ ذاك اسندت ظهري الى الحائط فجاءت اذني على سطحه اتفاقاً فخيل لي اني اسمع كلاماً خفياً غير مفهوم لبعد الصوت فارتعشت شديداً ثم خفت من ان يكون ذلك رجع صدى انيني او وهماً ناتجاً عن ضعف قواي فامسكت عن التنفس ونبهت افكاري وبقيت برهة منصتاً فتحقق لي اني اسمع على بعد كلاماً همساً غير اني لشدة ضعفي لم افهم شيئاً من ذلك الكلام وحينئذٍ انتقلت الى محل غير الذي كنت فيه فازداد الصوت وضوحاً وسمعت باذني كلمة (واحسرتاه) ملفوظة بصوت يفتت الاكباد ويذيب الجماد فاغرورقت اذ ذاك عيناي بالدموع وعرتني هزة الهلوع ولم يعد عندي شك في ان ذلك الصوت صوت عمي فقلت في نفسي اذا كنت اسمع صوته من هذا

المحل فلا بد ان صوتي يصل اليه كذلك حيث هو وفي الحال ادنيت فمي من الحائط وناديته باعلى صوتي ثم صبرت دقيقة فلم اسمع جوابًا فقلت لعل الصوت الذي كنت سمعته آتٍ من نفس السرداب الذي انا فيه لا من وراء الجدار اذ ان الصوت لا ينفذ منه مهما كان شديدًا وعلمت ان عمي على بعد شاسع مني وان وصول صوته الى ذاك البعد ناشيء عن كيفية تكوين السرداب وقابلية الصخر المكون هو منه لنقل الصوت فتذكرت في الوقت نفسه ان هذا الحادث الغريب يشاهد في دهليز كنيسة ماري بطرس بلندره ولا سيما في مغائر جزيرة صقلية العجيبة وفي اثناء ذالك قرع آذاني الصوت الذي كنت سمعته اولاً وفهمت هذه الكلمات (واحسرتاه عليك يا اكسيل اين انت يا اكسيل) ثم تلاها دوي شديد شبيه بالصوت الذي سمعته في بادئ الامر فجعلت فمي على مساواة سطح الحائط ووجهت الصوت الى اسفل الدهليز وصرخت من كل قوتي قائلاً يا عماه ليدنبروك

ثم وقفت منصتًا وقلبي يخفق سريعًا لاني كنت اعلم ان الصوت لا يصل الى عمي الا اذا كان باقيًا في المحل الذي اتاني منه صوته وبعد دقيقة خلتها دهرًا طرق سمعي هذه الكلمات

أهذا انت يا اكسيل

. . . . . .

قلت نعم نعم

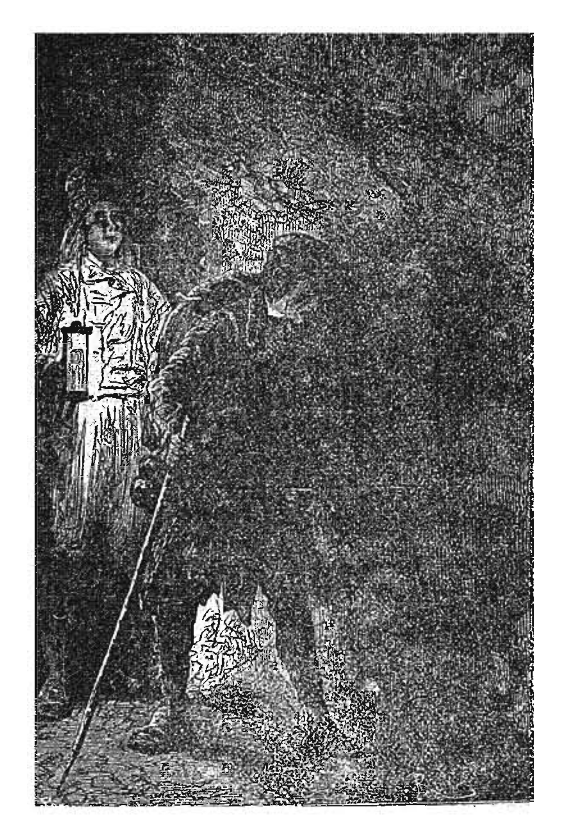
. . . . .

قال اين انت يا بني

. . . . . .

قلت تائه في حالك الظلام

. . . .



اهذا انت يا اكسيل (صفحة ١٢٧)

قال واين مصباحك

. . . .

قلت انطفأ

. . . .

قال والجدول

. . . .

قلت اختفى

قال تشجع ولا تيأس

قلت امهلني قليلاً حتى يسكن روعي فقد فقدت القوى واتق مكانك ثم استمر على مخاطبتي

قال لا تتعب نفسك في المجاوبة واسمع ما اقول اننا بحثنا عنك في الدهليز صعوداً ونزولا فلم تقف لك على اثر وقد بكيتك يا ولدي بدموع سخينة وآليت على نفسي ان لا ابرح من هذه الارض قبل ان اقف على حقيقة خبرك ولما ترجح عندي اخيراً انك لم تزل ملازماً مجرى الجدول فقد سايرته مع هنس حتى مصبه ونحن نطلق عبارات نارية حيناً بعد حين لعلك تسمعها فتهتدي بصوتها الينا اما الان وقد علمنا بحل وجردك فقد زال الخوف والحمد لله وعما قليل اجتمع بك واضمك الى صدري ولا اعود افارقك خطوة واحدة

ثم قال نحن الان في مغارة فسيحة جداً تنتهي اليها كل الدهاليز المجاورة بل اظن ان كل الشقوق التي تتخلل القشرة الارضية تتفرع منها ولست اعلم في اي واحد منها انت الان وان اخذت ابحث عنك فيها جميعاً فلربما لا اهتدي اليك الا بعد ايام فهل عندك من الزاد والماء مؤونة كافية

قلت خاوي الوطاب خالي الجراب لا زاد ولا ماء ولا جعبة ولا سقاء لاني وانا سائر في الشق الذي انا فيه يناجيني الاسى واناجيه واشكو ما شكته قوم موسى من التيه عثرت رجلاي باحد الصخور فسقطت على الارض فاقد الشعور واذ ذاك تمزق السقاء وسال الماء على الحصباء وتقطعت الجعبة أرباً وتفرق الزاد ايدي سبا ومنذ تهت عن الطريق حتى الان لا اكلت ولا شربت

قال اذن لا بد من حضورك انت الينا فقم وامش على قدر امكانك ولا تجزع فنحن في انتظارك

ولا تكُ من وقع الحوادث جازعًا فمن غالب الاهوال لا بد يغلبُ

. . . . .

قلت أيمكنك ان تخبرني عن المسافة التي بيني وبينك

. . . . .

قال ذلك امر سهل معرفته ساناديك باسمك وبيدي الكرونومتر فتجاوبني حالما يصلك الصوت فالوقت الذي يمضي بين ندائي وجوابك يدلنا على المسافة التي بيني وبينك

. . . . .

قلت افعل · ثم الصقت اذني بالحائط وامسكت عن التنفس وبعد برهة سمعت لفظة (اكسيل) فراجعت الكلمة حالاً وانتظرت الجواب من الاستاذ وبعد دقيقة قال مضى بين الكلمتين اربعون ثانية فالمسافة التي بيننا يقطعها الصوت اذن في عشرين ثانية واذ كان الصوت يسير مسافة الف قدم وعشرين قدمًا في الثانية فالمسافة التي بيننا عشرون الفًا واربعمائة قدم

قلت أيصدق هذا القياس على الهواء الكثيف الذي نحن فيه

. . . . .

قال نعم فان كثافة الهواء تزيد الصوت قوةً لا سرعة

. . . . .

قلت ها انا ذا سائر يا عماه فاستودعك الله لاني اذا ابتعدت عن هذا المحل فلا يعود في امكاننا ان نتكالم ولربما لا اجد سبيلاً الى الوصول اليك

. . . . .

قال لا تخف فان طريقك ستوصلك الينا اذ لو كان بيننا حاجز لما كان

الصوت يصل مني اليك

. . . . .

فقمت وقد احيي الامل قواي حتى نسيت اوجاعي وتذكرت قول من قال

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن ان لا تلاقيا

ثم حمدت الله اذ ساقني الى تلك النقطة التي ربما كانت وحدها في الكيفية المناسبة لتوصيل الصوت على ذلك البعد الشاسع فلو تجاوزتهـا او وقفت دونها لخفي امري على عمي وبقيت في مكاني حتى تدركني المنية

متى كان في دور الحياة بقية تيسرت الاسباب وانفرج الضيق

وبعد ان سرت قليلاً صارت طريقي شديدة الانحدار ولم البث ان رأيت الارض تسير بي وصرت انزل منسحباً لا اتمالك نفسي وبعد قليل سقطت من محل عالٍ سقطةً عمودية واخذت اتدحرج بين الصخور التي سقطت معي كواحد منها واخيراً وقعت على ام رأسي وغبت عن الصواب

الفصل العشرون

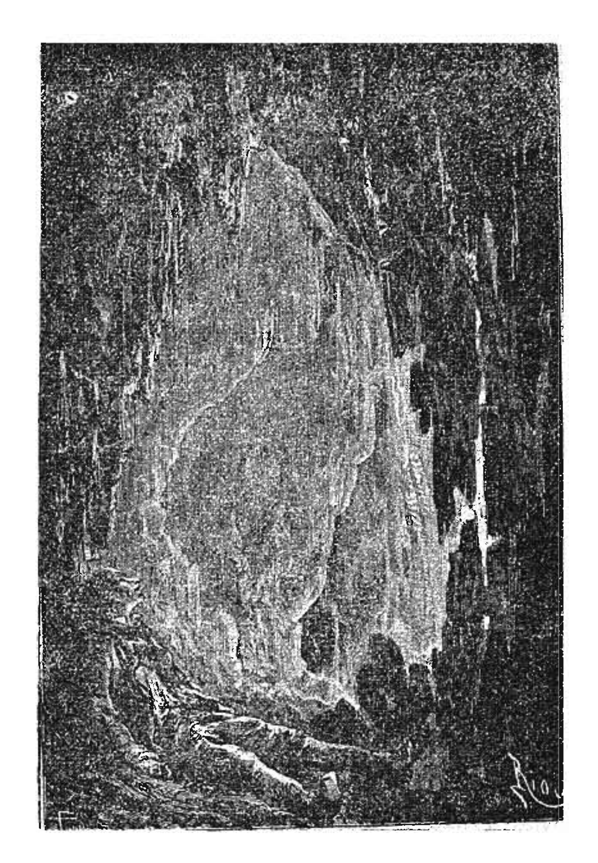
لا بد للسايح من ان يرى ما لم يكن يخطر في فكره

لما عاودني الشعور وجدت نفسي في كهف به قليل من النور مضطجعاً على وسادة من اعبية السفر وعمي جالس بالقرب مني يرقب على وجهي دلائل الحياة فعند اول حركة ابديتها اخذ يدي بيديه وحالما فتحت عيني صرخ بفرح شديد قائلاً حيٌ حيٌ نحمدك يا رب

فقلت بصوت ضعيف لم يتجاوز حد الانين

حي ولكنَّ الوفاة قريبـــة والموت غاية ما اروم واطلبُ
من كان صفو حياته متكدراً مثلي فعنها ليس فيها يرغبُ

فضمني اذ ذاك الى صدره وعيناه مغرورقتان بالدموع وقال



لما عاودني الشعور وجدت نفسي في كهف (صفحة ١٣١)

لا تأس من وقع الصروف فكل ما يلقاه من يبغي النجاح محببُ
واصبر بنيَّ ولا تضق ذرعًا فما تنفى المتاعب عن سوى من يتعبُ

وقد نجوت من المكاره فلا تكره الحياة ولا تقنط من روح الله قال ذلك بصوت يشف عن محبة وحنو عظيمين ولولا شدة الانفعالات والعوامل التي اثرت فيه لما اظهر شيئًا من تلك العواطف التي يكنها فوأده تحت ظواهر الشراسة

وفي ذاك الوقت حضر هنس وقراء علينا السلام بوجه متهلل فرحًا فرددته عليه ببشاشة ثم قلت للاستاذ اخبرني في اي محل نحن الان

فقال مهلاً يا ولدي لانك في حاجة الى الراحة. فنم الان ولا تشغل افكارك بشيء واذا جاء الغد اخبرتك بما تريد

قلت قل لي على الاقل في اي يوم نحن وفي اي ساعة

قال نحن الان في الساعة الحادية عشرة من مساء اليوم الحادي عشر من شهر اغسطس ولست اسمح لك بان تسألني عن شيء قبل اليوم الثاني عشر من الشهر الجاري

وفي الحقيقة كنت شديد الضعف منحط القوى لما كابدته في زمن التيه من ملازمة السهر ومساورة الفكر ووحشة الظلمة ورضوض الصخور وطول المشي وقد حل بي التعب واطبق عليَّ الاين اطباقًا فاغمض اجفاني بالرغم عني فنمت وفكري الاخير ان مدة وحدتي كانت اربعة ايام كاملة

ولما استيقظت من نومي في اليوم الثاني رأيت نفسي مرتاحًا فجلست على فراشي ثم انعمت النظر في الكهف الذي كنت فيه فوجدته بديع الجمال مزدانًا بالعمد الطبيعية وارضه مكسوة برمل دقيق لماع ولم يكن فيه لا مشاعل ولا مصابيح وهو مع ذلك منار بنور خفيف اشبه بالسحر في الليلة القمراء فعجبت من ذلك الامر وبعد تدقيق النظر تبين لي ان ذلك النور آتٍ من الخارج وهو على باب الكهف اشد منهُ في بقية جوانبه وفي الوقت نفسه سمعت صوتًا من الخارج كهزيز الريح وهديرًا خفيفًا مستمرًا اشبه بصوت اندفاق الامواج على الرمال فحسبت نفسي في بادىء الامر اني في حلم ثم خشيت من ان يكون ذلك رؤيا وهمية ناتجة عن اصابة الدماغ حين سقوطي واخذت اغالط نفسي واكذب حسي استبعادًا لوجود مثل هاته الظواهر في باطن الارض غير اني كنت ارى ما ارى جليًا واسمع ما اسمع صريحًا فلم اجد للمغالطة سبيلاً ولا للتكذيب مجالا

وليس يصح في الاذهان شيء   اذا احتاج النهار الى دليل

وقلت في نفسي ان النور الذي اراه ليس الا نور النهار والاصوات التي

اسمعها ليست الا هزيز الريح وهدير البحر فاما ان دماغي مصاب واما ان عمي عاد الى ظاهر الارض .

وبينما انا افكر في الامر وقد اخذتني الحيرة دخل عليَّ الاستاذ بوجه باش وقال صباح الخير يا اكسيل اراهن على انك اصبحت نشيطاً معافيً

فقلت اما الجسم فكما تقول

قال لم يكن عندي شك في ذلك لانك نمت طول الليل نوماً هنيئاً وقد سهرت عليك انا وهنس بالمناوبة ورأينا تقدمك الى الصحة رأي العين

قلت في الواقع ارى نفسي قوياً نشيطاً وان شئت على ذلك برهاناً فمر بالطعام لتمتاز الصحة عن السقام

فتبسم الاستاذ وقال لا بأس من ذلك يا اكسيل فقد فارقتك الحمى وبرئت جروحك والفضل في ذلك لهنس الذي عالجها بمرهم فعال لا يعرف سر تركيبه الا الايسلانديون

ثم اتاني بشيء من الطعام فالتهمته التهامًا غير مكترث بنصائحه ومواعظه وبعد ذلك استعلمت منهُ عما حصل لي بعد سقوطي وكيف اهتدى الى المحل الذي سقطت فيه فاخبرني ان الدهليز الذي جئت منهُ ينتهي الى المغارة بانحدار شديد جداً وان سقوطي كان مع صخر كبير سار بي انسحاباً كأنهُ عربة بلا عجل او سفينة بلا بحر حتى انتهى الى المحل الذي كان فيه عمي والدليل فاستقر هنالك فحملاني صريعاً مضرجاً بالدماء ثم استطرد الكلام قائلاً ان نجاتك من تلك السقطة يا اكسيل لمن اعجب العجائب فاناشدك الله ان لا عدت تفارقني خطوة واحدة مخافة ان تنقطع عني ثانيةً فلا نجتمع الا اذا شابت الغربان وآب القارظان

فعجبت من كلامه لاني كنت رجحت في نفسي اننا انتهينا من تلك الرحلة وعدنا الى ظاهر الارض واستبعدت اصابة دماغي وخلل حواسي ولكن من

كلام عمي قوي عندي الاحتمال البعيد وضعف الظرف الراجح بل حكمت اخيرًا باني جننت وان جميع ما اتصوره انما هو محض اوهام ثم قلت اذا كان الامر كذلك فجزمي بجنون نفسي وهم ايضًا ومكثت برهة على تلك الحال اردد عقلي بين الصحة والاختلال ولما رأى عمي علائم الاندهاش على وجهي قال ما بالك يا اكسيل

قلت اصدقني أكل اعضائي سليمة

قال نعم ويمكنك ان تتفقدها بنفسك

قلت ورأسي

قال ورأسك لم يزل قائمًا في محله بين كتفيك وهو الان في غنىً عن الرفائد التي عصبته بها لان جروحه خفيفة وقد برئت تمامًا

قلت انا خائف من ان يكون الدماغ مختلاً

قال ما ذا يحملك على هذا الظن

قلت ألسنا الان على وجه الارض

قال نحن الان في جوفها على عمق اربعة وعشرين فرسخًا من سطح البحر

قلت خوفي اذن في محله لاني ارى نور النهار بعيني واسمع هدير البحر وهزيز الريح باذني

فضحك الاستاذ حتى كاد يستلقي على قفاه ثم قال ان كانت هذه اعراض الجنون فكلنا مجانين

فاطمأن خاطري عند سماعي هاته الجملة وايقنت بالمعلول وان لم افهم العلة

قلت اخبرني اذن ما هي اسباب هذه الظواهر

قال لا يمكنني ان اخبرك عن شيء ولكنك سترى بنفسك ما رأيت انا وتدرك من اسبابه بقدر ما ادركت على اني اذكرك بما قلته لك قبلاً من ان العلم لم يزل في مهد الطفولية

فتحرك فيّ الميل عند سماعي كلام الاستاذ الى الوقوف على حقيقة الامر فانتصبت

على قدميَّ وهممت بالخروج فقبض على ذراعي قائلاً ماذا تفعل يا اكسيل الا ترى في اي حالة انت من الضعف فأقم في مكانك ولا تعرض نفسك للريح

قلت اي ريح أهذا الصوت هزيز ريح حقيقية

قال نعم وهي شديدة فلا تعرض نفسك لها لئلا تلحق بك الاذى

قلت وحياتك يا عماه لم يعد بي شيءٌ من الالم وقد رجعت الى قواي فلا تخشَ عليَّ بأساً

قال صبراً يا ولدي فاني اخشى عليك من النكاس فنضطر الى الاقامة هنا اياماً ولربما لا تبقى الريح مناسبة لرحلتنا

قلت واي دخل للريح في رحلتنا

قال لو كانت سفينتنا بخارية لما كان سفرنا يتوقف على مناسبة الريح ولكنها شراعية ولذلك لا يمكننا ركوب البحر الا اذا كانت الريح مناسبة لها فاصبر اذن يا اكسيل الى الغد حتى يتم شفاك

فاستغربت هذا الكلام غاية الاستغراب لان اسم السفينة في باطن الارض اغرب من اسم الخيل على ظهر البحر ولم استطع الصبر عن الخروج رغبة في الوقوف على ما في خارج المغارة فاكثرت الالحاح على الاستاذ لعله يأذن لي بالخروج ولا يضطرني لعقوقه بمخالفة امره فعلم ان اكراهي على الاقامة مع ما انا عليه من قلة الصبر يضر بي اكثر من تعريضي للهواء فسمح لي اذ ذاك بالخروج متحفظاً من البرد فلبست ثيابي على عجل وخرجت ملتفاً بعباءة من الاعبية التي كنت راقداً عليها

الفصل الحادي والعشرون

ومن يعتد ملازمة الدياجي   يرعه النور اول ما يراهُ

من طول تقلب طرفي في الظلام وتعوده على مصاحبة الغياهب صار لا



وفي وسطها بحر لجي عظيم (صفحة ١٢٧)

يقوى على تحمل الضوء ولذلك لما خرجت من الكهف وابصرت عيناي النور المنتشر خارجه انكرتاه فغمضتهما دقيقة ولما امكنني فتحهما رأيت نفسي في مغارة لا كالمغائر جوانبها متوارية وراء الافق وفي وسطها بحر لجيّ عظيم يمتد من باب الكهف الى حيث لا يعلم الا الله وشاطئه مؤلف من رمل دقيق ذهبي اللون مرصع بالاصداف والابواق الصغيرة التي عاشت فيها اقدم الحيوانات الارضية

كأنها سحبٌ وقت الاصيل بدت او انجم طلعت في اوسط الشفق

يخالها الطرف تخييلاً بصافنةٍ او المجرة لولا صبغة الزرقِ

والمغارة مستنيرة بظواهر كهربائية يفوق نورها نور القمر ليلة تمه بهجةً وصفاء وحسناً وازدهاء الا انهُ اقل من نور الشمس سطوعًا وليس فيه شيء من الحرارة فهو اشبه شيء بنور الشفق القطبي اما سقفها فمحجوب بالغيوم الكثيفة المتلبدة في سمائها على علو خمسة اميال او اكثر وما بلغ الغيم فيها هذا الارتفاع المنكر على سطح الارض الا لشدة كثافة هوائها

فلما شاهدت تلك المناظر الباهرة ووقفت على تلك المظاهر الظاهرة اخذني العجب ووقفت مندهشاً مذهولاً انظر تارة الى النور وطوراً الى الماء ومرة الى الافق واخرى الى السماء وكانت الريح تمر على سطح المياه فتثير عنها بعض الزبد وتنثره على وجهي

اما الاستاذ فكان واقفًا بجانبي ينظر اليَّ باسماً نظرة الفائز الظافر وبعد برهة قال لي ذهب بعض الانكليز الى ان الارض جوفاء والهواء في جوفها منير بسبب شدة الضغط وفي داخلها كوكبان يدوران حول مركزها كما يدور القمر حول سطحها وهما بلوتون اله الجحيم في زعم اليونان وزوجته بروزربين ولكون هذا المذهب مبنيًا على الخرافات اليونانية احله القوم محلها غير انهُ قد اتضح لك الان يا اكسيل ان صاحبه قد اصاب من بعض الوجوه كما اتضح لك فساد مذهب القائلين بالحرارة المركزية فسادًا تامًا من كل الوجوه وقد تكون بعض القضايا الخرافية اقرب الى الحقيقة من القواعد العلمية

قلت والله يا عماه اني حائر الفكر ذاهل العقل مندهش البصر فكأنني في حلم ولولا انك شريكي فيما ارى لكذبت عيني تكذيبًا

قال لا تكذب عينيك ولا اذنيك فان كل ما تراه وتسمعهُ حقيقي واقع فعلاً فالبحر الذي امامك هو بحر ليدنبروك دعوته باسمي ولا اخاف المنازعة والارض التي نحن فيها هي القارة الجديدة التي تسدست بها القارات الخمس

ولربما كانت اكبرها جميعاً

قلت احسنت في تسميتها قارة فانها تكبر والله ان يطلق عليها اسم مغارة

قال اي وربك يا اكسيل فان اعظم مغارة على سطح الارض هي مغارة الموث في ولاية كنتوكي من الولايات الامركانية المتحدة التي يبلغ علو سقفها خمسمائة قدم وطولها نحو خمسة وعشرين ميلاً وفي وسطها بحيرة لم يسبر غورها حتى الان ولكن مهما عظم خطرها فبون بعيد ما بينها وبين التي نحن فيها وشتان بين بحيرتها والبحر العظيم الممتد امام اعيننا

قلت وانَّى لمغارة الموث هذا النور الباهر وهذه الغيوم السائرة فوق رؤوسنا التي ما تجزأَّت واحدة منها الا وومض البرق من بين اجزائها فوالله اني لواجد في نفسي حاسات لا اقدر على التعبير عنها

فما الكنُّ جاش الكلام بصدره فتمتم عنه اذ ابى عن تمامه
باكثر مني لكنةً وفهاهةً واعجز عن تصريحه بمرامه

فكأنني انتقلت الى كوكب غير الارض كزحل او المشتري فانكرت طبيعتي الارضية ظواهره المدهشة

قال لا عجب يا اكسيل ان لم تجد كلامًا يعبر عن حاساتك فان اللغات الارضية انما تشتمل على ما يحتاج اليه اهل ظاهر الارض من الكلام للتعبير عن افكارهم والوجدانيات المنتزعة مما يقع تحت انظارهم والعالم الجديد الذي نحن فيه يحدث في الانسان وجدانيات جديدة فهو يحتاج الى لغة جديدة

ثم اخذت افتكر في كيفية تكوين تلك المغارة العجيبة فلم اجد لها علة الا برود القشرة الارضية بعد ان كانت ملتهبة غير ان الشقوق العديدة التي تتفرع منها الى سطح الارض تدفع الظن الى ان المواد البركانية كانت تتقذف منها في الادوار الاولى اما بسبب الحرارة الداخلية على المذهب المشهور واما بسبب اتحاد الهواء والماء فيها ببعض المعادن على مذهب ديفي والاستاذ فتنشرها

البراكين على وجه الارض حيث تكونت جبالاً ولا كاماً وجزائر فاتسعت مساحتها بقدر ما فقدت من تربتها

وبعد ان بقيت ساعة اتأمل في غرائب الطبيعة وعجائبها قال لي الاستاذ كيف ترى صحتك يا أكسيل

قلت غاية في الجودة ولولا انك ذكرتني بسوالك هذا اني كنت طريح الفراش في هذا الصباح لما تذكرت ذلك من نفسي

الهى التعجب انساني وأنساني ما كان قرّح اعاني واعياني
والبحث هاج شجوني للعلا فانا من بعد ضعف شجاني رهن اشجاني

قال هذه نتيجة تأثير المناظر الغريبة التي رأيتها على غير موعد وفعل تغيير الهواء فهل لك في التجول ساعةً على هذا الشاطئ

قلت لا شيء احب اليَّ من ذلك

ثم اخذنا نمشي الهوينا على رمال لم تطأها من قبل رجل رجل ولم يرَها انسان انسان وكان البحر عن يميننا تتلاطم فيه الامواج والريح تأتينا من مائه الملح بليلة والنسائم تتهادى نحونا فتهدينا الصحة وهي عليلة وعن شمالنا صخور هائلة متراكمة فوق بعضها كانها اطلال قلعة عظيمة او رسوم ابراج قديمة تنحدر منها جداول المياه شلالات مزبدة كانها حبال من لؤلؤ او عمد من لجين ولبعضها هدير مخيف يصم الآذان وللبعض الآخر خرير لطيف كنغم الشجي الولهان ومن جملتها رفيقنا الامين جدول هنس وهو يجري الى مصبه على سطح قليل الانحدار غير متردد في مسيره ولا محتار فكانهُ وجد على تلك الحال منذ تكون العالم فلما ابصرته حييته بالسلام ورشفت من مائه البارد ملء راحتي ونادمته

ما عشت اوليك الثناء ألم تكن يا ماء روحي في المسير وراحتي
لفراقك التهب الفواد فها انا احسو لاطفئه فأملأ راحتي

وبعد أن سرنا قيد ميل اشرفنا على غيضة كثيرة الاشجار والحجارها كثيفة

الاغصان وهي على شكل مظلات مستديرة القباب استدارة هندسية كأنما خطت بالبيكار غير ان اغصانها ثابتة لا تميل مع الريح فكأنها ارز متحجر فاسرعنا في المسير نحوها وأنا افكر فيما عسى ان تكون اذ لم اذكر نوعاً يشبهها مظهراً بين المائتي الف نوع المعروفة من انواع النبات

على اني لما اقتربت منها وجدت نفسي امام غيضة من الفطر الابيض فانتقلت من الحيرة الى العجب الشديد لان الفطر وهو ضرب من الكمأة لا يبلغ علوه على سطح الارض الا بضع اصابع وهو هنالك اشجار عظيمة لا ينقص ارتفاع اقصرها عن ثلاثين قدماً كطول محيط قبتها وقد يتجاوز اعلاها الاربعين وهي مخيمة فوق الارض لا ينفذ منها النور

فبعد أن وقفنا برهة امام تلك الغيضة العجيبة نتأمل في عظمتها دخلنا ارضها وأخذنا نجول بين اشجارها الا ان الظلام الحالك والبرد القارس المنتشرين تحت قبابها منعانا من التوغل فيها فقفلنا راجعين الى شاطىء البحر

ثم سرنا ميلاً اخر فوجدنا آجاماً عديدة من النباتات الارضية الحقيرة كالطحلب والسرخس واليكوبردون والسيجيلاريا وهي كثيرة الافنان ضخمة الجذوع باسقة الاغصان يزيد علو بعضها على المائة قدم واوراقها عديمة اللون

وبينما نحن نجوس خلال تلك الاجام ونجول بين اشجارها العظام قال لي الاستاذ اعلم يا آكسيل ان التربة التي نحن عليها الان هي في الحالة التي كان عليها سطح الارض في الدور الكربوني وهذا النبات الذي ينبت اليوم في حدائقنا صغيراً حقيراً كان في ذلك الدور شجراً عظيما كما تراه امامك الا انه لم يكن عديم اللون اذ لم يكن محجوباً عن نور الشمس فتأمل في هذا الانحطاط العظيم واعلم انه لم يتح لاحد قبلك من علماء النبات ان يرى ما تراه بعينيك وتلمسه بيديك الا اثاراً قائمة في مناجم الفحم الحجري

قلت اجل ولكن كيف ينمو النبات في هذه التربة النارية وهو لا يعيش الا



وجدت نفسي امام غيضة من الفطر الابيض (صفحة ١٤١)

في الاراضي الرسوبية

قال ومن اين علمت ان هذه التربة ليست من الاراضي الرسوبية

قلت أأرض رسوبية على هذا العمق

قال أتجهل ان القشرة الارضية عقب ان خمد لهيبها وبرد اديمها بقيت زمناً طويلاً بين شخوص وخسوف ترتفع مرة وتهبط اخرى كما تغلي القدر على النار فهذه التربة التي نحن عليها بعد ان كانت على سطح الارض غارت الى حيث هي الان وانطبقت الارض من فوقها كما ترى

قلت صدقت يا عماه.ومن المعلوم ان الفحم الحجري تكون في جوف الارض من الغياض والاجام التي غارت فيها بهذه الكيفية

قال منها ما غار في الارض بهذه الكيفية ايام غليانها ومنها ما جرفه الماء الى الوهاد ثم غطاه السيل بالتراب والصخور والنتيجة واحدة في الحالين

ثم رأيت على الارض عظاماً منثورة ذات اليمين وذات الشمال

تحدثنا عن العصر الخوالي وتنبئنا بتـاريخ الدهورِ

وتنطق بالحقائق وهي صلد وتُشعر وهي فاقدة الشعورِ

فهرولت نحوها وامعنت النظر فيها فاذا هي بقايا حيوانات هائلة من التي عاشت على سطح الارض قبل الطوفان كالمستودُن والدينوتريوم والميغاتيريوم فنبهت الاستاذ اليها فقال من المستحيل ان تكون هذه العظام آتية من سطح الارض فلا بد ان اصحابها عاشت هنا على شاطئ هذا البحر وقضت حياتها راتعة في ظل هذه الاشجار

ثم رأيت هياكل كاملة من تلك الحيوانات فقلت وهذه الهياكل المحفوظة على تركيبها الطبيعي برهان على ذلك ولكن ان صح قولنا فمن المحتمل ان يكون بعض هذه الحيوانات حيًّا حتى الان يجول في ظل هذه الغياض المظلمة او وراء هذه الصخور الهائلة

غرائب الكون نترى لا انتهاء لها وما لها قط ان فكرت احصاء

فقل لمن يدعي ادراك جملتها حفظت شيئًا وغابت عنك اشياء

ولما مر بفكري احتمال وجود حيوانات من هذا القبيل اقشعر بدني خوفاً واخذت اتطلع الى الجهات الاربع ولكني لم ارَ شيئًا من الكائنات الحية على الاطلاق فاطمأن بالي

وكان قد اثر فيَّ الجوع وانهكني التعب فقفلنا راجعين الى الكهف الذي اتخذناه لنا مأوى ونمت تلك الليلة منشرح الصدر مسرورًا ولا عجب فان

الدهليز المظلم الضيق الذي قضينا فيه الايام الماضية كان قد ضيق صدري فاتساع نطاق البصر في المغارة التي انتهينا اليها اوجد في نفسي ذلك الارتياح

الفصل الثاني والعشرون

لم تتم مصافحة يد الكرى لاجفاني في صباح اليوم الثاني الا وقد وثبت من فراشي نشيطاً معافى وخرجت من الكهف انزه الطرف برأي البحر وكان النسيم لطيفاً يمر على سطح المياه فيلبس ظواهرها سابغات الدروع فشاقني هدو البحر الى الاغتسال ففعلت ثم رجعت الى الكهف طرباً مسروراً وتناولت الطعام بلذة غريبة وقابلية عجيبة وكان لذي هنس من المالح والوقود بقدر ما يشتهي فتمكن من تنويع ما كلنا في ذلك اليوم وكنا قد عشنا كل المدة الماضية على البقسماط واللحم القديد وبعد الاكل تناولنا القهوة فوجدت لها لذة لم اعهدها فيها من قبل

ثم نظر الي الاستاذ وقال ازفت ساعة المد فقم بنا نراقب فعله في بحر ليدنبروك

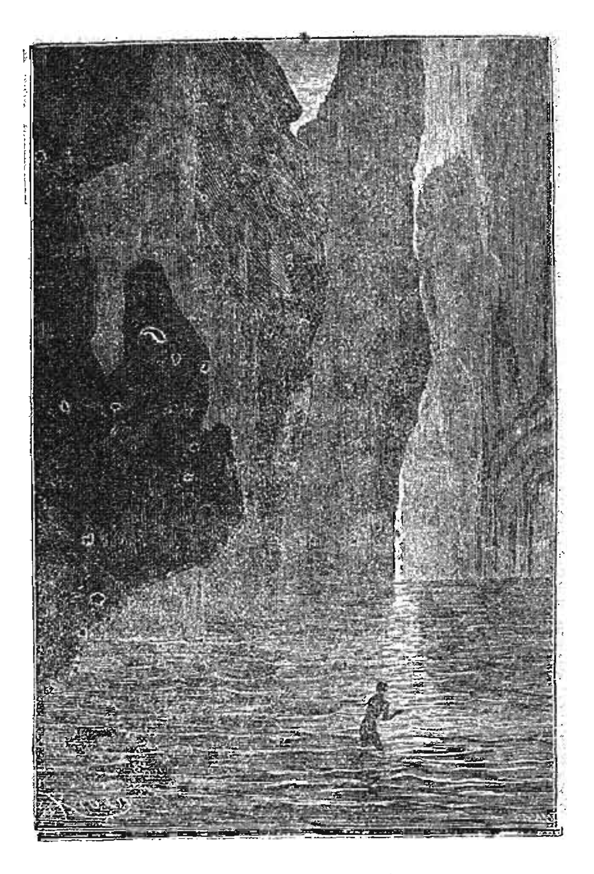
قلت كيف ذلك أيبلغ تأثير الشمس والقمر المحل الذي نحن فيه

قال ولماذا لا يبلغه أليست كل الاجسام باجمعها خاضعة لحكم الجاذبية فسترى عما قليل كيف ان مياه هذا البحر الداخلي ترتفع بفعل تلك القوة رغماً عن شدة ضغط الهواء عليها كما ترتفع مياه الاوقيانوس فقمت وانا اقول

أفي كل يوم حادث باكتشافه   يهيج ولوع للعـلا وغرامُ
عجبت لمن يلقي العجائب هذه   اذا هجع النوام كيف ينـامُ

ثم قصدنا شاطئ البحر ولم تستقر اقدامنا على الرمال حتى اخذت مياهه في الارتفاع فاخذتني الدهشة وكدت اطير عجباً وصرخت قائلاً ها قد ابتداء المد يا عماه

قال نعم ويظهر من آثار الزبد المرسومة على هذه الصخور ان الماء يرتفع عادة نحو عشر اقدام



فشاقني هدو البحر الى الاغتسال ففعلت (صفحة ١٤٤)

قلت في الواقع هذا امر عجيب

قال لا بل طبيعي بحت

قلت قل ما شئت يا عماه فاني ارى هذا الامر عجيبًا حتى اني لا اكاد اصدق عينيَّ فبالله هل خطر ببال عاقل وجود اوقيانوس حقيقي في جوف الارض لهُ ما للاوقيانوس الذي على سطحها من مد وجزر وريح وعواصف

قال ولماذا لا يكون ذلك أيوجد سبب طبيعي يمنع من وجوده

قلت من يسلم بان مذهب الحرارة المركزية فاسد لا يستبعد ان يكون في

جوف الارض ابحر وبلاد وجبال واوهاد واغوار وانجاد

قال اجل ولكن غير ماهولة

قلت من اين لنا ان نحكم بذلك ونحن لم نستكشف حتى الان شيئاً يذكر من هذه البلاد الجديدة بل من اين نعلم ان هذا البحر لا يشتمل على انواع من الاسماك انقرضت عن وجه الارض

قال ربما كان ذلك ولكن لحد الان لم نشاهد شيئاً من المخلوقات الحية على الاطلاق

قلت في امكاننا ان نصطنع شباكاً للصيد او خيوطاً ذات صنانير واذ ذاك تتضح لنا حقيقة الامر

قال سوف نفعل ما تقول يا اكسيل اذ لا بد لنا من استكشاف اسرار هذا العالم الجديد واستشفاف مكنوناته

ومن سارت به للحرب خيل   فخير من تقهقره الولوجُ

ثم رجعنا الى الكهف ولما استقر بنا المقام قلت للاستاذ في اي نقطة نحن اليوم من الارض فاني ما سألتك عن ذلك حتى الان وانت ولا بد عرفته بواسطة الاتك

قال نحن على عمق سبعة وسبعين ميلاً وعلى بعد سبعمائة وسبعة وسبعين من ايسلاندا الى الجنوب الشرقي

فاخذت الخارطة وبعد ان القيت النظر عليها قلت اذن نحن الان تحت ارض اسكوتسيا وجبال جربيان الشامخة التي لا تزال قممها الباسقة مكللة بالثلج قائمة فوق رؤوسنا

فتبسم الاستاذ وقال نعم وهي حمل ثقيل ولكن قبة المغارة متينة وقد بناها مهندس الكون على دعائم قوية فلا تخف عليها من السقوط

قلت انا في راحة بال من هذا القبيل ولكن اخبرني هل تأبى لي الان

الرجوع الى ظاهر الارض

فنظر اليّ نظرة الاستغراب وقال ويحك يا اكسيل كنت اعذرك في مثل هذا السوآل قبل ان نصل الى ما وصلنا اليه اما وقد رأيت بعينك ما في القارة السادسة من العجائب التي لم تنجلّ لاحد سواك من الناس غير سكنوسيم فمالك ان تسأل هذا السوآل خصوصًا ونحن حتى الان لم نصادف مانعًا يمنعنا من التقدم فما الذي يكرهنا على الرجوع

قلت لا شيء سوى عدم وجود طريق نسلكها فان الشق الذي لولاه لم تتبطن من الارض شبرًا واحدًا انتهى بنا الى هذه المغارة وليس لنا سواه

قال ما اعجلك بالحكم يا اكسيل فمن ابن تعلم اننا لا نجد وراء هذا البحر في البر الثاني شقًا اخر ينتهي الى مركز الارض وهل ان العوامل الطبيعية التى احدثت ذلك الشق في الطبقة العليا من القشرة الارضية غير قادرة على احداث مثله في الطبقة السفلى منها على انك تعلم ان سكنوسيم سار قبلي على هذه الطريق وانتهى منها الى قلب الارض وانا ما دمت سائرًا على اثره فلا بد لي من بلوغ المأمول

قلت وما هو طول هذا البحر فيما تظن

قال سنعلم ذلك غدًا اذا ركبنا ظهره

قلت اجل واين السفينة التي ستحملنا فاني لا اراها ولا اعلم أبخارية هي ام شراعية

قال سفينتنا طوف قوي متين كافٍ لحملنا وحمل امتعتنا وهو ابسط السفن تركيبًا وابعدها عن خطر الغرق وسوف يتضح لك انهُ على بساطة تركيبه وقرب ظهره من المياه افضل من سفن شركة اللويد النمساوية ان لم تقل افضل من غيرها

قلت أتزعم انك مدحته يا عماه ولكن ابن هو فاني ارى الميناء خلوًا من كل انواع المراكب على الاطلاق

قال ألست تسمع صوتًا ما من وراء هذه الاكمة

فاصغيت قليلاً ثم قلت بلى فاني اسمع صوتًا بعيدًا كصوت ضرب الفأس على الخشب

قال هذا طرق مطرقة هنس وهو الان مشتغل ببناء الطوف

قلت ومتى قطع الاشجار اللازمة لبنائه

قال الاشجار كانت مقطوعة بفعل الطبيعة من اجيال عديدة

ثم قال اتبعني وسار امامي نحو الاكمة التي اشار اليها وبعد مسير ميل اشرفنا على فرضة صغيرة جميلة التكوين محجوبة عن الريح بصخور هائلة وكان بجانبها هنس مشتغلاً ببناء الطوف وحوله من جذوع الاشجار ما يكفي لانشاء عمارة بحرية تناظر عمارة انكلترا الحربية ولما دنوت اليه رأيت الطوف قد تم معظمه وهو مبني من جذوع اشجار غريبة النوع مشدودة بعضها إلى البعض الاخر على شكل باب

فبعد ان تأملت ذلك الخشب برهة سألت الاستاذ عن جنسه ونوعه فقال بعضه من الصنوبر والارز والعرعر وبعضه من السرو والشربين وكلها انواع من الفصيلة الصنوبرية التي تنبت في البلاد الشمالية وقد تحجرت بفعل مياه البحر فصارت كما تراها والخشب الذي في هذه الحالة يدعوه العلماء خشبًا حجريًا

قلت ان كان كذلك فهو كالفحم الحجري شديد الصلابة ولا يطفو على وجه الماء

قال قد يكون ذلك فان بعض الخشب الحجري يتحول الى انتراسيت حقيقي وبعضه يكون غير تام التحويل كالخشب الذي امامك وهذا لا يزال ثقله النوعي اخف من الماء فيطفو على وجهه

ثم اخذ قطعة من ذلك الخشب والقاها في البحر قائلاً انظر بعينك فاستفلت الخشبة قليلاً ثم طفت على وجه الماء وصارت تتمايل مع الامواج يمينًا وشمالاً

كأنها قرط خودٍ او فؤاد شجٍ   لاقى الحبيب والا قلب رعديدِ

وفي مساء اليوم التالي فرغ هنس من بناء الطوف وكان طوله عشر اقدام وعرضه خمساً وهو مؤلف من جذوع قوية مشدودة الى بعضها بحبال متينة شداً وثيقاً ولهُ صارٍ واحد ودفة فاصطنعنا لهُ قلعاً من اغطيتنا السفرية ودفعناه في مساء ذلك اليوم الى البحر فطفا على سطحه والبشر يلمع في وجوهنا وكان لنزول ذلك الطوف الى الماء مشهد عظيم لدينا اكبر من مشهد نزول المدرعة الاولى التي اصطنعها الانسان ثم شددناها بحبل الى صخر من صخور الشاطئ وتركناه تتلاعب به الامواج ورجعنا الى المبيت على عزم ركوب البحر في صباح اليوم التالي الذي هو اليوم الخامس عشر من شهر اغسطس

ولما جاء الصباح اتينا الى المينا بامتعتنا وادواتنا ونقلناها الى الطوف ثم جلسنا بجانبها وكنا قد ملأنا قربنا من جدول هنس ثم نشرنا الشراع واستلم هنس الدفة وحللنا عروة الحبل الذي كان الطوف مشدوداً به فاندفع بنا على سطح البحر سائراً سيراً لطيفاً غير بطيءٍ ولا عنيف مر السحابة لا ريث ولا عجل

فالتفت اليَّ الاستاذ وقال هل ركبت قبل الان ظهر سفينة اطوع اليك من هذا الطوف يسير بامرك ويقف بامرك لا تتكلف لهُ انتظاراً ولا تغرم لهُ ثمن تذكرة ولا تدخل تحت امرة ربان ولا يفرض عليك حجر صحي

فقلت اما التذكرة والربان فكما تقول واما الحجر فاصعب ما يقاسيه المسافرون فيه الابتعاد من العمران فنحن اذن في حجر دائم

وقبل ان نخرج من المينا اراد الاستاذ ان يضع لها اسماً فعرض عليَّ ان يدعوها باسمي فقلت بل نسميها باسم ابنة عمي غريبة لانها كانت راغبة في هذه الرحلة واثقة بنجاحها وهي التي شددت عزمي على مصاحبتك فمن العدل ان يكون لها فيها ذكر هذا فضلاً عن ان مرفاء غريبة اجمل منظراً في الاطلس من مرفاء اكسيل كما انهُ اعذب في الفم واحلى في السمع فانقاد الاستاذ الى رأيي

وعلق اسم مرفاء غريبة على رقعة الاكتشافات

وريثما خرجنا من المينا تعرضنا للريح وكان هبوبها من الشمال الغربي فساقتنا امامها وهي تكسعنا كسعًا ولشدة كثافتها كانت تدفع الطوف بقوة عظيمة فلم نسر مقدار ساعة حتى ابتعدنا عن الشاطئ مسافة اربعة اميال على ان مسيرنا كان بدون عنف ولا انزعاج لان الطوف كان مارًّا بنا كالسهم على خط مستقيم لا يميل يمينًا ولا شمالاً ولم نلبث ان غابت جوانب البر عن ابصارنا

وعند الظهر صادفنا حبالاً طويلة من الاشنة ممتدة على وجه الماء تدهش البصر بمجالها وتحير الفكر ببهائها وعظم حجمها والاشنة نبات بحري شبيه بالطحلب ينبت احيانًا على عمق الف ومائتي قدم من سطح البحر اي تحت ضغط اربعمائة جلد ثم ينمو حتى يبلغ سطح الماء ويمتد عليه شباكًا واشراكًا واذا تألف وتكاثف منع السفن من المسير وكثيرًا ما تقع السفن في اشراكه فلا تتخلص منها الا بعد العناء الشديد والجهد الجهيد على ان كل ما رآه العلماء من الاشنة على ظاهر الارض لا يذكر في جانب ما رأيناه منها في بحر ليدنبروك فاننا قد سايرنا بعض حبالها مسافة ثلاثة او اربعة الاف قدم ولم نزل نتخلل تلك الحبال العجيبة وانا اتامل في عظمتها وغريب نموها وافتكر فيما كانت عليه الارض في الايام الاولى ايام دولة النبات اذ كانت الحرارة والرطوبة متسلطتين على وجهها بلا منازع الى ان جاء المساء اي الوقت الذي تغيب فيه الشمس عن مدينة همبرج (اذ لم يكن في الحقيقة عندنا لا مساء ولا صباح لان النور المنتشر في الهواء من الظواهر الكهربائية الموجودة ثمة ثابت على حال واحدة) فتناولنا الطعام ثم اضطجعت بجانب الصاري ونمت ملء جفني وتركت هنسًا جالسًا عند الدفة على ان سفينتنا كانت في غنى عن ربان يقودها لان الريح كانت تجري بما نشتهي فلم يكن لنا اولى من تركها لها



فاننا قد سابرنا بعض حبالها مسافة ثلثة او اربعة الاف قدم (صفحة ١٥٠)

الفصل الثالث والعشرون

بعد ان قمنا من مرفاء غريبة وانساب بنا الطوف علي وجه المياه انسياب الافعوان متجهًا الى حيث تشتهي الرياح وتنزع اهواء الاهوية اقبل الاستاذ بوجهه عليَّ وقال تعلم يا اكسيل اني منذ ولجنا فوهة بركان اسنيفل لم اغادر من الحوادث شاردة الا سطرتها ولا آبدةً الا قيدتها في دفتر المحوظات ليكون تذكرة لنا عند الحاجة كما قيل

العلم صيـد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الواثقه

فمن الحماقة ان تصيد غزالة   وتفوتها بين الخلائق طالقه

ولكننا الان في بحر جم الغرائب كثير الحوادث والعجائب وربما تفضي بي كثرتها الى اغفال بعضها او تنسيني رعاية الطوف شيئًا منها فارى للوصول الى الحقيقة ان ينظر اليها ببصرين ويبحث عن مكنوناتها بفكرين عملاً بقول الشاعر العربي

اجمع لرأيك رأي غيرك واستشر   فالرأي لا يخفى على شخصين

المرء مرآة تريه وجهه   ويرى قفاه بجمع مرآتين

فانا لذلك اشير عليك باتخاذ دفتر مخصوص لاثبات جميع ما يقع لنا من الحوادث التي تستحق الذكر في اثناء سفرتنا البحرية وكل ما يتعلق بها سواء كان من قبيل الاكتشافات العلمية او التغيرات الجوية فاستحسنت ما قال واخذت على نفسي ان لا ادع من الوقائع صغيرة ولا كبيرة الا علقتها في دفتري فاقتصر في الحديث الان على سرد تلك الاسطر اليومية كما هي بدون تصرف ولا تعديل خوفًا من الوقوع في الزيادة او النقصان لاني قد كتبتها بيدي تحت تأثير الحوادث في حال وقوعها على اني اضرب صفحًا عما يتعلق منها باليوم الاول اذ قد سبق الكلام عنه بالاسهاب

يوم السبت وهو السادس عشر من شهر اغسطس

الريح ريح الجربياء — مسير الطوف سريع وهو يجري الى الجنوب الشرقي على خط مستقيم — لا شيء في الافق سوى السماء والماء — النور باقٍ على حاله — الطقس جيد اعني ان الغيوم مرتفعة جدًا قليلة الكثافة وهي بيضاء كالثلج او اللجين المذاب

الترمومتر على الدرجة الثانية والثلاثين

عند الظهر اخذ هنس قدرة من اللحم وانشبها في صنارة والقى الخيط في الماء فمضت حصة من النهار بدون ان يعلق بها شيء حتى كدنا نجزم بخلو بحر

ليدنبروك من السمك ثم اضطرب الخيط اضطرابًا عنيفًا فجذبه هنس اليه وإذا بطرفه سمكة شبيهة بالخبياري تنتفض قويًا

كأنها يد مفلوج عراه شجًا وراعه الذعر وانتابه حماه

فاخذها الاستاذ بكلتا يديه وضمها الى صدره خوفًا من ان تفلت

ولما وقع نظري عليهـا قلت اهلاً وسهلاً بملكـة المخدرات البحرية وسيدة الطائفة الخبيارية صاحبة الوجه البهي والطعم الشهي لقد اطلت الهجر ضنـًا بالوصال واكثرت من التعزز والدلال علمًا منك بما خصك به ذو الجلال من الحسن والجمال واللطف والكمال على انك قد نزلت على قوم يعرفون قدرك وعلو شأنك ولا يجهلون فضلك على اقرانك يعقدون عليك الخناصر ويعضون عليك بالنواجذ ويسكنونك القلوب وانت احب اليهم من يوسف الى يعقوب

فتبسم الاستاذ لهذا الكلام وقد علم ان نفسي سئمت اللحم القديد ثم تأمل السمكة برهة وقال لقد اخطأت يا اكسيل ولم تعرف نزيلنا حق المعرفة فان هذه السمكة رأسها مسطح مستدير وجسمها مغطى بصفائح عظيمة وفوها خالٍ من الاسنان وهي بدون ذنب ولها زعانف كبيرة في صدرها فهي والخبياري من فصيلة واحدة الا ان كلاً منهما نوع قائم بنفسه وبين النوعين بون جوهري في التكوين من وجوه عديدة

فدققت النظر اذ ذاك في تلك السمكة الغريبة وعرفت ان عمي مصيب في قوله ثم اردف كلامه قائلاً هذه السمكة قد انقرض نوعها عن وجه الارض قبل ظهور الانسان بالوف الوف من السنين وقد وجد العلماء دفائنها في الصخور الديفونية

فاخذني الطرب لوقوع تلك السمكة العزيزة النوال في قبضة يدنا ثم سالت الاستاذ عن اصلها وفصلها فقال هي من نوع المجنحات من فصيلة المسطحات الرؤوس من رتبة الجانويد اي ذوات الحراشف اللامعة ولكنها تختلف عن

نوعها في شيء واحد

قلت وما هو

قال هي عديمة العينين كغالب الاسماك التي تحت وجه الارض

فحققت النظر فيها واذا هي كما قال الاستاذ وفي بقية النهار اصطدنا نيفًا وعشرين سمكة بعضها من النوع المذكور وبعضها من نوع غريب لم يعرفه الاستاذ الا انهُ ينطوي تحت فصيلة الديبتيريد اي ذوات الجناحين وكلها عديمة العينين فسررنا بذلك الصيد سرورًا عظيما لانهُ زاد في زادنا وتنوع به مأكلنا على ان الصيد حالة الاصطياد احب الى الانسان منهُ حينما يقدم في الزاد

ولربَّ نزَّاعٍ لامر راقه   منه البداية لم يرقه المنتهى

ثم جلست اتامل في تلك الاسماك الغريبة التي بادت وانقرضت عن وجه البسيطة من اجيال عديدة واخذت افتكر في التغيرات التي طرأت على الارض منذ كانت كتلة ملتهبة الى ان صارت صالحة لسكنى الانسان فاتسع بي المجال وشطحت في وادي الخيال فانتقلت على جناح الافكار الى العصر الماضية ايام كانت الارض ماهولة بحيوانات هائلة تزيد اضعافًا مضاعفة في القوة والحجم على ما يقاربها شكلاً وتكوينًا من حيوانات هذا الدور فتجلت لي عرائس الكائنات وانجلت امامي اسرار الموجودات ونظرت اليها بنظار التعقل في مرصد التأمل فرأيت تلك السلاحف القديمة سائرة على وجه الماء وهي كالجزائر ومن حولها الضباب البحرية على اختلاف انواعها ثم مرت امام عيني ذوات الاثدية البرية من الليبتوتيريوم الذي عثر العلماء على بقاياه في مغائر البرازيل باميركا حتى الميريكوتريوم الذي وجدت دفائنهُ في اقاصي انحاء سيبيريا المتجلدة على حدود القطب الشمالي ورأيت اللوفيودن رابضًا وراء الصخور يترصد فرصة للفتك بالانوبلوتيريوم حيوان عجيب التركيب غريب التكوين يحاكي في بعض اعضائه الفرس والكركدن وفي البعض الاخر فرس النهر والجمل فكأني بالخالق جل جلاله بعد ان فرغ من خلقة الحيوانات

مفصلة الى انواع اراد ان يجعل لها فذلكة اجمالية اشارة الى اتمام العملية

ليس على الله بمستنكرٍ ان يجمع العالم في واحدِ

ثم رأيت الموث الجبار يضرب بخرطومهِ الاشجار فيسحقها سحقًا ويطعن بانيابه الصخور فيدقها دقًا والميجاتيريوم يمزق اديم الارض ببراثنه ولهُ زئير هائل يذعر الجن في مساكنها والبروتوبيتيك وهو القرد الاول الذي ظهر على وجه الارض يتسلق الاشجار الباسقة فرارًا من وجه الضواري التي تطلب افتراسه ثم رفعت نظري الى السماء فرأيت تلك الزحافات المجنحة الغريبة الخلق الهائلة المنظر المعروفة بالبتيرودكتيل سابحة في الهواء الكثيف وهي كالطير في رؤوسها وطول اعناقها وكالخفاش في اجنحتها وذوات الاثدية في ابدانها واذنابها ولها اسنان محددة تناهز الستين وخناصرها زائدة في الطول مغشاة بغشاء كجناح الخفاش ومعنى بتيرودكتيل المجنحة الاصابع وهي على انواع بعضها اكبر من النعامة باربعة اضعاف او خمسة وقد عثر العلماء على دفائنها في طبقات الصخور البيضية وهي الرتبة الثانية من رتب الصخور المتوسطة الحياة ثم رأيت في اعلى السحاب طيورًا اعظم من تلك حجمًا واشد باسًا تخترق الغيوم كالسهام الطائشة حتى اذا بلغت اعلى الجو انثنت راجعة على اعقابهـــا وانقضت على الارض انقضاض الصاعقة

يا محيل العنقـــاء وهي هبـــاءٌ حيث تبدو هذي الطيور الهوائل

قد اضعت الزمان في غير مغنىً واطلت الجدال من غير طائل

فهي مما انكرت اعظم بأسًا قد يكون الصحيح قول الاوائل

وبعد ان وقفت برهة اتأمل في عظمة تلك الحيوانات التي جمع العلماء هياكلها من اقطار العالم الاربعة واعادوا بناءها كما كانت توغلت في ظلمات الماضي طائرًا على جناح الافكار مارًا بكل درجات السلم الحيواني من اعلاها الى ادناها فنشرت ما طوى الجديدان في الاكفان من انواع الحيوان منذ ابتداء الزمان ثم طويت الاجيال والدهور والادوار والعصور فاضمحلت من امام عيني ذوات



وبعد ان وقفت برهةً اتأمل في عظمة تلك الحيوانات (صفحة ١٥٥)

الاثدية ثم الطيور ثم الزحافات ثم الاسماك ثم الاصداف والابواق ثم الحيوانات الشبيهة بالنبات فسرحت طرفي على وجه البسيطة وهي اذ ذاك على حال واحدة من الحرارة والرطوبة في كل الفصول والمناطق فلم ارَ الا جزائر شاخصة واخرى غائرة والماء بين مد وجزر واندفاع وانقشاع واليابسة بين شخوص وخسوف وانخفاض وارتفاع وهي قفر بلقع ليس فيها من يرى ولا من يسمع ثم توغلت ايضاً في القدم ميمّا وجهة الازل فرأيت الارض مغمورة بالمياه وهي تغلي غليان القدر على النار والبخار يتصاعد كثيفاً من كل جوانبها وقد ملاء الجلد وما لبثت ان

تحولت باجمعها الى بخار ملتهب منير كالشمس التي انفصلت منها ثم انتقلت بسرعة الفكر الى الشمس امنا وهي اكبر من ابنتها الارض بالف الف ومائتي الف ضعف ومتوسط بعدها عنا على اختلاف الفصول ٩١٤٣٠٠٠٠ ميل مسافة لا يقطعها النور الا في ظرف ثماني دقائق وبضع عشرة ثانية على اني قطعتها باقل من لحظة عين

هذا وما زلت تائهاً في قفار التصورات غائصاً في بحار الافكار اقطع فدافد المباحث واجول في ميادين المعقولات تطاردني الفكر واطاردها متنقلاً من وهاد الاوهام الى جبال الخيال ومن اغوار الظنون الى روابي اليقين حتى ذهلت عن عالم المحسوسات ونسيت نفسي وعمي وهنساً والطوف ولما رآني الاستاذ متغير الوجه كمن غاب رشده او ضاع عقلهُ ناداني باسمي قائلاً مالي اراك يا اكسيل تائه الفكر مذهولاً احذر من ان تسقط في البحر ولكنني لم اسمع ولم اجب وكنت انظر اليه ولا اراه وما انتبهت لنفسي وعدت لحسي الا لما جذبني هنس بعنف نحوه وكنت على وشك السقوط فافقت من غفلتي ورأيت عمي قلقاً مضطرب البال فقال لي مالك يا اكسيل ماذا جرى لك

قلت اخذني الذهول برهةً وقد زال الان بالكلية ولكن كيف الريح ومسير الطوف

قال الريح لم تزل في غاية المناسبة كما ترى والطوف سائر بسرعة الطير وان صدقني ظني واستمرت الريح على حالها حتى الغد فلا ننفطر الا ونحن على البر الاخر

وكانت قد جاءت الساعة السادسة من المساء فاتكأنا لمناولة الطعام ثم اضطجعنا للمنام بعد ان قبض هنس راتبه الاسبوعي عند انقضاء الساعة السادسة على الكمال والتمام

الفصل الرابع والعشرون

يوم الاحد وهو السابع عشر من الشهر

لم يزل البحر هادئًا والريح على حالها على ان الغيوم ابعد مما كانت عليه في اليوم السابق ونطاق البصر اوسع ومع ذلك لم يزل البر محجوبًا عن نظرنا وراء الافق

ارى عمي واجمًا يكاد يتميز من الغيظ تارة ينظر الى جوانب الافق بمنظاره وطورًا يدمدم بكلام غير مفهوم

يهيم كالذي يتلو رقاه ليحضر جنة وقت الدجنّه
وينظر للسماء بعين مقتٍ كأن به معاذ الله جنّه

ولما رأيته على تلك الحال قلت له بصوت المشفق ما لي اراك يا عماه ضيق الصدر كمن فقد البصر

فاجاب بنفور وكيف لا اعدم الصبر وبحرنا لا اخر لهُ

قلت لا موجب فيما ارى للتشكي فان الريح مناسبة جدًا والطوف سائر بنا بسرعة الطير وعندنا من الزاد شيء كثير

قال لست اشكو بطء السير بل طول البحر لان كل الوقت الذي نصرفه على ظهره ذاهب سدًى وكل مسير على طريق غير منحدرة احسبه من هذا القبيل

وهبنا حططنا في المساء رحالنا لدى الجانب الثاني فهل ذاك نافعُ
اذا المركز الارضي عز طريقه علينا فكل الجهد والجد ضائعُ

قلت كيف يضيع جهدنا وجدنا ونحن على اثر سكنوسيم

قال هنا محل الريب فهل نحن حقيقةً على اثر سكنوسيم وهل صادف سكنوسيم هذا البحر واجتازه او خاننا الجدول الذي اتخذناه دليلاً وعدل بنا عن الطريق المؤدية الى قلب الارض

قلت مهما يكن من الامر فلا يحق لنا ان نتذمر لان هذه المناظر الجميلة تشغل الانظار وهاته النسائم العليلة تعلل الافكار

أفلا ترى الامواج ترقص تحتنا والريح تتبع ذاك بالتصفيق

والجو يبسم عن ثنايا مزنهِ جذلاً ويضحك عن وميض بروق

قال بس يا اكسيل فاني ما عمدت الى هذه الرحلة طلباً للنزهة والفرجة ولكني قصدت امرًا ولست ارضى عنهُ بديلاً فدعني اذن من المناظر الجميلة والقبيحة والنسائم العليلة والصحيحة وذرني من تصفيق الرياح ورقص الامواج ولا تشغل سمعي بمقالاتك الخيالية وتصوراتك الشعرية

فامسكت عن الكلام وقد علمت ان عمي عاد الى ما كان عليه من العنف والخشونة المجبول عليها وما كان لينهُ في الايام الاخيرة ورفقه بي عن تغير في طباعه ولكن عن المصائب التي توالت عليّ وكادت تفقدني الحياة

يوم الاثنين وهو الثامن عشر من الشهر

الجو باقٍ على حاله غير ان الهواء ابرد من ذي قبل

لم يزل البصر منحصرًا بين السماء والماء فازداد بحر ليدنبروك عظمة في اعيننا حتى صرنا نقيسه بالمحيط الاتلنتيكي او على الاقل بالبحر المتوسط

قبيل الظهر اخذ الاستاذ معولاً من اكبر المعاول الحديدية التي استصحبناها وربطه بحبل طويل والقاه في البحر ليسبر غوره فلم يبلغ القعر فوصل الحبل باخر وهذا بغيره حتى صار المعول على عمق ثلاثمائة وخمسين مترًا ومع ذلك لم يصل الى القرار فعلمنا اذ ذاك انهُ بعيد المنال لا يفيد في الوصول اليه موصولات الحبال وشرعنا في رفع المعول فلم يتيسر لنا ذلك الا بعد عناء شديد ولما صار على سطح الطوف اراني هنس عليه اثر انياب منطبعة على الحديد كما تنطبع الصورة على العجين فاقشعر بدني وقتئذٍ ودققت النظر في ذلك الاثر فتبين لي منهُ ان الانياب مخروطية الشكل كاسنان التمساح وعلمت من فعلها ذلك الفعل الهائل

في الحديد انها ليست الا انياب ضب من الضباب القديمة التي انقرضت عن وجه الارض قبل العصر التاريخي وهي اشد الحيوانات القديمة بأساً واقواها بنية وكم من غرائب خفيت عن الانسان وهو فيما يزعم اغرب الحيوان

الى متى الانسان لا يرعوي عن التمادي في جهالاته
يرى وجود الخلق من اجله والكون مخلوقاً لمرضاته
وهو كليل العزم واهي القوى مستضعف الهمة في ذاته
وبعض ما يرميه بالضعف قد يعجز حتماً عن مباراته

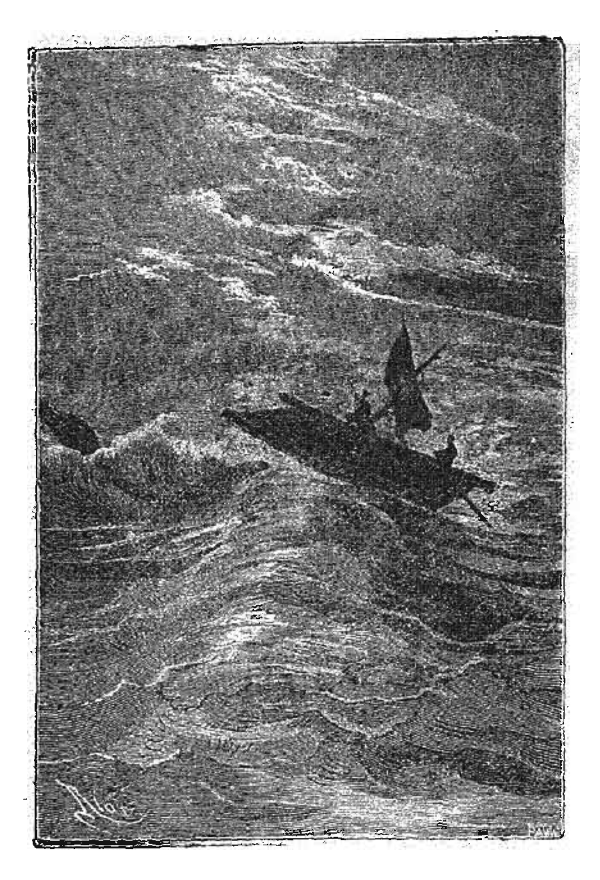
وتذكرت وقتها ما قرأته عن هذه الضباب من ان بعض العلماء عد في فم واحد منها القين واثنين وسبعين سناً فاشتد خوفي وازداد قلقي واما الاستاذ فبعد ان انعم النظر في حديد المعول اخذ يستنشف لجج البحر يمنةً وشمالاً فعلمت انهُ موافق لنا في رأينا فلعنت في سري ذلك الفكر الذي جاءه بالسبر وقلت ماذا ضره لو ترك ذلك الحيوان ساكناً في مربضه فاذا برز الآن من تحت المياه وهجم علينا أفلا يحطم الطوف بانيابه حطماً ويدق رقابنا دقاً ثم اخذت انتقد الاسلحة وفي اعتقادي انها لا تغني من الدفاع شيئاً بالنسبة لهذا الحيوان الهائل كما قيل

وما هزة المذبوح تجـدي وانما حلاوة روح الشخص تلجيه للدفع

فرآني الاستاذ على ذلك واوماء برأسه استحساناً

وفي ذاك الوقت رأيت المياه في اضطراب فعلمت ان الخطر قريب وبينما نحن نرصد جوانب الطواف واذا بصدمة عنيفة اصابته من حيث لا ندري فدفعته بنا الى بعد ثلاثين متراً وقد ارتفع عن سطح الماء الى علو بضع اقدام فعرانا من الوجل ما عظم وجل ولما انتبهنا من الذهول الذي استولى علينا ابصرنا على قيد غلوة منا حيواناً هائل الجثة ضارب اللون الى السواد يرتفع مرة ويهبط اخرى والمياه تضطرب من حوله اضطراباً عظيماً

كأن البحر مملوء سفيناً تسابق بعضها عند القتال



واذا بصدمة عنيفة اصابته من حيث لا ندري (صفحة ١٦٠)

فقال الاستاذ هذا خنزير بحر لم ارَ في حياتي خنزيرًا يقاربه في عظم الجثة

فقلت وها بجانبه تمساحًا هائلاً فاغرًا فاه اعوذ بالله من هذه الاسنان التي هي اقوى من الرحى

فقال اي وابيك ولا عجب اذا طحن بها الحديد

ثم قال ها قد انضم اليهما حيوان ثالث وهو الحوت ألا ترى كيف يضرب البحر بزعانفه الشديدة وكيف يندفع الماء والهواء من خياشيمه الى علو شاهق

ولما رأينا تلك الحيوانات الهائلة اخذتنا الدهشة وعمنا الاضطراب ووقفنا

مذهولين ثم اشرت الى هنس بان يبتعد عنها لان اضعف واحد منها قادر على ابتلاعنا بامتعتنا وتحطيم طوفنا بضربة واحدة من انيابه غير اني ابصرت في ذلك الوقت حيوانات اخرى مقبلة علينا من الجانب الاخر ليست دون الاولى قوةً ولا اقل منها خطراً فتبينتها واذا هي سلحفاة يبلغ عرض ظهرها اربعين قدماً او اكثر وحية هائلة لا ينقص طول القسم الظاهر منها فوق الماء عن عشرة امتار وهي تلعب برأسها يمنةً وشمالاً بما يوهن القوى ويضعف العزائم وعلائم الشر بادية بين عينيها

فشر مقبل يتلوه شر　　بفوت العمر منهُ ولا يفوتُ
عجبت لمن لهُ بصرٌ وسمعٌ　　يرى هذا البلاء ولا يموتُ

فلما رأينا تلك اليهاميت ونحن بينها كالمعصم احاط به السوار او الجيد عظ عليه التقصار قطعنا الرجاء من الفرار وندمنا حيث لا ينفع الندم وقد استولى علينا اليأس والوجل وايقنا بحلول الاجل ثم اخذت تلك الحيوانات تحوت علينا دائرةً حول الطوف كالخطيف وهي تضيق دائرة حوتانها مقتربة منا شيئاً فشيئاً وفي ذلك الوقت اختفت كل الحيوانات التي كما رأيناها في باديء الامر الا التمساح والحية وكانا يدوران حولنا ولا يجتمعان كانما توافقا على ان يمسكا علينا المراصد ويسدا في وجوهنا جميع المهارب وقد اشتدت علينا الازمة وتعذر علينا الخلاص وعلمنا انهُ لات حين مناص فاخذنا البنادق بايدينا استعداداً للمدافعة عن ارواحنا ولكن هيهات ان يفعل الرصاص في تلك الاعداء المدرعة بحراشف كالفولاذ وجلود كالحديد وبينما نحن في ذلك المقام الحرج والمركز الخطر واذا بذينك الحيوانين الهائلين قد التقيا على بعد مائة خطوة من الطوف فكشرا عن قواطع لامعة تضارع انياب الفيل ونواجذ قاطعة تجز العمر الطويل فقلت

عسى الله يلقي في الاعادي خصومةً　　فتشغلــ عنـــا اذ يشب لظاها
والا فانَّا هالكون ضرورةً　　واين قوانا من عظيم قواها



فاهتزَّ البحر لاصطدامهما وشبَّ الماء من بينهما مزبدًا (صفحة ١٦٢)

وما فرغت من الدعاء حتى انقض كل منهما على الاخر فاهتز البحر لاصطدامهما وشب الماء من بينهما مزبدًا واخذا في عراك وقتال تشيب من هوله الاطفال فاشرت لهنس بانتهاز تلك الفرصة للفرار ولكن الاستاذ ابى الا الانتظار على بعد غلوة من محل القتال للوقوف على نتيجته

وفي ذلك الوقت رأيت الحيوانات الاولى التي كانت اختفت برهة مشتبكة معهما في العراك وهي تظهر مرة وتخفى اخرى فأريتها لهنس فاوماء برأسه ان لا وابدى اصبعين من اصابعه بمعنى ان القتال بين اثنين فقط

فقلت كيف ذلك الا ترى الخنزير والحوت والسلحفاة

فقال الاستاذ وكان المنظار بيده دقق النظر يا اكسبل فان هنسًا مصيب في قوله لان احد هذين الحيوانين لهُ خطم خنزير البحر واسنان التمساح ورأس الضب وزعانف الحوت وهو الايكتيوزوروس او الضب السمكي والآخر هو البليزيوزوروس وهو عدو الاول الالد ويمتاز عنهُ بصغر رأسه وطول عنقه وهو يشبه الضب في رأسه والتمساح في اسنانه والسلحفاة في قوائمه ودرعه العظمي والحرباء في اضلاعه والحية في عنقه

وبعد ذلك اعطاني المنظار فانعمت النظر في الحيوانين اللذين ذكرهما واذا هما كما قال وكلاهما من الحيوانات التي انقرضت وبادت عن وجه الارض قبل ظهور الانسان بالف جيل فوقفت مندهشًا من شدة بأسهما وقوة اعضائهما وكان طول الحيوان الاول اي الايكتيوزوروس نحو مائة قدم وكل واحدة من عينيه بقدر رأس الرجل او اكبر وطول الحيوان الاخر لا ينقص عن ثمانين قدمًا

ولم يزالا في عراك وصدام وعناق وضام واقدام واحجام وهجوم ودفاع وهبوط وارتفاع وصئي يصم الآذان وزئير تقشعر منهُ الابدان وهما تارة يقتربان من الطوف وطورًا يبتعدان مقدار ساعة بل ساعتين من الزمان حتى صار البحر بلون الارجوان ثم غاصا في لجج البحر وهما متعانقان وبعد ان غابا عن ابصارنا بضع ثوان عاد البليزيوزوروس الى سطح الماء مجردًا من درعه العظمي وفي جنبه جرح بليغ قتال واخذ يتقلب على سطح البحر ويضرب الماء بعنقه ذات اليمين وذات الشمال والدم يندفق من جراحه مندفعًا الى بعد بضعة امتار كأنهُ نبع فوار ولم يزل يتخبط اختباط النزاع مقدار بضع دقائق وبعد ذلك ضعفت حركته وقلت قوته ثم فارقته الحياة فطفت جثته على وجه الماء كأنها جثة مارد من مردة الجان وبعد حصة من الزمن سكن اضطراب المياه وعاد البحر كما كان

كم شدة ضاق عنها الذرع وانفرجت ‌‌ ‌‌ وموقف بعد فرط الضيق يتسعُ

وبعد ذلك اطلق هنس للطوف العنان خوفًا من ان يعود الايكتيوزوروس من تحت الماء وليس من يشغله عنا فيتفرغ لنا وقد ظهر لنا من شدة بطشه ما جعلنا نقطع بعدم قدرتنا على مغالبته وكانت الريح شديدة فلم يكن كحل عقال حتى خرجنا من دائرة الخطر وصرنا في محل الامان

الفصل الخامس والعشرون

يوم الثلاثا وهو التاسع عشر من الشهر

ما برزت غرة الصبح تتلو طرة الدجى كاليأس يتلوه الرجا الا وبيننا وبين محل الواقعة فراسخ واميال ومسافات طوال وكان قد طال علينا المطال وثقل علينا الترحال فعاود عمي الضجر والملال وما كنت لاشتهي زوالها بمثل حوادث اليوم الفائت

فمع السآمة في ظل الامان ولا   حسن التسلي بانواع من الوجلِ

يوم الاربعا وهو العشرون من الشهر

الهواء حار والريح غير ثابتة على حال ومعدل سرعة مسير الطوف ثمانية اميال ونصف ميل في الساعة

عند الظهر سمعنا دويًا بعيدًا مستمرًا فاثبت الامر في هذا الدفتر غير عالم بحقيقته

ولما سمعهُ الاستاذ قال هذا صوت اصطدام الامواج بجزيرة او صخر عظيم قائم في وسط الماء فصعد هنس في الحال الى اعلى الصاري واخذ يستكشف جوانب الافق فلم يرَ شيئًا مما ذكر الاستاذ وبعد ان سرنا مسافة ثلاث ساعات ازداد الصوت قوةً ووضوحًا وظهر لي انهُ صوت سقوط الماء من شلال بعيد فاخذ مني القلق كل مأخذ وقلت ان صح ذلك فهذه مطفئة الرضف والطامة التي لا ينفع معها اسف ومن قال اننا نركب الاخطار ونجو من المضار

ومن يتخذ ارض الافاعي محجةً فلا بد ما تدنو اليـه الاراقمُ

ثم قلت للاستاذ طالما تاقت نفسك يا عماه الى طريق عمودية تقربك من مركز الارض فها قد اتاك الامر كما تريد

قال ماذا تعني بذلك

قلت ما هذا الصوت الذي نسمعهُ الاهدر شلال عظيم ينتهي اليه بحر ليدنبروك باجمعه

قال حبذا لو صح ظنك يا اكسيل ولكنه بعيد الاحتمال بل مستحيل

فعجبت من كلامه ووقفت انظر اليه وانا حائر في امره ثم قلت في نفسي لعله قطع الامل من نجاح رحلته فسئم الحياة وصار يؤثر الهلاك على الرجوع بدون بلوغ بغيته فدنوت منه وقد اخذتني الشفقة عليه وقلت لهُ بتلطف أحالتنا تقضي باليأس يا عماه حتى انك صرت تشتهي الهلاك

قال ماذا حملك على هذا الظن واين الهلاك الذي تشير اليه

قلت اما تمنيت ان يكون هذا الصوت هدير شلال تنتهي اليه المياه التي نحن عليها

قال اي تمنيت ذلك وما زلت اتمناه

قلت وهل بعد سقوطنا من امل بالنجاة

قال رحم الله القائل

وما الخوف الا ما تخوفه الفتى ولا أمن الا ما رآه الفتى أمنا

اعلم يا اكسيل ان السقوط من علو عشر اقدام على الارض اليابسة لاشد خطرًا من السقوط مع مياه شلال تصب في حوض بعيد القعر ولو كان علوه بضعة الوف من الاقدام لان الصدمة العنيفة التي يصادفها الانسان اذا سقط على اليابسة من علو عشر اقدام ربما كانت كافية لان تكون عليه القاضية واما اذا سقط مع مياه شلال في حوض بعيد القعر فلا يقف جسمه مرة واحدة عند

بلوغه ماء الحوض بل يستمر على النزول تابعاً مجرى مياه الشلال في قلب الحوض بحيث يزول فعل السقطة شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى بالمرة ويعود الجسم الى ثقله الطبيعي

فاخذني العجب من هذا المذهب وبقيت انظر الى الاستاذ نظرة المرتاب في صحة رأيه فاردف كلامه قائلاً اما رأيت رقاصي الحبال يمدون شباكاً تحتهم على علو بضع اقدام من الارض حتى اذا سقط احد منهم في اثناء اللعب يعود الى حبله وما به من ضرر

قلت بلى

قال الناموس الطبيعي واحد في هذا وذاك ولو كان الهدير الذي نسمعهُ صوت شلال كما ظننت لكنت اقول لك ستتحقق من صدق قولي بالامتحان ولكن الامر بخلاف وهذه الزجاجة تثبت لك ذلك

قال هذا والقى زجاجة فارغة في الماء فبقيت حيث القاها فقال لو كان هذا البحر ينتهي الى شلال قريب لكانت المياه تجري اليه بسرعة مع ما عليها والحال ان الزجاجة بقيت في المحل الذي القيناها فيه

فاقتنعت بهذا البرهان واطمأن بالي لاعتقادي بعدم وجود شلال لا تصديقاً بالمذهب الفاسد الذي ذهب اليه الاستاذ من عدم وجود خطر كبير في السقوط غير اني بقيت مشغول الفكر في امر الصوت الذي كنا نسمعه لاني لم ار فيه ادنى شبه بصوت اصطدام الامواج بالصخور ثم قلت لعلهُ شلال يصب من سقف المغارة او من احد جوانبها في بحر ليدنبروك واخذت احدق ببصريَ الى السماء والافق فلم ارَ شيئاً سوى الغيوم

وعند ذلك اعتلى هنس الصاري واجال الطرف في الافق ثم وقف متفرساً في نقطة منه فقال عمي اظن ان هنساً رأى شيئاً وما اتم كلامه حتى نزل هنس واشار بيده الى الجهة التي كانت تدفعنا اليها الريح وقال: هنالك

فاخذ الاستاذ المنظار بيده ووجهه الى المحل الذي اشار اليه الدليل وبعد دقيقة قال هذه فوارة يندفع منها الماء صعدًا فوق الامواج ثم يسقط على البحر فيحدث الصوت الذي نسمعه

فقلت ما هذا الا حيوان جديد من الحيوانات القديمة

تمر مصيبة وتجيء اخرى   وترحل غمة وتحل غمه
كأن الحزن مكتوب علينا   فلا نرتاح يومًا من ملمه

قال ما ذلك ببعيد

فقلت لهنس حوّل الدفة اذن يمنةً او شمالاً لاننا قد رأينا شيئًا من هول تلك الحيوانات

فقال الاستاذ بل استمر سائرًا مع الريح لنكون على بينة من الامر

قلت اننا لم نجُ من ذينك الحيوانين الا بعد اللتيا والتي فكيف نخاطر بانفسنا الى التقدم نحو هذا الحيوان المريع

كيف لا نترك الطريق لسيلٍ   ضيقٌ عن اتيه كل وادِ

غير ان هنسًا امتثل امر الاستاذ وارسل للطوف العنان في طلب الحوت الذي ترجح عندنا وجوده وكان ذلك منا ضربًا من الجنون لاننا لو حكمنا على عظم ذلك الحيوان من مقدار الماء الذي يدفعه من خياشيمه عند التنفس لعلمنا اننا باحثون على حتفنا بظلفنا ولكن

اذا اعتاد الفتى خوض المنايا   فاهون ما يمر به الوحول

ولم تزل الريح تكسحنا ذاهبة بنا الى الجهة المطلوبة والهدير يزداد قوة شيئًا فشيئًا حتى الساعة السادسة من المساء فرأينا نفسنا على بعد خمسة اميال من الحيوان الموهوم وشاهدناه ممتدًا على سطح البحر كأنهُ جزيرة والماء يندفع من رأسه الى علو الف وخمسمائة قدم حتى انا بلغ اعلى السحاب انتشر كالقبة في السماء وسقط على البحر مطرًا وبعد تدقيق النظر تبين لي ان طوله لا ينقص عن

الف وثمانمائة متر وهو ثابت على سطح البحر تصدمه الامواج ولا تؤثر فيه فعاودني الخوف عند ذلك واردت ان اكره هنساً على تحويل الطوف عن محل الخطر

أأدنو الى موتتي طائعًا ... والقي بنفسي الى التهلكة

فاخذني الاستاذ من ذراعي وقال لي وهو يبتسم ما بالك يا اكسيل قد فقدت الشجاعة واين الباس الذي اعهده فيك

قلت ما الشجاعة في مثل هذه الساعة الا جنون محض وما نا ينفع البأس اذا وقعنا بين فكي هذا اليهموت الذي لا تشبعهُ مائة حوت في اليوم على ان الشجاعة لا تكون الا حيث يمهد لها الفكر موضعًا كما قيل

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو اول ولها المحل الثاني

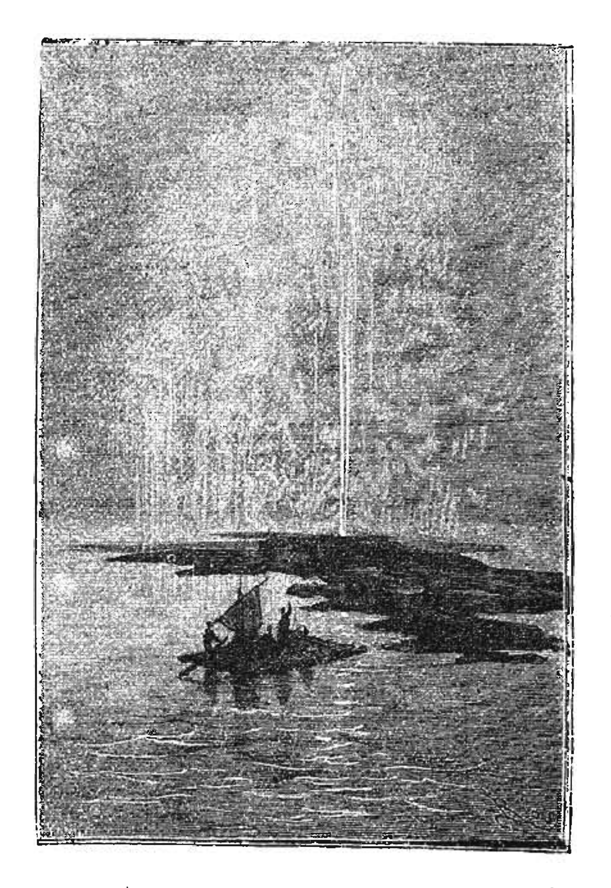
فضحك الاستاذ وقال اذا كان هذا اليهموت لا يشبعهُ مائة حوت يجب ان نكون مطمئن البال لاننا لسنا بالنسبة اليهِ الا كالبرغوث بالنسبة للانسان فلا يكسبه اكلنا لحمًا ولا شحمًا ولا نسمنهُ ولا نغنيه من جوع ولذلك لا يكلف نفسه عناء ابتلاعنا

فعجبت من برودة عمي وهزله في المقام الذي كنا فيه واخذتني حدة الغيظ فاردت ان استلم الدفة من يد هنس بالعنف والقوة واذا به قد تبسم وقال : جزيرة

فاستغرب الاستاذ في الضحك حتى استلقى على قفاه وسال لعابهُ على ذقنه واما انا فبعد ان اعدت النظر في الجسم الذي اقلق افكارنا قلت واي شيءٍ هو اذن هذا الماء الذي ينبعث الى اعلى الجو

قال هنس هذا غيسر

فاضاف الاستاذ قائلاً نعم غيسر كالغياسر العديدة التي في جزيرة ايسلاندا فبهتُّ من الخجل اذ وجلت حيث لا وجل وحسبت الجزيرة حيوانًا بحريًا وحاولت انكار الحقيقة برهةً ولكني اضطررت اخيرًا الى الاعتراف بخطائي



فجئناها من حيث لا نخشي سقوط الماء علينا (صفحة ١٧١)

واما الغيسر فهو ينبوع حار يندفق منهُ الماء الى علو شاهق في نوب معلومة والكلمة ايسلاندية الاصل تقابلها في العربية كلمة فوارة او شبابة وقد يسبق هيجان الغيسر دمدمة اشد من هزيم الرعد ثم يندفع الماء متقطعاً مغشى بحجاب كثيف من البخار ثم يهجع برهة ويهيج اخرى وقد يتفرع من العمود الاصلي اجزاء تتفاوت قوةً وبعداً فكأنها مظلات او قباب قائمة فوق بعضها تناطح اعلاها القبة الزرقاء واذا انقشع عنها البخار ظهرت للناظرين افلاماً فضية تدهش البصر بكثرتها وبهائها

ولما صرنا على قيد غلوة من الجزيرة امر الاستاذ هنساً بالدنو منها فجئناها من حيث لا نخشى سقوط الماء علينا وما كاد الطوف يلاصقها الا وقد وثبت عليها وتبعني الاستاذ واما الدليل فاقام على سطح الطوف لقلة اكتراثه بمناظر الغياسر التي لا يحصى عددها في وطنه اما الصخر الذي وقفنا عليه فخليط من الصوان والسليكا وهو حامٍ رنان فكنا نسير عليه كانما نسير على خلقين غاصة بالبخار الحار ولما بلغنا نصفه اشرفنا على حوض صغير محيط بالفوهة التي يندفع منها الماء وكانت المياه الحارة تتدفق من جوانبه سائرة الى كل الجهات كالاشعة فالقيت الترمومتر في احد مجاريها فارتفع زئبقهُ الى الدرجة المائة والثالثة والثلاثين فثبت لي ان تلك المياه صادرة من محلٍ ملتهب فاطلعت الاستاذ على تلك النتيجة لعلمي انها تناقض مذهبه فاجابني بحدة قائلاً اي برهان تستنتج من ذلك وهل اجهل انا او دغي ان على وجه الارض ينابيع حارة كهذا فليتخذها اذن اصحابك سلاحاً لدحض مذهبنا . . . . .

فامسكت عن المباحثة خوفاً من لسان عمي لاني رأيتهُ غير مائل اليها على اني كنت معتقداً بانهُ لا بدّ لنا من ان نقف يوماً ما عن التقدم في جوف الارض بسبب الحرارة الداخلية وقلت ان لم يصدق حساب العلماء على الطريق التي سلكناها حتى اليوم فذلك لاحوال خصوصية في التربة لا لفساد مذهبهم

وبعد ان وقفنا برهة نراقب فعل الغيسر في نوبهِ المختلفة عين الاستاذ موقعهُ في رقعة الاكتشافات فكان على بعد ستمائة وخمسة وسبعين ميلاً من فرضة غربية الى الجنوب الشرقي ثم دعاه باسمي وبعد ذلك عدنا الى الطوف واستأنفنا المسير مع الريح تاركين غيسر اكسيل وراء ظهورنا

الفصل السادس والعشرون

يوم الخميس وهو الحادي والعشرون من الشهر

قبل الساعة السادسة من الصباح استيقظت من نومي فلم اسمع للغيسر صوتًا مع ان الريح كانت تأتينا من جهته فعلمت ان سرعة مسير الطوف كانت في ذلك الليل اشد مما في اليوم الفائت

ثم نظرت الى الجو واذا هو مغبر الوجه مكفهره

كمدين هوى اليه غريم | او بخيل حلت به ضيفانُ
او سكارى تجهموا ذا وقار | او وقور بدا له سكرانُ

وابصرت في الافق الجنوبي غيومًا من النوع المعروف بالأنمر متراكمة فوق بعضها كأنها بالات قطن ملقاة على سطح البحر بدون نظام ولا ترتيب وهي ثقيلة معتمة اللون تشعر بتغير الطقس وقدوم المطر فجعلت اراقب حركاتها وانتشارها البطيء ثم سكنت الريح وهداء البحر وثقل الهواء فوقف الطوف عن المسير وقد تدلى قلعه ولما رأيت تلك الدلائل المنذرة بقرب النوء نبهت عمي اليها فاظهر عدم الاعتقاد بصدقها وبعد قليل تلبد الجو بسحاب حرق ثم اخذت الغيوم التي فوق رؤوسنا تنخفض شيئًا فشيئًا ونطاق البصر يضيق بالتدريج حتى اسود وجه السماء واظلمت جوانب الافق وكنت اشعر بفعل الكهربائية في جسمي حتى كان يخيل لي اني لو لمست شخصًا لانتفض جسمه واقشعر بدنه كمن يلمس سلكًا مكهربًا ولا عجب فاننا كنا في عالم الكهرباء

عالم تدهش البصائر فيه | وتحار النهى وتعشو العيونُ

وعند ذلك قلت للاستاذ ان كنت تظن هذا البرق خلبًا وهذا الغيم جهامًا فاني على غير هذا الرأي

فالامر اوضح من ان يستراب به | والشمس تكبر عن اتيان برهانِ

ومهما يكن من الامر فلا بأس من الاخذ باسباب الاحتياط فاسألك

ان تسع بطي القلع اذ لا فائدة منهُ والريح ساكنة ونخشى ضره اذا جآت العاصفة

فوثب الاستاذ من محله عند سماعه هذه الكلمات واجاب بجدة لا والذي بيده الموت والحياة لا يزال القلع منشوراً حتى اصل الى البر او اطوى في جوف هذا البحر واني لعالم حق العلم بان الريح ستهب عما قليل شديدة وتضرب طوفنا بجناحها فيطير بنا الى حيث لا ندري ومن المحتمل ان يحطم على صخر من الصخور او ينشب في كثيب من الرمال ولكن معاناة النصب على امل بلوغ الارب خير من الدعة بلا منفعة واني لارضى بركوب جميع الاخطار وتحمل انواع المضار اذا كان ذلك يقرب يوم وصولي الى البر

ولم يفرغ عمي من كلامه الا وقد تغير منظر الافق الجنوبي دفعةً واحدة وذلك ان ابخرته المتلبدة تحولت الى ماء فانهل على البحر مطراً بجيساً فجرت الريح من اقصى اطراف المغارة لتشغل الفراغ الذي حدث من سقوط المطر واشتد الظلام حتى لم يعد في وسعي قرآة هذه الحروف التي ارسمها على الورق

وقطَّب الجو وجهاً كلهُ عقدٌ وبدَّل الافق منهُ النور بالظلمِ

وفي الوقت نفسه ارتفعت الامواج وتضاربت فهبط بنا الطوف حتى خلته ذهب في لجج البحر ثم ارتفع على جبل من المياه ودفعته الريح بعنف شديد فانطرحت بجانب الصاري واستمسكت بحبل متين خوفاً من السقوط وفعل الاستاذ كفعلي واما هنس فبقي واقفاً في مكانه كأنه والطوف قطعة واحدة وكانت الريح تلعب بشعره المرسل والنور الكهربائي ينبعث من ذوائبه اشعةً ساطعة كأن كل واحدة منها مشعل متقد

لو ادعى ان هذا النور معجزة هنس لصدقه بعض من الامم

وكذلك كانت رؤوس الامواج منيرة وكانت تشتعل اشتعالاً عند الاصطدام حتى خيل لنا اننا سائرون في فوهة جبل ناري على بحر من المواد البركانية الملتهبة واما سرعة مسيرنا فكانت فائقة الحد لا تقع تحت قياس ولا



والنور الكهربائي ينبعث من ذوائبه اشعةً ساطعة (صفحة ١٧٣)

تعديل وكان القلع منتفخًا كأنه زق ملآن والصاري منحنيًا مع الريح الى الامام حتى خشيت على الاول من الشق وعلى الثاني من الكسر فاوعزت الى هنس ان يطوي القلع فمنعه الاستاذ من ذلك

وبعد قليل تكشف البرق فكأَن الدنيا اشتعلت وانهل الوبل فكأن ميازيب السماء انفتحت فلم نعد نرى الا نارًا محرقة وصواعق مبرقة تمزق كبد السماء كل ممزق ولا نسمع الا هزيز الريح وهزيم الرعد ودوي المطر وهدير الامواج والطوف طائر بنا الى حيث لا نعلم ولا نرى

وبطلنا الامور لمن براها   والقينا الاعنة للقضاء

يوم الجمعة وهو الثاني والعشرون من الشهر

قضينا ليلاً طويلاً شديد الهول عظيم الخطر لم يغمض لنا فيه جفن حتى الصباح اما الان فقد خفت سورة العواصف قليلاً فامكنني تعليق هذه الاسطر بيد مرتجفة ....

لم يكن الا كحل عقال حتى عاد النوء الى ما كان عليه من الشدة استغفر الله بل زاد على ما كان عليه قبل هذه الفترة ... لم يعد في وسعي الكتابة

يوم السبت وهو الثالث والعشرون من الشهر

نوء مستمر ودوي مستديم ورعد متصل وبرق متواصل وصواعق متتابعة فآذاننا دامية من قوة هذه الاصوات التي بلغت الحد الاقصى من الشدة ولم نعد نسمع صوت كلامنا

فكانما حق العذاب ويومنا   يوم العذاب وهذه اهواله

عند الظهر اشتدت الريح فصارت تمر الامواج فوق رؤوسنا وكان قد انهكنا التعب وضعفت قوانا من شدة النصب وخشينا ان نسقط في الماء ولم يبق لنا ثقة باستمرار الاتقاء فشددنا نفوسنا انا وعمي الى احد جذوع الطوف بحبل متين وكذلك فعلنا بادوات السفر والامتعة واما هنس فبقي واقفاً في محله عند الدفة ينظر الى اضطراب البحر واشتداد النوء نظرة الاحتقار

لا يراني قلبه فزع   لا ولا يهتز من وجل

فكأنه نبتون اله البحار

وفي ذاك الوقت مال الاستاذ نحوي ووضع فاه على اذني وقال بعض كلمات باعلى صوته فلم اسمع منها شيئاً فلما رأى ان لا سبيل الى المكالمة عمد الى الاشارة فعلمت انه يريد ان يقول انه لم يبق لنا امل في النجاة فكتبت على ظهر احد الصناديق التي بجانبي هذه الكلمات (فلنطو القلع) فالقى الاستاذ



ووقفت برهةً امام وجههِ كأنها تتفرس فيهِ (صفحة ١٧٧)

نظرهِ عليها وقبل ان يبدي جواباً ما سقطت كرة نارية على الصاري فقطعته نصفين وطار النصف الاعلى مع القلع في السماء كانه طير من البتيرودكتيل التي شاهدتها في رؤياي وفي اقل من لحظة عينٍ غاب عن ابصارنا وراء الغيوم المظلمة واما الكرة النارية فاخذت تدور حول الطوف وفوقه ونحن نراقب حركاتها وسكناتها بقلوب واجفة ونفوس جازعة ثم اخذت تجول بيننا كانها ملك الموت يبحث على من جاء في طلب روحه فصعدت اولاً على ساق الصاري ثم سقطت على جعبة الزاد ولم نلبث ان سقطت على سطح الطوف ثم اتجهت

نحو صندوق البلور وعند ذلك زاغت منا الابصار وبلغت القلوب الحناجر واشتد بنا القلق حتى وقفت ضربات قلوبنا خوفاً وامسكنا عن التنفس جزعاً وارتياعاً لاننا ايقنا بالهلاك

فان تكُ قد مرت علينا مخاوف ... وبانت واثنينا على ذلك اليمنِ
فما كل وقت تتقى هلكاته ... وما كل حين يسلم المرء من حينِ

ولكن الكرة بعد ان صارت على قيد رتب من الصندوق ازورت عنهُ وسارت نحو هنس ووقفت برهة امام وجهه كانها تتفرس فيه ثم ارتدت نحو الاستاذ فمال من وجهها فتجاوزته اليَّ واخذت تدور حول رجلي فاردت ان انقلها من محلها فلم اتمكن من ذلك لان تلك الكرة النارية التي ليست الا جسما كهربائياً كانت قد اكسبت كل الحديد الذي على الطوف قوة المغنطيس وكانت رجلي مرتكزة على قطعة منه مسمرة بالخشب فعلقت بها مسامير النعل على انني لما رأيت الكرة قد اتجهت اخيرًا نحو رجلي على خط مستقيم جذبتها بكل قوتي فتخلصت ولم تنكشف قطعة الحديد حتى جاءَت عليهـا الكرة ثم انفجرت بغتةً فكأن الف سهم ناري اشتعلت دفعة واحدة فحمدت الله على نجاتي من هذا الحادث العم والخطب الجلل وبعد دقيقة لم يبقَ من تلك الكرة النارية الاَّ رائحة غاز النيتروس التي كادت تخنقنا وفي ذاك الوقت نظرت الى عمي فرأيته سليما ثم نظرت الى هنس فرأيته لم يزل متصباً امام الدفة وهو يبصق من فمه نارًا ذات لهيب لكثرة ما في جوفه من الكهرباء على ان الحالة التي كان فيها لم تنسهِ ان ذلك اليوم يوم سبت ولم يشغله الخطر المحدق به عن طلب راتبه الاسبوعي عند حلول اجل الدفع

وما ينفع الدينار والخوف محدق ... بروح الفتى والغائلات تحوطه

يوم الاحد وهو الرابع والعشرون من الشهر

عند الصبح افقت من غشية طويلة وكان النوء لم يزل شديداً والبرق يسطع

في السماء متعوجًا كالحيات وكان الطوف طائرًا بنا بسرعة البرق وكنا على يقين من اننا في الايام الثلاثة الاخيرة تجاوزنا حدود انكلترا وقطعنا بحرالمنش وارض فرنسا بل ربما تجاوزنا حدود اوربا . .

اسمع صوتاً جديداً لا عهد لي به قبل الان وما هو الا صوت اصطدام الامواج على الصخور . . .

ان صح ذلك فالهلاك قريب . . .

الفصل السابع والعشرون

هنا طرحت من يدي دفترالملحوظات وعدت الى سرد الحديث كالسابق فاقول بعد ان سمعنا صوت اصطدام الامواج على الصخور لم نلبث ان دفعتنا الامواج نحوها لانفعالها بشدة الريح فتحطم طوفنا عليها وسقطنا في المياه مع ادواتنا وامتعتنا

وهناك تنخلع القلوب من الردى فرقًا ويبدو الحنف نصب الاعين

ولولا ان هنساً انتشلني من بينها وانا غائب عن الهدى لتمزق جسمي عليها حتما وشربت كاس الحتف دهاقًا

ولما فتحت عيني وجدت نفسي منطرحًا على رمال الشاطئ بجانب عمي وتفقدت هنساً فرأيته يغالب الامواج وهو ينازعها بقايا الطوف وصناديق الذخائر والامتعة فعجبت من شدة بأسه وفرط مروئته وآليت على نفسي ان رجعت الى ظاهر الارض سالمًا ان اعترف على رؤوس الاشهاد ان الفضل كل الفضل في نجاح الرحلة لهذا الرجل الذي قلما جاد الزمان بمثله وها انا أفي الان بهذا العهد عملاً بما قيل

ما عشت فبادر الى الجميل وحاذر من ان تلتقى يد الجميل بكفران
والمحسن فاشكر وقم بحق ثناه فالشكر قليل على الوفي باحسان

وكان المطر في تلك الساعة ينهمل باشد من الاول دلالة على قرب زوال

النوء وقدوم الصحو فاخذني الاستاذ بيدي وسار بي الى اكمة مؤلفة من صخور متراكمة فوق بعضها فاقمنا في نفق هناك لا يصيبنا المطر ولا السيل وبعد قليل جاء الدليل وقدم لنا شيئاً من الزاد الذي انتزعه من فم البحر فلم امدد اليه يداً لشدة ما بي من النصب والنعاس بل اضطجعت للرقاد

والنوم سلطان مراسيمه　　تلقى على العين والرأس

فلم يستقر رأسي على الوسادة حتى غرقت في بحر عميق من الكرى لاني كنت قد هجرت الوسن منذ ثلاثة ايام كاملة وما استيقظت من نومي الا قرب الظهر من اليوم التالي وكان قد انكف المطر وسكنت الريح وهدأ البحر وصفا الجو وانقشع الضباب عن وجه الماء وارتفع الغيم الى اعلى السماء وربما ابصرني الاستاذ جالساً اقبل نحوي يتمايل طرباً وقال بوجه باش اهنئك بالسلامة يا اكسيل كيف كانت ليلتك وكيف اصبحت

قلت نمت نوماً هنيئاً ولكني لم ازل ارى نفسي منزعجاً

قال ذلك تأثير الاتعاب التي قاسيتها في الايام الثلاثة الاخيرة ايام النوء وسيزول قريباً من نفسه

ثم توجهنا نحو محل المغرف لنتفقد الآلات والادوات والذخائر وكنا نخشى من ان يكون ابتلعها البحر باجمعها غير اننا بوصولنا الى الشاطئ رأينا هنساً واقفاً بين عدد عظيم من الصناديق والادوات فاطمأنت نفوسنا اذ ايقنا ان خسائرنا طفيفة ان كان ثم خسارة

على اننـا فزنا بارواحنـا وقد　　سلمنا وبعد الروح لا شيء يذكر

وكان ذلك الرجل الشديد النخوة قد احيى الليل ونحن راقدون في مغالبة الامواج ومقاومة الانواء وتجشم الاتعاب حتى تسنى له جمع شتات الامتعة والذخائر مع انه كان احوج منا الى الراحة لكونه قضى الايام الثلاثة السابقة منتصباً على قدميه امام الدفة لم يستقر له جنب ولم يغمض له جفن

هكذا فلتكُ الرجال والا فعلى سائر الرجال العفاء

فتقدم اليه الاستاذ اذ ذاك واعتنقه بفرح شديد وشكر لهُ علو همته شكرًا جزيلاً وبعد ذلك اخذنا نتفقد الصناديق واحداً فواحداً ونتعهد الامتعة شيئًا فشيئًا فتبين لنا ان الالات العلمية وهي اهم الجميع في نظر الاستاذ لم يفقد منها شيء وكذلك صناديق الزاد كانت اكثرها سليمة واما الاسلحة فلم ينج منها لا كثير ولا قليل الا ان صناديق البارود والقطن البارودي نجت باجمعها بعد ان كادت تطير بنا في اثناء العاصفة حين سقوط الكرة النارية على الطوف

ما تذكرت ذلك الهول الا وعراني انتفاضة واضطراب

وبعد ان فرغنا من ذلك البحث الذي جاءت نتيجته فوق ما كنا نتمنى كرر الاستاذ لهنس عبارات الشكر والح عليه بان ياخذ لنفسه قليلاً من الراحة ثم اخذني بيدي وسار بي الى رأس عالٍ فجلسنا هناك على صخرٍ متدلٍ فوق البحر وبعد ان تناولنا شيئاً من اللحم القديد والقسماط وشربنا قليلاً من الشاي قلت للاستاذ قل لي يا عماه في اي نقطة نحن الان من الكرة الارضية

قال لا يمكنني ان اعين النقطة التي نحن فيها بالضبط والتدقيق بل على وجه التقريب فقط لان سرعة مسيرنا في ايام العواصف والانواء لا تقع تحت قياس صحيح

قلت قل على وجه التقريب

قال متوسط سرعة مسيرنا بعد قيامنا من جزيرة القيصر اعني جزيرة اكسيل لم يكن اقل من ثلاثمائة ميل في اليوم فالمسافة التي بيننا وبين تلك الجزيرة اعدلها اذن بالف وخمسمائة ميل وقد كنا ونحن في تلك الجزيرة على بعد الف واربعمائة واثنين وخمسين ميلاً من ايسلاندا الى الجنوب الشرقي فنكون الان منها على بعد ثلاثة الاف ميل تقريباً

قلت اذن نحن الان تحت البحر المتوسط

قال نعم وقد صح ما كنت اراه من ان بحر ليدنبروك ليس دون البحر المذكور

عظمة واتساعًا على اننا لا نعلم أقطعناه طولاً ام عرضًا لانهُ في هذه الحالة الاخيرة يكون اكبر من البحر المتوسط

وبعد ان بقينا ساعة نتحدث في امر الرحلة والطريق التي ننتهجها قال لي الاستاذ قم بنا الآن نستكشف هذه الارض التي دفعتنا اليها الريح لعلنا نجد منها الطريق التي سار عليها سكنوسيم فنستأنف المسير نحو مركز الارض في الغد

قلت والرجوع متى يكون وعلى اي طريق

قال لا يكون الرجوع الا بعد الوصول فان كنت ترغب في سرعة الاياب فاجهد النفس في تسهيل سبل الذهاب واما الطريق التي سنعود عليها فاظنها غير التي اتينا منها ومع ذلك فقد اوعزت البارحة الى هنس من قبيل الاحتياط ان يهتم في تصليح الطوف قبل الانتقال من هذه الديار حتى اذا لم نجد طريقًا للرجوع غير التي سلكناها يمكننا استخدامه ثانيةً لقطع بحر ليدنبروك ايابًا

قلت أتؤمل حقيقة يا عماه ان نجد طريقة الى ظاهر الارض غير التي اتينا منها

قال لي الامل الوطيد بان نصادف طرقًا كثيرة لا طريقًا واحدة تنتهي كل منها الى فوهة بركان من البراكين العديدة المنتشرة على سطح الارض

ثم اخذنا نتمشى الهوينا ميممين كبد البر متفكرين في الحصول على الوصول والنزوع الى الرجوع وما اعدته لنا الليالي من الكوارث وما عسى ينتظرنا من الحوادث

وكل مخبوء فلا بد ان يكشفه المستقبل المقبلُ
والدهر لا يبقى على حالةٍ لا بد ما يدبر او يقبلُ

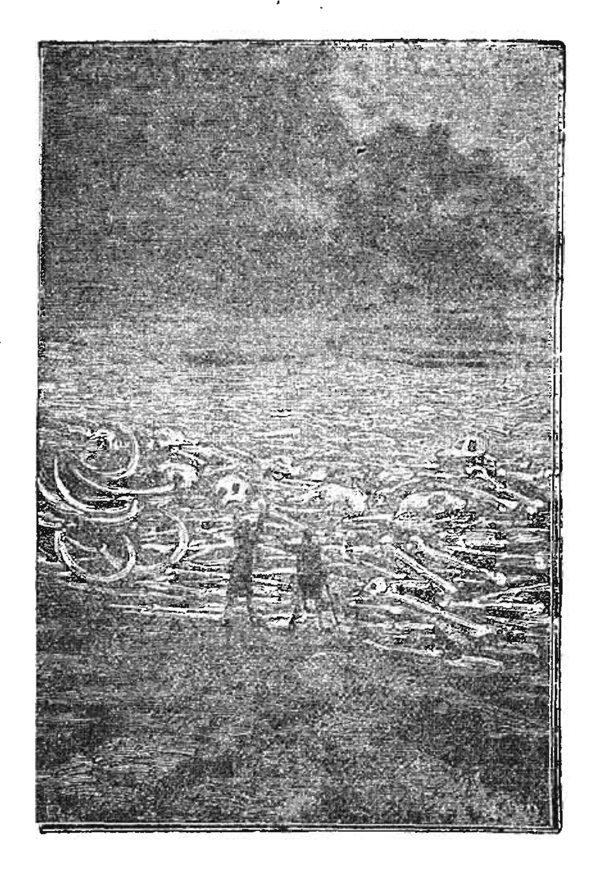
اما التربة التي كنا نسير عليها فرسوبية وهي مكسوة بالابواق والاصداف من كل الانواع واكثرها من انواع انقرضت عن وجه الارض ولم يبقَ منها الا بعض احافير متحجرة تتفاخر بها الانتيكخانات الشهيرة ورأيت بين تلك الابواق

صفائح سلاحف لا ينقص عرض بعضها عن خمس عشرة قدماً

فمن مبلغ اهل المتاحف اننا نعد الوفا من صنوف اللطائف
ونخطو عليها بالنعال كأن ذا مباح فلم ينكر بعرف المعارف

وشاهدت على الارض كثيراً من الحصى الاملس فعلمت ان ذلك البركان مغموراً بمياه البحر في العصر الخالية وفضلاً عن ذلك رأيت على رؤوس الصخور الشاهقة اثاراً تويد هذا الحكم فحملتني هذه الاكتشافات على البحث في كيفية تكوين ذلك البحر في جوف الارض فقلت لا بد انهُ حدث بين هذه المغارة والاوقيانوس لسبب من الاسباب شق انتها منهُ المياه فملأتها ثم انسد ذلك الشق لسبب اخر وصارت المياه التي في قلب المغارة تذهب في قلب الارض شيئاً فشيئاً بالامتصاص وبعضها يطير بخاراً ويتصاعد من بعض المنافذ الى سطح الارض حتى انكشف البحر عن قسم من الاراضي التي كان يغمرها في الايام الماضية وحكمت بانهُ سيستمر على التناقص شيئاً فشيئاً حتى ينضب ماؤه وينكشف قراره انكشافاً تاماً

ولم نزل نتقدم في ذلك البر الفسيح وانا اتفكر في تقلبات الزمان وتغيرات الاحوال والاستاذ لا يرى غاراً الا استقصاه ولا نفقاً الا استقراه ولا نقرة الا استكشفها ولا حفرة الا استشرفها ولا كهفاً الا استطلعه ولا شقاً الا سار معهُ املاً في اكتشاف اثر يرشدنا الى الطريق الذي سلكه سكنوسيم فتبعه حتى انتهينا بعد مسير ساعة الى بقعة متسعة تبلغ مساحتها اربعة اميال مربعة ارضها مكسوة بعظام هائلة بقايا حيوانات بائدة من التي عاشت على وجه البسيطة قبل الطوفان كالمستودنت ذي الاسنان الحلمية والدينوتيريوم اكبر الحيوانات الارضية والسيواتيريوم الذي وجد رأسه في جبال سيوالك ببلاد الهند ولم تزل تبحث العلماء حتى الان على بقية هيكله والاتلنتوسوروس اكبر الضباب المعروفة والبرونتوسوروس الذي يشغل اثر منسمه من الارض يرداً مربعاً والهدروسوروس



بل تاريخ الحياة الحيوانية قبل الدور التاريخي (صفحة ١٨٢)

الذي يمشي منتصباً على قدميه كالانسان ويزيد عنه في الطول ستة اضعاف الى غير ذلك من الحيوانات العجيبة التي كانت تأهل الارض في قديم الزمان

مضت وبقاياها الشواخص عندنا تعد وتحصى في عداد الغرائبِ
وبما ربما تاتي خلائق بعدنا يعدوننا من امهات العجائبِ

فاخذتنا الدهشة اذ ذاك ووقفنا برهة صامتين مبهوتين امام تلك الجبانة العظيمة جبانة الحيوانات القديمة بل تاريخ الحياة الحيوانية قبل الدور التاريخي ثم دخلناها وقد عملت فينا رغبة الاستكشاف وشغلتنا الافكار التي كانت تختلج

في ضمائرنا عن الكلام فاخذنا نسير صامتين لا نسمع الا قضقضة العظام التي كانت تطأها نعالنا وكنت اتأمل تلك الاحافير بقايا اسلافنا الذين ورثنا الارض عنهم باحترام يخالطه بعض الخوف ولسان حالي يتمثل بقول المعري

خفف الوطء ما اظن اديم الا رض الا من هذه الاجساد

اما الاستاذ فكان يضطرب اضطرابًا شديدًا كالبخيل اذا وجد كنزًا ثمينًا او العالم المشغوف بالمطالعة اذا اعيدت مكتبة الاسكندرية الى عالم الوجود واقيم عليها امينًا

وبينما نحن سائرون فوق هاته العظام العظام متخللين تلك الهياكل الهوائل التي تستوقف بغرابتها النعام الجافل حانت مني التفاتة الى اليمين فابصرت على قيد رمح مني جثة انسان كاملة محفوظة من البلى فوثبت نحوها وصرخت صرخة استلفتت نظر الاستاذ اليها ففعل كفعلي بل انطرح عليها كأنها جثة فقيد عزيز لديه

وكانت تلك الجثة سمراء البشرة كأنها موميا مصرية ولا شك انهُ مضى عليها في تلك الارض مئات الوف من السنين وما بقيت محفوظة على حالها الا لوجودها في تربة توفرت فيهـا الشروط اللازمة لحفظ الاجسام من البلى كتربة جبانة القديس ميخائيل في مدينة بوردو بفرنسا فلا يحتاج بقاء الجسم فيها لان يدخل في عالم التصبير او يكون من القديسين المشاهير وقد كنت حسبتها في بادىء الامر حالما وقع نظري عليها ورأيت شعرها الكثيف واظافرها المستطيلة التي تثبت ان صاحبها قضى حياته في حالة التوحش التام انها جثة ذلك الحيوان المتوسط بين القرد والانسان صاحب تلك الحلقة التي لم تزل مفقودة من حلقات السلسلة الحيوانية لا جثة انسان مثلنا اما الاستاذ فعرفها من اول نظرة انها جثة انسان حقيقي لا يختلف عنا بشيء في التركيب

وكان بجانب تلك الجثة آلات عديدة صوانية كفؤوس ومطارق وسكاكين



وهي مع ذلك لا تبلغ من الطول ست اقدام (صفحة ۱۸٦)

وشيءٍ كثير من عظـام الحيوانات التي ابادها برد العصر الجليدي وهي محطومة بتلك الآلات حطماً متشابهاً متناسباً بحيث لم يبقَ عندنا شك في ان اليد التي ضربتها يد انسان عاقل اراد استخراج مخها والاغتذاء به وبعد ان بقي الاستاذ برهة يتامل تلك البقايا قال لي اعلم يا اكسيل انك قد كشفت الغطـا بهذا الاكتشاف عن حقيقتين لم تزالا حتى الان موضوعاً للبحث والجدال بين اشهر علماء العالم اما الاولى فوجود الانسان على الارض قبل الدور الجليدي خلافاً للقائلين بحداثة عهده والثانية بقاء جثته من حيث الكبر والصغر على ما كانت

عليه في القدم حتى ايامنا هذه

ثم اوقف الجثة واسندها الى صخر قريب وقال لا شك في ان هذه الجثة اقدم ما وجده العلماء من بقايا اجدادنا حتى الان وهي مع ذلك لا تبلغ من الطول ست اقدام فاين هي من هياكل الجبابرة التي ولدتها الاوهام

قال ابن آدم كم يزيغ فؤاده   فيرى اموراً قط لن تتصورا

والحق بادٍ للانام وانما   يحتاج صاحبه لان يتفكرا

وكنت موافقاً لعمي على هذا الراي قبل اكتشاف تلك الحجة الدامغة فلم اكن لاخالفه بعدها على اني اعلم ان الدور الحجري لم يخلُ من الجبابرة كما ان دورنا الحديدي لا يخلو منها وقد قال العلامة بيفون المحقق ان رجلاً يدعى هنس بار بلغ من الطول احدى عشر قدماً اي اكثر من ثلاثة امتار ونصف فاي شي يمنع من ان يكون الدور الحجري اوجد جبابرة كهذا او اعظم منه

ثم وقفنا نتامل في كيفية وجود تلك الجثة في جوف الارض على ذلك العمق أعاش صاحبها حيث وجدناها ام ذهبت بها القشرة الارضيــة اثر خسوف عراها سؤآل وضعناه ولم نستطع عليه جواباً

الفصل الثامن والعشرون

ما ابتعدنا عن محل الجثة قيد غلوة حتى اشرفنا على غيضة عظيمة لا يدرك البصر منتهاها وهي ذات اشجار باسقة تناطح رؤوسها السحاب تتخللها جداول كثيرة يتيه النظر في مجاريها ويضل البصر بين المقبل والمدبر منها فوقفنـــا دقيقة نسرح الطرف في آكامها وبراريها ونتسأل عن ظواهرها وخوافيها وعما عسى ان نصادفه في فيافيها من عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات وكانت قد مضت الساعة السادسة من المساء وجاء وقت العشاء الا ان الغرائب التي تجلت لنا متوالية واحدة بعد واحدة الهتنا عن التعب والجوع وانستنا حلول



ولما دخلناها خلناها روضة من رياض الجنة (صفحة ١٨٧)

زمن الرجوع فانحدرنا من الرابية التي كنا عليها قاصدين تلك الغيضة الباهرة ولما دخلناها خلناها روضة من رياض الجنة لولا ان شجرها بلا ثمر ونباتها اغبر اقتر كالورق البالي اذا ذهب لونه

اما النبات القائم فيها فانواع واجناس وقد ميزت منها الحور والتين والنخل والبلوط والجوز والصنوبر والسرو والعرعر والسرخس والتنوب وجملة انواع من الفصيلة البقلية كالقرظ ونحوه وعلمت من اختلاط نباتات المنطقة الحارة فيها بالخاص منها بالمنطقة الباردة ان تلك البقعة هي على ما كانت عليه

حالة الارض في دورها الثالث من الادوار الجيولوجية الاربعة ثم حدثت نفسي قائلاً اذا كان الامر كذلك فلماذا لا تكون هذه الارض ماهولة بالحيوانات التي عاشت في ذلك الدور واي شيء يمنع من وجودها وقد اعدت لها الطبيعة ماكلها ومشربها

وبينما انا اردد الفكر في جائز هذه الامور وممنوعها واسرح الطرف بين اغصان الاشجار وجذوعها لاح لعيني شبح بعيد فامسكت عن الحركة موجساً خيفة واوقفت عمي عن التقدم ثم دققت النظر في ذلك الخيال فرأيت بل خيل لي اني ارى ما لم يخطر لي قط ببال ولا ازال انكر وجوده حتى الآن رجل حي يبلغ من الطول اربعة امتار يسوق امامه عرجلة من الافيال فارتعدت فرائصي فرقاً وطارت نفسي شعاعاً حتى كاد الدم يجمد في عروقي اما عمي فحالما وقع نظره على تلك الحيوانات الهائلة اراد ان يقصدها كأنما هي صيد سهل النوال فجذبته من يده بعنف شديد قائلاً ماذا تفعل أأضعت الرشد ام ظننت هذه الحيوانات كثعالب برية همبرج ثم جررته فسار معي بدون ممانعة ولا معارضة وخرجت به من الغيضة ونحن نعدو عدو الخائف الوجل كاننا فرسا رهان اذا ارسل لهما العنان وما زلنا نركض حتى دخلنا ارض الجبانة وتوارينا وراء الكثبان فانطرحنا هناك على الثرى وقد اعيانا التعب حتى اعجزنا عن الكلام وبعد ان سكن روعنا وهدأ جاشنا داخلنا الريب في كون الذي رأيناه انساناً حقيقياً من الجبابرة الهائلة التي انكرنا على بعض العلماء الاعتقاد بوجودها في العصر الخالية وحكمنا بان ابصارنا اضلت بصائرنا او على الاقل ان ذلك الحيوان المنتصب على قدميه هو قرد من القرود القديمة من انواع البروتوبيتيك او الميزوبيتيك التي انقرضت عن وجه الارض وبعد ذلك اراد الاستاذ ان يعود الى الغيضة ليحقق النظر في ذلك الحيوان العجيب وكان يظهر لي انه خجلان من انقياده الى الفرار فبينت له وخامة ذلك الرأي لا سيما ونحن عزل ولم ينقد لرأيي الا بعد



يسوق امامه عرجلة من الافيال (صفحة ١٨٨)

العناء الشديد والجهد الجهيد

ثم قصدنا المحل الذي تركنا فيه هنساً ولكن طريق الاياب كانت غير طريق الذهاب وقد اتضح لي ذلك من كثرة الكهوف والمغائر التي صادفناها اذ ذاك وقد شاهدنا في تلك الكهوف هياكل بشرية كثيرة غير اننا لم نكترث بها لان الحيوانات الحية التي صادفناها في الغيضة كانت شاغلة افكارنا عن كل شيء سواها

بطل التشبب بالرسوم اذا بدت عين الحقائق نصب عين الرائي

جاز التيمم حيث لا مـاء وقد بطل التيمم مع وجود المـاء

وبينما نحن سائرون تحت تأثير تلك الافكار توغلنا في طريق ضيقة محفوفة من الجانبين بصخور شاهقة ثم انتهينـا منها الى نقطة من الشاطىء غير النقطة المقصودة ولم تنتبه لامرنا الا ونحن على باب سرداب مظلم يتخلل قلب تلك الصخور فخطونا فيه بضع خطوات بقصد استكشاف تكوينه فتبين لنا ان جدرانه الداخلية مطلية بالسوائل البركانيـة وعند ذلك صرخ الاستاذ قائلاً هذه هي الطريق التي جئت ابحث عنها هذه هي التي تذهب بنا الى مركز الارض ألا ما ابركه من مساء ثم اخذ يتنقل في ارض السرداب يمنة ويسرة وهو يعيد النظر في جدرانه ويلمسها بيديه ولوائح الفرح الشديد ظاهرة على وجهه

اذا اقبل التوفيق فالخير مقبل يجيء الفتى من حيث يدري ولا يدري

اما انا فوقفت مرتابًا في صحة رأيه مترددًا بين الشك واليقين وبعد قليل قال لي يجب علينا الان يا اكسيل ان نعود الى حيث تركنا هنساً وفي الغد نرجع الى هذا المكان بادواتنا وامتعتنا فنستأنف المسير نحو مركز الارض بلا مهل فاننا قد صرفنا في القارة السادسة زمنًا طويلاً وقد تاقت نفسي الى الحركة بعد طول السكون الا انه يجب علينا ان نحقق النقطة التي نحن فيها الان لئلا نضل عنها في الغد

قال هذا وخرج من باب السرداب فخرجت وراءه وبينما نحن نتفرس في الصخور المجاورة رأيت فوق الباب رسم الحرفين الاولين من اسم ارن سكنوسم باللغة الايسلاندية وهذه صورتها

· ᚴ · ᛋ ·

فاقشعر بدني اذ ذاك وكنت حتى تلك الساعة باقيًا في ريب من صدق الرقعة السرية فلم يبق بعد ذلك للريب من سبيل وايقنت ان ارن سكنوسم لم يقف عند فوهة بركان اسنيفل حيث وجدنا رسم اسمه كاملاً بل دخل حفنة

في جوف الارض وسار على نفس الطريق التي سرنا عليها نحن فعظم حينئذٍ ذلك الرجل في عيني حتى لم يعد لي جسارة على تكذيب خبر بلوغه مركز الكرة الارضية مع ما هو عليه من المخالفة للقواعد العلمية

اما الاستاذ فلما رأى تلك الحروف كاد يخر لها ساجداً ثم هتف مخاطباً شخص سكنوسيم قائلاً حيي الغيث ثراك ايها العالم العظيم انت الذي فتحت للانسان سبيل الاطلاع على خفايا الكرة الارضية ومكنوناتها وخططت له طريق العلم باحوال الدهور الماضية وكائناتها ولم تكتفِ بالاشارة الى تلك الطريق في رقعتك السرية الناطقة بفضلك وحكمتك بل تركت للذين يريدون اقتفاء اثرك دليلاً من صنع يدك يقودهم عليها وهذا الدليل هو اسمك الذي قرأناه على الصخور القائمة عند فوهة اسنيفل هو الذي نراه الان هو الذي سيرشدنا الى طريقنا حيثما نخشى التيه وسنراه في مركز الارض ايضاً مرسوماً على صفحـــات صخورها النارية

وبعد ذلك انصرفنا الى المحل الذي نزلنا فيه ونحن نتحدث في امر تلك الاكتشافات الغريبة التي وقفنا عليها في يومنا ونحمد الصدفة العجيبة التي ساقتنا الى باب الشق نفسه الذي ولجه سكنوسيم

وفي صباح اليوم الثاني عدنا الى ذلك المكان على ظهر الطوف مستصحبين معنا جميع الادوات والذخائر وكان قد احدث فيَّ ذلك الاكتشاف رغبة في السفر لم اشعر بها من قبل وحال وصولنا شرعنا في الاستعداد للمسير فقسمنـــا الامتعة الى اقسام ثلاثة لكل واحد منا قسم كما فعلنا يوم ودعنا ظاهر الارض ثم اودعنا الطوف محلاً امينًا بمعزل عن الرياح والعواصف وشددناه بحبل متين الى بعض الصخور وبعد ذلك تأبط كل منا قربة مملوءة من مياه المطر اخذناها من الثغر المجاورة ودخلنا السرداب على نور المصباح والبشر يلمع في وجوهنا

على اننا لم نخطُ الاعشرين خطوة حتى وصلنا الى صخر قائم في وجه الطريق

لا منفذ منهُ فوقفنا محتارين في امرنا ونحن لا نكاد نصدق اعيننا شأن الرجل اذا سقط فجأةً من عرش الامل الى وهدة اليأس لا يجد لامرهِ تدبيراً ثم اخذنا نستجس ارض السرداب ونعيد النظر في جدرانه على امل ان نجد شقًا نلجه ولكننا لم نجد الا التعب والعناء واخذ منا الغيظ ماخذاً عظيما وكنت قد نسيت ابنة عمي وشغلت عن ذكرها برغبة الاستقراء والاستكشاف فاسندت ظهري الى الحائط وقلت بصوت الآيس: افضي علينا اذن بالرجوع الى ظاهر الارض قبل بلوغ مركزها

وكان الاستاذ لم يزل يتفرس في جوانب الصخر ويتأمل في سقف الدهليز ثم قال ان المواد البركانية التي تكسو هذه الجدران لم تنبعث من النقطة التي نحن فيها بل من مصدر بعيد عميق فهذا الصخر حادث يا اكسيل ولا شك انهُ سقط من سقف السرداب عقب زلزال او عامل آخر من العوامل الطبيعية وعندي ان سكنوسيم لم يصادف هذا الحاجز في طريقهِ

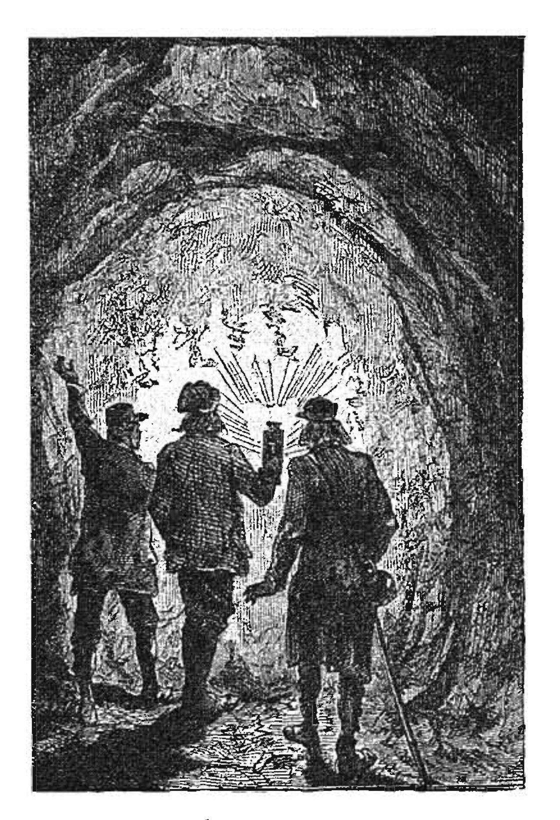
قلت ان كان الامر كما تقول فليس لنا الا ازالته باي طريقة كانت وان لم نقوَ على ذلك فلا نكون اهلاً لان نقتفي اثر سكنوسيم

قال وما هي الطريقة التي تمكننا من بلوغ الارب

قلت اين القطن البارودي الذي استصحبناه فها قد جاء وقت استعماله وانا اقول ان هذا القطن لم يسلم من لهيب الكرة النارية ثم من الغرق الا لهذه الغاية

فاطرق الاستاذ برهة ثم قال لا غنى لنا عن الواسطة التي تشير باتخاذها يا اكسيل فهي وحدها موصلة الى ازالة هذا الحاجز الذي حال دون بغيتنا

وفي الحال حططنا الاحمال عن ظهورنا وباشرنا عمل اللغم فتولى هنس امر النقر واخذت اشتغل انا وعمي في اعداد فتيل طويل محشو باروداً مبلولاً بالماء ولم يأتِ الظهر الا وقد بلغ النقر العمق الكافي لخزن خمسين رطلاً من القطن البارودي وهو القدر الذي كان عندنا من تلك المواد فحشوناه بها وسددنا



فاخذ منا الغيظ ماخذاً عظيماً (صفحة ١٩٣)

الفوهة سداً محكما قويًا على الطريقة المشهورة

وبعد ذلك سألت الاستاذ ان يوليني امر اشعال الفتيل فاجابني الى طلبي مطمئن البال لانهٔ كان يعلم ان احتراق الفتيل يستغرق من الزمن عشر دقائق كاملة نظراً لطوله ورطوبته

ثم قلت لهُ من الممكن ان يحدث التفرقع زلزالاً هائلاً في جميع الصخور المجاورة فارى من الحكمة ان نوسع في البحر بعد اشعال الفتيل فانتظرني مع هنس على ظهر الطوف وسالحق بكما حالاً

قال صدقت يااكسيل فافعل وعد الينا سريعاً

ثم انصرف مع هنس نحو الطوف وبعد ان اعادا اليه جميع الادوات والامتعة واستويا على ظهره اخذ الاستاذ ساعته بيده ثم قال « افعل » فادنيت النار من طرف الفتيل فاشتعل وفي الحال لحقت بعمي وهنس وكانا قد حلا عقال الطوف فاطلقا له العنان ولما صرنا على بعد خمسين متراً من الشاطئ وقفنا نراقب فعل النار في السرداب ونحن نعد الدقائق والثواني وقلوبنا تنتفض بالرغم عنا

الفصل التاسع والعشرون

سنلقى اليوم اهوالاً شداداً　　فتنسينا الذي كنا لقينا
وكانت في الحياة لنا ظنون　　وها قد صار مصرعنا يقينا

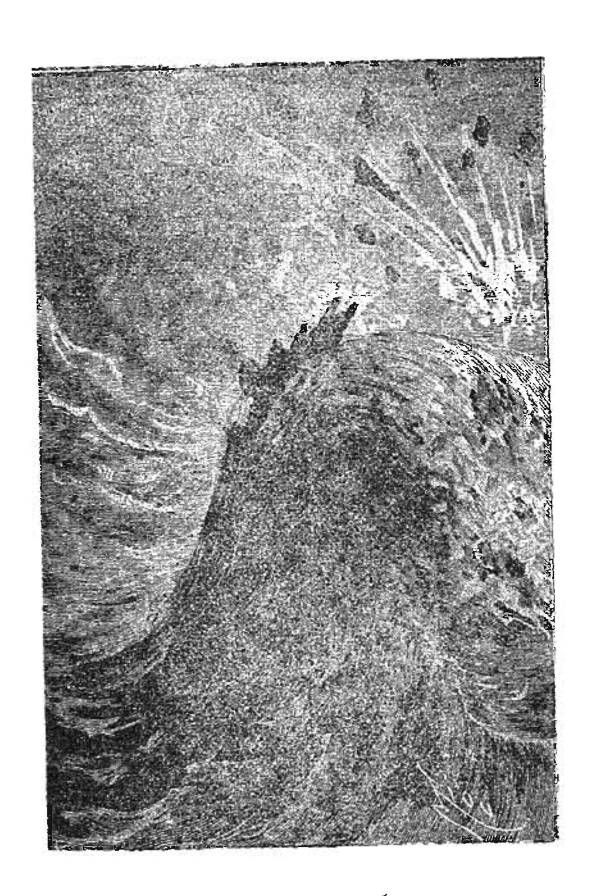
على اننا مذ الآن القينا التدابير واستسلمنا الى احكام التقادير وصرنا العوبة بيد العناصر تلعب بنا كيف شاءت

كريشة في مهب الريح ساقطة　　لا تستقر على حال من القلق

اقول ما جاءت الثانية الستون من الدقيقة العاشرة بعد اشعال الفتيل الا وقد انشق وجه الارض فجأة وانصدع ظهرها بغتة فرأيت امامي هاوية خاوية مظلمة مخيفة وفي الوقت نفسه هاج البحر وماج حتى خلت ان الارض تقوض بنيانها والدنيا اندكت اركانها ثم ارتفع الطوف عمودياً على جبل من الامواج وهوى بنا في قلب الهوية على ظهر المياه الساقطة ولم يكن كلمح البصر او هو اقرب حتى غاب النور عن بصرنا واصبحنا تحت ليل دجوجي فوق بحر لجي

كعش عصفورة من فوق مرتفع　　هوى بافراخها في حندس الظلم

اما العوامل التي اخذت تتنازعني بعد سقوطنا في الهوية فلا تسل عنها عجبٌ فحيرةٌ فهلعٌ فيأسٌ فذهول ولما انتبهت لنفسي عجبت في بادئ الامر من بقائي حياً ثم شعرت بان المياه منحدرة بالطوف على طريق تكاد تكون عمودية ووجدت نفسي متمسكاً بساق الصاري تمسك الذئب بالشياه او الظمآن ببقايا



ثم ارتفع الطوف عمودياً على جبل من الامواج | صفحة ١٩٤

المياه او الانسان باسباب الحياة ولم افعل ذلك عن انتباه ولكن ناموس التشبث بالبقاء دفعني الى فعله والمرء خاضع لاحكام النواميس الطبيعية سواء غاب فكره او حضر ثم افتقدت عمي وهنساً فوجدتها بجانبي وكان بودي المكالمة معها ولكن شدة هدير المياه لم تكن لتترك لنا سبيلاً الى ذلك

ثم تفكرت في كيفية حدوث الشق الذي سقطنا فيه فادركت السبب بالرغم عن اضطراب افكاري ذلك ان الشق كان موجوداً في جوف الارض محجوباً عن العيون بطبقة من الصخور فلما رفعها عنه البارود اصبح سطحه اسفل من

سطح البحر فذهب فيه طوفنا مع قسم من مياهه ولما تعقلت الامر علمت حقيقة الخطر الذي كنا فيه وايقنت بالهلاك القريب على انه مضى علينا ساعات طوال ونحن على تلك الحال تارة يصطدم احد جانبي الطوف بصخر من صخور الجدران فيدور على محوره بسرعة تفوق حد الوصف حتى يكاد ينثرنا عن ظهره وهو مع ذلك مستمر الهوي الى السفل كالارض في حركتيها وطوراً يخيل لنا اننا ساقطون في بئر عمودية فنستسلم الى اليأس ونستعد للهلاك ولما طال علينا الامر اعيانا التعب وتمكن منا الدوار فلو تكررت صدمات الطوف بالجدران و نحن على تلك الحال لسقطنا عن ظهره حتماً ولكن تلك الصدمات بعد ان كانت كثيرة في بادىء الامر اخذت تقل شيئاً فشيئاً حتى صار حصولها نادراً جداً فعلمت ان الشق ازداد اتساعاً وبالنظر الى ذلك والى بعد قراره ايقنت انهُ هو الذي اتبعهُ سكنوسيم فكنا والحالة هذه قد سرنا بالفعل على اثره ولكن لعدم التروي جررنا على اثرنا بحراً زاخراً ليس لهُ من حاجة في اكتشاف مركز الارض

اما سرعة سيرنا فلا يعلم حقيقتها الا الله ولعلها لا تنقص كثيراً عن سرعة القنابل المقذوفة من افواه المدافع

وبينما نحن سائرون بهذه الكيفية شعرت ان الطوف سقط بنا سقطة عمودية تامة فقلت قضي والله الامر

قد اتى يومنـا وحُمَّ الحِمامُ فعلى هذه الحيـاة السـلامُ
كل من عاش في الحروب طويلا طالَ آخر اليـه الحسـامُ

ثم غمضت عيني استعداداً لشرب كأس الحمام غير ان سقوطنا لم يكن على اليابسة كما كنت اخشى بل في حوض مملوءٍ ماء وما بلغنا سطح الحوض حتى انصب علينا عمود من المياه واحاطت بنا حباله من كل جانب فذهبنا في قلب الحوض حتى ضاق مني الصدر وعيل الصبر وتجرعت من مائه الزعاق ما كادت تبلغ به الروح التراق



وفي ذلك الوقت سطع نور في قلب الدهليز فجأةً (صفحة ١٩٨)

وخرجنا من عالم الانس قسراً　　ودخلنا في عالم الاسماكِ

ثم برزنا من تحت المياه وكان الاستاذ والدليل قابضين كل منهما على ذراع من ذراعيَّ بيد من يديه وفي تلك الساعة وقف الطوف عن حركته العنيفة وخف هدير الماء فسمعت عمي يقول نحن الان في صعود

قلت كيف ذلك هل بلغنا مركز الارض

قال لا ولا بد هنا من احد امرين فاما ان الشق الذي جئنا منهُ ينتهي حيث نحن الان وفي هذه الحالة لا يكون هو نفسه الذي سار فيه سكنوسيم واما ان

تكون على باب مضيق لا يكفي لتصريف القدر الذي ياتيه من المياه وفي هذه الحالة لا يستبعد ان يكون هو هو وعلى كلا الوجهين فنحن الان في صعود مستمر

وفي ذلك الوقت سطع نور في قلب الدهليز فجأة

كالبرق يشرق في الظلام ولم يكن   اشرافه متوقعاً للساري

وكان مصدر ذلك النور من وراء ظهري فالتفت مذعوراً فابصرت هنساً رافعاً مشعلاً متقداً لا اعلم كيف توصل الى اشعاله ثم حققت النظر في المياه فرأيتها اخذة في الارتفاع بسرعة شديدة وكنا اذ ذاك في قناة ضيقة غير التي تأتي منها المياه فعلمت ان الحوض الذي وقف الطوف عنده هو قرار مشترك بينهما وحكمت ان سرعة ارتفاع المياه في كلتا القناتين لا بد ان تكون متساوية متعادلة بالرغم عن تفاوت اتساعهما

ثم القيت نظري على الطوف فلم اجد شيئاً من الادوات والامتعة والذخائر سوى رمة حبل مربوطة بساق الصاري وقدرة من اللحم لا تشبع طفلاً فعجبت ولكن من بقاء تينك القطعتين لاني كنت حسبت ان ايدي المياه التي لعبت بالطوف لم تبق على ظهره شيئاً

نفد الزاد والمزايد منا   واستعدت نفوسنا للنفاد

على ان فقد الزاد لم يزدني جزعاً ولا يأساً لان ابعد شيء كنت اخشاه اذ ذاك والمخاوف محدقة بنا من كل جانب هو الموت جوعاً اما عمي فلما علم بفقد الزاد ظهرت على وجهه لوائح الاسف فعجبت من ذلك وقلت له هب ان عندنا من الزاد مؤونة سنة فكيف ننجو من الغرق القريب الذي ينتظرنا بل هب اننا لا نملك من الزاد شيئاً فهل تمهلنا المياه حتى نموت جوعاً

فقال ما اقربك الى اليأس وابعدك من الشجاعة والباس

فعجبت من هذا الكلام في ذلك المقام واعتقدت ان عمي لم يجبل من ذات الطينة التي جبل منها عموم البشر ثم قلت له بالله قل لي ياعماه اي شيء ترجوه

واي باب للنجاة تؤملهُ أترى بدًا من الوصول قريبًا الى اخر هذا الشق وهل بعد ذلك الا الموت غرقًا في الماء او خنقًا بشدة ضغط الهواء

قال كما يحتمل ان يكون الامر كما تقول يحتمل ايضًا وهو المرجح عندي ان ينتهي بنا هذا الشق الى ظاهر الارض وعلى كل الاحوال حالتنا الان اقل خطرًا من الحالة التي كنا عليها في اثناء سقوطنا وكيفما كان الامر فلا يجوز للانسان ان يقطع الامل من الحياة ما دامت الروح تختلج في فواده كما قيل

ما دمت حيًا فاعتلق ابدًا باسباب الامل

لم يقض حتى العلم من اهوى الى ترك العمل

فاخذني العجب من شدة باسه وقوة نفسه ثم قلت لهُ بماذا تشير الان

قال باكل هذه البقية من الزاد وهي على صغر حجمها تعوض بعض ما فقدناه من القوة بسبب الاتعاب التي قاسيناها وتذكر قول من قال

ولا تحتقر امر القليل فطالما رأينا قليل الامر جر كثيره

ثم قسم تلك الغدرة الى ثلاثة اثلاث فاكلت ما خصني منها بدون قابلية وبعد ذلك قال تيقظوا وكونوا مستعدين لاغتنام اول فرصة تعرض لنا ترجى منها النجاة ولدفع كل عارض يسبب الهلاك لان حياتنا ربما كانت موقوفة على امر طفيف واحترسوا خصوصًا من ان يعلق الطوف في نقرة مسدودة او يحيد عن مجرى القناة التي نحن فيها

ففعلنا بحسب اشارته وكنت افعل ذلك طلبًا لمرضاته وإيثارًا لطاعته لا طمعًا في النجاة ولا املاً في الحياة وكيف آمل البقاء وحيني نصب عيني وحمامي امامي وحتفي خلفي وبواري عن يميني ويساري

فلا امتري فيما اراه محققـًا ولو جاءني عمي بالف دليل

وكان الطوف لم يزل سائرًا بنا على معدل واحد من السرعة يرتفع في الساعة نحوًا من سبعة اميال فقال الاستاذ اذا استمرت سرعة الطوف على ما هي



ثم اخذت الحرارة تزداد بالتدريج حتى كادت تزاهق ارواحنا (صفحة ٢٠١)

عليه فعما قليل نكون على مساواة سطح بحر ليدنبروك وحينئذٍ تقف المياه عن الارتفاع فيزول عنا نصف الخطر وهو خطر الغرق ولا يبقى امامنا الا صعوبة التسلق حتى ظاهر الارض مسافة سبعة وسبعين ميلاً عمودياً ووجود ما نقتات به لحين وصولنا

قلت وهب اننا وجدنا ما نقتات به فهل تعتقد حقيقة أن هذه القناة تنتهي الى ظاهر الارض وهل لديك من وسيلة الى الصعود على جدرانها بدون حبال ولا سلالم

قال اما كون هذه الانبوبة تنتهي الى ظاهر الارض فهذا امر ترجح عندي حتى كاد يكون حقيقيًا واما الحبال اللازمة للصعود فنصطنعها من ملابسنا ونحن الان في اواسط فصل الصيف وتحت المنطقة المعتدلة ان لم تقل الحارة فلا نخشى البرد

فسكت مفحماً عن الجواب وقد احيى هذا الكلام بعض الامل في فوادي فرجعت عن القطع بالحتف وكان الطوف لا يزال يرتفع بنا بسرعته المعتادة بل بازيد منها وكذلك اشتدت الحرارة جدًا فصار الاستاذ يقوم ويقعد ويتفرس تارة في وجه الماء وطورًا في جدران القناة ولوائح الحيرة والقلق ظاهرة على وجهه ثم اخذ يناجي نفسه همسًا فتلفظ ببعض اسماء علمية من اسماء طبقات الكرة الارضية كالنيس والميكاشيت ثم قال بصوت عال لا شك اننا ارتفعنا عن سطح بحر ليدنبروك

قلت كيف علمت ذلك

قال منذ ساعة تقريبًا اختلفت سرعة الطوف عما كانت عليه من قبل اختلافًا بينًا ولم تثبت بعدها على حالة واحدة ثم ارتفعت الحرارة فجأة فاستنتجت من ذلك ان ارتفاعنا لم يعد بفعل مياه بحر ليدنبروك بل بفعل عامل اخر وقد اثبتت لي التربة التي نحن فيها الان اننا اقرب الى ظاهر الارض من بحر ليدنبروك بكثير

قلت وما هو اذن العامل الذي يرفع المياه التي نحن عليها

قال ان صدقني ظني فنحن الان في قناة بركان غير منطفئ

فقلت وقد عاودني اليأس والقنوط اي في قناة بركان هائج

قال اي وها قد كفينا عناء المسير تسلقًا وخطر الموت جوعًا

قلت وكفينا ايضًا عناء المعيشة ومتاعب الحياة

ثم اخذت الحرارة تزداد بالتدريج حتى كادت تزهق ارواحنا وفي تلك

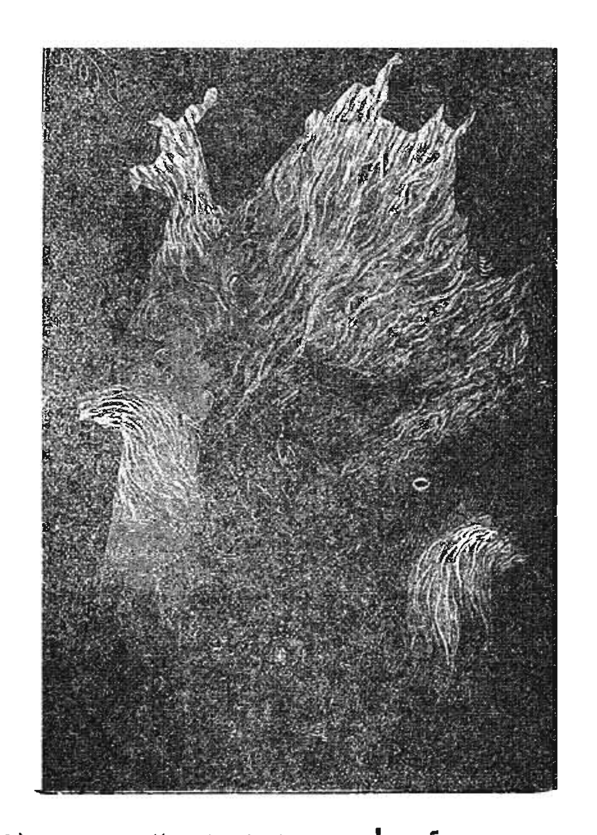
الاثناء لمست يدي الماء اتفاقًا فوجدته في درجة الغليان ولما انعمت النظر فيه رأيت تحت سطحه على عمق قليل طبقة مؤلفة من فتات الصخور النارية والسوائل البركانية فعلمت ان ساعتنا قريبة وان اجلنا قد جاء ثم سمعت دمدمة بعيدة في قلب الارض ورأيت جدران القناة ترتعش ارتعاشًا وبعد قليل بدت لنواظرنا فوهة البركان كانها الشمس تغيب في افقها الغربي لابسة غلائلها الورسية وقد حال اصل لونها الاصلي فخيل لي انها شمس حياتنا وقد مالت للغروب فهاجت اشجاني وجاشت احزاني واسترسلت في بحار الحزن والاسف واستسلمت لحكم القضاء والقدر

ولم يزل الطوف طائرًا بنا صعدًا وفوهة البركان تزداد في نظرنا اتساعًا شيئًا فشيئًا حتى لم نعد منها الا على بعد بضعة اميال فوجدنا نفوسنا اذ ذاك بين صخور كثيرة الشقوق يندلع منها اللهب السنة هائلة تتلاعب على الجدران ولها زفير وحسيس تقشعر منها الابدان ونحن محصورون بين الحميم والجحيم على ملمس من السعير ومسمع من الزفير كاننا ملائكة العذاب او خزنة جهنم او عصاة يعذبون في سقر ولكن قبل ان تقوم القيامة

وفي تلك الساعة وقف الطوف عن الحركة بغتة فظننت في بادئ الامر انه علق بصخر من صخور الجدران غير انه اتضح لي بعد ذلك ان المواد نفسها التي تحت الطوف في سكون تام فعجبت من ذلك الحادث الذي لم اعلم له سببًا وقلت للاستاذ ما قولك يا عماه ألا تظن ان الهيجان قد سكن

فقال لا ولكن البركان الذي نحن فيه هيجانه متقطع وقد ظهر لي اننا في غير القناة الاصلية

وما اتم الاستاذ كلامه حتى عاد الطوف الى الارتفاع بسرعة اشد من الاول ثم وقف ثانية مدة معادلة للمدة الاولى ولم يزل يهيج مرة ويهجع اخرى حتى لم يعد بيننا وبين الفوهة الا ميل واحد فاضطربت اذ ذاك هلعًا وتضعضعت



يندلع منها اللهيب السنة هائلة تتلاعب على الجدران ولها زفير وحسيس (صفحة ٢٠٢)

افكاري خوفًا وجزعًا وانطرحت على الطوف منكبًا على وجهي ثم خيل لي ان الارض تميد بي وسمعت دمدمة اشد من هزيم الرعد وبعد ذلك شعرت ان الطوف يدور على محوره فوق بحر من السوائل البركانية ورأيت السماء تمطرحمأ وصخورًا نارية ثم بدا لعيني خيال هنس في وسط اللهيب وفقدت الشعور بالمرة

الفصل الثلاثون

مضت الرحلة واهوالها وانقضت الشدة واوجالها وبارحنا المضايق واعماقها والصخور وطباقها وعدنا الى ظاهر الارض سالمين ونحن الان نجوس تربة

خضراء لا نخشى هبوطها ونجول تحت قبة زرقاء لا نخاف سقوطها ونتنسم هواء معتدلاً لطيفًا ونشرب ماء باردًا خفيفًا ونسرح الطرف في عالم بعيد الافق فسيح الارجاء

نختال في امن ٍ ونمرح في صفا ونسير تحت كواكب وشموس ِ

اما نجاتنا من نيران البركان بعد ان رأينا الحين رأي العين فمن نوادر العجائب وعجائب النوادر ذلك ان احدى نوب الهيجان وقفت بنا على مساواة سطح الفوهة أو تجاوزته بقليل فجرت بعض السوائل البركانية متدفقة من احدى جوانب الفوهة حاملة طوفنا على ظهرها ثم استقرّ بنا الطوف على اليابسة فاخذني هنس بين ذراعيه وانا غائب عن الهدى

لست ادري من ولا كيف انا لا ولا اين كنا اومتى

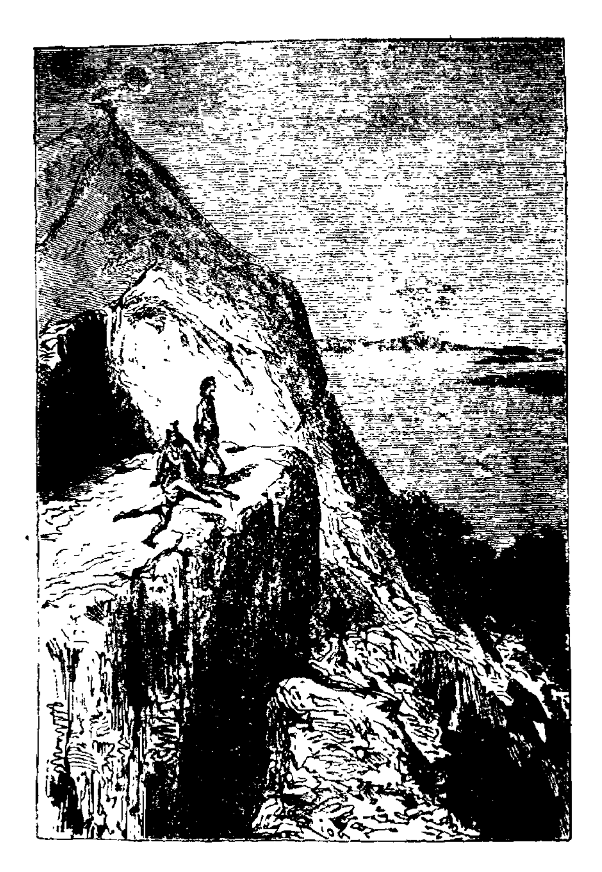
وسرعان ما التجاء بي الى كنف صخر قريب

ووقانا بذاك الصخر نارًا كأن له على الغيب اطلاعا

وريثما تحجبنا عن فوهة البركان عادت نوبة الهيجان فصعدت الحمم الى السماء عمودًا ثم انتشرت فوق الارض كالمظلة فامتلأت الدنيا نارًا ولهيبًا وامطرت السماء صخورًا مصهورة وغير مصهورة ولكنا كنا اذ ذاك محجوبين عن الخطر وراء الصخر فلم نصب منها بضر

فلئن اعش لا نسقن قلائدًا في شكره واشارك الخنساءا

ولما افقت من غشيتي اتاني هنس بشيء من العنب قطفه من الكروم المغروسة بسفح الجبل فاكلت حتى اكتفيت فانتعشت نفسي وانشرح صدرى ثم قصدنا قرية حقيرة مبنية على شاطئ البحر بالقرب من الجبل وفي اثناء مسيرنا توافقنا على اخفاء حقيقة امرنا عن كل احد حذرًا من ان تكون الاقدار رمتنا بين قوم ممن تسلطت الاوهام على اذهانهم فاذا عرفوا اننا قادمون من قلب الارض تقرر عندهم اننا من جن الهاوية وقابلونا باللعن متعوذين بالله منا واقفلوا الابواب



وسرعان إما التجأ بي الى كهف صخر قريب (صفحة ٢٠٤)

دوننا بل ربما رجمونا بالحجارة رجماً لا سيما ان منظر الاستاذ وقتئذٍ ربما كان يؤيد هذا الظن فلما دخلنا القرية ادعينا اننا قوم غرباء غرقت سفينتنا في البحر وقذفتنا الامواج الى تلك الديار فقابلنا اهلها بالتصديق وابدوا لمصابنا بعض الاسف فاطمأنت قلوبنا وعلمنا ان قد خفي عليهم امرنا

كاننا لم نجئهم ناضحين ولم تعلق باجسامنا آثار كبريتِ
اولم يروا منظر الاستاذ متمطقاً ودون صورته شكل العفاريتِ

ثم اخذنا شيخ القرية الى منزله وجاد علينا ببعض ملابس وفي تلك الليلة

عرفنا ان القرية التي نحن فيها هي قرية استرمبولي من قرى جزيرة صقلية الخاضعة لمملكة ايطاليا فعلمنا ان البركان الذي خرجنا منه هو بركان استرمبولي وهو قائم على شاطئ البحر كغالب البراكين التي على وجه الارض ثم عرفنا اننا في اليوم الثلاثين من شهر اغسطس فعلمنا ان المدة التي مضت علينا منذ سقوطنا في الشق مع مياه بحر ليدنبروك لحين رجوعنا الى ظاهر الارض ثلاثة ايام وان هذه الرحلة العجيبة استغرقت واحداً وستين يوماً كاملة منذ دخولنا فوهة بركان اسنيفل المنطفئ لحين خروجنا من فوهة بركان استرمبولي الملتهب

وفي تلك الليلة نفسها بعد ان فارقنا صاحب المنزل وقبل ان نضطجع للرقاد طلب هنس راتبه الاسبوعي من الاستاذ وكان قد برح من بالي ان ذلك اليوم يوم سبت فعجبت من قوة ذاكرته اذ لم يغفل مرة واحدة عن طلب مرتبه في الميعاد القانوني مع ان الاهوال التي لاقيناها كثيراً ما انستني نفسي وغيبتني عن حسي اما الاستاذ فحل في الحال منطقة جوفاء مشدودة على وسطه تحت اثوابه الرثة وكانت جميع نقوده في جوفها وعند فوهتها دفتر الملحوظات مطوياً ليمنع خروج النقود عند الاضطراب العنيف فرفع الدفتر واخذ باصابعه ثلاثة ريالات ونقدها للدليل وهو برتجز متبسما

تطلب مني الجعل يا هنس اجل لا عاش من امسك حقاً او اجل
دينا صحيحًا بعد ان جاء الاجل فخذ وانت اليوم في عيني اجل
من كل من احرز مالاً او اجل

ثم ضمه الى صدره وبين له بصريح العبارة اننا مدينان له بالحياة كلانا ودين الحياة لا يوفي بمال فتبسم الدليل عند ذلك تبسم الرضى وخيل لي ان عينيه اغرورقتا بالدموع فاخذني العجب من ذلك لانني كنت قد حسبت ذلك الرجل بدون قلب بعد ان رأيت منه ما رأيت من الصبر في مقام الضيق ومن البأس في موقف الخطر



او لم يروا منظر الاستاذ منتطقًا ودون صورته شكل العفاريت (صفحة ٢٠٥)

وفي صباح اليوم الثاني انتقلنا الى ثغر مسينا على ظهر سفينة شراعية وبعد ان اقمنا في هذه المدينة ثلاثة ايام مكرهين على الانتظار عرجت عليها السفينة التجارية المسماة فولترنة من سفن شركة الميساجري الفرنساوية وكانت شاخصة الى مرسيليا فركبنا ظهرها وحللنا بتلك المدينة في اليوم السادس من شهر سبتمبر ثم ركبنا قطار السكة الحديدية وفي اليوم الثامن من الشهر وصلنا الى مدينة همبرج ليلاً ولم يشاء الاستاذ ان يعلم احد بقدومنا قبل ان نلقي عصا التسيار ونستريح من تعب الاسفار فدخلنا المدينة سكوناً وكلما عرفنا انساناً مقبلاً انحرفنا عن طريقه يمنةً او يسرةً حتى اذا انتهينا الى منزلنا دق الاستاذ الباب بعنفه المعتاد

فسمعت مرتا من داخل المنزل تقول ابشري يا غريبة قد خرج ابوك من الارض واستبقنا الباب مستبشرتين ففتحناه لنا ولا تسل عما كان عند السلام من السرور والفرح الموفور ولم يلبث عمي ان تركنا في السلام والكلام ودخل يتفقد مكتبته ومتحفه وعند ذلك نظرت الى غريبة قائلاً

لقيـاكِ مطلبي وغاية مقصدي　　وشفاء اسقامي واعذب موردي
وحديثك السحر الحلال لغلتي　　اروى من الماء الزلال لدى الصدي
ولقد ذكرتك والخطوب دوائر　　حولي كما دار السوار على اليدِ
والنار في البركان شب ضرامها　　والطوف طواف بنا لا يهتدي
فطربت من نظر اللهيب لانهُ　　يحكي تلهب خدك المتوقدِ

ثم اخذت اشكو لها اشواقي وهي تبثني ما لاقته من فراقي

تساقط فوقي الترب منا لآلئ　　فدمعي احيانًا وحينـًا حديثها

وبعد ذلك دخلت على عمي فوجدته يقلب مجموعته ويرتبها وهو يبتسم فقلت لهُ اين هذا ما رأيناه بعدوتي بحر ليدنبروك فقال واين ما رأيناه بالعدوتين مما كنا نراه في مركز الارض لو تيسر لنا الوصول اليه

ثم قمنا الى الرقاد وما استقرت جنوبنا على الفراش حتى سكرنا من قهوة المنام لا من نشوة المدام

فكم من قبل بت على صخور　　ونمت على مهادٍ من حجاره
وكان تدثري بالارض حتى　　خشيت الموت من هول الحراره

وكان خبر توجهنا الى قلب الكرة الارضية قد ذاع على يد مرتا ثم اثبتته الاخبار التي اتت من ايسلاندا فما شاع خبر رجوعنا في همبرج حتى غص منزل عمي بالزائرين من اهل المدينة نساء ورجالاً شيوخًا واطفالاً ثم تناقلته الرواة ونشرته السنة الجرائد فلم يبق في اوربا شخص الا وتحدث في الامر

وبعد وصولنا بايام القى الاستاذ مقالةً عن رحلته في دار المدرسة الكبرى

بهيرج حضرها عدة اشخاص من اشهر علماء العصر بيَّن فيها اكتشافاتهِ الخطيرة ورفع القناع عن وجه حقائق كثيرة فعظم قدره عند القوم

وما يكسب الذكر الجميل سوى العنا　　وجوب الفيافي واقتحام المخاوف

وقد تناقلت الجرائد العلمية اقواله وهي بين مصدقة ومكذبة وجردت العلماء اقلامها للمناضلة والمعارضة وكان مدار معظم البحث والجدال على تلك المسائل التي لم اكن انا وعمي متفقين عليها وهي مسأله الحرارة المركزية

وبالجملة اقول انهُ لم يبقَ في المانيا ولا في غيرها من البلاد الاوربية احد الا وسمع بذكر الاستاذ اوتو ليدنبروك وابن اخيه اكسيل فطابت نفس الاستاذ بما نال من الشهرة وعلو المنزلة وقرت عينه بما رأى من الاكرام والاحترام واصابني شيء من ذلك الفخر الا ان عيشي لم يهنأ الا بعد اقتراني بابنة عمي غربية وهي الان بجانبي

ولقد عزمت فيما بقي من عمري ان لا اركن للدعة ولا اسكن الى السكون فقد وجدت الفخر معقوداً بنواصي الاعمال وبحسبها تتفاوت مقادير الرجال ولولا تجشمنا تلك الاهوال ومخاطرتنا بالارواح والاموال لما وجدنا الى بعد الصيت سبيلا ولا خلد لنا التاريخ ذكراً جميلا

من اين يكتسب المحامد لاهي　　ام كيف يرقى للعلا بالله
وعلامَ يلهو والثناء على الفتى　　لا ينتهي وعناؤه متناهي

تمت

خطاء	صواب	صفحة	سطر
تقريبًا	بنصف جيل تقريبًا	١٢	٢٠
وثمانين	والثمانين	٢٢	١٩
فقط	قط	٢٥	١٠
اني كررث	على اني كررث	٢٨	٨
(صفحة ٥٣)	(صفحة ٥٥)	٥٤	١
اشبه	اشبهه	٦١	٢٠
المموس	المموث	٩٣	٦
النفود	النفاد	٩٦	١٨
نفود	نفاد	٩٨	١٠
كالة	كانة	١٠٣	١٣
قلت	قال	١١٦	٧
الحارة	الحرة	١١٩	٩
المال	الماء	١٤٤	٨
لي	الى	١٤٦	٢٣
الطواف	الطوف	١٦٠	١٨
العين	العينين	١٧٦	٥
طريقة	طريقًا	١٨١	١٢
فتبعه	لنتبعه	١٨٢	١٧

وغير ذلك من هفوات الطبع مما لا حاجة الى التنبيه اليه

TOURS DU MONDEEN QUATRE-VINGT JOURS

رواية

الطواف

حول الارض في ثمانين يوماً

للمصنف الشهير والعالم النحرير جول فيرن الفرنساوي

عربت من الفرنساوية بقلم الفقير يوسف اصاف

وكيل البوسطة المصرية بالعطف

طبعت في مطبعة المحروسة بالاسكندرية في ٦ مايو (ايار) سنة ١٨٨٥

اهداء الكتاب

الى غرة جبين الوجاهة صاحب العزة هالتون بك مدير عموم مصلحة البوسطة المصرية حفظه الله وابقاه

مولاي

عهدي بغيرتكم على العلوم والآداب حملني على استخراج هذا الكتاب الموسوم . بالطواف حول الارض في ثمانين يومًا . نظرًا لما يحتويه من الوقائع الغريبة والحوادث العجيبة التي تهذب الاخلاق وتحلو في جميع الاذواق

وقد جعلته مولاي هدية برسم فضالك وان كان دون ما يليق بادبك ونبلك فمهد له من كرمك سبيل الرضى والقبول فذلك هو حسبي والمأمول

الداعي

يوسف اصاف

THIS BOOK IS PRESENTED

TO

His Excellency W. F. HALTON BEY

GENERAL MANAGER OF THE EGYPTIAN POSTS

ALEXANDRIA

EXCELLENCY

Knowing that your Excellency likes the improvement of the science and instruction; feeling myself obliged of your kindness towards me till now. Therefor. I beg to allow me a boon, to offer to your Excellency this one moral gift, which is the translation of the Romance intitled « the travel round the globe during 80 days » transleted by me in the express end to be presented to your Fxcellency; however a trifle :

Pray to accept my supply, which will be a reward to my trouble.

With kind regards. I have the honour to be Excellency

Your most obedient and humble servant

JOSEPH ASSAFF

POST - MASTER

ATFÉ

الصفحة	العمود	السطر	خطاء	صواب
٠٣	٣	١٣	لاينارق	لايلازم
١٦	٣	٢١	يقد	ينقد
١٩	٣	٠٦	الخطوط	القطارات
٣٦	١	١٣	اليهِ	الى
٤٢	١	٠٦	كان	كانوا
٣٦	٣	١٠	المنظر	المناظر
٣٨	١	١٦	الى وقع	الى ان وقع
٣٨	٣	٢٠	لا	لهُ
٤٦	٣	٠٣	نقص	تنقص
٤٦	٣	١٤	الارنجاج	الارتجاج
٤٨	٣	٠٣	سائتًا	سابقًا
٤٨	٣	٢٣	لبث	لبثت
٥٢	١	٠٤	فقبض	فقبضت
٥٣	٣	٢٠	بخسب	بخشب
٥٤	٣	١٥	جراء	اجراء
٥٦	٣	٠٦	والا نعام	والا نغام
٥٦	٣	١١	الصحنة	الصحية
٥٩	١	١٧	عذالها	عسالها
٥٩	١	١٩	ابقى	القى
٦٠	٣	١٩	رفيقهِ	رفيقيهِ
٠٦٢	١	٠١	وحرنكَ	وحزنكَ
٦٣	٣	١٨	وتثبتًا	وتثبيتًا
٦٤	٣	١٠	٣٠	٣٠٠
٦٥	١	١٣	ومألم	وسألم
٧٠	٣	٢٢	السانة	الساعة
٧٠	٣	٢٣	محال	مجال
٧٢	٣	١٥	اقفاء	اقتفاء
٨١	٣	١٧	باخرة	بباخرة
٨٣	١	٠٨	ايام	اميال

الصفحة	العمود	السطر	خطاء	صواب
٠٨٣	٣	٢٠	مثلها	مثلها من
٠٨٤	٣	٠٥	الفت	التفت
٠٨٧	١	١١	الفئة	التفقة
٠٨٧	٣	٠٣	كان يتفقد	كانوا يتفقدون
٠٨٧	٣	٠٣	ويشدها	ويشدونها
٠٨٧	٣	٠٣	ويعرض	ويعرضون
٠٨٨	٣	١٩	للسفنة	للسفينة
٠٩٥	١	١٩	افعات	يافعات
٠٩٦	٣	٠٥	الله	الاله
٠٩٩	٣	١٦	ويعقدون	ويقعدون
١١١	٣	١٤	العذابات	الاعذبة

هذا اهم ما وقع في هذه الرواية من اغلاط الطبع اكتفي بالاشارة اليهِ واترك ما سواه لفطنة الناقد البصير

يوسف
اصاف

مقدمة المترجم

شغفت زمنًا طويلاً بمطالعة الروايات الادبية ونحوها من المصنفات المثقفة للعقول المهذبة
للاخلاق فلم يحلُ لذوقي منها الا ما جاد بهِ واجاد يراع العالم الحاذق النحرير
والمؤلف الشهير الموسيو جول فرن الفرنسوي فاخترت من جملتها هذه الرواية
المفيدة واقدمت على ترجمتها وطبعها علمًا بانها حريّة بان تتداولها ايادي
الجنسين خليقة بمطالعة اهل العلم قمينة بان نترتب عليها الفوائد الجمة
ولا تجعل سبيلاً لشكوى اهل الاطلاع من قلة الفائدة وامتناع
العائدة .وقد عُنيت في الترجمة بتطبيقها على الاصل مع مراعاة
اسلوب الانشاء العربي وايراد ما وصل اليهِ امكاني من المصطلحات
المألوفة في لغة العرب ما يرادف مصطلحات الافرنج
وذلك مخافة ان تمج اذواق الناطقين
بالضاد فان كنت اخطأْت المرمى
فبالعفو لا تبخل عليَّ
الكرام

يوسف آصاف

الفصل الاول

(كيف ان باسبارتو تقيد بخدمة)

(المستر فيلاس فوج)

قال المؤلف : لا نعرف للمستر فيلاس فوج تاريخ ولادةٍ ولا نعلم لهُ حسبًا ونسبًا ولا مهنةً او صناعةً فهو ليس من ذوي التجارة او ارباب الفلاحة او اصحاب الزوارق او من ربانيّ السفن والبواخر ولم يرَهُ احد من الناس في قاعة البورصة او في بنوكة المملكة او المدينة ولم يذع ذكره بين خدمة الدوائر او في مصاف المحامين امام المجالس ولم يذكر لهُ اسم بين اعضاء مجلس النبلاء او بين نصراء الاديان ولم ينتظم في سلك جمعية من الجمعيات العديدة المنشأة في لندره ومنها جمعية بريطانيا العظمى التهذيبية وجمعية لندره وجمعية الحِرَف والفصاحة الغربية والفقه والصنائع والعلوم المستظلة بظل جلالة الملكة وجمعية الموسيقى وجمعية اعدام الحشرات المضرة ببني الانسان . وجل ما علمناه من امره انهُ انكليزي النشأة حاصل على مكانةٍ علياء بين رجال الهيأة الاجتماعية من قوم الانكليز محرز من الاداب والعلوم والمعارف والفنون ما رفع منزلته في عالم الانسان حتى طارت بذكره الركبان في كل نادٍ ومكان . الاَّ انهُ كان يبذل قصارى جهده في موارة شهرته وكيف توارى نارٌ على علم او يستتر نور تحت جنح ظلام وكان كريم الخلق سليم النية حسن الطية حاد الذهن نزيهًا ابيًا ثابت الجنان لا تأخذه الحدة عند الغضب ولا يتولاه العجب عند نيل الارب فكأنَّي به يشبه بيرون في طباعه فاذا عاش مئات من السنين لا يعبث البياض بلمته وفي عام ١٨٧٢ كان يسكن في شارع سافيل المودي الى حدائق بورلينجتون دارًا رقم فوق بابها عدد (٧) وفيها قضى عام ١٨١٤ سريدان احد خطباء الانكليز المفلقين ورجالهم المحنكين

ولقد احصى المستر فيلاس فوج في عداد اعضاء الجمعية التهذيبية بلندره التي لم يكن يقبل فيها الاَّ من كان من اشراف الناس واعيان البلاد بمقتضى توصية خصوصية من الخواجات بارين اخوان اصحاب الغنى الوافر والذكر الطيب العاطر واصحاب البنك المشهور في مدينة

لندره وقد كان ذا علاقةٍ باعالم التجربة جعلت لهُ بين اهل الثروة مقاماً رفيعاً

وكان في معيشته لازماً حد الاعتدال وفي دنياه غنياً ولا نعلم كيف حشد الاموال ولكنه كان لا يبذل الدينار في غير حين اللزوم والاضطرار ولا يبخل ببذل الدرهم بسخاء اعانةً للاعمال الخيرية وكان قليل العلاقات والتداخل لا يتكلم الاَّ عند الاقتضاء ولا يتحدث بما لا يجدي نفعاً وكان ذا المام تام وباعٍ طولى في علم الجغرافية ومعرفة خصوصية باقصى اماكن الارض وعندما كان يقع احياناً بين رفاقه اعضاء الجمعية حديث او جدال في مواضيع جغرافية متعلقة بموت السواح وتيههم في الفدافد والقفار كان يصحح اراءهم ويصلح فاسدها ويقوم معوجها ويفصل بينهم ذات البين بالحجج القويمة والبراهين الدامغة والادلة الساطعة كانها صادرة عن رأي العين وذلك بكلام وجيز وعبارات بليغة توهم السامع انهُ جاب انحاء البسيطة واستقرى غورها ونجدها وطوى سباسبها وبطاحها مع انهُ لم يبارح من عدة سنوات مدينة لندره

ولم يكن بالطبع ميالاً الى الاغتراب ومعاناة الاسفار ولم يكن يسلك غير الطريق المؤدية من داره الى قاعة الكلوب حيثما كان يقضي اكثر الاوقات في مطالعة صحف الاخبار ولعب الويست. وكان لهواً يحلو لهُ ويطيب لذوقه وفي غالب الاحيان كان يربح شيئاً من النقود فيضيفه الى مخصصات الصدقات لاصطناع المبرات

وما عرفنا لهُ امرأةً وبنين وهذا من دأب الادباء ولا اقارب وانسباء وهذا من خوارق الحالات . وكان منفرداً بسكناه مصطحباً خادماً وكان لا يفارق منزله الاَّ حيناً يسيراً من النهار وبيانٍ اجلى انهُ كان يقضي فيه عشر ساعات نائماً تارةً ومشتغلاً طوراً اما منزله فلم يكن فيه شيء من الاثاث الفاخر بداعية انهُ لم يتخذ ليلج بابه ضيف او يدخله زائر . وكان يتناول الطعام في الظهر والمساء على مائدة الكلوب. في اوقاتٍ معينة وفي حجرة منفردة وما من مرةٍ دعا احداً غريباً كان او قريباً لتناول الطعام او شرب كأس مدام وكان اذا جلس على المائدة قدم لهُ خدمة الكلوب. فوطاً بديعة الصنع من

منسوجات ساكسونيا واتوه بالطعام في آنيةٍ صينية وسكبوا له الخمر الجيد من اباريق صينية في اقداح من البلور الشفّاف ممزوجًا بالثلج الامركاني فبعد ان يأكل مريئًا ويشرب هنيئًا ينهض ويخطر خطرات الغيد اما في قاعة الاستقبال واما في الايوان المربّع حيث تقوم من فوقه قبة مستديرة مصنوعة من زجاج ازرق يحملها عشرون عمودًا رخاميًا — وعلى هذا النمط من العزلة والتأنق كان سير معيشته الصافية وشأن حالته الراضية

وكان القائمون بخدمتهِ شديدي الارتياح الى قضائها بالنظر الى اخلاقه المروّضة وما الفهُ من مثل هذه العادات ولم يكن يطلب من خادمه سوى النهوض بواجبه في وقته المعين وفي احد الايام من شهر اوكطوبر اتاه خادمه المدعو جامس فورستر بماء لغسل لحيته في درجة ٨٤ من الحرارة بدلاً من ان تكون في درجة ٨٦ فسخط عليه وطرده من الخدمة

وبينما كان في غرفته تائهًا في اودية التأمل بعد طرده للخادم ورجلاه متحاذيتان ويداه مسترخيتان ورأسه مستلقٍ الى الوراء وعيناه شاخصتان الى عقرب الساعة الكبيرة البديعة الاختراع المتقنة الصنع الدالة على الساعات والايام والشهور والاعوام اذا بالباب يقرع ثم فتح ودخل الخادم المطرود مستصحبًا شابًا بالغًا من العمر حد الثلاثين عامًا فخاطب المستر فوج بقوله :

هوذا خلَفي يا مولاي

فاجابه لا بأس ثم التفت الى الخادم الجديد وقال لهُ مستفهمًا :

افرنسويٌ انت وما اسمك

فقال الخادم :

نعم انا فرنسوي يا مولاي وأُدعى ·جان· واللقب ·باسبارتو· وقد مارست المهن العديدة والحرف الكثيرة فكنت فيها من النابغين المفلحين · وكنت من منشدي الاغاني على قارعة الطرق فاطربت برخيم صوتي وشنفت الاذان بشجي انغامي وكنت سائسًا في احد الاسطبلات فروضت الخيول بالاعتناء وسستها بحذقٍ وذكاء وكنت مشعوذًا فابدعت واغربت وخلبت الالباب بغرائب الالعاب · واصطنعت لي اجنحة فطرت بها في الفضاء مثل

: ليوتار : ورقصت على الحبال مثل
، بلوندن ، وكنت استاذاً لفن التمرين
البدني (الجمناستيك) في فرنسا واخيراً
كنت قائداً لفرقة المطافئ في الجيش
الفرنسوي فكم اطفأت من حريقٍ هائل
وانقذت من ابنيةٍ فاخرة وقصورٍ شاهقة
وقد بارحت باريس منذ خمس سنوات
فاتيت مدينة لوندره التماس الخدمة في
بلاد بريطانيا العظمى لاني مات بعد ذلك
العناء الى التمتع بعيشٍ هني في حجر كريم
غني ولنكد الطالع لا ازال الى الان
خاليًا من مثل هذه الخدمة وقد علمت
ان مولاي يطلب خادمًا امينًا معروفًا
بمراعاة الدقة في اتمام اعماله لا يروم ابتعاداً
بعد اقتراب ولا يتسنم في اي الاحوال
غارب اغتراب فهرولت اليك وها انا على
قدم الاحترام بين يديك متوقعًا بلوغ
امنيتي قبل ان تدركني منيتي
ـ اراك يا باسبارتو موافقًا لمشربي ملائمًا
لمذهبي ولي علم تام بحالك وسير احوالك
وقد اوصاني بك بعض الخلان فهل
تعرف شروط خدمتي
ـ أجل يا مولاي
ـ كم الساعة الان
ـ ١١ والدقيقة ٣٠
ـ واخرج من جيبه ساعة ضخمة من
الفضة
فقال المستر فوج
ان ساعتك تؤخر اربع دقائق
فتأمل الفرق وتدبر وانت منذ اليوم مقيد
في خدمتي ـ من الساعة الحادية عشرة
والدقيقة ٢٦ من صباح الاربعاء الواقع
في ٢ اكتوبر عام ١٨٧٢
وبعد ان اتم كلامهُ تناول بيده
اليسرى قبعتهُ فوضعها على رأسه وخرج
من غرفته بدون ان يفوه ببنت شفة ثم
خرج الخادم السابق وراءهُ وبقي الخلف
في المنزل

الفصل الثاني

كيف ان باسبارتو تحقق بلوغ
امانيه

كان الناس في لوندره يقصدون
منزل مادام تيسو فرادى وازواجًا قصد
التفرج على التماثيل المصنوعة من الشمع
المحكمة الصنع الكثيرة الاتقان بحيث ان
الناظر اليها يكاد لا يفرق بينها وبين

الادميين . وكان باسبارتو قد شاهدها فلما رأى مولاه تذكرها وقال في نفسه لعمري ان تلك التماثيل شديدة الشبه لمولاي فلا اخاله الا منها ولا ارى الا انه تقمص منها ثوب التكوّن ثم تأمله واحدق بصره فيه فراه رجلاً جاوز حد الاربعين من العمر تبدو على وجهه ملامح احرازه للفضيلة التي يعرفها علماء الهيئة بفضيلة (السكينة في العمل) حسن الرواء ذا لحيةٍ شقراء وجبهةٍ بارزة خالية من التجعد مائلة الى الصفرة لونًا واسنان كالبرد وقوام رشيق وبنية معتدلة وطبع هادئ يدل على كونه انكليزي الدم محضًا كابناء جلدته القاطنين في الولايات المتحدة الذين رسمت هيئتهم بقلم انجيليكا كوفمان المصورة الشهيرة . ورأى من ثمّ ان جميع تصرفاته دائرة على محور الحكمة والكمال وتبين من اعضاء جسده تناسبًا يماثل كرونومتر: لروا: في الدقة والتعادل فكان رشيق الحركة دقيق الخطى في التخطر والسير وبيانٍ آخر انهُ لم يكن يخطو خطوةً على غير لزوم او يسلك غير الطريق القريب او يضيع لحة بصر من غير فائدة او يبدي اشارةً في غير موقعها .

اما جان باسبارتو فكان فرنسوي النزعة باريزي النشأة حميد الخصال حسن الصفات اديبًا مهذبًا سليم الذوق كريم الخلق صافي النية طاهر السريرة ذا رأسٍ مستدير يتمنى كل امرءٍ ان يراه بين كتفي حبيبه وشعورٍ سوداء مسترسلة الى الوراء يكفي لاصلاحها مرور المشط عليها بخلاف شعور مينرفا التي اخترع الراسمون لجمالها ثمانية عشر طرازًا وكان مفتر الثغر ناضر المحيا يرى بمقلتيه ورد وجنتيه واسع الصدر قوي البنية شديد العزم عالي الهمة ذا قوة هرقلية وكان فتىً بعد ان قضى زمن الشباب في اللهو ولم يجده اللهو نفعًا عض اصابع الندم وساق الى انكلترة القدم بعد ان سمع بما للانكليز من التأني في السير والحزم في العمل فقصد بلادهم ابتغاء الاثراء بتعاطي الخدمة . وقد طالما بحث عن مولى يشد به ازره ويستعين به على جور الزمان فجرت احكام القدر على عكس امانيه ولم يتسنّ له ان يستمر على الخدمة في منزلٍ من العشرة المنازل التي دخلها فان بعضها دهمتها صروف

الحدثان وتتابعت عليها مصائب الزمان فدرستها وجعلتها اطلالاً بالية وبعضها الاخر سطا على اهلها الطيش فمالوا الى الاسفار والتسوح في القفار ومرّت عليه هذه الاحوال على هذا المنوال الى ان استخدمه اخيرًا اللورد لونجسفيري احد اعضاء مجلس الامة فلما رآه اللورد فضوليًا طرده من خدمته وكان اللورد اذ ذاك في شرخ شبابهِ يصبو الى اللهو والطرب ويقضي جميع لياليه في الحانات يعاقر بنت الدنان ويجالس بنات الغرام الى ان تلاعب الخمرة بلبه وتذهب بصوابه فيؤخذ الى منزله محمولاً على اكتاف الشرط ففي احد الايام خطر لباسبارتوان بمحضهُ النصح لعله يرعوي عن غيه ويرتد عن ضلاله فيكافئه على نصحه وغيرته ففعل ولكن ساءت العقبى ورجع بالخفين بان طرده اللورد من الخدمة فخرج يلتمسها لدى غيره ولما علم باحتياج المستر فيلاس فوج الى خادم طفق يستقصي عن احواله ويستطلع طلع سيره فانتهى اليه من اخباره انهُ رصين رزين مستقيم الاطوار كريم الاخلاق لايهوى الاسفار ولا التغيب

عن الدار فسارع اليه ووقف بين يديه ثم تقيد بخدمته على ما مرَّ بنا من الكلام

تقدم القول ان باسبارتو لبث وحده في المنزل بعد خروج سيده في طلب بعض الحاجات فلما رأى نفسه وحيدًا في المنزل جعل يطوف غرفه واحدةً بعد اخرى حتى انهُ لم يدع فيهِ حجرة او منفذًا الا زاره فالفى ما زار في تمام الانتظام وكمال الاتقان

ولما وصل الى الطبقة الثانية عثر بالغرفة المعدة لهُ فعرفها بداهةً فاعجبتهُ وقد رآها متصلة بسائر غرف الدار بواسطة اجراس كهربائية وانابيب تردد الصدى ثم التفت الى الحائط فرأى ساعة تسير في الدقة سير ساعة مولاه المعلقة في غرفته وكلتاهما تسيران الثانية في آن واحد فسر بذلك وابتسم فرحًا وقال في نفسه : لقد زال النحس عني الى حيث . . . وبلغت ما كنت اتمني والله رحوم شفوق . ثم عاود النظر الى الساعة فرأى بالقرب منها لائحة الخدمة فهش وبش وطاب نفسًا وفرعينًا ثم طفق يقرأها واذا هي مشتملة على ما يأتي

ينهض فيلاس فوج من النوم في

الساعة الثامنة ويمكث في البيت حتى
الساعة الحادية عشرة ونصف

يُقدم لهُ الشاي واللحم المقلي في الساعة
الثامنة والدقيقة ٢٢

يؤتى لهُ بالماء لغسل لحيته في الساعة
التاسعة والدقيقة ٣٧

يلبس اثوابه في الساعة التاسعة
والدقيقة ٤٠

ومن الساعة الحادية عشرة ونصف
صباحًا الى منتصف الليل يمكث في
الكلوب

والنتيجة ان تلك اللائحة كانت
جامعة لجميع ما يحتاج الخادم الى معرفته

اما خزينة الملابس فكانت الملابس
فيها مرتبة على شكلٍ عجيب فان كل
قطعة منها كانت معينة بنمرة متسلسلة
ومقيدة في دفتر: صادر: ودفتر: وارد:
ذكر فيها الزمن والفصل اللذين تلبس
فيها وكان للاحذية ترتيب اخر ليس
باقل غرابة من هذا الترتيب

وفي الجملة ان تلك الدار كانت
مرآة الترتيب وانموذج الانتظام ليس فيها
شيء عديم الفائدة وكان فيها للمستر فوج
مكتبة جزيلة المنفعة تحتوي على المؤلفات
وكان لهُ غيرها ايضًا ثنتان في الكلوب
اودعت احداها كتب الفقه والثانية كتب
السياسة وكان في داخل غرفتهِ خزانة
حديدية غير قابلة الاحتراق امنةً غدر
اللصوص ولم يكن في المنزل اسلحة نارية
او سيوف بتارة او آلات صارعة فانهُ كان
رجلاً ميالاً الى السلم والسكينة

وبعد ان طاف باسبارتو جميع غرف
الدار ورآها على ما يروم ويتمنى سر سرورًا
لا مزيد عليهِ فرقص فرحًا وطربًا وحمد
التقادير التي ساقتهُ الى مولاه المحب للضبط
الملازم للراحة الماقت للاسفار

فالهنا غير مستحيل ولكن
دونه في سبيلنا عقباتُ

الفصل الثالث

في جدال تكبد المستر فيلاس فوج من اجله نفقات

بارح فيلاس داره ذات يوم في
وقته المعين فبعد ان نقل قدمه اليمنى
خمسمائة وخمسًا وسبعين مرة واليسرى
خمسمائة وستًا وسبعين خطوة وصل الى
الكلوب: البناية الشاهقة التي أُنفق على

بنائها قدر وافر من الدنانير لا ينقص عن ثلثة ملايين من الفرنكات فدخل غرفة فيها ذات تسع منافذ تشرف على حديقة نضرة يكسوها الربيع بساطًا سندسيًا مزينًا بالازهار والرياحين وكانت هذه الغرفة معدة لتناول الطعام فجلس على المائدة المعتادة ومد له السماط فتناول الغذاء وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة ٤٧ نهض عن المائدة ودخل قاعة الجلوس فناوله الخادم جريدة التيمس فتناولها من يده واخذ يقرأ فصولها بالامعان واستمر كذلك الى الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥ وبعدها تناول جريدة الستاندرد وقضى في مطالعتها وقتًا طويلاً

وبعد ان فرغ من المطالعة وفد عليه زملاؤه الكلفون مثله بلعب الويست فجرت بينهم المحاورة الاتية

توما فلاناجان · ماعندك ياصاحبي من العلم بامر السرقة التي نكب بها البنك

اندراوس ستوار · سيقوم البنك باداتها من عين مالهِ

جوتيه رولف ·قد ارسلنا الى جميع مرافئ اوربا وامركا وثغور الارض جواسيس ماهرين من دهاة رجال الشرطة ليبحثوا عن اللصوص الذين ارتكبوا هذه الجناية ولنا ملء الامل بنجاحهم

اندراوس ستوار · هل يعرف البصاصون شبه اللص

جوتيه رولف · هل تظننّ ان مرتكب هذه السرقة لص. لا وابيك

اندراوس ستوار · الا نطلق لقب لص على من سرق مثل هذا القدر العظيم من المال اي خمسة وخمسين الف ليرة او مليون و٣٧٥٠٠٠ فرنك

جان سيليفان من كان مرتكبًا مثل هذه السرقة يدعى محترفًا لا لصًا

فيلاس فوج · ان صحيفة الحوادث اليومية تزعم ان الجاني يعد من اشراف الانكليز وان هذه السرقة حدثت في ٢٦ ستمبر على هذا المنوال كما تقول جميع جرائد الولايات المتحدة وذلك ان امين الصندوق بينما كان يقيد في الدفاتر دخل ثلثة شلينات وبنسين وعلى مكتبهِ عدد من السفاتج بقيمة خمسة وخمسين الف ليرة اذ اغتالتها يد اللص من غير ان يشعر به احد

جوتيه رولف . من المستحيل ان ينتبه المرء لامرين في وقت واحد فقد روى احد المتقدمين على العادات الانكليزية انهُ مرَّ يومًا ما ببنك لوندره فرأى على مكتب امين الصندوق سبيكة من الذهب تزن من سبعة الى ثمانية ليبرات فتناولتها بيدي لاتفرَّج عليها ثم تناولها رجل كان بالقرب مني للقصد ذاته وهذا دفعها لذاك وذاك لاخر وهكذا اخذت تنتقل من يدٍ الى اخرى حتى وصلت الى يد من كان في منتهى دهليز البنك ولم تعد الى محلها الاصلي الا بعد نصف ساعة وذلك بدون ان يشعر امين الصندوق باخذها وتنقلها على اكف المتفرجين او برجوعها الى مكانها فبناء على ما تقدم لا يصعب التصديق بحدوث السرقة التي نحن بصددها فان مستخدمي البنك يحسنون الظن بكل انسان وليس لديه خفراء يراقبون ما يجري حولهُ والذهب والفضة كما لا يخفى مطمح انظار اللصوص فتأمل

وقد انتشر خبر هذه السرقة في جميع انحاء لوندره فتحدث بامرها القوم واهتمت الحكومة بالبحث عن مرتكبها فبعثت بالعدد العديد من دهاة الجواسيس والمفتشين الى اهم المرافئ كليفربول وجلاسكو وهافر والسويس وبرندزي ونيويورك وغيرها ليراقبوا المسافرين ذهابًا وايابًا ويقيموا فيها الى ان يتلقوا الايضاحات اللازمة عن شبه السارق وقد رسمت لمن يقبض عليه بجائزة قدرها الفا ليرة وخمسة في المائة ما يضبط من المال المسروق وقد قالت جريدة الحوادث اليومية ان الحكومة اتصلت بعد عناء الاستقصاء الى حصر الشبهة في مرتكب السرقة وكان رجلاً من الاعيان نظر يوم حادث السرقة في قاعة بيت المال يخطر الهوينا وقد اخذت رسمهُ وارسلتهُ الى جميع الجواسيس الباحثين الذين ارسلتهم الى جميع الولايات المتحدة وغيرها من اهم ثغور الارض

وبالنظر الى هذه الاحتياطات جزم الناس في لوندره بوقوع السارق في قبضة الحكومة ثم حصل لهذه الحادثة بينهم اهمية كبرى حتى صارت موضوع احاديثهم اناء الليل واطراف النهار

ولاسيا بين اعضاء الكلوب الذين يهمهم الوقوف على الخبر اكثر من غيرهم لان المستر جوتيه رولف وكيل البنك المسروق من رجال هيئتهم فلا عجب اذن اذا طال بينهم الجدال واختلفت منهم الاراء ومن جملة ما ذهبوا اليهِ الاقوال الاتية

المستر رولف لابد من وقوع السارق في قبضة الجواسيس لان الجائزة التي وعدناهم بها تقوي عزائمهم وتنهض هممهم

ستوار ان حججك ضعيفة وآراءك غير سديدة

رولف . اين يذهب السارق وقد بثينا من حوله العيون والارصاد

ستوار . ان الارض واسعة وانحاءها شاسعة

فيلاس فوج . كانت كذلك يوما ما

وقد طال الجدال بين هولاء الاعيان وهم جلوس امام طاولة الويست على هذا المنوال وقد تخلله العنف والحدة في نهاية كل دور من ادوار اللعب وبعد برهة عاد القوم الى الجدال فقال المستر ستوار . كيف ان الارض كانت واسعة واصبحت اليوم حرجة

رولف حرجة بمعنى ان الانسان يقدر ان يجوبها باسرع وقتًا عن ذي قبل بعشر مرات

فوج . وهذا ما يمهد للسارق سبل الفرار . ثم قال . تفضل والعب يامستر ستوار ولم ينتهِ دور اللعب الاول حتى علت ضوضاء الجدال فقال ستوار

ستوار . لله درك يا مستر رولف هل يصح ان تقول ان الارض صارت حرجة اذا كانت تطاف اليوم في مدة ثلثة شهور

فوج . في ثمانين يومًا فقط

جان سيليفان . في الحقيقة ان الارض قد امست تطاف اليوم في ثمانين يومًا لان المرحلة التي كانت بين روتال والله اباد لم يعد لها من اثر اليوم بسبب امتداد السكك الحديدية في اقطار الهند وهاك التقويم المأخوذ عن جريدة الحوادث اليومية للطواف حول الارض

ايام

٧ من لوندره الى السويس بطريق جبل شينيس وبرنذزي على السفن

البخارية والخطوط الحديدية

١٣ من السويس الى بومباي على السفن البخارية

٣ من بومباي الى كلكوتا على الخطوط الحديدية

١٣ من كلكوتا الى كونكون (الصين) على السفن البخارية

٦ من كونكون الى يوكوهاما (اليابان) على السفن البخارية

٢٢ من يوكوهاما الى سان فرنسيسكو على السفن البخارية

٧ من سان فرنسيسكو الى نيويورك على الخطوط الحديدية

٩ من نيويورك الى لوندره على الباخرة ثم الخطوط الحديدية

٨٠

والمجموع ثمانون يوماً

اندراوس ستوار . اجل تُطاف الدنيا في ثمانين يوماً اذا لم يحدث في البحار انواء ولم تثر في الجو رياح ولم يطرأ على الخطوط الحديدية ما يؤخر السير عليها ولم تتعطل القطارات . قال ذلك متهكماً (وبينما هو آخذٌ فيها لكلام قطع على غير انتباه ورقة في اللعب تعرف بالدام)

فيلاس فوج . نعم تطاف بالرغم عن هذه الموانع (وهنا قَطَعَ الجدال اللعب)

اندراوس ستوار . نعم تطاف ولو اقتلع الهنود القضبان الحديدية واوقفوا القطارات واختطفوا العجلات ورجموا الركاب حسبما تعودوا

فيلاس فوج . ولو لو ... (ورمى الى الارض بورقتين من ورق اللعب)

اندراوس ستوار . من يقول شيئاً يجب ان يقرن قوله بالعمل واستغفر الله عن قولٍ بلا عمل

فيلاس فوج . قطعت جهيزة قول كل خطيب فاني على اجابة ما تسألني قدير وما عليك سوى اعداد لوازم السفر فنرحل سويةً وترى كل ذلك رأي العين وما راءٍ كمن سمع

اندراوس ستوار . معاذ الله ان انقاد للطيش واركب الاخطار واقتحم الاسفار وانا في غنىً عنها ولكني اعقد صكوك الرهان مع ابي كان يريد ان يتحمل الامر ويرحل هذه الرحلة التي لا تستطاع في تلك المدة المعينة وانه مستعد

ان ادفع اربعة الاف ليرة انكليزية اي مائة الف فرنك قيمة الرهن

فيلاس فوج . يمكن ذلك بسهولة وانا اقوم بهذه الرحلة ولكن على مصاريفك

اندراوس ستوار . قاتل الله العناد والاستقلال بالرأي فتقدم للعب فان اللعب في هذه الجلسة خير من ضياع الوقت سدىً

ثم تناول ستوار الورق بيده واعاده الى المستر فوج قائلاً له :

دع الهزل جانباً فاذا شئت عقدت معك رهاناً على اربعة الاف ليرة

فالنتين . لِمَ جركما الجدال الى هذه الحال مع ان الكلام كان في بادئ الامر من قبيل المسامرة

ستوار . لا ارجع عن كلامي

فوج . لي في بنك بارتن اخوان مبلغ عشرين الف ليرة فانا مستعد لان اعقد عليه رهاناً مع كل من يطلب ان اطوف حول الارض في ثمانين يوماً

سليفان . تروَّ في الامر يا مستر فوج فان العجلة يعقبها الندم ولذلك يجب ان يسبق العمل التروي والامعان وليس من الحكمة ان يخاطر بمثل هذا القدر من المال ويخاطر ايضاً بالحياة في مثل هذه الرحلة فربما لقيت في سفرك ما ليس في الحسبان

فوج . مهما حال دون عزمي فاني واثق بنجاح هذه المهمة

سليفان . ان هذه المدة التي تحددها للطواف حول الارض جريدة الحوادث اليومية قليلة جداً

فوج . ان القليل مع حسن استعماله كثير

سليفان . حذرِ حذارِ من ضياع الزمان فاعتبر انهُ يجب عليك ان تنتقل من السفن التجارية الى قطارات السكك الحديدية ومن هذه الى تلك من غير استراحة فيصعب عليك تكبد هذه المشاق وما اغنى فوادك عنها

فوج . ان ربَّ البيت ادرى بالذي فيهِ

سليفان . دع الهزل فاني اراك تمزح

فوج . بين الهزل والجد بونٌ عظيم وما الهزل من دأب الانكليز فاني قد عقدت العزم على الطواف حول الارض

في ثمانين يوماً اعني في تسع عشرة مائة وعشرين ساعة او مائة وخمسة عشر الفاً ومائتي دقيقة

ولما تأكد اعضاء الكلوب ذلك العزم قالوا قبلنا فاجابهم المستر فوج اني والحالة هذه ساركب القطار الذي يقوم من محطة دوفر في الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ من هذه الليلة ليلة الاربعاء الواقع في ٢ اوكتوبر وستكون عودتي الى لوندرة يوم السبت الموافق ٢١ دسمبر فادخل هذه القاعة قاعة الكلوب التي نحن فيها الان واذا اخلفت الوعد فاكون قد خسرت قيمة الرهن ومبلغ العشرين الف ليرة المطلوبة لي من بارين اخوان ثم كتب صك الرهان ووقع عليه المتراهنون وكانوا ستة اشخاص وبعد التوقيع لبث المستر فوج على جاري عادته ثابت الجنان غير مضطرب البال او خائف على ماله ان يفقد لانه عزم ان ينفق في رحلته العشرين الف ليرة واذا خسر الرهان يكون في الواقع قد فقد مثل هذا القدر ايضاً من المال فان ثروته كانت لا تزيد عن اربعين الف ليرة

اما بقية المتراهنين فقد اخذ الاضطراب منهم كل مأخذ وعلت وجوههم سمات الحيرة لا خوفاً من خسارة قيمة الرهن بل مما عساه ان يرشقهم به سكان لوندرة من سهام اللوم ونبال التعنيف انتقاداً منهم لكلمة تكون نتيجة الطيش واستقلال الرأي

وبعد التوقيع استأنفوا اللعب ثم امسكوا عنه بحلول الساعة السابعة ليتمكن المستر فوج من التأهب للسفر اما هو فالتفت اليهم قائلاً اني في استعداد تام ولا شيء يعوقني ثم رمى ورقة ٠ ديناري ٠ وقال العب يا مستر ستوار

الفصل الرابع

في تعجب باسبارتو من سيده فيلاس فوج

استأذن فيلاس فوج رفاقه بالانصراف في الساعة السابعة والدقيقة ٢٥ فافترق عنهم بعد ان وضع في جيبه ما ربحه في اللعب وقدره ٢٠ جنيهاً وعند الساعة السابعة والدقيقة ٥٠ دخل داره واستدعى خادمه مثنى وثلاث ورباع فلم يجبه وذلك لفرط ما استولى عليه من العجب والاندهال عندما رأى مولاه آتياً قبل منتصف الليل

على غير مـا جرت عليه العادة والجأ باب صومعته على عجل . ثم بعد ان سكن جاش الخادم هرع الى غرفة مولاه وامتثل بين يديه منتظرًا امرًا يقضيه فابدره اذ ذاك بالسؤال قائلاً ناديتك كثيرًا ولم تجبني فقال لهُ — لم يحن يا سيدي الوقت الذي تعود فيه الى البيت على جاري العادة اذ لم يحل منتصف الليل بعد . قال هذا واخرج من جيبه ساعة فضية ضخمة الحجم

فوج . طب نفسًا وسكن روعك فاني لم اسق اليك الكلام من قبيل الملام بل لامهد لك الخبر تمهيدًا وانبئك اني قد عزمت على السفر فتهيأ لنرحل اولاً الى دوفر ثم الى كاليه بعد عشر دقائق من الزمان ومن كاليه نسير على قصد الطواف حول الارض في ثمانين يومًا واعلم ان ليس لنا من الوقت دقيقة او ثانية نصرفها سدىً فاذهب واعدد جعبة السفر وضع لي فيها قميصين من المنسوجات الصوفية وثلاثة ازواج من الجوارب ولك مثلها ولا تنسَ عباءتي وغطاء النوم وما يلزمنا غير ذلك نبتاعه اثناء الطريق

فلما سمع الخادم بذكر السفر حار في امر سيده ثم وقف موقف التعجب فضرب اخماسًا لاسداس وهم ان يعارض مولاه لولا ان تجذبه جاذبة الاحترام لهُ فلزم السكون بالنظر الى ما رأى من رغبة مولاه في سرعة السفر فخرج من لدنه واهن القوى لا يبدي حراكًا قلق البال مضطرب الفكر ثم دخل اوضته وانطرح على كرسي كان فيها فتأوه وتنفس الصعداء حتى كاد يخنقهُ البكاء ثم ردد في نفسه قوله : طالما رغبت في الراحة ولم ابلغ منها المراد كرهت سالف ايامي التي قضيتها بتعليل الامال والان اصبحت ابكي عليها

ربَّ يومٍ بكيت منهُ فلما
صرت في غيره بكيت عليهِ

قال . ولقد عللت النفس باللذة المستمرة والتمتع برغد العيش ولكن

ما كل ما يتمنى المرء يدركهُ
تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

ثم نهض يغالب الغم والكمد ويحاول الاستمساك بعرى الصبر ويسأل الله المعونة ويهيئ لوازم السفر والافكار

تتلاعب في رأسه تلاعب الهواء في اوراق الشجر فكان تارةً يذهب الى امكان عدم تحقق المقال وطورًا يجزم بصحة الخبر

وكانت تمر برأسه هذه الافكار ولا يهتدي الى حقيقة الامر سبيلاً

وبينما كان مفكرًا فيما طرأ على عادات مولاهُ فبدلها وعلى اخلاقه فغيرها وكيف كان محبًا للعزلة فجنح الى الاسفار اذا به هش وبش واصبح باسم الثغر بعد ان كان مقطب الوجه وذلك اثر علمهِ بانهُ سيمر على دوفر فيدوس ارض الوطن العزيز ويتع العين بمرأى باريس عاصمة بلاده التي كان يأمل ان يمر بها ويجلو بمشاهدتها عن فؤاده صدأ الكمد وعن قلبه غياهب الغم

وعند الساعة الثامنة احتمل جعبة السفر وذهب للقاء مولاه فوجده قائمًا على قدم الاستعداد للمسير متأبطًا كتابًا مرشدًا الى مواعيد سفر القطارات والبواخر في انحاء البسيطة وريثما دنا منهُ تناول فوج الجعبة ففتحها واودعها قدرًا من السفاتج المتداولة في جميع بنوكة الارض ثم اعادها اليهِ واوصاه بزيادة الاحتراس عليها والانتباه لها لان من داخلها اوراقًا ذات قيمة ٥٠٠٠٠٠ فرنك وبعد ذلك استعلم منهُ عما اذا كان اعد كلما اشار اليه باعداده فتناول الخادم الجعبة بيدين مرتجفتين من ثقلها كأنهُ تصور ان القيمة التي فيها ذهب رنان وما كانت الا اوراقًا لا تزيد في الثقل عن مثقال ذرة

ثم خرج فوج وخادمه من الدار وغادراها وشأنها مغلقة الابواب فانطلقا الى اخر شارع سافيل حيث توجد محطة للعربات فركبا عربةً واتجها عليها الى المحطة المعروفة بمحطة شارين كروس التي يتفرع منها الخط الحديدي المعروف بالخط الجنوبي الشرقي وعند وصولهما اعلن جرس الساعة الكبيرة ان الوقت بالغ اذ ذاك حد الساعة الثامنة والدقيقة ٢٠ وريثما وقفت بهما العربة نزل الخادم منها قبل مولاه

وكان سبب نزول الخادم قبل سيده ان المستر فوج (مولاه) بينما كان ينقد سائق العربة اجرته تقدمت نحوه امرأة فقيرة عليها علائم الفاقة تقود بيدها اليمنى طفلاً وتبسط يدها اليسرى لطلب

الاحسان ملتحفة بملابس رثة فعندما وقع نظره عليها تحركت فيه عواطف الشفقة فاخرج من جيبه العشرين جنيهاً التي كان قد ربحها في لعب (الويست) ودفعهُ اليها قائلاً لها . خذي يا امرأة هذه النقود وسدي عوزك بها واحمدي ربك على كل حال

قال هذا وانطلق الى قاعة الاستراحة فتبعهُ خادمه مسروراً بما كان فرحاً بميل مولاه الى عمل الاحسان وصنع المبرات وعندما استقر بالسيد المقام نقد خادمه بعض الدراهم فاخذ بها تذكرتين للمرور على مقتضاها في قطارات السكة الحديدية بالدرجة الاولى الى مدينة باريس

وكان عند المحطة رفاق المستر فوج المتراهنون معهُ فتبادلوا النظرات والتحيات ثم وجه المستر فوج اليهم الخطاب فقال

انا ذاهب كما علمتم لانجاز ما وعدتكم به وقد اخذت معي تذكرة سفري التي ساسجلها في قنصلية دولتي في كل بلدةٍ امرُّ بها لتكونوا على اقتناع بواقع رحلتي

فقال المستر ستوار . لا يخفاك ان رجوعك سيكون يوم السبت الواقع في ٢١ دسمبر من السنة الجارية (١٨٧٣) في الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ من المساء

فقال نعم واستودعكم الله الى يوم اللقاء

ثم ركب القطار مع خادمه في الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ مساء تحت جنح ليلٍ اقبل عليه بجيوش ظلام ضارباً في الافاق ختام القتام

وكان الجوُّ قد دكن والسحائب اسودت فتدفق منها المطر وهبت العواصف وثارت الانواء وجلجلت الرعود القواصف ولمعت سيوف البرق على صفحات الفضاء وكان فيلاس فوج متوكئاً على كفيه منزوياً في احدى زوايا العربة لا يفوه ببنت شفة وبالقرب منه خادمه قابضاً على الجعبة بيديه يضمها اليه حرصاً على ما تحتوي عليه من الاوراق الثمينة . ثم ان القطار لم يجاوز سيدنهام . حتى صرخ الخادم صراخ الآيس وبكى بكاء البائس فسأله مولاه عن السبب فلزم الصمت واجماً فاعاد عليه السؤال فاجاب واجماً . . . قال

بالنظر الى العجلة ... نسيت ...

فقال فوج وماذا نسيت ...

ــ نسيت المصباح موقداً في اوضتي

فقال المستر فوج وسيبقى موقداً على حسابك

الفصل الخامس

في اذاعة خبرٍ حديث في انحاء لوندرة

لم يكن المستر فوج يجهل قبل مبارحته للوندرة ان الالسن العاذلة ستتداول خبر رحلته وتتناول المنتديات الحافلة حديث سفرته وتلهج الجرائد بذكرها وتتناقل انباءها وتصبح مداولات النهار وتمسي سمر الليل في جميع الممالك المتحدة بالنظر الى اختلاف الطبقات والاجناس وانشغاف الناس في تلك الاقطار بعلم الجيوغرافيا واقبالهم عليه اقبال الظماء على موارد الماء وتداعيهم اليه تداعي الجياع الى القصاع

وكان الامر بعد سفر المستر فوج ان نهض كتاب الجرائد يقدحون زناد الفكرة ويشحذون القريحة في كتابة الفصول المطولة والمقالات المسهبة باثبين اراءهم مبدين أفكارهم فكان كل من طالعها حكم بتوارد خواطر كتابها واجماعها على تخطئة المستر فوج لتحمله تبعة تلك الرحلة واحتمال مشاقها لكونها ليست بممكنة النوال على مثل هذا المنوال بل تعد ضرباً من المحال . ومن اشهر تلك الجرائد التيمس والستاندارد والافنين ستارد والمورنين كرونيكل وغيرها بما يبلغ مجموعه العشرين عدًّا ولم تصوب رأيه الا جريدة الدالي تلغراف فانها حكمت بامكان ظهور ذلك التصور الى عالم الفعل

وقد كثر في تلك الفرصة المتشوقون لمطالعة الجرائد فلم يبقَ كبيرٌ او صغير عظيم او حقير الا انكبَّ على قرأة الصحف وامعان النظر في منشوراتها المتعلقة بطواف فيلاس فوج حول الارض وفيما كانت ترويه عن السنة المتحدثين في مجلس القوم بتصويب اسهم اللوم نحو فيلاس فوج بحيث لم يبقَ احد من كبار اهالي العاصمة الانكليزية الاسلقه بالسنةٍ حداد وانزله منزلة الجهلة الاغبياء الذين استولى عليهم الحمق وتولاهم الجنون

ولقد حدث في بعض الايام الاوائل من سفر فيلاس فوج ان جريدة الايلوستراتد لندن نشرت فصلاً طويلاً

فصيح العبارة وذيلته بصورة فيلاس وضمنته الاسانيد الدامغة على نجاح مشروعه فاقبل الناس على قرأته من كلا الجنسين فمنهم من اخذ بناصر فوج زاعمين انهم سمعوا بما هو اشد منه غرابةً وقائلين ان ليس في الكون شيء غير ممكن مما هو خاضع لاحكام الطبيعة

وقد شفع هذا الفصل بفصلٍ اخر نشرته جريدة الدالي تلغراف باحثةً في ارجحية الامر من حيث امكان حدوثه فاصغت اليه الاذان بل رسخ في الاذهان

والطير قد يسوقهُ للموتِ

اصغاؤهُ الى حنين الصوتِ

ولكن لنكد الطالع ما لبثت جريدة الدالي تلغراف ان وهنت قواها وكلت عزائمها وغيرت رأيها وبدلت مشربها

وقد نشرت جريدة الجمعية الجيوغرافية الملكية فصلاً طويلاً في تاريخ ٧ اوكتوبر تحاملت فيه على المستر فوج ورمتهُ بضعف العقل والحمق واختلال الشعور لتحديده ميعاداً قصيراً وزمناً يسيراً لاتمام رحلتهِ المهمة فقالت : ان القدر يعمي البصر . ثم قالت . يا للعجب كيف امال المستر فوج نظره عن الموانع الطبيعية والعوائق المادية التي تحول دونهُ لانجاز الوعد وبلوغ القصد . كيف انهُ جهل ما يلزم ان يكون نصب العين من طوارق الحدثان على الخطوط الحديدية التي لا تسلم من العطب باجتيازها الهند في مدى ثلثة ايام والولايات المتحدة في مدى سبعة ايام اخرى فتتأخر عن الوصول في مواعيدها الى اماكنها المقصودة وذلك على افتراض ان تخرج في المسير عن الخطوط او تثور عليها العواصف ويتساقط الثلج عليها كثيفاً فاذا كان في اوربا لا يعتمد على قطارات السكك الحديدية ان تصل في مواعيدها المعينة فكيف بالهند وشتان بين اوربا والهند

قالت . الم يعِ المستر فوج انهُ يحتاج ان يركب البحار على اجنحة البخار فاذا ركبها وازبد البحر وهاج وتلاطمت فيه الامواج تميل به الباخرة مع الهواء ذات اليمين وذات اليسار وتلقى ما يلجئها الى التأخر اربعة او خمسة ايام عن الوصول الى المرافئ التي تقصدها ويكون اذ ذاك

قد انقطع خط الوابورات عن اطراد المواصلات ويحتاج رجل الرحلة الى الانتظار مدةً ليثما يأتي البريد الثاني فيحملهُ الى حيث يريد وهذا يكفي لمحوق الخلل بحسابه . انتهى

وقد كان لنشر هذا الفصل وقع حسن في نفوس القراء فنقلته جميع الصحف وشفعته بالشروح والزيادات

اما سكان لوندرة فطفقوا يتراهنون على نجاح رجل الرحلة او عدمه حتى اصبحت اشغال الاكتساب محصورة في صكوك الرهان

ولا اكتم عن القراء الكرام ان الانكليز تميل بهم فطرتهم الغريزية الى الرهان فجعلوا لذلك اوراقاً لفيلاس فوج تتداولها الايدي كاوراق البورصة فكانت اسعارها ترتفع تارةً وتهبط طورًا من غير ان تستقر على حال

كريشةٍ في مهب الريح طائرة
لا تستقر على حالٍ من القلقِ

وقد استمرت هذه الاوراق على هذه الحال بين هبوطٍ وارتفاع الى ما بعد نشر ذلك الفصل في جريدة الجمعية الجيوغرافية بخمسة ايام وعند ذلك هبطت اوراق المستر فوج هبوطاً فاحشاً اذ رسخ في عقول القوم انه يستحيل عليه انجاز رحلته وايقنوا ان آمالهم لا تحقق بعد ان كانوا آملين بالنجاح

وكان بين هولاء المشتغلين بامر المستر فيلاس رجل طاعن في السن يدعى اللورد البرمال فهذا اللورد كان يود ان يهب كل ماله لمن يطوف به الدنيا ولو بعشر سنين ولذلك لبث وحده متشيعاً لمستر فيلاس وضامنًا له النجاح وقد تراهن مع آخر على ذلك فعرض أن يدفع خمسة الاف ليره اذا لم يصدق في حسابه ولما كان جلاسه يتجاذبون معه اطراف الجدال ويوردون له جميع الاقوال الجازمة بخيبة الامال كان يجيبهم قائلاً : اذا لم تأتِ المهمة التي اتخذ فيلاس تبعتها على نفسه بالفائدة المقصودة فحسبنا افتخارًا ان رجلاً انكليزيًا قام بقضائها

وحدث انه في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم تلقى رئيس الشرطة في لوندرة تلغرافًا هذا تعريبه

(انا سائر وراء لص البنك فيلاس

فوج . ارسل حالاً امرًا الى بومباي بالقاء القبض عليه)

(الامضاء)

فيكس

فكان لورود هذا التلغراف تأثير عظيم في سكان لوندرة . وكان فيلاس في الواقع يشبه بوجهه واعتدال قوامه ذاك الرجل الذي اعطيت جميع صفاته لرجال البوليس ليقبضوا عليه

وعندما علم الناس بهذا التلغراف هاجت فيهم سواكن الظنون واخذوا بالغيب يرجمون وينكرون على المستر فيلاس رحلته بحجة الطواف حول الارض في ثمانين يومًا وانه لا بد ان يكون للامر سرٌ عظيم يخالف الظاهر والله اعلم بالسرائر

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يُراقَ على جوانبه الدمُ

الفصل السادس

كيف ان فيكس اصاب في قلة الاصطبار

ان الفرص التي سنحت لفيكس وبعثته على ارسال التلغراف الذي تقدم عليه الكلام في الفصل السابق كانت على نحو ما يأتي :

حدث انهُ في الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم الاربعاء الموافق ٩ اوكتوبر تقاطرت الجموع في مدينة السويس الى الرصيف لانتظار وصول الباخرة مونجوليه من بواخر الشركة الشرقية في البحر المتوسط المصفحة بالحديد والتي محمولها الفان وثمانمائة طن وقوتها خمسمائة حصان وخطة سيرها واقعة ما بين برندزي وبومباي بطريق السويس وهي من افضل بواخر الشركة واسرعها سيرًا ومعدل سيرها بين برندزي والسويس عشرة اميال وبين السويس وبومباي تسعة اميال ونصف ميل

وكان يندمج بين اولئك الجموع المختلفي الاجناس المنتظرين وصول الباخرة الى مرفاه السويس (وهي المدينة التي احيا الموسيو دي لسبس رسمها وهيأ لها مستقبلاً سعيدًا) رجلان يتمشيان على رصيف البحر احدهما وكيل قنصلية حكومة الولايات المتحدة وكان ينظر بعين الفكر الى مرور السفن الانكليزية بترعة السويس وذهابها الى الهند بمسافة نصف المدة التي

كانت تقضيها في الذهاب اليها عندما كانت تتخذ راس الرجاء الصالح طريقاً لها فكان يهيج فيهِ هذا التأمل عامل الحسد ويثور عليهِ الانفعال النفسي والغيظ من حكومته لعدم قيامها بهذا العمل الخطير دون سواها

والثاني رجل قصير القامة نحيف الجسم تلوح عليه مخايل النجابة والذكاء ذو عينين زرقاوين تنفذ اشعتهما من بين اهدابهما المسترسلة على الوجنتين وكان يلوح عليه انهُ مصاب بداء الاعصاب وكان يمشي بعجلةٍ في الذهاب وقلة صبرٍ في الاياب وكان اسمهُ فيكس وهو احد رجال الشرطة الانكليزية الذي جاء من قبل حكومته مينا السويس بصفة جاسوس يراقب جميع الذاهبين الى الاقطار الهندية بغية الاكتشاف على اللص سارق بنك المملكة فيكبله بالقيود وينال على القبض عليه الجزاء المعهود والمبلغ الموعود . وكان منذ يومين قد تلقى رسم شبه السارق من قبل مدير عموم البوليس في لوندرة فكان لذلك في انتظار وصول الباخرة بفروغ صبر بحيث كان كلما مرت دقيقة خالها ساعةً ومن فرط ما كان مستحوذاً عليه من القلق اخذ بالاستعلام من حضرة القنصل عما اذا كان من المحتمل ان تبطئ الباخرة عن مواعيد حضورها فاجابه لا لكونها من اسرع السفن سيراً وقد حازت قصب السبق في سباق البواخر الذي تجريه الحكومة في كل سنة وجائزة خمسة وعشرين جنيهاً ومع هذا وذاك فانها وصلت بالامس الى بورسعيد وقد بقي عليها ان تقطع مائة وستين كيلومتراً لتصل الى هنا فقال — أَلعلها تصل من برندزي رأساً فاجاب — أَجل فانها بارحت برندزي يوم السبت في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر حاملةً بريد الهند وستصل الينا عاجلاً فغالب اذاً ما بك من قلة الصبر ولكن قل لي كيف يمكنك ان تعرف من التعليمات التي تلقيتها شخص اللص اذا لم يكن على ظهر السفينة فاجاب بالبداهة وحسن التفرس كما عرفت غيره من قبله فقبضت عليهِ واذا لم يكن اللص على ظهر الباخرة فلا يفلتنَّ من يدي اينما كان — فقال لهُ القنصل اتمنى لك ان تصيب المرمى وتنجح في مهمتك لان

السرقة مهمة . قال . وليس اهم من سرقة خمسة وخمسين الف ليرة فلما سمعنا بمثلها فقال القنصل اسأل لك النجاح ولكن ارى ذلك صعباً عليك فالتعليمات التي وردت اليك تدل على ان اللص شخص ذو هيئةٍ تدل على كونه من خيار الناس وعظماء القوم

فقال فيكس ان كبار اللصوص يرتدون من الملابس افخرها ويتظاهرون من الاخلاق بافضلها فيتقمصون ثوب الكرامة وما هم بكرام ليدفعوا عنهم الشبهات ولا يكونوا عرضةً للقيل والقال وهدفاً لملام العذال بل يمارسون مهنتهم بمزيد الحذق والدهاء فلا يمشون في الارض مرحاً او يتصرفون بغير تأنٍ وتدبير وذلك خشية ان يكشف امرهم ويعلن سرهم

ولما اقبل زمن وصول الباخرة اخذ الناس يتقاطرون افواجاً حتى غصت بهم الارصفة وحتى كاد الزحام يمنعهم من الحركة فمنهم نوتيون من جميع الاجناس ومنهم تجار وسماسرة وحمالون وفلاحون وكان الوقت رائقاً والجو صافياً والهواء لطيفاً منعشاً والمنظر مبهجاً وفسحات المدينة تتفياء ظلال المآذن وكانت الزوارق تشق عباب المياه فتطرح الشباك لصيد الاسماك وكان منها ما ينطلق الى الباخرة فينقل ركابها الى البر

وكان فيكس يجول بين الجموع ويحدق بصره بكلٍ منهم فلما حلت الساعة العاشرة ونصف ولم تقبل السفينة على المرفاء هاج فيه القلق فدنا من القنصل وسألهُ قائلاً

الم تصل الباخرة بعد

ليست ببعيدة من المينا

كم من الزمان تمكث هنا

اربع ساعات متتابعة اي الى ان يتم تفريغ شحنها ثم تذهب الى عدن قاطعة الف وثلثمائة وعشرة اميال وهناك تذخر الفحم وسائر مـا تحتاج اليه وبعد ذلك تتوجه الى بومباي رأساً

اذا لم يكن اللص راكباً السفينة فلا بد لهُ ان ينزل منها الى السويس ليركب سفينةً اخرى تكون قاصدة مستعمرات هولانده او فرنسا حيث يتسنى لهُ الفرار فانهُ لا مفر لهُ من القبض عليه في الهند الانكليزية هذا اذا لم يكن اللص من زمرة

الاشقياء فانهُ يفضل المكوث في لوندره والبقاء فيها

وبينما كان فيكس يقلب اوجه المسألة ويتأملها اذ تركه القنصل وتوجه الى مكتب القنصلية الذي لا يبعد عن المحطة فبقي فيكس يرقب وصول الباخرة بقلة اصطبار كأنهُ واثق بوجود اللص فيها فانهُ ادرك سهولة فراره من هذه الطريق وصعوبة هربه من طريق بحر الاتلانتيك وفيما كان غائصاً في بحار الافكار تائهاً في مفاوز التأمل اذا بضوضاء قامت تحت السماء وصفير يطرق الاذان وطائفة الحمالين تتسابق الى الرصيف لتحمل امتعة الركاب فتنبه فيكس من غفلته واجال نظره فرأى الاصابع تشير الى السفينة التي رست في المينا في نحو الساعة الحادية عشرة اما الركاب الذين كانوا فيها فكانوا عديدين واكثرهم لبثوا على ظهرها يبصرون عن بعدٍ موقع المدينة ورونقها

وكان فيكس يتوسم اوجه الخارجين من البحر ويقلب فيهم الطرف فرأى رجلاً بيده تذكرة مرور يتخلل الجموع فدنا منه وسأله عن مركز قنصلية انكلترة فتناول فيكس التذكرة من يده وقرأ بعجلةٍ العلامات المعتادة الدالة على هيئة صاحبها فاذا بها مطابقة تماماً للعلامات التي تلقى العلم بها من مدير عموم البوليس فسر بذلك واخذت يده ترتجف ارتجاف الفرح وفواده يرقص طرباً. ثم سأل سائله بقوله

هل تخصك هذه التذكرة

لا بل هي لمولاي

واين هو

لم يزل في السفينة

يجب ان يحضر بذاته الى مكتب القنصلية

وهل هذا الامر ضروري

نعم ولا يتم شيءٌ الا باتمامه

واين مكتب القنصلية

في منتهى هذا الشارع

(واشار الى منزل لا يبعد عن محلها سوى مائتي قدم)

انا عائد لانادي مولاي ولا شك ان هذه المتعبة لا ترضيه . ثم حيى فيكس وذهب

الفصل السابع

في ان تسجيل تذكرة المرور ليس الزامياً

بارح فيكس الرصيف وانطلق الى مكتب القنصلية وما لبث ان وصل اليه وبالرغم عن معارضة الحجاب ولج الباب بلا استئذان وقبل ان يتدر القنصل بالسلام ساق اليه الكلام فقال

بالادلة الكافية والعلائم الوافية ظهر اللص على ظهر الباخرة مونجوليه وقد خرج خادمه الى البر وقصد الحضور اليك لتسجيل تذكرة المرور

ثم قص عليه ما توقع له وبعد استيفاء الحديث اجابه القنصل

كل لص او سارق يبذل جهده في سبيل مواراة خبره ومحو اثره ولا يبحث عن حتفه بظلفه ولذلك تراني مرتاباً فيمن وقع عليه ظنك بل غير مصدق ان يكون هو اللص المقصود فان اللص لا يجسر على الحضور الى دار القنصلية ليسجل تذكرة سفره في حالة كونه ليس بالامر الالزامي

ان اللصوص يستعينون احياناً بتسجيل تذاكر سفرهم ليسهل عليهم الفرار واني لعلى وطيد امل ان مولاي يأبى عليه التسجيل اذا لم يتمثل بين يديه

ليس لي وجه للاباءة اذا لم تكن تذكرته قانونية

في عزمي ان القي القبض عليه هنا ليثما تصلني التعليمات بشأنه من لوندره

انت ادرى بواجباتك من غيرك اما انا فلا استطيع ان . . .

ولم يتم كلامه حتى قرع الباب ودخل عليه احد الحجاب برجلين غريبين وكان احدهما المستر فوج والثاني خادمه وبعد السلام قدم المستر فوج للقنصل تذكرة سفره راجياً تسجيلها فاخذها القنصل وقلبها ظهراً لبطن ثم قرأها منعماً فيها النظر وبعد ان قرأها سأل صاحبها :

هل انت المستر فوج

نعم يا مولاي

وهل هذا الرجل هو خادمك

(واشار الى باسبارتو)

اجل وهو فرنسوي يدعى باسبارتو

وانت آتٍ من لندن

نعم

والى اين انت ذاهب

الى بومباي

اعلم ان تسجيل التذاكر ليس امرًا الزاميًا

اعلم ذلك ولكن اطلب اليك تسجيلها لمآرب لي

فليكن كقولك

وللحال تناول القنصل ختم القنصلية فختمها به وخط فوقها تاريخ التسجيل ثم اعادها اليه فاخذها ونقد القنصل الرسم ثم حياه وخرج من لدنه عائدًا الى الباخرة

واتفق انهُ بعد خروجه ظهر فيكس من خبائه ووجه اليه القنصل الخطاب الآتي

ماذا رأيت فيه

علامات الاستقامة والشرف

الم ترَ فيه علامات اللص واحدةً بعد اخرى

ربما تكون فيه بعض العلامات التي تشير اليها لا جميعها

بل جميعها يا مولاي وتحقيقًا للظنون ها انا ذاهب لالقى خادمه الذي يلزم ان يكون مهذارًا وسليم الطوية لكونه فرنسويًا فلا يخفي خافيةً على سائليه

ثم خرج من لدن القنصل يبحث عن باسبارتو

اما فيلاس فوج فبعد خروجه من دار القنصلية قصد جهة المينا ومنها ركب قاربًا فاوصله الى الباخرة فصعد اليها ودخل فيها حجرته واخذ دفترًا مخصصًا للاشتمال على الايضاحات الاتية

بارحنا لندن في الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ من صباح الاربعاء الواقع في ٢ اوكتوبر ووصلنا الى باريس في الساعة السابعة والدقيقة ٢٠ من صباح يوم الخميس الواقع في ٣ اوكتوبر

خرجنا من باريس في الساعة الثامنة والدقيقة ٤٠ من صباح الخميس الواقع في ٣ اوكتوبر ووصلنا الى تورينو من طريق جبل سينيس في الساعة السادسة والدقيقة ٣٥ من صباح يوم الجمعة (٤ اوكتوبر)

بارحنا تورينو في نحو الساعة السابعة والدقيقة ٢٠ من صباح اليوم ذاته فوصلنا الى برندزي في الساعة الرابعة من مساء يوم السبت الواقع في ٥ اوكتوبر

وفي الساعة الخامسة من اليوم المذكور

ركبنا الباخرة مونجليه قاصدين السويس فوصلنا اليها في الساعة الحادية عشرة من صباح الاربعاء تاسع اوكتوبر فيكون مجموع ساعات سفرنا مائة وثماني وخمسين ساعة وخمس وعشرين دقيقة اي ستة ايام ونصف يوم

وكان المسترفوج يرقم هذه التواريخ في دفترٍ خصصه لرحلته يبتدئ من ثاني اوكتوبر وينتهي في الحادي والعشرين من دسمبر وقد اتخذه لبيان الاشهر والاسابيع والايام ومواقيت الوصول الاعتيادية الى كلٍ من المدن الاتية اسماؤها

باريس

برندزي

السويس

بومباي

كلكوتا

سنجا.ور

كون كون

بوكاهاما

سان فرنسيسكو

نيويورك

ليفربول

لوندره

وقد قصد بذلك ان يتبين الساعات المكتسبة في السفر فيعلم اذا كان متقدمًا او متأخرًا عن المواعيد المقررة لرحلته . وكان وصوله الى السويس في الميعاد المضروب لهُ من غير تقديم او تأخير

الفصل الثامن

الحلم زينٌ والسكوت سلامةٌ
فاذا نطقت فلا تكن مكثارا
ما ان ندمتُ على سكوتي مرةً
الا ندمت على الكلام مرارا

بينما كان باسبارتو يتمشى على رصيف المينا ويقلب الطرف في مناظر لم تخطر لهُ بخاطر اذا بفيكس وفد عليه فاقترب منه واخذ يكلمه بما يأتي :

لعلك تكون قد انهيت تسجيل تذكرة المرور .. فاني اراك طافح الفؤاد بالسرور تجيل طرفك في منظر هذه المدينة البهيج

اهلاً بك ومرحبًا ايها الصديق . نعم قد انجزنا اعمالنا ولم يبقَ مانع يحول دون سفرنا سوى سير الباخرة ولا اخفي عليك

اذهالي من سيرنا السريع فاني آكاد لا اصدق بوصولنا الى مدينة السويس المصرية والبقعة الافريقية واوشك ألّا اتيقن بمبارحتنا لباريس عاصمة الفرنسيس التي تجلو عن القلوب صداء الكروب واني لاسف كثيرًا على عدم تمكني من الاقامة فيها مدة طويلة فاني مررت بها مرور الخيال ولم انظر اليها الا من نوافذ العربة التي ركبناها بين المحطة الشمالية ومحطة ليون

يظهر من كلامك انك في حاجةٍ كلية الى الاسراع في السفر

ان مولاي مضطرٌ الى الاسراع في المسير ومن غريب هذا الاضطرار ان سفره كان على حين بغتة فلم نتمكن بسبب ذلك من استحضار ما يلزمنا في سفرنا ولذلك امرني اليوم ان ابتاع ما هو في حاجةٍ اليه من الجوارب والقمصان فهل لي بحسن ولائك وكرم اخلاقك ان ترشدني الى السوق لابتاع لوازمنا قبل فوات الوقت

حبًا وكرامةً اما الوقت فلا تخشَ فواته فاننا الان في اوان الظهر

لا لم يحل وقت الظهر بعد وما الساعة الان الا ٩ والدقيقة ٥٢ (قال ذلك واخرج ساعة ضخمة من جيبه)

الان حل وقت الظهر تمامًا وساعتك تؤخر ساعتين في الدلالة على الوقت وربما كان هذا التأخير ناشئًا عن تطبيقها على ساعة لوندره فحصل الفرق لذلك فعليك بضبطها على ساعة السويس لتتمكن من معرفة سير الارض حول الشمس

سيان عندي وقفت على معرفة الاوقات او لم اقف فعلى الوقت ان يسير على مقتضى سير ساعتي التي ورثتها عن اجدادي ولا تؤخر في السنة خمس دقائق

العلكم قادمين من لوندره رأسًا

نعم وقد بارحناها من يوم الاربعاء

والى اين مولاك ذاهب

ليطوف الكون في ثمانين يومًا وقد عقد رهانًا على ذلك زاعمًا انه يتم الامر الذي لا اخاله ممكن الحصول وانا اطلب اليك الّا تبوح بالخبر لاحدٍ من البشر فاعرفهُ واحفظهُ في زوايا الصدور

— وانا لا اخال ذلك محتمل الحدوث ايضًا ولا بد ان يكون من طي الامر امور

لم ادركها ومقاصد لم اعرفها فاخبرني حماك
الله هل ان مولاك غنيٌّ وهل انت مقيد
بخدمته منذ زمنٍ طويل

انهُ ذو ثروة وافرة وهو الان يجمع
قدرًا عظيمًا من سفاتج البانكات وقد سمعتهُ
اليوم يعد مهندس الباخرة ومنجوليه بجائزة
عظيمة اذا بلغنا بومباي قبل الميعاد المعين
واعلم اني لم اعرفهُ الا في اليوم الذي بارحنا
فيه لوندره وكان اليوم الاول من دخولي
في خدمته

وكانت هذه الايضاحات تزيد ظنون
فيكس تحقيقًا واعتقاده بما توهمه صحيحًا وبعد
ان القى باسبارتو اليه هذا البيان طفق
يفكر في الامر ثم ساقهُ التفكر الى التبصر
بسفر المستر فوج الذي اعقب حادث
السرقة بايام قليلة وعمد اليه بحجة ضعيفة
موه به على الناس بغير برهانٍ وقياس
وقد ايد رأيه قول باسبارتو لهُ انهُ لم يكن
يعرف مولاه ولا سبب ثروته وغيابه

وبينما كان فكس نشوانًا بخمرة الاماني
مبددًا ظلمات الارتياب اذ سأله باسبارتو
قائلاً

ـ ابعيدة بومباي من هنا وفي اية
ارضٍ هي

ـ تبعد من هنا نحو عشرة ايام وهي من
ارض الهند

هل هي من ضمن قارة اسيا

نعم

آه. قضت عليَّ العجلة يوم سفري
ان اترك في حجرتي مصباح الغاز موقدًا
ولما ابلغت مولاي ذلك قال لي انهُ سيبقى
موقدًا على حسابي وقد عدلت الخسارة
فعلمت ان ثمن الغاز الذي يحرق في مدى
اربع وعشرين ساعة يبلغ عشرة شلينات
وهو ما يتجاوز راتبي اليومي بستة بنسات
ومدة السفر كما تعلم طويلة فما العمل

فلما سمع فيكس هذا الكلام لزم السكوت
مرجحًا احتمال وقوع الامر ثم استمرا سائرين
ولما وصلا الى السوق غادر فيكس رفيقه
باسبارتو وقد ودعه واوصاه بعدم التأخر
حذرًا من سفر الباخرة قبل ان يعود اليها
ثم انطلق الى مكتب القنصلية فلقي
القنصل جالسًا على كرسيه فابتدره بالكلام
قائلاً

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالاخبار من لم تزودِ

لقد وقفت على الحقيقة ولم يعد مجال للريب فاللص في قبضة يدي وسأتبعهُ الى الهند الى ان يرد لي الامر بالقبض عليه فاسوقهُ ذليلاً

ثم نهض وتوجه الى مكتب التلغراف وارسل تلك الافادة التلغرافية التي تقدم الكلام عليها في الفصل الخامس

وبعد ذلك اعد لوازم السفر من ملبس ودينار ثم ركب البحر على ظهر الباخرة مونجوليه التي ما لبثت ان سافرت تشق عباب البحر الاحمر سائرة الى حيث تقصد

الفصل التاسع

كيف ان البحر الاحمر وبحر الهند اعانا فيلاس فوج على بلوغ امانيه

سارت الباخرة تقطع المسافة الكائنة بين السويس وعدن سير الاطيار وتجد في المسير حذر التأخر عن الوصول الى بومباي في الميقات المعين وكان اغلب ركابها قاصدين الهند فمنهم من كان متوجهًا الى بومباي ومنهم من كان ذاهبًا الى كلكوتا من طريق بومباي التي اضحت الطريق الاقرب بعد ان مدت خطوط السكك الحديدية في جميع اراضي شبه الجزيرة الانكليزية ولم تعد ضرورة هناك للمرور من رأس جزيرة سيلان

وكان بين ركاب السفينة جمع غفير من الموظفين الملكيين ومن امراء العسكرية في جيش الاحتلال الانكليزي وفي جيش سيبايس الوطني وكلهم يتمتعون برواتب فادحة فوكيل الفريق منهم في العسكرية يتناول راتبًا يبلغ ٧٠٠٠ من الفرنكات ورئيس الفرقة ٦٠٠٠ فرنك والقائد ١٠٠٠٠٠ فرنك (١)

وكان على ظهر الباخرة ايضًا قوم من الشبان الانكليز ذاهبين الى الهند بالتناطير

---

(١) اما رواتب الخدمة الملكيين فكانت لا تتجاوز رواتب امراء العسكرية مقدارًا بان كانت رواتب المساعدين في الادارات من الدرجة الاولى ١٢٠٠٠ فرنك ورواتب القضاة ٦٠٠٠٠ فرنك ورواتب قضاة مجلس الاستئناف ٢٥٠٠٠٠ ورواتب المديرين ٣٠٠٠٠٠ ورواتب الحكمدار العام نيفًا و٦٠٠٠٠٠ فرنك

المقنطرة من الذهب الرنان لينشئوا بها البنوكة والمحلات التجارية وقد امتزجوا بسائر الركاب لامتزاج الماء بالراح واختلطوا بهم اختلاط الروح بالجسد فعندما كان يهدأ البحر وتسكن فيه حركات المد والزجر كانوا يقضون الاوقات بالمسرات فيرقصون ويعزفون بآلات الطرب ويتمايلون بفعل الخمرة تمايل الاغصان ويشنفون الاذان بضروب الالحان ولا ينفكون عن اللهو والطرب الا عند ازبداد البحر وتلاطم الامواج واهتزاز السفينة فيدخل كل منهم حجرته ويتوسد فراشه فتهدأ ضوضاء الاصوات وتعقبها اصوات الزوابع ودمدمة الرعود ومخر السفينة السائرة نحو باب المندب ٠

وكانت الخدمة في تلك الباخرة غايةً في الاتقان فالسماط يمد للركاب اربع دفعات في اليوم ويقدم لهم من الفخر المشروبات والذ المأكولات فيأكلون مريئًا ويشربون هنيئًا

اما فيلاسفوج فبماذا كان يقضي الاوقات ٠أ بتخوصه في اضطراب الماء واشتداد الانواء ام كان مستسلمًا الى هبوب العواصف التواصف وتتابع الزوابع شأن الخائف من توقف السفينة عن المسير والتجائها الى احدى المرافئ القريبة اتقاء جسامة الاضطراب وخشية ان يكون ذلك داعيًا الى تاخير سفره٠ ام كان ينظر بعين بصير الى المصاعب المحدقة به وبالباخرة فيشتد عليه القلق وتظلم الدنيا في عينيه.— لا وابيك بل كان جالسًا في حجرته غير مبالٍ بوقع البحر الاحمر الذي حصل على المقام الاول في تاريخ المعجزات البشرية وغير ملتفتٍ الى المدن العديدة التي كان يراها الناظرون على شواطئ البحر وغير مكترث بالخطر الذي كان يتوعد السفينة في ذلك البوغاز الذي قلما اجتازته باخرة (على قول الواصفين) من غير ان يلحق بها ضرر ولا تتعطل آلاتها فهو الرجل الذي عرف بالرصانة والتجلد والحكيم العاقل الذي بات لا يستطيع احد استطلاع خفاياه وامسى لا شيء يؤثر فيه

وكان يقتل الاوقات في كل يوم بتناول ما كان يقدم له من الطعام اربع دفعات في اليوم ويلهو بلعب الويست مع من الفاه في السفينة على شاكلته. وكان الذين عرفهم في الباخرة ممن كان على طرازه احد ماموري جباية الاموال الاميرية الذي كان ذاهباً الى مركزه في كوا وحضرة الوزير ديسمويس سميث الذي كان عائداً الى بومباي والقائد العام للحملة الانكليزية في الهند الذي كان ذاهباً ليلحق باركان حربه ببنارس ·

اما باسبارتو فكان منزوياً في حجرة قائمة عند مقدم السفينة غير منزعج من الم البحر شديد القابلية للطعام وكان في عزلته يتأمل هذه السياحة التي توفر له فيها لذيذ الطعام وطيب المنام وشهي المدام ومشاهدة بلادٍ غريبة فكان لذلك رافلاً في حلل الصفاء ذاكراً مع ذلك ان هذه السعادة لا بدّ من زوالها فيطير عقله شعاعاً ويذوب قلبهُ اسفاً والتياعاً.

وفي اليوم الثاني لسفره من السويس الذي كان واقعاً في ١٢ اوكتوبر حدث انه انتقى على ظهر السفينة بصديقهِ فيكس الذي تعرف بهِ في مدينة السويس واسترشدهُ الى دار القنصلية وسوق الباعة فحياه بالسلام واظهر لهُ مزيد سروره من التقادير التي ساقتهُ الى الاجتماع به مرةً اخرى ثم دارت بينهما المحاورة الاتية

باسبارتو — الى اين ذاهب

فيكس — الى بومباي

حمداً لحسن الطالع — هل سافرت اليها غير مرة

نعم ذهبت اليها مراراً لاني من وكلاء شركة الوابورات الشرقية في البحر المتوسط

فاذا انت تعرف الهند

فرأى من هذا السوال ما كاد يوقعهُ في الارتباك ولكنهُ ما لبث ان اجاب :

نعم ولكن ···

ثم حاول ان لا يسوق الحديث الى الكلام على الهند وبعد برهةٍ قال لهُ باسبارتو

كم في الهند من مناظر مدهشة

شي؛ كثير.فانك تشاهد فيها المآذن والمداخن والهياكل ومعابد الاصنام وجميع انواع الحيوان كالذئب والنمر والاسد وغير ذلك وترى فيها النساء راقصات بخفة غريبة ورقاشة عجيبة فاتمنى لك ايها الصديق الحصول على الوقت الكافي والزمن الوافي لتزور هذه البلاد وتشاهد ما فيها من العجائب

ــ اني اودّ ذلك كثيرًا ولكن دونهُ مصاعب يلقيها في سبيلي مولاي فانهُ سيقضي هذه الرحلة في الانتقال من الخطوط الحديدية الى السفن البخارية ومن هذه الى تلك بحجة الطواف حول الارض في ثمانين يومًا ويطلي على الناس المحال بخلاف ما يشف عن ذات الصدور فاؤمل ان ينتهي هذا الدور في رواية مولاي ويكون ختامه في مدينة بومباي

ــ وكيف حال صحته

ــ غاية في الاعتدال وهكذا صحتي ايضًا فاني آكل كثيرًا وما ذلك الا من جودة هواء البحر

الا يصعد مولاك الى ظهر السفينة

ــ لا

ــ فربما كان يا باسبورتو موكلًا بمهمة سياسية ويروم ان يخفيها وراء حجاب هذه الحجة

لا علم لي بشيءٍ من ذلك

وما اكفهرَّ وجه النهار ومالت الشمس الى الغروب حتى اجازت السفينة باب المندب ورست رابع عشر الشهر في مياه عدن المعدة محطاً للسفن السائرة الى الهند لتذخر منها ما يلزمها من الفحم الحجري والمؤنة فاستقرت فيها اربع ساعات خرج المستر فوج وخادمه في خلالها الى البر وتوجها الى دار الحكومة لتسجيل التذكرة

وقد انطلق فيكس في اثرهما وتتبع حركات فيلاس الى ان عاد الى السفينة التي بقي عليها ان تسير مسافة الف وستمائة وخمسين ميلًا لتبلغ بومباي وبعودته اليهـا استأنف تمضية الوقت بلعب الويست .

اما باسبارتو فقد بقي في المدينة يتنقل في ضواحيها تنقل الافياء وينفر بين اهلها نفور الظبي ويخطر خطرات الغيد يرعي بعينيه وجوه سكانها المؤلفين

من صومانليين وبارسيسيين واسرائيليين وعرب وافرنج ويتفرج على حصون المدينة ومعاقلها المنيعة وقلاعها الحصينة ويتأمل موقعها الحربي القائم بمثابة جبل طارق لبحر الهند وصهاريجها التي يشتغل فيها المهندسون الانكليز بعد مهندسي سليمان بالفي عام .

وبعد ان متع النظر من كل تلك المشاهد عاد الى السفينة مندهشًا مما راه رأي العين خاطًا على صفحات لبه ان في الاسفار نفعًا عظيمًا .

وفي نحو الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم خرجت الباخرة من مياه عدن متممةً سيرها الى بومباي وكان البحر هادئًا والريح ملائمة لسير السفينة من الجهة الشمالية الغربية وصواريها مرتفعة في الفضاء تكاد تشق كبد الجو فاغتنم الركاب صفاء الوقت وعادوا الى تجديد عزف الموسيقى والرقص بما يلذ لهم وكان لديهم لهوًا مستطابًا وكان باسبورتو يقتل الاوقات مع صديقه فيكس بتبادل القصص والحكايات والتنقل في الحديث من القديم الى الحديث ودام الامر كذلك الى ان اشرفت الباخرة في ظهر العشرين من شهر اوكتوبر على مدينة بومباي فخف الركاب يهنئون بعضهم بعضًا بسلامة الوصول وعلائم السرور تعلو وجوههم وبعد مضي ساعتين طوى ملاحو السفينة شراعها وتوارت عن الابصار بين غضاضة شجر النخل الكثيف الحاجب المدينة عن العيان ثم دخلت بوغاز جزيرة صالصيت وجولابه واليفانته وبوتشر وفي الساعة الرابعة ونصف اقبلت على بومباي فتقدم فيلاس فوج الى رفيقه الذي قضى معه معظم اوقات السفر في لعب الويست وحياه تحية الفراق الى حين التلاق .

وقد كان وصول السفينة الى بومباي في ٢٠ اوكتوبر بدلاً من ٢٢ فيكون المستر فيلاس فوج قد اكتسب من منذ قيامه من لوندره يومين من زمن الرحلة رقمها في دفتر سياحته بحقل الارباح .

الفصل العاشر

كيف ان باسبارتو اضاع خفيه وولى الفرار

فان قصدتك الحادثات ببوسها
فوسع لها درع التجلد والصبر

كل يعلم ان ارض الهند مثلثة الشكل تمتد من الشمال وتنتهي في الجنوب وان مساحتها تبلغ ١٤٠٠٠٠٠ من الاميال المربعة وتحتوي من السكان على مائة وثمانين مليونًا وان العلم الانكليزي يخفق فوق اكثر مقاطعاتها التي يتولى امورها حكمدار انكليزي يستقر في كلكوتا وتحت ادارته مديرون من الانكليز في بومباي وبنغال ومدراس وقائمقام في مدينة اجره

فالمستعمرات الانكليزية في الهند تبلغ مساحتها سبعمائة الف ميل مربع وتأهل من السكان نحوًا من مائة الى مائة وعشرة ملايين اما بقية البلاد الهندية فتقسم الى امارات قائمة برأسها. لم يزل قاطنوها في عالم العجمية والخشونة

وكان قد تألف في الهند عصابة من الوطنيين فضمت اقاليم عديدة الى حوزتها واشاعت بعض مقاطعات من امرائها بدفع خراجها السنوي اليهم الا انها لم تكن تدفع الّا القليل وفي كثير من الاحيان كانت تستغرق المال ولا تدفع منهُ شيئًا وقد عينت تلك العصابة للبلاد التي امتلكتها حكامًا عسكريين وامراء ملكيين وبثت نفوذها وامتدت في احتكار الاراضي امتداد النار في الضرام منذ عام ١٧٥٦ (وهو العام الذي وضع فيه اساس البناء الانكليزي الاول في البقعة القائمة فيها الان مدينة مدراس) حتى السنة التي شبت فيها نيران الثورة السيبايسية فتشتت شمل تلك العصابة ونزعت منها السلطة واُخذت منها الاراضي التي كانت قد امتلكتها بشروى نقير ومنذ ذاك تقدمت البلاد في المدنية ونشطت من عقال الذل والهوان وتوفرت في مياهها السفن التجارية ومدت فيها السكك الحديدية وتفرَّعت منها خطوط جمة وامست المسافة الكائنة بين بومباي وكلكوتا تقطع في مدى ثلثة ايام فكفى الناس ذلك مزيد العناء بما نشاء عنه من سهولة اسباب النقل

فانهم فيما سلف كانوا يسخرون الخيول والبغال والمركبات وظهور الناس لنقل البضائع·

اما الخط الحديدي الكائن بين بومباي وكلكوتا فلا يتصل بالخط الطويل الذي يكتنف الهند ثم ان المسافة التي تقطعها السكة الحديدية بين المدينتين بسرعةٍ متوسطة فلا تزيد على الف او الف ومائة ميل اي عبارة عن ثلاثة ايام متوالية وقد اضيف الى هذه المسافة نحو ثلث هذه الاميال في الاول بالنظر الى انصال الخط المذكور بخط الله اباد الممتد في الجهة الشمالية من شبه الجزيرة واليك لمع من بيان انصال الخطوط الحديدية ببعضها في الاقطار الهندية·

يبتدئ الخط من مدينة بومباي مارًا بصالسيت وطانه الى سلسلة جبال جاتس الغربية ومنها يمتد في الجهة الشمالية الشرقية الى بورهامبورغ الى ان يتجاوز الاراضي المنفصلة عن بيندلكيند ومن هناك يمتد الى الله اباد ويتحول نحو الشرق فيمر بكنج الواقعة بالقرب من بينارس ثم ينحدر من الجهة الجنوبية الشرقية الى بور ديغان ثم الى المدينة الفرنسوية المعروفة باسم شارديرناجور ومنها يمتد الي كلكوتا

وكان خروج المسترفوج وخادمه وبقية الركاب الى مدينة بومباي في نحو الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر· وكان الاجدر بهذا الرجل ان يطوف شوارع المدينة شأن السائح في الارض ويتفقد معاقلها وطلولها ويزور فيها الاماكن الشهيرة ويشهد المنظر المدهشة الغريبة كالفندق العظيم المتقن البناء الفسيح الجوانب الوطيد الاركان والمكتبة التي تحتوي على انفع المؤلفات المنسوجة باقلام اشهر الاساتذة والعلماء والحمامات المختلفة اشكال البناء وحلقة الاقطان والمآذن وكنائس الاسرائليين وهياكل الارمن ومعبد الصنم ماليبارهيل القائم على برجين عظيمين في اربع زوايا مزينة بالنقوش والرسوم الجميلة واثار اليفانته· كاقبيتها وسراديبها السرية المحفورة في باطن الارض في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة بالقرب من المينا وكهوف كانهيري الموجودة في جزيرة

صالسيت ـ قلنا ولو زار تلك الاماكن وتأمل مشاهدها لذهبت عنه اشجان السفر وغموم الاغتراب وطابت نفسه بما استفاد وقرّت عينه بما رأى . على انه لم يسلك هذا السبيل بل امال الخاطر عنه وحالما خرج الى اليابسة امر خادمه بشراء بعض اللوازم واوصاه بالحضور الى محطة السكة الحديدية في الساعة الثامنة ثم سار الهوينا ينقل القدم بخطوات معتدلة متجهاً نحو مكتب القنصلية وبعد ان سجل تذكرة سفره عاد الى المحطة ودخل قاعة الطعام فمدت له المائدة وكان عليها ارنب لم يجد لذوقه فمجه واستدعى بصاحب الفندق فسأله وعيناه تتفرسان فيه

أأرنبٌ ما قدمت لي

نعم يا حضرة الميلورد

الم يؤ عندما ذبح

نعم ماء ياسيدي الميلورد ويمين الله انه ارنب

لا تحلف اليمين المعظمة بل تذكر ان اهل الهند كانوا منذ عامين يعتقدون ان الهرّ حيوان مقدس ولعله اليوم اصبح مخصصاً للسواح

قال هذا وطفق يأكل

ثم انه بعد ان خرج المستر فوج الى البر ببضع دقائق خرج فيكس وراءهُ كما تقدم لنا الكلام وانطلق توّاً الى مركز رئيس الشرطة في بومباي وعرّفه بنفسه وجعله على علم بماموريته واخبره بوجود اللص فيلاس في ثغر بومباي ثم سألهُ عما اذا كان ورد اليه امرٌ من اوندره بالقاء القبض عليه فاجابه سلبًا وعند ذلك اعتمد فيكس رأسه بيديه واخذ يخبط في اودية الافكار خبط عشواء لا يدري ماذا يفعل ثم طلب من رئيس الشرطة ان يدفع اليه كتابةً تامرهُ بالقاء القبض عليه فأبي ان يجيبه الى ذلك بقوله

ـ ان هذا الامر ليس من متعلقاتي بل من متعلقات الادارة العمومية

فاقتنع فيكس بهذا الجواب وآلى على نفسه ان يستمر على مراقبة فيلاس فوج لئلا يتملص من بين يديه ويزيغ

عن بصره في المدة التي يقضيها في بومباي وان يظلّ سالكًا هذا الطريق الى ان يرد اليه امرٌ بالقاء القبض عليه ولم يكن يعلم ان فوج سيبارح بومباي عاجلاً بعد مضي بضع ساعات

اما باسبارتو فبعد ان تلقى الاوامر اللازمة من مولاهُ تيقن ان اجل السياحة لا ينقضي في بومباي بل ربما انقضى في كلكوتا او في سواها ثم طفق يسال نفسه عما اذا كان للرهان الذي عقده مولاه صحةٌ ما ام لا وعما اذا كانت التقادير تقودهُ الى اتمام الطواف حول الارض وهو في غنىً عنه

وبعد ان اشترى بعض قمصان وجوارب من سوق الباعة طفق يطوف شوارع المدينة الى ان وقع نظره عن بعدٍ على احدى الفسحات فرأى فيها ازدحامًا غريبًا فساق القدم الى حيث الجماهير المتجمهرة يستجلي حقيقة الخبر فرأى اناسًا مختلفي الشيع والاجناس فمن اعجام بقلانس طويلة وبنيانسيين بعمائم مستديرة وسنديين بقبع مربعة وارمن باردية طويلة وبارسيسيين بتيجان سوداء وفي وسطهم نسوة هنديات متردیات بقمصان حمراء مسترسلة الى الاقدام وموشاة بالخيوط الذهبية والفضية . ورآهن يخطرن بقدودهن الهيف ويتمايلن تمايل الاغصان والحاظهن تفتك بالقلوب فتك السيوف بالاعناق تبدي كل منهن تيهًا ودلالاً معجبةً بقوامها فاتنةً بجمالها

فاذا مشت مرَّ النسيم بعطفها
فيكاد يلويهِ لفرطِ اللينِ

وكان ذلك اليوم عند طائفة البارسيسيين عيدًا سعيدًا تحتفل به سنويًا وتشترك معها فيه بقية الطوائف . اما هذه الطائفة فهي الطائفة المشهورة بالصناعة والتجارة والثروة والتمدن زيادةً عما سواها من الطوائف الهندية

وبعد ان قضى باسبارتو مدةً في تلك الحفلة مستسلمًا للدهشة والانذهال لا يبدي اشارةً ولا ينطق بكلمة سار نحو المحطة فمر في طريقهِ ببناية مزينة بما يعجز عن وصفه لسان الواصف فسولت له نفسه الدخول اليها ليرى اتقانها البديع وزخارفها التي تأخذ بمجامع الالباب

وكانت تلك البناية معبدًا للصنم

ماليبارهيل الا انه كان يجهل تماماً عادات
البلاد وقوانين المعابد في تلك الديار
ولا سيما معابد الاصنام منها فانه لم يكن
مباحاً لاحدٍ من المسيحيين ان يدخل
اليها اما الوثنيون فكانوا يلجونها بحشمةٍ
ووقار حفاةً مكشوفي الرأس وكانت
الحكومة الانكليزية تحترم عادات كل
طائفةٍ وتعاقب من يخرق حرمتها عقاباً
شديداً ·

وكان باسبارتو جاهلاً لهذه العادات
بالنظر الي كونه غريباً لا يعرف طريقة
الدخول الى معابد الاوثان فولج باب
الهيكل السالف ذكره بدون أن يخلع
خفيـه او يرفع قبعتهُ فتقدم حتى وسط
الهيكل فرآهُ ثلاثة كهنة من خدمة الاصنام
على هذه الحالة فاحتدموا عليه غضباً
وتمزقوا غيظاً ثم وثبوا عليه وثبة الاسود
وخلعوا الحذاء من قدميهِ وأثخنوه جراحاً
اما هو فلبث يغالب الالم حتى غلبهُ فثارت
في راسه حمية الفرنسيس واستعان على
اولئك الكهنة بمدد الله فاخذ يلطمهم
بكفيه ويرفسهم برجليه وبينما كان مشتبكاً
معهم سقط منهم اثنان على الارض عاثرين
باذيال ارديتهما فانتهز اذ ذاك باسبارتو
الفرصة وخرج من باب المعبد فتبعهُ
الكاهن الثالث يثير عليه الناس وهو مجدٌّ
في السير الى ان بلغ المحطة قبل قيام
القطار بخمس دقائق فدخلها مكشوف
الراس حافي الرجلين فاقد الامتعة التي
كان مولاهُ قد اوصاه بشرائها ثم اخذ
يحملق في الجموع حتى راى مولاه فشكا
اليه الحال بلسانٍ كأنه تذكر قول من
قال ·

بكيت من الدهر مستضحكاً
وشرُّ البلية ما يضحك

ثم قص عليه الحادث وما وقع لهُ
مع كهنة معبد الصنم ماليبارهيل فقال
لهُ مولاه اؤمل ان لا يقع لك بعد مثل
هذا الحادث ثم ركبا القطار وسارا الى
حيث يقصدان

اما فيكس فكان قد علم ان المستر فوج
مسافر من بومباي فاتى المحطة ليقتفي اثره
فسمع بما حدث لباسبارتو عندما كان
يقص الخبر على مولاه

وبعد برهة يسيرة من الزمان ازف
وقت قيام القطار فخرج من المحطة يسير

طيرًا بلا جناح الى ان توارى عن الابصار يشق في ذلك الليل الحالك قلب الظلام

الفصل الحادي عشر
في انّ فيلاس فوج اشترى مطية باغلى الاثمان

سار القطار في ميعاد سفره المعتاد وعليهِ عدد ليس بقليل من الركاب فبعضهم موظفون ملكيون والبعض الاخر من تجار العظم والافيون يقصدون الجهة الشرقية من شبه الجزيرة حيث لبضاعتهم رواج . وكان باسبارتو قد ركب العربة التي ركبها مولاه وقبالة الاثنين رجل ثالث عرفه المستر فوج في الباخرة مونجوليه عند مرورها بترعة السويس وقضى معهُ اوقاتًا كثيرة بلعب الويست وهذا الرجل كان طويل القامة اشقر الشعر يتجاوز الخمسين عامًا يدعى السير فرنسيس كرومارتي ويعرف بقائد الحملة العسكرية في الهند . وكان لاحقًا بالجيش المعسكر بالقرب من بيناري ولهُ الايادي البيضاء في اطفاء ثورة السيبايس التي لقب من اجلها عند الهنود بصادق الوطنية . وقد قطن الهند منذ نعومة اظفاره ولهُ الخبرة التامة باحوالها والعلم الكافي بعادات اهلها ومشاربهم ولو خطر للمستر فوج ان يستعلم منهُ عنها لما بخل عليه بالشرح المسهب والتفصيل المطول ولكنا عرفنا فوج واحواله وكيف انه يدور حول الارض كدوران جرم عظيم من الكواكب السيارة حول الكرة الارضية على مقتضى النواميس الفلكية وعرفه ايضًا السير فرنسيس كرومارتي من يوم ابصرهُ جالسًا يلهو بلعب الويست والورق بين انامله فتعجب من جمود دمه وغرابة اخلاقه وعدم تاثره من مفاعيل الطبيعة ومناظر الوجود

ولم يكتم فيلاس فوج عن السير فرنسيس كرومارتي موضوع رحلته وطوافهِ حول البسيطة ولا الشروط التي عقدها والمدة التي حددها لاتمام هذه الرحلة وذلك ليكون على بينةٍ من الاسباب التي دفعته الى التعجيل في السفر والاسراع في المسير

وما قطع القطار مسافة ساعتين

حتى عبر الجسر ماراً بجزيرة صاصيت يطوي البيد طياً واستمر سائراً الى ان بلغ محطة كاليان فتحول عن الجهة اليمنى تاركاً فرع الخط الواقع عند كاندالله وبوناح وساق في وجهة الهند الجنوبية الشرقية وسار الى ان وقف في محطة باويل ومنها انطلق بين اشجار ملتفة وارفة الظل في لحف سلسلة جبال كثيرة التشعب من الجهة الغربية شاهقة الارتفاع تكاد تنطح السماك . تنقذف من وسطها حمم البراكين النارية وفي اثناء السير كان المستر فوج والسير كرومارتي يتناوبان قص الاحاديث والاخبار فقال السير كرومارتي لفيلاس

لو عزمت على هذه الرحلة قبل الان ببضع سنين لنقيت عوائق وموانع حائلة دونها

ــ ولماذا

ــ لان الخط الحديدي كان يصل الى لحف هذه الجبال فقط فكان الناس لذلك يضطرون الى اجتيازها على الهوادج او على ظهور الخيل حتى محطة كاندالله الكائنة على منحدر الهضبة المقابلة

ــ قد اتخذت الوسائل اللازمة لاجتناب ما عساه ان يحول من العوائق دون مواعيد رحلتي .

لو اتصل بالحكومة امر تجرؤ خادمك على اختراق حرمة الاديان بدخوله الى معبد الاوثان في مدينة بومباي لكان لك ذلك من اعظم العوائق فان الدخول الى معابد الوثنيين محظوراً على اي كان من المسيحيين فلو علمت الحكومة بما كان من خادمك لجرت عليه وانالته ما يستحق من العقاب .

اصبت ولكن ذلك لا يمنعني من اتمام السير فانه لو وقع في قبضة الحكومة لنال جزاءه وقضى مدة العقاب وعاد بعد ذلك الى اوربا ناعم البال لاخوف عليه ولا هو يحزن فاكون انا قد اتبعت طريقي وما عاقني شأن خادمي

وهنا انقطع عن الكلام ولزم كل منهما السكوت وكان باسبارتو نائماً اثناء الحديث فما علم بما تحدث الرجلان في شأنه وهكذا انقضى الليل وما انبلج الصبح حتى كان القطار قد عبر جبال جانس

ومرَّ بناحيك وتوغل في اراضي كانديش المخصبة التى تتدفق من حولها جداول وانهــــار تسقي مزروعاتها وتروي ظمأ نباتهـــا ٠

وعند الصباح استيقظ باسبارتو من رقاده ونظر الى ما حولــه فحار منه الفكر وتاه منه الرشد اذ ظن نفسه في منام وحسب ان ما يراه ان هو الا اضغاث احلام وقد كان قبل ذلك غير موقن انه سيركب البخار ويشق به ارض الهنود وفي الواقع ان المنظر كان داعيًا الى الدهشة باعثًا على الاستغراب

ثم التفت باسبارتو فرأى امام الآلة البخارية مهندسًا انكليزيًا حاملاً بيده ابريقًا مملوءًا زيتًا يصب منه من وقتٍ الى اخر بعض قطرات على ادوات الالة التى كان يتصاعد منها دخان كثيف شديد السواد فيمر بمزروعات القطن والبن والقرنفل والفلفل الاحمر وجوز الطيب ويكتنف اشجار النخل التي ينبت في جذورها العشب الاخضر ويقوم بين بعضها اثار من بقايا اديرة قديمة العهد ومعابد للاصنام يدهش مشهدها الابصار بما يدل على حسن هندستها واتقان بنائها وفي الجملة ان العيون لا تبصر في تلك القفار سوى حقول واسعة واراضٍ شاسعة وجبال شاهقة تزحف فيها الاراقم الهائلة وتسرح فيها الضباع الكاسرة وتمرح على اديمها الافيال

وفي ذلك الصباح مرَّ القطار بمحطة ماليجرم وما بعدها من الاراضي المشؤومة التي كثيرًا ما خضبتهـــا بالدماء ايدي عبدة الالهة ومرَّ ايضًا بمعابد الالهة ايلورة ثم مدينة اورونجاباد عاصمة الملك البربري اورنج ذيب التي باتت اليوم مركزًا احدى المديريات التابعة لولاية الملك نيزام وكان قد استبدَّ فيهـــا باحكامه ملك عصبة الشنق المسمى فورنجيه

وكانت هذه العصبة تقضي بالشنق على من رأت بموته سبيلاً الى مرضاة الالهة حتى ضاقت الارض بالجثث البالية وقد عجزت الحكومة الانكليزية عن تدارك الامر بالرغم عما صرفت اليه العزم من تشتيت تلك العصبة الشقية التي لم تزل لها بقية قائمة في تلك الاقطار الى هذا اليوم

وعند الظهر وقف القطار في محطة بورهامبور حيث ابتاع ياسبارتو حذاء مرصعًا باللؤلؤ الزيف فانتعلهُ والعجب يلعب بعطفيه وحيث تناول المسافرون الطعام بما امكن من السرعة وعادوا الى القطار الذي سار بهم بعد ذلك الى محطة اسورجير بعد ان مرَّ محاذيًا شاطئ تاستي الذي يصب في خليج كامباي بالقرب من سيرات

قال جول . واني ارى من الصواب ان اقف بالقارئ قليلاً لاطلعهُ على ما كان يتلاعب في رأس باسبارتو من الافكار والتصورات فانهُ كان يظن في بادئ الامر ان رحلة سيده تنتهي في بومباي فلما تجاوزها وتوغل في قلب البلاد الهندية رجح لديه انطباق الرحلة على مشروعها الذي تقرر في لندرة بعقد الرهان وتحديد ما حدد لها من الزمان فحار في الامر واضطرب واستولت عليه فواعل القلق ثم اخذ يشعر بعاملين احدهما يدفعه الى اكتساب الرهن والثاني يحذره من الفشل فيطرق في الارض مفكرًا متأملاً علهُ يهتدي الى طريقة يتحاشى بها العوائق غير المنتظرة والموانع التي تطرأ على غير ما يرام فتبعث السائح على تمني ان يكون لهُ جناحان يأمن بهما غوائل التأخر في المسير

اسرب القطا هل من يعير جناحهُ
لعلي الى ما قد هويت اطيرُ

وكان بين التردد والاستسلام الى هذه الافكار بحسب ما مضى على الرحلة من الايام ثم ينتقل من العد والاحصاء الى التذمر من ابطاء القطار في المسير مع انهُ كان سائرًا سير البرق وبين هذا وذاك يعود الى لوم مولاه لانهُ لم يعد مهندس القطار بجائزةٍ كما وعد مهندس الباخرة مونجوليه وكان يرميه بهذا اللوم وهو لا يعلم ان للقطارات سرعة قانونية بخلاف السفن التجارية

وعند المساء بلغ القطار مضيق جبال سبتور الفاصلة بين اراضي كنديش واراضي بينديلكند فسار في تلك الجهة مدة الليل بطوله الى ان انبلج الصبح وحلت الساعة الثامنة من صباح ٢٢ اوكتوبر فوقف بعد ان جاوز محطة روتال بخمسة عشر ميلاً في وسط بقعةٍ خالية من الاشجار واعلن

سائق القطار ان ذلك الموقف محط لنزول الركاب

فالتفت المستر فوج الى السير كرومارتي فرأى على وجهه علائم الارتباك اثر وقوف القطار في وسط قفار ينبت فيها الحمر (التمر الهندي) والكافور ثم احال نظره نحو باسبارتو فرآه يقفز من القطار ثم سمعه يصرخ بتعجب وانذهال : ان القضيب الحديدي ينتهي هنا فاستعاد كرومارتي كلامه فكرر قوله بأسف ان الخط الحديدي ينتهي هنا فحينئذٍ نزل كرومارتي وفيلاس فوج الى الارض وتقدما الى سائق القطار فسألاه

— اين نحن

— في كنفركولبي

— أهنا ينتهي بنا القطار

— نعم لانهُ يبقى مسافة خمسين ميلاً ليتصل هذا الخط بخط الله اباد

— ولماذا اعلنت الجرائد باتصال الخطين .

— بدا ذلك عن سهوٍ منها وعدم انتباه

— ولماذا اعطيت الركاب تذاكر الى كلكوتا

— لاني اعهد انهم على علمٍ بانقطاع الخط هنا

وكان السير كرومارتي يحتدم في كلامه غضباً وباسبارتو يكاد ان يتميز من الغيظ وكان بوده ان يفتك به لولا خوفه من مولاه الذي التفت الى السير كرومارتي قائلاً لهُ

— يجب ان نطرد المسير الى الله اباد باي الوسائل

— ولكن ما العمل يا مستر فوج بهذا الاعتياق الذي يضر برحلتك

— ما كنت على جهلٍ بهِ

— فاذاً كنت عالماً بانقطاع الخط

— لا ولكني كنت على شعورٍ باني سألقى اثناء رحلتي عائقاً غير منتظر عاجلاً او آجلاً وقد تداركت الامر فحملت مهندس الباخرة مونجوليه على التعجيل والاسراع في المسير بغية الوصول الى بومباي قبل ميعاد الوصول الاعتيادي ووعدته بجائزة من النقود وهكذا كان وصولنا قبل الميعاد بيومين واظن اننا حاصلين على الزمن الكافي لان نصل

الى كلكوتا في ٢٠ اوكتوبر الذي تسافر فيه سفينة بخارية الى كون كون

وكان بعد وقوف القطار في تلك النقطة ان نزل منهُ الركاب وشرعوا في استكراء المطايا والمركبات حتى انهُ لم يبقَ منها للسير كرومارتي والمستر فوج ما يسيران عليهِ فطلبا عربةً فما وجدا واذ ذاك قال فوج اني اسير على قدمي فشق الامر على باسبارتو خوفًا على حذائهِ الجديد ثم انهُ بعد ان فكر قليلاً قال لمولاه انهُ يوجد مطية للسفر

فقال لهُ فيلاس

— واين هي

— في محلٍ لا يبعد من هنا سوى بضع خطوات

— هلمَّ بنا يا حضرة السير كرومارتي لنتحقق الخبر

فانطلق الثلاثة في الحال وبعد مضي خمس دقائق من الزمان وصلوا الى كوخ يلاصق حوشًا فيه فيل وفي الكوخ رجل هندي فلما رآهم اقبل عليهم فاستقبلهم وادخلهم الى الحوش حيث كان الفيل فرأوا فيلاً اليفًا يدعى كيوني عني صاحبه بتمرينه وتعليمه بغية ان يستخدمه في القتال لا في نقل البضائع والركاب وكان معينًا لهُ ثلثة شهور من السنة يغذيه فيها بالسمن والسكر اعتقاد ان هذا الغذاء يزيل من الحيوان النفرة

اما جنس الفيل في الهند فنادر الوجود وخصوصًا الذكور منهُ التي كان الهنود يستخدمونها في مضمار الصراع وساحات القتال وصيد الافيال وغيرها من وحوش الغاب فلا عجب لذلك اذا بلغ امر الاعتناء بها في الهند كل مبلغ فان الافيال قليلة التناسل ولاتاتي بنتاج الا بعد ان تألف

ولقد سأل فيلاس فوج صاحب الفيل ان يكريه اياه فابى فعرض عليه ان يدفع لهُ عشر ليرات عن كل ساعة فرفض فقدم لهُ عشرين فامتنع ثم اربعين فلم يقبل واصرَّ على الاباء ثم طلب ان يشتريه فسخر به فقدم لهُ الف ليرة ثمنًا لهُ فاعرض عنه ثم الفًا ومائتين فنظر اليهِ شذرًا ثم الفًا وخمسمائة وبعدها الفًا وثمانمائة ثم الفين وهنا قبل الهندي فنقده فيلاس الثمن في الحال من سفاتج البنوكة فاخذ فوج

الفيل وإنقلب عنه يطلب مرشداً يهديه الى الطريق فتقدم اليه شاب وعرض نفسه لخدمته فقبله بالترحيب ووعده باجرةٍ وافرة فسر الشاب وللحال عمد الى الفيل فاخرجه من مربضه ووضع على ظهره لبادة وجعل على جانبيه شيئاً اشبه بالخرج فركب على أحد الجانبين السير فرنسيس كرومارتي وعلى الجانب الاخر المستر فيلاس فوج اما باسبارتو فركب فوق اللبادة واما المرشد فاعتلى رقبة الفيل

وبعد ان اذخروا مؤنتهم من ماكلٍ ومشربٍ انطلق بهم الفيل في الساعة التاسعة من ذلك اليوم متخذاً اقرب طريق من الطرق المؤدية الى المحل المقصود سائراً في وسط غاب من غابات شجر النخل

الفصل الثاني عشر

في ان فيلاس فوج ورفاقه قاسوا الاهوال في قفار الهند

وسلك المرشد في طريقه اقرب مسلك على ما تقدم بيانه فسار في غير الطريق المألوف سائقاً في عرض الصحراء تاركاً عن يمينه تخطيط السكة الحديدية المشروع في مدها زاعماً انه يسلك طريقاً قريباً تنقص عن سواها مسافة عشرين ميلاً ولكونه من اهل البلاد ومن ادرى الناس بمسالك تلك القفار القى فيلاس اليه مقاليد الامر رغبة ان يكفيه مؤونة العناء بالسير في طريقٍ وعرة صعبة المسالك بسبب كثافة اشجار جبل فيندياس حيث رسمت طريق السكة الحديدية

وبعد ان استوى الركاب على ظهر الفيل سار الحيوان بهم خبباً ثم زميلاً يطوي البيد في تلك الاراضي المقفرة متهدجاً في المسير متنفضاً حتى اعيي من عليه بما نالهم من عناء الارتجاج ولكنهم تماسكوا وتجلدوا ما استطاعوا حتى صغرت انفسهم وكادت تشرف على الزهق وتولاهم اليأس وتملكهم الخوف وكان باسبارتو يندفع من شدة الارتعاش تارةً نحو رقبة الفيل وطوراً ينطرح على كفله حتى كادت امعاؤه تنقطع واحشاؤه تتمزق وهو صابر على ذلك صبر كريم على مضض الايام يغالب مرارة الالم بالهزل والضحك ويداعب الحيوان تمضيةً للوقت بالقاء

قطع من السكر في فمه فيتناولها بخرطومه
غير منقطع عن السير ركضًا وعدوًا
وبعد مسير ساعتين اوقف السائق
المسير مدة نصف ساعة استراح فيها الفيل
من التعب واجال نظره في الارض فابتلع
ما وجده عليها من الحشيش وانواع
النبات ثم ورد الماء فشرب حتى اروى
ظماءه وقد طلب ركابه الراحة ايضًا فنزلوا
عن ظهره وقد ابدى السير كرومارتي
تعجبه من نزول المستر فوج عن ظهر
الفيل نزوله عن سريره فقال
أمن حديد هذا الرجل
فاجابهُ باسبارتو
نعم انهُ مخلوق من حديد
قال هذا واخذ يهتم بتهيئة الطعام
وعند الظهر استأنف الفيل المسير
في الصحارى الواسعة التي ينبت في بعض
جهاتها شجيرات من الحُمَر والنخل وفي
البعض الاخر القرطب والشوك . وهي
قسم من اراضي بيند لكاند العلياء التي
قلّ ان تطأها اقدام السواح خوفًا من
هيبة سكانها وخشونتهم وتعصب اهلها
الذين كانوا يقومون اثناء الاحتفال
بمراسيم اديانهم باعمال لا تفي لفظة ، وحشية ،
بحاجة التعبير عنها لما ان الوحوش لا تجسر
على الاتيان بها . ولم يكن للحكومة الانكليزية
ان تبث بين اولئك السقاط الاجلاف
روح التهذيب والتمدن بالنظر الى انقيادهم
لاوامر روسائهم انقياد العميان . وقد وقع
منهم اثناء مرور فوج ورفاقه بارضهم انهم
تجمعوا عليهم واندفعوا في الطريق امامهم
ينظرون الى الفيل شذرًا ويبدون عدوانًا
وكان السائق يتجنب اذاهم وشرهم بالحيلة
والمكر حتى توارى عنهم
وقلما وجد في الطريق اثناء مرورهم
حيوانات غير بعض قرود كانوا يولون
الادبار بتعوج والتواء مما كان يضحك
باسبارتو ويذهب عنه الم المسير
وكان يتنازع هذا الفتى عدة عوامل
اخصها شأن الفيل وما سيؤول اليه امرهُ
اليه عند وصولهم الى محطة الله اباد فكان
يقول اذا افترضت وقاده مولاي حتى ينتهي
به الى مقره تمثلت امامه وفرة النفقات
فيعدل عن استصحابه في الرحلة . وكان
بين هذا الافتراض وغيره يعود الى التساؤل
عما اذا كان من الحكمة اطلاق الحرية

للحيوان ليسير ايان شاأ ثم بدفعهُ الطمع الى امل ان مولاه يهديه اليه فيجار في امره ويرتبك في شأنه — وكانت كل هذه الافكار تمر برأسه مرّ الخيال آخذة بمجامع قلبه ولبه واستمرّ كذلك الى ان قطعوا جبال فينداياس فاتخذوا منحدرها الشمالي محط الرحال ازاء كوخ متخرب وكان الوقت اذ ذاك بالغًا حد الساعة الثامنة من الليل . وبالنظر الى ما كان في تلك الليلة من البرد القارس التجأوا الى الكوخ فاوقدلهم السائق فيه نارًا اصطلوها وتناولوا الطعام ما كانوا قد اذخروه في كالبي وما تجاذبوا اطراف الكلام بعد تناول الطعام حتى تمايلوا بخمرة الوسن فرقد السير كرمارتي والمسترفوج ولبث السائق مسهَّد الجفن محافظًا على الفيل النائم وقوفًا متوكئًا على جذع شجرة ولم يكن يكدر سكون الليل سوى زئير النمر والفهد واهناف القرود ولما بزغ الصباح حمد القوم السرى وجدُّوا في المسير في الساعة السادسة يجتازون ما بقي عليهم من اراضي جبال فينداياس معللين النفس ببلوغ محطة الله اباد عند المساء فانهم كانوا قد اجتازوا نصف مسافة الطريق ولم يبقَ عليهم سوى مسافة خمسة وعشرين ميلاً

واستمر الدليل الهندي سائقًا مطية فوج ورفيقيه في قلب القفار سالكًا آمن المسالك متحاشيًا ان يمر بالجهات الآهلة بالسكان خشية ان يثور الوطنيون عليهم وليس لديهم ما يدفعون به شرهم الى ان اجتاز قبل الظهر كفر كالانجير الكائنة عند نهر كاني الذي يصب في نهر الكانج واذ ذاك اشرف على شاطئ النهر الاعظم الذي يبعد عن محطة الله اباد اثنى عشر ميلاً من الجهة الشمالية الشرقية وهناك اوقف المسير التماس الراحة تحت ظل اشجارٍ من الموز تتدلى منها العناقيد تدليها من الكرم

وقضوا في هذه البقعة مدة ساعتين عادوا بعدها الى المسير فشطَّ بهم الفيل بين اشجار غضة ينهب الارض نهبًا الى ان دنت الساعة الرابعة فوقف مذعورًا فسأل السير كرومارتي السائق ان ينبئهُ عن اجفال الفيل فاجابه انه لا يعلم لذلك سببًا ثم انصت قليلاً فسمع رنة اصوات تمتزج بدوي النسيم وما لبث ان ارتفعت

وتلتها فرقعة بعض آلات نحاسية وكان باسبارتو كله آذانًا تسمع وعيونًا تشخص الى مخرج الصوت وفيلاس فوج لا ينطق بكلمة البتة واذ ذاك نزل السائق الى الارض وربط الفيل في جذع شجرة قريبة منه وانطلق يطلب مخرج الصوت فبعد ان غاب قليلاً عاد وهو واقف على حقيقة الخبر فقال لاصحابه ان ما تسمعونهُ هو احتفال بتشييع جنازة فاذا كان في الامكان فلنتوارَ عن العيان . قال هذا وفك رباط الفيل وقاده الى موضع لا تنفذ فيه الابصار ولا تصل اليه رميات الانظار ثم اوعز للمسافرين بالاَّ ينزلوا الى الارض اما هو فوقف بجانب الحيوان مستعدًا للفرار اذا دعاه اليه الاضطرار

وبعد هنيهة مر القوم بالجنازة امام موقف المسافرين يحفونها بالانغام واصوات الطبول والصنوج وامامهم طغمة من الكهنة على رؤوسهم التيجان وعلى اجسامهم البرفير والارجوان ومن حولهم رجال ونساء واولاد ينشدون الحان الحزن على اصوات الصنوج ووراءهم مركبة تجرها اربعة افراس من جياد الخيل وعليها تمثال قبيح الصورة ذو اربعة سواعد مصبوغ الجسم بلون احمر مائل الى السواد قليلاً مدلى اللسان زائغ انسان العين مصبوغ الشفتين بالحناء وفي عنقه طوق منضد برؤوس الاموات ومن حول وسطه سلسلة ايادٍ مقطوعة . وهذا التمثال يعرف بالالهة ((كالي)) الاهة الموت والغرام

وكان وراء هذا التمثال جماعة من طائفة البراهمة يرفلون بافخر الملابس ويقودون بالعنف فتاة لم يزل فيها بعض الرمق وهي من ربات الحسن والجمال وذوات الخفر والدلال

قد كتب الحسن على وجهها

يا اعين الناس قفي وانظري

وكان في يديها واذنيها وعلى عنقها وصدرها وكتفيها من الجواهر الكريمة ما لا تقدر له قيمة وعليها من آثار النعمة وعلى وجهها من ملامح الذكاء ما لا يوصف بلسان . وكانت لابسة ثوبًا من الحرير الهندي وخمارًا من اللاذ ارق من نسيج العنكبوت يلعب الهواء باطرافه ووراءها حرَّاس شاكو السلاح متقلدون سيوفًا وبنادق وغدارات وحاملون جثة على

الاكتاف وكانت جثة الشيخ الفقيد الامير الهندي احد سلاطين القبائل وعلى هامه عمامة مطرزة باللآلئ وفي وسطه حزام مرصع بالماس وعليه ثوب من الحرير مزركش بالخيوط الذهبية وكان مقلداً سيفهُ اشارة الى ما كان عليه في حياته

وفي منتهى الحفلة كان عازفو الموسيقى يصرخون باصوات قبيحة ويرفعون اصواتهم بما كان يفوق عزف الموسيقى

وفي خلال الحفلة التفت السير كرومارتي الى السائق وقال لهُ

هل هذه (سوته) ضحية

فاومى اليه السائق برأسه ثم وضع بنانه على شفتيه اشارة الى انهُ يريد ان يلزم الصمت

وبعد ان مرّت الجنازة بالجموع بين تلك الاشجار وغابت عن الابصار قال المستر فوج للسير كرومارتي

وماذا عنيت بلفظة (سوته)

هي لفظة من لغة الهنود يعبر عنها في لغتنا بلفظة ضحية والمراد بذلك ان تلك الفتاة التي رأيناها في تلك الحفلة هي امرأة الشيخ الفقيد ومن عادات الهنود انهُ اذا توفي الرجل قبل المرأة يحرقون زوجتهُ معه فهذه الفتاة التي رأيناها ستحرق باكرًا عند بزوغ النهار

فقال المستر فوج

وكيف لم تزل هذه العادات الوحشية مرعية الاجراء الى هذا اليوم والانكليز ينشرون التمدن تحت سماء الهند ويدافعون عن الانسانية

لا تزال هذه العادة متبعة مرعية الاجراء في كثير من جهات الهند حيث لا يخفق علمنا وحيث ليس لنا سلطة وسلطتنا لا تمتد الى هذه البقعة حيث نحن الان فكل هذه الارض التي قطعناها والاماكن التي سنمر بها انما هي مرسح لمثل هذه المشاهد

فقال باسبارتو بتاسف

— يستدل مما قال حضرة السير ان هذه الفتاة لا بد انها تذوق العذاب الوانًا اذا لم تحرق

فاجابه السير كرومارتي

ولا ريب في ذلك. وما راءٍ كمن سمع واذا لم تحرق عوملت بالقسوة والغلظة فان شعر راسها يحلق وتغذّى بقليل من الارز وتنبذ من هيأة الاجتماع نبذ

الحذاء المرقع الى ان تموت ذليلة مهانة فهي
لذلك تفضل الموت على البقاء اجتناباً
لتنوع الاغذية ولحرمان اسباب الهناء
وقد تكون المرأة لذلك في بعض الاحيان
ضحية صادرة عن تمام الارادة فتضطر
الحكومة الى التداخل في الامر منعاً لحدوثها

وعند ما كنت منذ بضع سنين في
احدى وظائف الحكومة في بومباي حدث
ان ارملة في سن الصبوة اتت حاكم
المدينة والتمست منهُ ان يرخص لها في
الاحتراق مع جثة زوجها فرفض الحاكم
طلبها ونهاها عن غيها فلم ترعوِ ثم خرجت
من المدينة والتجأت الى حمى بعض
السلاطين المستقلين حيث انفذت مرغوبها

وكان سائق الفيل يهزُّ راسهُ كلما
سرد السير كرومارتي عبارة من قصته وفي
اخر الكلام قال السائق :

اما ضحية البارح فليست صادرة
عن ارادة شخصية كما لا يخفى علينا نحن
معشر البيندلكاند فان تلك المنكودة الحظ
ذاهبة الى حتفها بالرغم عنها ولا يغرَّنك
منها انقيادها فانها سكرى بدخان القنب
والافيون ولا تعي الى اين سائرة فهي لذلك
مسوقة كالنعاج الى هيكل الصنم (بيلاهي)
الذي لا يبعد من هنا سوى ميلين لتقضي
فيه سواد الليل وتحرق عند بزوغ
الصباح

قال هذا واخرج الفيل من مربضه
ثم اعتلى رقبتهُ وهم على الرحيل فاوقفهُ
المستر فوج ووجه الى السير كرومارتي
الخطاب فقال

ـ ما رأيك في انقاذ هذه الفتاة

ـ يا للعجب وماذا يهمك امرها

ـ لديَّ من الزمان فرصة اثنتي عشرة
ساعة اودُّ استخدامها في الدفاع عن
الانسانية

ـ لله درك ما اشجعك وما اثبت جنانك

ـ نعم ولكن في بعض الاحيان وعند
امتلاك الزمان

الفصل الثالث عشر

ويومٌ علينا ويومٌ لنا
ويومٌ نساء ويوم نسر

واهتم المستر فوج بانقاذ الفتاة فكان
امراً شاغلاً لهُ بل كان مشروعاً محفوفاً
بالمصاعب والاهوال يتوعد حياة فيلاس

بالخطر او بوقوعه في اشراك الهوان وتعرضه لقسوة معاملة الهنود فيسومونهُ خسفًا وحيفًا ويوسعونه ضربًا وطعنًا وإذا اتفق وكان من حسن حظه ان يطلقوا سبيله فيكون قد فقد الحيوة المعنوية بفقد فائدة الرحلة وقيمة الرهان . ولكنه مع هذا وذاك لم يتردد في الامر وقد لقي المستر كرومارتي منجدًا والفتى باسبارتو معينًا غير انه خشي خيانة السائق فعزم ان يطلب اليه التزام الحيادة اذا ابي ان ياخذ بناصره ويرشده الي الوسائل التي تمكنه من بلوغ الغاية بإنقاذ الفتاة

ثم كاشفه السير كرومارتي بما في النية فقال

ـــ ثقوا بولائي وحسن وفائي وصدق خدمتي وصفاء نيتي فان من تريدون انقاذها هي من ابناء جلدتي فهي بارسية مثلي لا يهون عليَّ هلاكها ظلمًا

وعند ما سمع من فيلاس هذا الجواب الذي يشف عن موالاةٍ واخلاص شكر لهُ ما اظهر من الغيرة وصفاء السريرة فقال السائق :

ولكن يجب عليكم قبل الشروع في العمل ان تتدبروا الامر فاننا اذا وقعنا في قبضة الاعداء فلا شك اننا نعدم الحيوة بعد ان نذوق جميع انواع العذاب فاجابه فيلاس

لا تدبر لك امرًا

فاولو التدبير هلكى

حقق الامر تجدنا

نحن اولى بك منكَ

ـــ وارى من اللائم ان ننتظر الليل للشروع في العمل

ـــ نعم وهذا اوفق وافضل

ثم اخذ يشرح للمستر فوج ما يعلم من احوال الفتاة فقال

ـــ هي فتاة هندية ولدت في مدينة بومباي وشبت على كرم الاخلاق وحسن العادات واقتبست التهذيب والآداب من الانكليز حتى فاقت ذوات جنسها من بنات جلدتها فخالها الناس اوربية وهي فائقة الحسن بديعة الجمال بارسية النسب ولها ابوان غنيان في بومباي واسمها عائدة

ولما بليت بموت والدها زفها اقاربها بالرغم عنها علي هذا الشيخ البنديلكاندي وذلك منذ ثلثة شهور فبالنظر الى ما

علمت من مستقبل حظها ساعة وفاة زوجها ركنت الى الفرار من دار بعلها وشردت تائهة في البراري والقفار ولكن سوء حظها ساق الايدي اليها فقبض عليها وهي الان كما ترون مسوقة الى العذاب الاليم ولا مفر لها منه ولا مناص

وكان الشاب الهندي يتقد في كلامه شفقةً وغيرة ويلتهب حدةً ويذوب كآبة وغمًا ويقلب اوجه الحديث متفننًا في ضروبه متنقلاً في اساليبه يجد فيثير الاشجان ويمزح فيذهب الاحزان فزاد ذلك سامعيه رغبةً في انقاذ تلك الفتاة من شدتها واشاروا الى السائق ان يقودهم الى مكان الضحية وان يدنو بهم من هيكل بيلاجي ويجعلهم بقدر الامكان على مقربة منه فلبى وسار بهم وبعد ان ساروا نحو نصف ساعة وقف عند غابةٍ كثيرة الاشجار تبعد عن الهيكل خمسمائة قدم وتحجب عنهم الانظار وهناك تباحثوا في الوسائل التي تؤدي الى بلوغ المراد وكان السائق يعرف مكان هيكل الصنم حيث حجر على الفتاة فسألوه عما اذا كانوا يقدرون ان يخترقوا الجموع وهم نيام فيلجون ابواب الهيكل او عما اذا كان يمكنهم ان يثقبوا الحائط ويخرجوا الفتاة من الثقب .

وطالت بينهم المداولة من غير ان يقرروا طريقةً ما وانما قرروا وجوب انقاذ الفتاة في الليلة ذاتها قبل بزوغ الصباح فيصعب عليهم اذ ذاك امر انقاذها

ولبث المستر فوج ورفاقه ينتظرون اقبال الليل فلما خيم الغسق سكنت الضوضاء واخذ جميع الحضور من الهنود في الثمول بالافيون المزوج بنقيع القنب حتى امسوا في حالةٍ يسهل معها على الي كان اختراق صفوفهم والدخول الى هيكل صنمهم على حين غفلةٍ منهم فهمّ اذ ذاك الثلاثة المسافرون (وكانت الساعة السادسة من الليل) على اكتشاف موقع الهيكل يتقدمهم السائق وبعد ان ساروا عشر دقائق بلغ بهم الفتى الهندي شاطئ جدولٍ يجري فيه ماء زلال فرأوا على ضوء مشاعل موقدة من حطب الصنوبر كومة احطاب متجمعة كدسًا مرثودة بخشب الصندل الثمين منداة بزيت مطيَّب وفوقها جثة الشيخ الفقيد مدهونة بالطيب معدة للاحراق مع جسد ارملته الحيَّة ورأوا

الهيكل على بعد مائة خطوة من الحطب ثم بارحوا هذه البقعة بهدوٍ وسكينة والسكوت لا يكدره سوى ميل الهواء بالاغصان وساروا الى منتهى الغاب وهناك وقفوا مندهشين منذهلين من رؤية جمعٍ غفير من رجالٍ ونساء واولاد سكارى بخمرة النوم منطرحين على الثرى كأنهم صرعى في ميادين الوغى ومن حولهم بعض سكارى الافيون وعليهم اشعة انوار المشاعل وبالقرب منهم هيكل الصنم بيلاجي تكتنفه الاشجار وعلى ابوابه الخفراء والحرس متقلدون السيوف ومن داخله طائفة الكهنة تقيم الشعائر الدينية ويتلون الصلوات ففي هذه الحالة رأوا انهُ يستحيل عليهم الوصول الى الهيكل فارتدوا الى الوراء عالمين انهم لا يستطيعون ادراك مبتغاهم ثم وقفوا يتبادلون الاراء باصوات منخفضة الى ان قال السير كرومارتي لرفيقيه

— فلننتظر قليلاً فاننا في الهزيع الاول من الليل وفي الساعة الثامنة فاذا تربصنا الى اواسط الليل واستولى الكرى على جفون الحراس طاب لنا ادراك الرغائب

وعلى ذلك لبثوا ينتظرون الوقت المرغوب بالقرب من جذع شجرةٍ وقد طال عليهم الانتظار وسئموا من الاصطبار تحت غصون الاشجار والمشاعل موقدة والحراس مكتحلون باثمد السهاد والانوار تنفذ اشعتها من منافذ الهيكل وبينما هم كذلك اذ تركهم السائق وتوجه لاستطلاع ما في تخوم الغاب

وبعد ان انتظروا حصول الفرصة الممكنة الى منتصف الليل وكان الحراس الى ذلك الوقت على حالهم من السهر والانتباه عمدوا الى اتخاذ طريقة تلائم الحالة فاتفقوا على خرق حائط الهيكل ولما عزموا على اجراء الطريقة راعهم شعور الكهنة القائمون حول جسم التقدمة فترددوا في الامر وبعد ان استغرق تحدثهم زمناً طويلاً اومأ اليهم السائق ان اتبعوني فساروا وراءه وبعد ان طافوا مدة غير يسيرة ادت بهم خاتمة المطاف الى حائط الهيكل بدون ان يصادفهم احد في طريقهم لانهُ لم يكن في الطرق التي سلكوها خفراء او حراس كما انهُ لم يكن في جهة الهيكل

التي قصدوها منافذ او ابواب

وقد كان الليل وقتئذٍ مظلمًا والظلام حالكًا والقمر قريبًا من الزوال تغشى محياه الغيوم المتلبدة وكان تكاثف الاشجار الشامخة يزيد القتام قتامًا عند الهيكل حيث كان فيلاس ورفيقاه مرتبكين في شأنهم لا يدرون باي وسيلةٍ ينقبون الحائط وليس لديهم من الادوات ما يستخدمونهُ في ذلك سوى سكين الجيب ولحسن حظهم كانت جدران الهيكل مبنية من الآجر والخشب فلم يكن لذلك من صعوبة في خرقها فان اول قطعة من الاجر اذا خرجت جرَّت الثانية

وما اخذوا في العمل حتى سمعوا صراخًا من داخل الهيكل واخر تلاه من خارجه فوقفوا مذعورين ثم ارتدوا على اعقابهم خائبين فارين الى الاشجار يطاردون الرعب الى ان هداء روعهم فعادوا الى استئناف العمل. ولكن ابى نكد الطالع ان يحقق امانيهم بانقاذ الفتاة فان الحراس كانوا مكثرين من اسباب التحفظ محيطين بجميع جوانب الهيكل احاطة الهالة بالقمر او الاكمام بالثمر فلما رأى السير كرومارتي من صعوبة الامر ما رأى صفق صفقة الاسف وكاد باسبارتو يغيب عن الرشد وثارت في فواد الفتى الهندي ثورة الاحزان اما فيلاس فوج فلبث ساكن الجنان لا يحرّك ساكنًا فقال له السير كرومارتي

لقد خاب الامل من ادراك الارب وما نحن الان نافخون الا في غير ضرم فسر بنا نعود الى حيث كنا فقد اقترب النهار

فقال فوج

لاتقنطنَّ من رحمة الله

ولربَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى
ذرعا وعند الله منها المخرجُ

فالصبر مفتاح الفرج والعجلة لا يعقبها الا الندم فلنذّرع بدرع الصبر فان الوقت لم يفت علينا ووصولنا الى محطة الله اباد مضمون قبل ظهر الغد

فتعجب كرومارتي من هذا الجواب واخذ يتأمل الامر بعين البصيرة عله يهتدي الى ما عساه ان يحيي مائت الامل في قلب فيلاس فوج ثم قال في نفسهِ

لم يبقَ الا طريقة واحدة وهي ان يقتحم الصفوف وينتشل تلك الضحية من وسط العذاب

ثم قال

ولكن هيهات ان يفوز بنفسه

ومع كل ذلك لم يخالف رفيقه بل تقدم معهُ نحو الغاب واقـام وإياه تحت الاشجار الغضة يرقبان حركات الهنود النيـام

اما باسبارتو فانهُ جاس على احدى الاشجار واخذ يتأمل فكرًا طرأ عليه وهو الوثوب على زمر الهنود وانقاذ الفتاة من بين ايديهم ثم زحف بعدُ هنيهة كالافعى على غصون تلك الشجرة المائلة الى الارض وتربص

وكان الظلام لم يزل حائدًا الا انه بدت في كبد السماء علائم اقبال الصباح فقام النيام وضربوا الصنوج والطبول اشارة الى دنو اجل الضحية واحراق تلك الفتاة المنكودة الحظ وحينئذٍ فتحت ابواب الهيكل ولاح من داخله نور ساطع تمكن السير كرومارتي والمستر فوج بواسطته من رؤية تلك الفتاة التي كان يجرهـا كاهنان الى خارج الهيكل وهي تحاول البقاء فيه فرق لها قلبهما وندبا حظهـا وحارا في اي الوسائل يتخذانها لانقاذها

وعند ما اخرجها الكاهنان طافا بها في وسط الجموع فعاودها الخمول ثانية واستحوذ عليها الخمود من تصاعد دخان القنب في انفها وهي تخترق صفوف الفقهاء الذين كانوا يقابلونها بالبشر والايناس والضجيج والانغام فاندمج في اخر الصفوف اللاحقة بها المستر فوج ورفيقاه وبعد مسير دقيقتين وصلوا الى شاطئ الجدول فوقفوا على بعد خمسين خطوة من كومة الحطب التي كانت جثة الشيخ المتوفى ملقـاة عليها وهناك ظهر لهم جسد الضحية ممدودا بالقرب من جثة زوجها وبجانبهما مشعل يضيء وقوم يصبون الزيت على الاحطاب ويشعلونها فلما شاهد فيلاس فوج هذا المنظر المحزن هاج فيه ما كان ساكنًا من الحمية فاراد ان يقتحم كومة الحطب فاوقفه السائق والسير كرومارتي وبينما كان يحاول التملص من بين ايديهما اذ سمع صوت مرعب مخيف من فوق كومة الحطب خفقت له القلوب جزعًا وارتعدت منه المفاصل خوفًا فظن الحضور ان الشيخ لم يكن مائتًا وان فيه رمقًا من الحيوة ثم احدقوا بالحطب فرأوا الشيخ يدنو من

امرأته وينهضها بذراعيه وينزل بها من على الاحطاب بين الدخان المتصاعد فسقط كلاهما على الارض مرتجفين فلما نظرهما الفقهاء والخفراء اكبوا على وجوههم يعضون الارض ولا يجسرون ان يرفعوا ابصارهم لمشاهدة الاعجوبة

وما زال الشيخ سائرًا والفتاة بين ذراعيه يخترق صفوف الجموع حتى بلغ مكان فيلاس فوج والسير كرومارتي اللذين لبثا على الاقدام والسائق منحنيًا بالقرب منهما فقال لهما بصوت منخفض اتبعاني

ومن هو رجل الاعجوبة . هو البطل باسبارتو الذي انتشل تلك الفتاة من مخالب المنون بشجاعته وبسالته وشق الجموع سائرًا بالفتاة غير مبال بامتداد اللهيب او تكاثف الدخان وهو الذي اقترب من مولاه وممن معه وقال لهم بذلك الصوت المنخفض ان اتبعاني فتبعاه وراءها السائق وساروا جميعًا يحمدون الله على تحقق امنيتهم الى ان استووا على ظهر الفيل واطلقوا له العنان فسار

وبعد برهة من وقوع ذلك الحادث تنبه الكهنة من غفلتهم ونظروا الى الاحطاب فرأوا فوقها جثة الشيخ فانجلى لهم سر الامر ولكن بعد حين فضجوا بالصراخ وتوغلوا بالصحارى يبحثون عن السلبة ويرمونهم على غير هدى بقسيهم ونبالهم ويطلقون عليهم الرصاص فاصيب فوج برصاصة في قبعته ولكنها لم تضر به .
واستمر فوج ورفقاؤه سائرين سير الاطيار حتى تجاوزوا كثيرًا مرامي الرصاص

الفصل الرابع عشر

في ان فيلاس فوج عبر وادي كانج العجيب ولم يكن يأمل بمشاهدته

وبعد ان افلح المسعى ونجح العمل على نحو ما تقدم الكلام عليه قضى باسبارتو ساعة في القهقهة كان يشتد ضحكه فيها كلما تذكر الحيلة التي اخترعها والخدعة التي انطلت على اولئك الهنود فاحلوه محل شيخهم المحنط زوج الفتاة التي فازت بالنجاة وقد شكر له السير كرومارتي اقدامه ونشاطه واثنى مولاه المستر فيلاس على بسالته وشجاعته فاجاب ان الفضل في

ذلك راجع الى مولاه دون سواه فهو الذي كان باعثاً على انقاذها من مخالب الموت الزؤآم

ومرَّ على الفتاة ساعات طوال من غير ان تفيق من سنة الرقاد لترى ما مر عليها وما آلت حالها اليه ولكي تستفيق جرَّعها السائق اثناء الطريق كؤوس الرحيق ممزوجةً بالماء ولكنها لم تستفق بل لبثت غائبة عن الصواب واهنة القوى لا حراك بها فما انزعجت عليها الخواطر لان ذلك كان شأن من سكر بنقيع القنب

وبناء على ذلك لم يقلق السير كرومارتي لغيابها عن الرشد بل اهتم بافهام المستر فيلاس انها اذا بقيت في ارض الهند تعود الى الوقوع في شرك الاخطار فتقتل فوعى المستر فوج كلامه ثم قال له انه سيستصحب السيدة عائدة في اسفاره

وفي الساعة العاشرة وصلوا الى محطة الله اباد التي يمتد منها الفرع الحديدي الى مدينة كلكوتا ويقضي القطار في ذهابه اليها مسافة يوم وليلة وكان من الواجب على المستر فوج ان يقدم اليها في ٢٥ اوكطوبر عند الظهر ليركب منها الباخرة التي تسافر الى كون كون

وفي محطة الله اباد اعد للفتاة حجرة لتستريح فيها وكلف باسبارتو بالذهاب الى البلدة ليبتاع لها من الملابس ما هي في حاجة اليه

اما مدينة الله اباد (اعنى مدينة الله) فهي من مدن الهند المقدسة لانها مبنية عند نهرين مقدسين وهما نهر الكانج ونهر جومنه اللذان يقصدهما الناس من جميع جهات الهند . وقال راما ان نهر الكانج منبعه الفردوس وهو يجري على الارض رحمةً بالعباد وحبًا بالولي براهم

ودخل باسبارتو سوق البلدة لشراء ما كلف بشرائه فطاف شوارعها مفتشاً على مخازن الملبوسات فلم يجد فيها سوى دكان واحد لاحد الاسرائيليين فيه بعض المنسوجات فاشترى للفتاة منها ثوباً وبرنساً طويلاً وفروة من جلد الثعلب بمبلغ خمس وسبعين ليرة انكليزية وعاد الى المحطة وكانت صروف الحدثان قد اخنت على هذه المدينة الزاهرة فعطلت تجارتها ودرست صناعتها ودكت حصونها

وهدمت أسوارها

وبعد أن مضى بعض ساعات على عائدة افاقت من غشوتها وعادت الى رشدها فاجالت لحظيها فيمن حولها ترشق به الافئدة فجرّح وبرّح ولم يبق للبرء من مطرح

بين اهل الهوى واهل الجمال
كل يوم دمٌ بغير قتال

وكانت بذلك على حد قول الشاعر

من حسنها ان ليس يوصف حسنها
وجمالها ان لا يحد جمالها
في آية الحسن التي قد اعجزت
وصافها من حيث عزّ مثالها
ترنو بمقلة جؤذر نبالة
وا رحمتاهُ لمن تصيب نبالها
وتهزُّ من تحت الغلائل قامةً
من غير شك قاتل عذالها
ومن استجار بعطفها من طرفها
ابقى له شرك الغرام دلالها
فاذا رنت واذا انثنت واذا دنت
فتنت فما من حيلة تحتالها

قال فرن : وهي احق من الملكة الحميحنا جاره بوصف الشاعر ايكاف .

وكان شعرها اللامع الاسود مسترسلاً على كتفيها وجبينها يفوق الثلج بياضًا والبدر بهاءً وضياءً ويقطف الورد من وجنتيها المستديرتين وتنعكس من اضواء البدور اشعة ساطعة على انسان عينيها البارزتين من تحت هدبيها الطويلين ولها اسنان كالبرد يفتر عنها ثغرها البسام واذنان صغيرتان بيضاوان كانهما خلقتا من طينة الملائكة . وفي رجليها الطواق من افخر جواهر جزيرة سيلان واثمن لآلئ جولكند ولها خصر نحيل وقامة هيفاء وعلى وجهها خمار من الحرير الهندي كانهُ منضد بالفضة منقوش بيد النقاش ((الالهي)) المدعو فيكفا كارمد

وحدث ما استطعت عن حسن السيدة عائدة وجمالها وتهذيبها وآدابها وكانت متقنة درس اللغة الانكليزية كل الاتقان وتتكلم فيها بافصح واوضح بيان

وقبل ان قام القطار من محطة الله اباد نقد فيلاس فوج السائق اجرتهُ على مقتضى ما بينهما من الاتفاق ثم وهبه الفيل جزاء خدمته الصادقة واخلاصه التام فشكر السائق وحمد ما استطاع

الى الشكر والحمد سبيلاً وبعد ذلك ركب فيلاس فوج ورفيقاه احدى مركبات القطار واجلسوا السيدة عائدة في المحل الاول وجلسوا هم بالقرب منها مقدمين لها الاشربة المنبهة واستمروا كذلك حتى افاقت من سكرتها فوجدت نفسها على عربة يجرها البخار اسوة باقي عربات القطار المتوجه الى مدينة بينارس التي تبعد عن محطة الله اباد مسافة ثمانين ميلاً يقطعها القطار في مدة ساعتين فاستولى على الفتاة عند ذلك الاندهاش واحمرت خجلاً اذ رأت حولها اشخاصاً من الفرنجة ما رأتهم قط يعتنون بها ويمهدون لها اسباب الراحة والصفاء وفي اثناء المسير قص السير كرومارتي عليها ما كان من امرها واعلمها بمن كان سبب خلاصها ونجاتها

فلما فرغ السير كرومارتي من كلامه ألتفتت عائدة نحو منقذها والدمع ملء عينيها ولم تنطق ببنت شفة تاركة للدمع أن يعرب عن عواطفها وينوب عنها بتقديم الشكر على النعمة والامتنان من الغيرة . ثم اخذت تتذكر المصاب الذي كاد يفتك بها فارتعدت فرائصها وحمدت الله على خلاصها وانما ازعجها ما كان لم يزل محدقًا بها من الخطر ببقائها في ارض الهند فرأى المستر فوج على جبينها الوضاح علائم الارتباك فعلم بما كان موضوع افكارها فقال لها

يا سيدتي اننا سائرون الى كون كون حيث تكونين في مأمن من الخطر لا يدركك السلبة الاشقياء ولا يظفرون منك بمغنم فانجلت عن جبين الفتاة اذ ذاك غموم الغم والاضطراب وزال عنها الوجل اذ علمت انها ذاهبة الى كون كون . المدينة الانكليزية التي يقطنها احد اقربائها ممن يجرون ذيول الوجاهة ومطارف الثروة ويتمتعون بنعيم التجارة الواسعة

وعند الظهر وقف القطار في محطة بينارس التي تبعد بضعة اميال عن كون كون والتي يعسكر فيها الجيش الانكليزي الكائن بامرة السير كرومارتي فدنا السير كرومارتي من رفيقه فودعهما ثم ودع السيدة عائدة وانصرف عنهم جميعًا وفي قلبه نغصة الفراق

وبعد ذلك سار بهم القطار في وادي الكانج فشاهدوا من وراء زجاج

النوافذ مناظر تدهش الابصار وتحير الافكار اذ رأوا جبالاً تنطح السماك بقممها الشامخة يكسوها الربيع بساطاً سندسياً وحقولاً مزروعة من الحنطة والشعير والادره وبحيرات تسبح فيها التماسيح وقرى تأهل سكاناً وصحارى تنبت الخضار وهجناً وافيالاً ورجالاً ونساء وولداناً قاصدين الاستحمام في تلك المياه المقدسة عندهم . وكان الفصل يومئذٍ فصل الشتاء فكان البرد قارساً والمستحمون لا يبالون به

ويقطن هذا الوادي طائفة شديدة الكراهة والاضطهاد لمذهب البوذيين تعبد الاله ((براهم)) (المتجسد في ثلثة اقانيم) ((وياشتو)) اله الشمس والكواكب و ((صيفه)) اله اليأس والبطش اما براهم فهو اله الكهنوت والشريعة . وجميعهم يخدمون غضباً ويستشيطون غيظاً ويتمزقون كدراً عندما يرون الهند انكليزية ويرون في مياه الكنج سفناً بخارية يجفل من دويها الذباب الحائم على وجه الماء وتهرب السلاحف الزاحفة على ضفتيه ويرتجف النساك المنتشرون على شاطئيه

ومن سرعة مسير القطار في قلب ذلك الوادي لم يتمكن المسافرون من احداق البصر فيما مرَّ بانظر من المناظر التي تقر بها النواظر وتسر الخواطر كمدينة شينار الكائنة في جنوبي مدينة بينارس على بعد عشرين ميلاً منها وكمدينة غازيبور المحتوية على عدة معامل لاستخراج ماء الورد وكضريح اللورد كور واليس الكائن على الضفة الشمالية من نهر الكنج وكمدينة باتنه الزاهرة النابغة في التجارة والصناعة والرائج فيها سوق الافيون وكمدينة مونغير التي تضاهي مدينة ليفربول في المعامل الحديدية المنشأة لصب الحديد والسلاح الابيض

وما برح القطار سائراً حتى هجم جيش الليل فرفع فوق الارض راية الظلام وحجبها عن العيون فصارت لا ترى شيئاً موجودا ومرَّ الليل على هذه الحالة وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي الواقع في ٢٥ اوكتوبر بلغ القطار محطة كالكوتا فاستراح فيها المستر فوج منتظراً حلول الظهر ليركب الباخرة المسافرة الى كون كون وكان قد مر عليه من يوم

خروجه من لوندره حتى وصوله الى كلكوتا ثلثة وعشرون يوماً وعلى مقتضى تعديله لاوقات رحلته يكون قد وصل الى كلكوتا في الميعاد الذي يجب ان يصل فيه اليها بدون تقديم او تأخير

الفصل الخامس عشر

في ان المستر فيلاس فوج بذل مبلغاً وافراً من النقود في سبيل حريته

ولما وقف القطار في المحطة نزل منهُ باسبارتو ثم تبعهُ المستر فوج قائداً بيده السيدة عائدة الى الرصيف وهناك عزم ان يذهب بها تواً الى الباخرة حيث تستريح من عناء السفر في احدى غرفها وقد آلى على نفسه ان يرافقها ولا يفارقها قط ما دامت في ارض الهنود محفوفة بخطر الموت وقبل ان يسير رأى امامهُ احد الجند واقفاً فقال لهُ

— أحضرتك المستر فيلاس فوج وهذا خادمك باسبارتو

— نعم

— اتبعاني

— أمباح لنا ان نصحب هذه الفتاة معنا

— نعم

ثم سار الجندي وتبعه المستر فوج والسيدة عائدة وباسبارتو الى ان وصل بهم الى مركبة يجرها فرسان من جياد الخيل فركبوها جميعاً وسارت بهم في طرقٍ حرجة المسالك ملأى باكواخ تأهل من القوم الرحل سكاناً مترديين بثياب رثة واستمرت سائرة الى ان مرّت بمدينة اوربية ذات بنايات شاهقة مبنية من الآجر الاحمر تتفيأ ظلال اشجار من شجر جوز الهند فوقفت بهم امام قصرٍ عظيم وهناك نزل الجندي وانزل المسافرين من المركبة وسجنهم في احدى غرف القصر وامرهم ان يلبثوا فيها حتى الساعة الثامنة ونصف حيث يساقون امام قاضي او باديه ليسمعوا الحكم الصادر عليهم

فجلس باسبارتو على مقعدٍ في السجن يندب سوء حظه والتفتت السيدة عائدة باعين اغرورقت بالدموع الى المستر فوج وخاطبتهُ بصوت خنقه البكاء قائلة لهُ

— لا كنت ولا كانت نجاتي فانا

السبب في شقائك وسجنك وهمك وحزنك
ولكن لا تندمن يا مولاي على ما فعلته
معي من الجميل فجزاؤك عند ربي واطلب
اليك ان لا تتخلى عني لئلا يسوء مصيري
وافقد الحيوة لا محالة

فاجابها المستر فوج

اني لا اتخلى عنكِ مهما حماني امركِ
من المشاق والمتاعب وكبدني من النفقات
حتى تصلي الى كون كون

فقال باسبارتو

ان الباخرة تسافر من هنا عند الظهر

فقال فوج

وسنكون عليها قبل الظهر

وفي الساعة الثامنة ونصف سيقوا
الى القاضي ومثلوا بين يديه

وبعد انعقاد الجلسة نهض كاتب
القيودات واستدعى بالمستر فوج وباسبارتو
فاجاباه الى الدعوة ثم دخل صاحب
المحكمة بثلاثة كهنة من الهنود واوقفهم في
بهرة المجلس فلما رآهم باسبارتو قال لرفيقه
(هولاء هم الابالسة الذين ارادوا ان يحرقوا
الفتاة عائدة)

ثم قراء الكاتب علنًا نص الشكوى
المرفوعة من الكهنة على فيلاس فوج
وخادمه باسبارتو لخرقهما حرمة الاديان
وبعد ان فرغ من قراءتها اجاب فوج
وهو ينظر الى الساعة وقال

— هذا صحيح واقرّ بحدوثه ولكن اكلف
الكهنة بان يحيطوا المحكمة علمًا بما كان
في عزمهم ان يرتكبوه في هيكل بيلاجي

— وقال باسبارتو

شهد الله انهم لولانا لكانوا قتلوا نفسًا
حرم الله قتلها واماتوها اشنع ميتة فوق
كومةٍ من الاحطاب يوقدونها فتحترق

فتعجب الكهنة من سماع هذه التهمات
التي وجهت عليهم وما فتهوا مغزاها ولا
ادركوا معناها

فسأل القاضي باسبارتو بقوله

—وهل كان ذلك في مدينة بومباي
فتلجلج في الجواب ولم ينطق بكلمة فقال
كاتب الجلسة

— وتثبيتًا لما ادعى به الكهنة من تجروئه
على ما فعل ها حذاوه الذي تركه
في المعبد

قال هذا ووضع الحذاء على مائدة
كانت امامه

فلما رأى باسبارتو ذلك تذكر ما كان ناسيًا وحاق به قلق شديد لم يستطع اخفاءهُ فانهُ علم ان موضوع الشكوى هو دخوله الى هيكل الصنم ماليبارهيل في مدينة بومباي وليس محاولته خرق جدران هيكل جيلاجي

مرَّ بنا الكلام على ان البصاص فيكس قد سمع باسبارتو في محطة بومباي يقص على مولاه ما وقع لهُ مع كهنة هيكل ماليبارهيل فعمل على دس الضغينة في افئدة الكهنة وحثهم على اقامة الدعوى امام الحكومة فاتحًا لهم باب الطمع في نيل قدر وافر من الذهب ارضاءً لهم فبعثوا برسائل برقية الى حاكم كلكوتا ليلقي القبض على فيلاس فوج وخادمه لجناية ارتكبوها فجعلت الحكومة تبحث عنهما حتى وصلا الى مدينة كلكوتا وكان الكهنة قد وصلوا اليها قبلهما لكونهما اضاعا زمنًا في سبيل انقاذ الفتاة عائدة ولم يكن لفيكس من مأرب في ذلك الا اعاقة فيلاس عن السفر مدة حتى يصلهُ امر القاء القبض عليه من ادارة عموم البوليس في لوندرة وسأل القاضي باسبارتو عما يقول فلم يسعه غير الاقرار فحينئذٍ صدر الحكم وقراءهُ القاضي فاذا هو بنصهِ هكذا

(بما ان حكومة جلالة الملكة تشمل بحمايتها)
(جميع الهنود وندافع عن اديانهم على)
(السواء وبما ان باسبارتو قد اقر بالجريمة)
(التي ارتكبها بدخولهِ الى معبد الصنم)
(ماليبارهيل الكائن في مدينة بومباي)
(في اليوم الواقع في ٢٠ اوكتوبر قد)
(حكمنا على باسبارتو بالسجن خمسة عشر)
(يومًا واداء غرامة قدرها ٣٠٠ ليره انكليزية)
(وبما ان الموالي يسألون عما يفعل)
(خدمتهم فقد اعتبر المستر فوج ايضًا)
(مجرمًا ولذلك قد حكمنا عليه بالسجن)
(مدة ثمانية ايام وبدفع غرامة قدرها ١٥٠)
(ليره انكليزية)

وبعد تلاوة هذا الحكم طابت نفوس وانقبضت نفوس فاهتز فيكس طربًا وطفح فوادهُ سرورًا لصدور الحكم على المستر فوج بالسجن ثمانية ايام في مدينة كلكوتا بحيث يتيسر لهُ في خلالها تلقي الاوامر من لندره بالقبض عليهِ اما باسبارتو فانهُ وقف في موقف الحزن والكمد يندب سوء حظهِ ويتنفس الصعداء وما همهُ سوى

الحكم على مولاه وزجه في السجن مدة ثمانية ايام من غير ان يأتي منكرًا او يقترف ذنبًا

واما فيلاس فوج فما ثار لهُ جاش ولا اختلج في صدره غيظ كأن لم يحكم عليه ولم يكن لهُ دخلٌ في الامر ولما عمد الكاتب الى اعلان قضية اخرى لاستماعها طلب المستر فوج الى القاضي الافراج عنهُ بالضمانة فطلب منهُ القاضي دفع مبلغ قدره الف ليره فقبل فوج ودفع القدر المطلوب من السفاتج التي تحويها جعبته وخرج موعزًا الخادمه ان يتبعهُ فعند ذلك التفت باسبارتو الى القضاة وسألهم بغضب ان يرجعوا اليه حذاءهُ فردوه اليه ثم تبع مولاه الذي كان يخطر كالغيد ممسكًا بساعد الفتاة عائدة غير مبال بما فقده من المال وكان فيكس يتأثرهم الى ان ركبوا عربة سارت بهم الى رصيف البحر حيث ركبوا صندلاً اوصلهم الى ظهر الباخرة رانغون التي كانت على اهبة السفر الى كون كون . ولما تحقق فيكس سفرهم ضرب صدغه بيديه وخبط الارض برجليه واطلق للسانهِ العنان شتمًا وتجديفًا وسخط على المستر فوج وعلى الارض التي تقله والسماء التي تظله والطعام الذي يغذيه والماء الذي يرويه ثم هام في اودية التأمل قصد الاهتداء الى وسيلة يوقف بها المستر فوج الذي لا يأسف على فقد الدرهم ولا يخشى في بذله لومًا فانهُ انفق منذ قيامه من لوندره حتى وصوله الى كلكوتا ما ينيف على خمسة آلاف ليرة بين جزاء يؤديه وفيل باغلى الاثمان يشتريه وغرامة يدفعها وضمانة ينقدها مما جاء مضرًا بمصلحة البصاص فيكس الذي اذا قبض على فوج وكان هو اللص نال خمسةً في المائة من الاموال التي تضبط منهُ وذلك ما عدا المكافأة التي وعد بها فكان لذلك يأسف على الاموال التي كان ينفقها

الفصل السادس عشر

كيف ان فيكس تجاهل تمامًا ما كان يسأل عنهُ

لم تتوفر اسباب الراحة للسيدة عائدة في الباخرة رانجون التي يبلغ محمولها الف وسبعمائة وسبعين طنًا وقوتها اربعمائة

حصان وتصارع الباخرة مونجوليه في سرعة المسير لا في تمام الاتقان والانتظام وهي من بواخر شركة الوابورات الشرقية المتخذة خطة مسيرها بين الصين واليابان وتسير مدة اثني عشر يوماً تقطع في خلالها مسافة ثلثة الاف وخمسمائة ميل وهي المسافة الكائنة فيما بين كلكوتا وكون كون

وقد قضت السيدة عائدة الايام الاوائل من سفر الباخرة في قص الاحاديث على المستر فوج بما كان يذهب عنهُ الشجن ويزيل عن قلبه الحزن معربة له من آن الى آن عن مزيد امتنانها من اهتمامه بانقاذها واعتنائه بها فانشرح بلطف كلامها صدراً وقرّ بمحاسنها الفتانة عيناً

وقد كشفت له النقاب في خلال الحديث عن حسبها ونسبها وذكرت له لمعاً من تاريخ اعاظم رجال عائلتها واقربائها الذين نالوا نياشين الشرف من جلالة امبراطورة الهند وجمعوا الاموال من اتجارهم بالاقطان واحاطته علماً باسم التاجر الشهير السير جامس جيجيهوري المقيم في مدينة بومباي ابن عم المكرم جيجي احد اغنياء كون كون واعظمهم اقتداراً رهو من عائلتها الشريفة حديثها كونها على ريب من لقاء الرعاية في نزولها عليه في كون دور

وكان فيلاس فوج كله آذاناً مصغية الى حديثها وهي تبدي من الدلال على غير عمدٍ ما كاد يجعلهُ بها صباً مستهاماً ولو لم يكن كما عرفناه من حيث التأثر والانفعال لا فتان بها واشتدت غيرته عليها ولكنه لم يأ لف الهوى ولم يذق طعم الصبابة فتحول لذلك عن الافتتان بجمال هذه الغادة الحسناء الى الاعتناء بامرها وبملازمتها على قدر الامكان لئلا يدركها الملل من العزلة وقد اقتصر على ان يظهر لها الملاطفة والمؤانسة من ضمن دائرة الادب والاحتشام

وكان باسبارتو قد اعلم السيدة عائدة باخلاق المستر فوج وبما هو عليه من غرابة الطباع وبأمر طوافه حول الارض في ثمانين يوماً

وما زالت الباخرة تشق العباب والريح طوعها حتى اشرفت على جزيرة اندامان التي تنطح السحاب بجبالها العالية وتتخللها فلوات واسعة شاسعة يظللها

شجر النخل والخيزران وجوز الطيب وغير ذلك من الاشجار الغضة التي تحجب الامصار عن الابصار . ووراء هذه الفلوات سلسلة جبال عديدة يأوي منحدرها طير السنونة الذي يطبخ من لحومه الذ الماكولات في مملكة ابن السماء

وباسرع من لمح البصر اجتازت السفينة هذه الجزيرة ودخلت في بوغاز ((مالاغا)) المتصل ببحر الصين

وعند ما تحقق البصاص فيكس مبارحة المستر فيلاس فوج لمدينة كلكوتا امسى مصعوقاً بصعقات الخيبة فتوجه الى ادارة الضابطة واعلمها بعزمه على الذهاب الى مدينة كون كون وطلب منها ان ترسل اليه ما عساه ان يرد اليه من لندره متعلقاً بوجوب القبض على المستر فوج ثم عاد الى المينا وركب صندلاً فاوصله الى الباخرة رانجون وهو في حال من القلق والاضطراب لا يعلم شدتها الا الله وقد اخذ يتنازعه عاملان : هما بذل المستر فوج للدينار بمقاساته مشاق الاسفار والخوف من فرار المستر فوج من بين يديه اذا تاخرت ادارة البوليس في لوندره عن ارسال الامر القاضي بالقبض عليه ولا سيما اذا بلغ كون كون ولم يتلقَّ الامر المنتظر فان هذه المدينة هي آخر حدود مملكة انكلاتره في الهند فاذا تجاوزها ودخل فوج ارض الصين او اليابان او امركا تعذر عليه القاء القبض عليه بسهولة فان شرائع هذه البلاد تقضي باطلاق الحرية لكل ملتجيء اليها من مرتكبي الذنوب في غيرها الى ان تصدر عليه الاحكام بما يستأهله من العقاب وبهذه الطريقة يتمكن اللص من التخلص والفرار وتكون اتعاب البصاص ونفقاته قد ذهبت ادراج الرياح

ومرَّ على فيكس ساعات طوال قضاها في حجرته بالباخرة متقلباً بين اليأس والرجاء تائهاً في قفار الافكار والتصورات واستمر كذلك الى ان حكم بانهُ اما ان يتمكن من القبض على المستر فوج في كون كون واما لا فاذا تم له الامر الاول يكون قد بلغ اربهُ ومشتهاه ونال الشرف والافتخار والاَّ فيكون مسعاه قد اخفق ولحق به العار والشنار فلا يتجاوز تلك المدينة في اقتفاء أثر اللص

وكان في عزمه ان يكاشف باسبارتو

بما خطر له الا انهُ خاف سوء العقبى فامتنع
وشغل عن الاستسلام للتاملات بالتعجب
والانذهال عند مشاهدته بجانب المستر
فوج فتاة حسناء تميس بحلة البهاء وتجاذبه
اطراف الحديث فظن انها خليلته وانهما
واعدته بعد افتضاح امرها على الاجتماع في
ارض الهند حيث يكونان بمعزل عن
العاذل والرقيب واية شجرة ما هزَّها الهواء

ايُّ غصنٍ ما حركته رياحٌ
ايُّ قلبٍ لم ترمه عينان

وحاول البصاص فيكس معرفة من
تكون هذه الغادة الحسناء واين ومتى
التقت بالمستر فوج حتى اذا ما دلته قرائن
الاحوال على كونها خليلة له مقيدة ببعل
سواه واغتالتها يداه من حجر زوجها
افتتانًا بحسنها وجمالها وشى عليه ودس
الدسائس واستلفت اليه انظار الحكومة
فتقبض عليه لتتحرى امره ويكون بهذه
الوسيلة قد القى في طريقه عثرات اوقفت
اطراد مسيره الى ان يرد اليه من لوندره
امر القبض عليه

وكان البصاص فيكس شديد الرغبة
في الوقوف على حقيقة الامر ضنًا بالوقت
ان يذهب على غير طائل حتى اذا رست
الباخرة في مياه سنجابور في اليوم التالي اي
اول نوفمبر رفع الامر الى حكومة كون كون
بسلك الاشارة البرقية وكلفها بالقبض على
المستر فيلاس وزجه في السجن لارتكابه
جريمة السبي وانتهاك الاعراض باغتيال
فتاة يسوقها امامه على غير ارادتها ويسومها
الخسف والعار

وعزم فيكس ان يجتمع بباسبارتو
ويطارحه الحديث ليستطلع منه طلع الحالة
وقوفًا على خبر الفتاة واصطحاب المستر
فوج لها فخرج من حجرته وصعد الى ظهر
الباخرة فالتقى بباسبارتو الذي لما حانت
منهُ التفاتة اليه اقبل عليه وحياه تحية
المشتاق بعد طول الفراق وقال لهُ

ــ ما لي اراك على ظهر الباخرة العلك
تطوف مثلنا حول الارض في ثمانين يومًا

فاجاب فيكس

ــ لا وانما قضت عليَّ بعض البواعث
بالذهاب الى مدينة كون كون لاصرف
فيها بضعة ايام في قضاء بعض الحاجات

ــ وكيف حرمتني من انسك والطافك
في المدة التي مرَّت بنا من حين

خروج الباخره من مرفأ كلكوتا

ـ لأن الم البحر الم بي فكدر صفاء عيشي والقاني على فراش العناء انقلب بين اليأس والرجاء بسبب انحراف صحتي ولكن قل لي كيف حال مولاك

ـ في غاية ما يرام من العافية والنجاح في طوافه حول الارض في ثمانين يومًا ويا ليتك تعلم من نصطحب معنا

ـ من من

ـ غادة حسناء تزري بالشمس بهاء وبالبدر جمالاً وبالغصن اعتدالاً

ـ غادة غادة . . . فتاة . . فتاة . . . و . . .

ـ اجل

ثم قص عليه ما توقع لهُ في هيكل صنم بومباي واخبره بما قضي به عليه وعلى مولاهُ في مجلس كالكوتا وبسط لهُ كيفية شراء الفيل وانقاذ الفتاة عائدة من الحريق فكان فيكس يسمع الكلام بتعجب واستغراب كأنه ليس على علم ببعضه وبعد فراغ باسبارتو من كلامه قال له فيكس

ـ هل في عزم مولاك ان يستصحب هذه الفتاة الى اوربا

ـ لا ولكنه سيسلمها لاحد اقربائهـا في كون كون

فتكدَّر فيكس عند سماعه هذا الجواب وصرف باسنانه ثم دعا باسبارتو لتناول كأس مدام فقبل الدعوة وشرب الكأس على سر تلاقيهما في الباخرة رانجون

الفصل السابع عشر

في ضروب مختلفة من الكلام

ومرَّت ايام السفر من كلكوتا الى كون كون وباسبارتو يلتقي في خلالها بالبصاص فيكس على ظهر الباخرة فيصرفان الوقت في الحديث غير انَّ فيكس كان يتحاشى في حديثه التطويل والاسهاب لئلا يأتي غير مختار بما يشف عن ذات الصدور

اما باسبارتو فكان يتأمل البواعث التي قضت على فيكس باتباع هذه الخطة من السير وراء فيلاس فوج وبما انه من طبع كل انسان ان يتأمل الاسباب ويأولها خطر لباسبارتو ان فيكس انمـا هو مكلف من قبل اعضاء الكلوب في لوندره باقتفاء اثر فيلاس فوج في

رحلته ليأتيهم بالنبإ الصحيح القاطع لقول كل خبير بكيفية اتمام الرحلة

وقد ساء باسبارتو لدى هذا التامل عدم ثقة رجال الكلوب بمولاه حتى انهم الحقوا به جاسوساً سرياً يرقب سيره ولكنه ارتأى ان يكتم الامر لئلا يثير في مولاه عامل الغضب

وما حلت الساعة الرابعة من صباح يوم الخميس الواقع في اول نوفمبر حتى اجتازت الباخرة رانجون بوغاز مالاغا ورست في مياه سنجابور لتذخر الشحم والفحم والمآكل والمشرب . وكان رسوها قبل ميعاد وصولها القانوني بست ساعات رقمها المستر فوج في حقل الارباح من دفتر رحلته ونزل الى البر مستصحباً السيدة عائدة وريثما استوت قدماه على الارض استأجر عربةً يجرها فرسان من خيول هولانده فركبها مع السيدة عائدة والبصاص فيكس يرقبهما عن بعدٍ فسارت بهما في جزيرة سنجابور بين الحدائق والرياض والبساتين والغياض التي تجلو عن الفواد صداء الكمد حتى مرّت بهما تحت ظلال اشجار من النخل والقرنفل والفلفل والخيزران وجوز الطيب التي يتفياء ظلالها مئات من القرود والنمورة والفهود التي تاتي تلك المرابض من جهات مالاغا بطريق البوغاز عائمة على وجه الماء

وبعد ان قضى المستر فوج والسيدة عائدة مدة ساعتين في جوب الغيطان يستنشقان النسيم عادا الى المدينة ذات البنايات الشاهقة والقصور الجميلة التي تكتنفها الحدائق من كل ناحية وصوب بما يسرّ الخواطر ويقر النواظر

وكان باسبارتو قد خرج من الباخرة الى المدينة سنجابور وبعد ان جال في اسواق المدينة عاد الى ارصفة البحر ينتظر اياب مولاه ولما ان وفد عليه مصحوبًا بالسيدة عائده دنا من الفتاة وقدم لها فاكهةً كان قد ابتاعها من السوق ثمرًا يشبه التفاح حمرة ورائحةً فتناولتهُ من يديه واثنت عليه وركبوا جميعًا صندلاً واحداً اوصلهم الى الباخرة التي اتوها غاصةً بالركاب المختلفي الاجناس من هنود وسيلانيين وصينيين ومالبين وبورتوغاليين وقد اقلعت بهم بعد الساعة الحادية عشرة قاصدة جهة هونكون التي تبعد عن سنجابور مسافة

الف وثلثماية ميل وفي بادئ سيرها كان الجو صافياً والهواء معتدلاً ولكنها لم تقطع بعض اميال حتى ثارت الرياح وازبد البحر وتلاطمت الامواج وهبت العواصف من الجهة الجنوبية الشرقية فهدت للسفينة سبيل السير السريع لا سيما بعد ان نشر الربان شراعها

ولم يكن من متمنى المستر فيلاس فوج سوى ان تتمكن السفينة من الوصول الى كون كون في مسافة ستة ايام حتى يتسنى له السفر على الباخرة التي تسافر في ٦ نوفمبر الى يوكوهاما (احد مرافئ اليابان المهمة)

واشتدت ثورة الانواء على السفينة وهي تشق العباب حتى كادت الامواج المتلاطمة تبتلعها فانها كانت ترفعها تارة الى ما يوازي ارتفاع الجبال الشامخة وتخفضها طوراً الى اعماق اودية اليم حتى انخلعت قلوب الركاب واضاعوا الرشد والصواب فاستلقوا على ظهورهم من الهلع والخوف وشدة الاهتزاز

وهنا محالٌ للقول ان في بناء بواخر الشركة الشرقية [1] وغيرها من بواخر شركة جولجونده وكوريه نقصاً واخلالاً من حيث تجويفها واتساع دائرتها فانها لا تكاد تحمل سدس ثقلها حتى تغوص في الماء بخلاف السفن الفرنسوية من سفن شركة الميساجيري والامبراطورة والكامبادج فانها تحمل بقدر ثقلها من المياه ولا تغوص

ولا تسل عن باسبارتو فانهُ كان يحتدم غيظاً على مهندسي السفينة ويسلقهم بلسان حادٍّ ويرمي عمالها باسهم التعنيف والتقريف ويشتم شركة البواخر ويدعو بالقطع على الايدي التي انشأتها والبحر الذي اقلها

وربما كان غيظ باسبارتو ناشئاً عن تذكره لمصباح الغاز الذي تركه موقداً في حجرته بشارع سافيل في لوندره فشط عن الرشد لعلمه بانهُ لا يزال موقداً على نفقتهِ ومل من طول السفر

وبينما كان ذات يوم على هذه الحالة من الضجر والقلق سألهُ البصاص فيكس

(١) التي تمخر مياه الصين

عن سبب كدره فأجابهُ

ـ انى سئمت من طول السفر

ـ هل في عزم المسترفوج ان يذهب من كون كون الى يوكوهاما على اول باخرة

ـ لا محالة

ـ هل انطلت عليك خديعتهُ في هذه الرحلة الغريبة

ـ وعليك

ـ معاذ الله

ـ بالخداع . فعليك اذن ان تستمر مرافقاً لنا في هذه الرحلة حتى تفرق الغث من السمين وتميز بين الشك واليقين

ـ اني عازم على ذلك اذا سمحت لي الظروف ومكنتني الاحوال

ـ اظن انها تسمح لك بمبارحة كون كون كما سمحت لك بالسفر من بومباي والخروج من كلكوتا ولكن قل لي ماهو الربح الذي تربحه من هذه الحرفة

ـ تارة يكون كثيراً وطوراً يكون قليلاً حسب الظروف ولكن لست في هذه المرة مسافراً على نفقتي الخصوصية

ـ اني عالم بذلك جيداً

قال هذا وضحك حتى استلقى على قفاه

فتبين البصاص فيكس من ذلك ان الشاب الفرنسوي اطلع على امره ووقف على خبره فراعه اتصال الامر بالمسترفوج وعند انتهاء الحديث انطلق فيكس الى حجرته فدخلها مكتئباً معتمداً رأسه بين يديه مفكراً في شأنه وفيما عسى ان يتخذهُ من التدابير بعد افتضاح امره . واستمر كذلك الى ان خطر لهُ ان يتربص ويتجلد في تبادل الحديث مع باسبارتو في هذا الشأن حتى اذا علم من سياق الكلام ان بين الخادم ومولاه اتفاقاً على ارتكاب السرقة نشط الى اقتفاء اثرها واما اذا تحقق فساد ظنه وبراءة المسترفوج اوقف مسيره في كون كون

الفصل الثامن عشر

كيف ان كلاً من المسترفوج وباسبارتو وفيكس توجه في سبيله لقضاء حاجاته

واشتدت على السفينة وطأة الانواء

في الايام الاخيرة من سفرها لما اشتداد
فثارت عليها العواصف والزوابع بحدة
لا مزيد عليها في ثالث ورابع نوفمبر
وتحولت الريح الى الجهة الشمالية الغربية
فحالت دون مسير السفينة ومنعتها من
الاستمرار على سيرها المنتظم فطوى ربانها
الاشرعة ما عدا شراع الصاري الاوسط
لتتمكن من استقراء خطة سيرها على مهل
بحركة عشرة دواليب من الرفاص

ولا خفاء انهُ اذا دامت الحالة على
ما هي عليهِ من ازباد البحر وهياج الانواء
يتأخر وصول السفينة الى كون كون
مدة عشرين ساعة في الاقل وهذه المدة
كافية لان تحبط مسعى المستر فوج وترده
الى بلاده خاسرًا خاسئًا اذ ينقطع بهما
خط المواصلات بين البواخر التي تسافر
من اما كنها في اوقاتها المعينة

وبقدر ما كان البحر مزبدًا كان
البصاص فيكس فرحًا مسرورًا بل كان
يبتهل الى الله ان يزيد عصف الانواء في
ذلك البحر العجاج لتتأخر السفينة عن
الوصول الى كون كون عدة ايام بعد
ميعادها المعين فتكون الباخرة المسافرة الى
يوكاهاما قد اقلعت اليها فيتوقف اذ ذاك
سفر المستر فوج اليها

وكان فيكس لدى هذه التأملات
غير مبال بما كان يقاسيه من التعب
والعناء اما باسبارتو فكان شديد السخط
على هياج البحر العجاج وتلاطم الامواج
و يرتعش انفعالاً من اسباب ذلك التأخر
ويتمزق يأسًا من الحصول على المراد
وقنوطًا من الوصول الى كون كون قبل
ان تسافر منها الباخرة المعينة للسفر الى
يوكوهاما كانهُ نفس عاقد الرهان المعرَّض
لخسارة مبلغ العشرين الف ليرة

وكان تارة يتأمل ثورة العواصف
وهبوب الرياح فيتحول عن مصدر هبوبها
الى النظر في كيفية سير السفينة وحينًا
يذهب الى ربان السفينة ليستعلم منهُ عن
وقت سكون الانواء وآونةً ينطلق الى
نوتية السفينة ويحثهم على الصبر والتجلد
واستمر كذلك الى ان وقف شاخصًا الى
الفضاء لا ينطق بكلمة ولا يبدي حراكًا

وفي ٤ نوفمبر تغيرت الرياح وجاءت
ملائمة لمسير السفينة وسبحان مغير الاحوال
ومبدل العسر باليسر فهدأ روع باسبارتو

وعلق اهداب آماله بنواصي التقادير

ولكن السفينة قد ابطأت كثيرًا في المسير بحيث استحال عليها ان تبلغ يوكوهاما في ميعادها المعين اي في ٥ نوفمبر . وقد وصلت في الساعة السادسة من صباح سادس نوفمبر الى مدخل بوغاز كون كون فحضر اليها رئيس البوغاز ليتولى قيادتها في الدخول الى المرفاء قصد ان ندخلهُ امنة شر الصخور

وعزم باسبارتو مرارًا على الاستفسار منهُ عن سفر البريد الى يوكوهاما ولكنه كان يمتنع من ابداء ما لديه . فان شدة الخوف كانت تحمله على الاعتقاد بان سوآله سيلقى جوابًا يميت فيه بقية الامل فلبث لذلك يعاني الم الصبر اما المستر فوج فدنا في خلال ذلك من الرئيس وسأله عن بريد يوكوهاما فاجابه الرئيس ان البريد تأخر عن ميقات سفره الى الغد لان السفينة ((كارناتيك)) التي كانت مزمعة ان تنقلهُ الى المحل المعين له طرأ على بعض آلاتها تعطيل مست الحاجة الى اصلاحه فقضت بتأجيل السفر الى الغد وانها لذلك ستصل الى يوكوهاما قبل سفر الباخرة منها الى سان فرنسيسكو فان بين السفن التي تجتاز الباسيفيك عهودًا تقيدها بالواجبات التي تنشأ عما اذا حدث لاحداها تأخر عن مواعيدها فتبسم المستر فوج سرورًا وامتنانًا من التقادير التي احدثت هذا التأخر غير المنتظر لسفر الباخرة ثم شكر للرئيس تعليماته الجلية وعاد الى حجرته في السفينة اما باسبارتو فكان كله ساعة ذلك الحديث اذانًا مصغية فزايله عند سماع تلك الكلمات كل وجل واضطراب ثم اقبل على الرئيس فهزَّ يده دلالة على التشكر والامتنان

وفي الساعة الاولى بعد الظهر رست السفينة في مرفاء كون كون فنزل ركابها الى البر وكل منهم مشتغل بشأنه متوقع للوصول الى اربهِ

وبما ان السفينة كارناتيك المكلفة بنقل البريد الى يوكوهاما لاتبارح مياه كون كون الا في الساعة الخامسة من صباح اليوم الثاني كان للمستر فوج فرصة ١٢ ساعة يقضيها في الاهتمام بشؤون السيدة عائدة فنزل الى البر مستصحبًا اياها وانزلها

في فندق ((القلوب)) مشيراً الى خادمه باسبارتو بالاعتناء بها ثم سار الى المدينة التماس التعرف بحضرة المكرم جيجي احد اقرباء الفتاة ليطلعه على ما كان من امر نسيبته ويسلمها له

ولهذا القصد توجه الى البورسة علماً منه بان ((جيجي)) معدود من اعاظم تجارها ووجوه وجهائها وانهُ يسهل عليه الاسترشاد اليه من اهل البورصه — ولما بلغها استدل على احد سماسرتها فاستعلم منه عن مقر جيجي المذكور فاجابه السمسار انه بارح كون كون منذ عامين بعد ان جمع منها مالاً لا تحصيه ارقام ولا تحصره اقلام فاختار الاقامة في اوربا وفي الغالب انه استقرَّ في هولانده

وبعد ذلك عاد المستر فوج الى الفندق واخبر السيدة عائدة بما سمعه من مبارحة نسيبها لمدينة كون كون فكان من الفتاة ان لزمت الصمت حيناً ثم عمدت الى الافتكار فامرَّت يدها على جبينهـا الوضاح وسألت المستر فوج عما تجريه فاوعز اليها بالسفر معه الى اوربا وقال لها ان سفركِ معي الى تلك الديار يذهب منكِ الاحزان ويجلو عنك صداء الاشجان

ثم التفت الى خادمه باسبارتو وامرهُ بان يذهب الى السفينة ((كارناتيك)) ويعد فيها ثلاث غرف مخصوصة فتوجه باسبارتو الى السفينة مسروراً . اما الفتاة فانشرحت بذلك صدراً . وافترَّ مبسمها عن لؤلؤ دري بعد تقطب وجه خلته بعد الانبساط بدراً

لم يضحك الورد الا حين اعجبه
حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
كأنَّ فيه شفاء من صبابته
تشفي القلوب من الاوصاب والكمد
لا عذَّب الله الاَّ من يعذبه
بسمعٍ باردٍ او صاحبٍ نكدِ

الفصل التاسع عشر

كيف ان باسبارتو اهتم بشأن مولاه

بمقتضى معاهدة تانكين الحقت جزيرة كون كون بالاملاك الانكليزية بعد حرب سنة ٨٤٢ ؛ ومن ذلك الحين جعلها مهاجرو الانكليز محطاً لرحالهم فعمموا فيها التجارة والصناعة وانشأوا فيها مرفاء تجارياً واطلقوا عليه لقب ((مرفاء فيكتوريا))

وهي واقعة عند مصب نهر كانتون على مسافة ستين ميلاً من المدينة البورتغالية ماكاد الكائنة على الضفة الاخرى من النهر

وفي وسط كون كون تجري جداول من المياه · وفيها مستشفيات لذوي الامراض والعاهات وثكنات للعساكر ومخازن للبضائع وسرايات للحكومة وطرقات وشوارع مبلطة على الترتيب الهندسي وفي الجملة ان المدينة لا تخالها برونقها وانتظامها الا احدى مدائن الكونت كانت او الكونت سيرري

وانطلق باسبارتو الى رصيف ((فكتوريا)) ويداه في جيوبه فاناخ فيه المطية واجال طرفه في البحر فرأى سفناً فرنسوية وانكليزية وامركانية وهولاندية وسفناً تجارية ودوارع حربية وزوارق يابانية وصينية وغيرها ثم حول نظره الى البر فرأى هوادج ومركبات واقواماً من الصينيين واليابانيين والفرنجة يزدحمون في الطرقات ازدحام الناس في كلكوتا وسنغابور وبومباي وهي المدن التي مرَّ بها وشاهد عدداً من الشيوخ الطاعنين في السن لابسين ثياباً صفراء فرقبهم بعين الانتقاد ثم سار حتى بلغ دكان حلاق فدخله ليحلق لحيته على الزي الصيني فعلم فيه ان اولئك الشيوخ ما لبسوا تلك الثياب الصفراء الا لانهم تجاوزوا حد الثمانين

ثم عاد الى الرصيف لينطلق منه الى الباخرة على قصد ان يتخذ فيها ثلاث غرف وفقاً لاشارة مولاه فبوصوله الى الرصيف ابصر عن بعد البصاص فيكس يخطر جيئة وذهاباً وعلى وجهه علائم الارتياك فدنا منه وسأله بقوله

— هل تذهب معنا الى امركا

— نعم

قال ذلك وصرف باسنانه كدراً وغيظاً

فقال له باسبارتو

هلم اذن بنا الى السفينة لنتخذ فيها اربع غرف لنا

فاجابه الى ذلك وتوجه كلاهما الى السفينة فاستأجر فيها اربع غرف مخصوصة ولما هما بالخروج اعلن لهما كاتب السفينة ان سفر الباخرة يكون في الساعة الثامنة

من مساء النهار لا باكرًا كما سبق اعلانه للركاب فشكراهُ وخرجا

ولما انتهيا الى الرصيف دعا فيكس باسبارتو الى تناول كأس شراب في احدى الحانات الكائنة على الرصيف فقبل باسبارتو الدعوة بمزيد الامتنان وسار مع فيكس الى حانة قريبة فالفيا فيها قومًا يعاقرون الخمرة ويشربون الجعة (البيرا) والكونياك وقومًا يثملون بالافيون فيفقدون الحس والصواب ويستلقون على الارض سكارى

فعلم باسبارتو وفيكس اذ ذاك انهما دخلا حانة يجتمع فيها الرعاع لتدخين الافيون التي تنتفع منهُ التجارة الانكليزية في كل سنة بمائتين وستين مليونًا من الفرنكات . فلحى الله حب الدينار انهُ حامل للمرء على ارتكاب المنكرات

وقد حاولت الحكومة الصينية عبثًا ان تحظر على رعاياها شرب الافيون بالنظر الى ما ينجم عنهُ من المضار التي تسقم الاجسام وتذهب بالعقول ولكن

لا تنهَ عن خلقٍ وتأتي مثلهُ
عارٌ عليك اذا فعلت عظيمُ

فان كبار رجال الدولة الصينية يتداعون الى شربه تداعي الجياع الى القصاع فاقتدى بهم صغار القوم من رجال ونساء وادمنوا على استعمالهِ حتى صار فيهم ملكة راسخة صعبة الزوال وحتى بات من يحاول الامتناع من معاطاته عرضةً لالام معوية لا تطاق

وبعد ان دخل فيكس وباسبارتو الى هذه الحانة طلب فيكس زجاجةً من نبيذ ((بوردو)) فاتاهم بها صاحب الحانة فشربها مع باسبارتو الذي اعجبه جودة صنفها وبعد ان شرباها هم باسبارتو بالذهاب ليعلم مولاه بميعاد سفر الباخرة فامسك به فيكس وقال لهُ

البث قليلاً لاحدثك برهةً بشأن مولاك

ــ تكلم

ــ هل اكتشفت على امري

ــ تمامًا

ــ احسنت فبقي عليَّ ان اشرح لك بالتفصيل كل ....

ــ لا لزوم لذاك فاني عرفت كل ما تريد ان تقوله لي ولكن اولئك الاشخاص قد كبدوا انفسهم من النفقات ما لا تطيق

ولا كلف الله نفسًا فوق طاقتها

ـ يظهر من حديثك انك تجهل جسامة المبلغ

ـ لا اجهل شيئًا فالمبلغ قدره عشرون الف جنيه

ـ انت في خطاء مبين فان قدر المبلغ خمسة وخمسون الف جنيه

ـ خمسة وخمسون الف جنيه ... فماذا تقول ... هل تجراء المستر فوج على ... فاذن صار من الواجب ان استفزه للذهاب الى الباخرة حذرًا من التأخر

ـ امكث قليلاً

فجلس باسبارتو وعند ذلك طلب فيكس زجاجة من الكونياك ثم اخذ في الكلام فقال لرفيقه

ـ اعلم ايها الصديق اني اود تأخير فيلاس فوج بضعة ايام في كون كون فاذا فزت بهذه الامنية ربحت جائزة قدرها الف ليرة واعطيتك منها مائتين اذا ساعدتني على بلوغ اربي

ـ ألا قاتل الله حب الاثراء . كيف حرَّضوك اولئك الرجال على اتيان هذا المنكر . وكيف تأمل ان اساعدك والقي في سبيل مولاي عثرات تؤخره عن اتمام الرحلة التي اراه الان يتمها بكل صداقة واستقامة فاقلع عن غيك ولا تأمل مني ذلك

ـ فمن هذه الاجوبة التي كانت تارة تصيب المرمى وطورًا تخطئ الموضوع ارتبك البصاص فيكس في امره ولازالة لارتيابه سأل باسبارتو قائلاً

ـ من انا

ـ انت جاسوس من قبل اعضاء ((كلوب ريفورما)) في لوندره أُرسلت لتقتفي اثرًا وترقب رحلة مولاي وتلقي في سبيله عثرات الاعاقة

ـ اخطأت اخطأت فاني ايها الصديق بصاص مرسل من قبل ادارة البوليس في لندره فلما حدثت في ٢٨ دسمبر سرقة البنك التي اضاع بها مبلغ خمسة وخمسين الف جنيه ارسلتني الحكومة الى مدينة السويس لاكتشف على الفاعل وهذه هي اوراقي التي تثبت لك قولي وهذه هي علامات اللص المرسلة اليَّ فانظر كيف انها مطابقة تمامًا لهيئة مولاك ـ ثم قال ـ وقد رجح

لديَّ الان ياباسبارتو ان المستر فوج هو
اللص بعينه وانهُ فرَّ من وجه العدالة
بهذه الحجة الساقطة وهي حجة الطواف
حول الارض في ثمانين يوماً

فضرب باسبارتو الارض برجليه
والمائدة التي امامها بيديه ثم التفت الى
فيكس بعين الغضب وقال له

ــ قد ساء ظنك بمولاي فهو اكثر
استقامة من كل من شب ودب . فقال
له فيكس

ــ من اين اتصل بك ان مولاك بمكان
من الاستقامة وانت لم تعرفه الا في اليوم
الذي تقيدت فيهِ بخدمته وظهر لك بهذا
المظهر اي الطواف حول الارض فلا
اخالك بعد ذلك الا مشتركاً معه في
الجريمة حتى انك اكثرت من
ضروب الحديث فالتهبت حدة وذبت
تصوراً تخدعني بفصاحة لسانك وحسن
بيانك وتنفي عن مولاك الشبهة وانا لست
ممن يحسبون الآل ماء و يخدعون بظواهر
الكلام وما علمت الان من احوالك
وبدافعتك عن مولاك اصبحت مشتبهاً
فيك فيحق لي لذلك ان اقبض عليك

ايضاً

فاطرق باسبارتو في الارض وجعل
يفتكر في مولاه ويراجع ما مرَّ عليه من
احواله فما تبين له منها ما يشينه بل مرَّ
عليهِ منها ما يستحق الثناء من اجله كانقاذ
السيدة عائدة من مخالب المنون

وبعد ان فكَّر برهة التفت الى فيكس
وقال له

ــ والان ماذا تريد

ــ اريد ان تساعدني في اعاقة مولاك
في كون كون مدة من الزمان حتى يرد
اليَّ من ادارة الشرطة في لوندره أمر
القبض عليه

انك لسائلٌ غير مجيب

ولماذا . فاني اقتسم معك مبلغ
الالفي ليرة الذي اقبضهُ من بنك المملكة
على سبيل المكافأة

فاجابه متلجلجاً

لا اخون مولاي ولو اعطيت
مال الدنيا قاطبة فاني ما لقيت منهُ سوى
المعروف والاحسان و . . . وقد عرفتهُ
كريماً محسناً محباً للخير و . . . واني من
ارض لا تنبت من يكفر بالنعمة ويجحد

المعروف وو.. و...

فعلم فيكس ان باسبارتو اكثر من تناول المسكر بما كان فوق الطاقة فطلب له زجاجة اخرى من الكونياك وملاء له الكأس منها ثم دفع اليه غليونًا مملوءًا بالافيون فاخذه باسبارتو ودخن منه فلعب في لبه وغيبه عن الحواس ثم انطرح على الارض فاقد الرشد والصواب فسر البصاص فيكس بذلك وتركهُ في الحانة على حاله وتوجه بعد ان دفع ثمن المشروب وفي فوءاده حزازات

وسار وهو مفترض احد امرين: اما ان المستر فوج لا يعلم بسفر الباخرة ((كارناتيك)) في تلك الليلة فتسافر بدونه واما انه يعلم بميعاد سفرها فيسافر تاركًا خادمه في المدينة

الفصل العشرون

في ان فيكس تكلم مع المستر فوج مباشرةً

بينما كان البصاص فيكس والشاب باسبارتو مشتغلين بالحديث الذي نعلم كان المستر فوج والسيدة عائدة يتخطران في شوارع المدينة طلبًا للتنزه والتفرج وقد اهتم المستر فوج باعداد ما تحتاج اليهِ الفتاة من الملابس ومعدات السفر وذلك بعد ان قبلت ان تتوجه معهُ الى اوربا وكان قد تأمل الفرق الكائن بين الرجل والمرأة من حيث قوة البنية والعزم ورأى ان من كان مثلهُ يقدر ان يطوف الارض بجراب في يده ويصبر على احتمال المشاق بخلاف السيدة عائدة فانها لا تستطيع الصبر على الضنك ولا الثبات على المصاعب فكانت لذلك تشكرهُ بكل جوارحها على جزيل فضله واعتنائه بها

وبعد ان تجولا برهة عاد الى الفندق فدخلت الفتاة حجرتها التماس الراحة وبقي المستر فوج غائصًا في مطالعة جرائد التيمس والايللوستراتد لندن نيوز وقد فات الهجيع الاول من الليل وهو يقراء ولم يبال بتغيب خادمه فانهُ كان عالمًا ان الباخرة لا تسافر الا في الغد وفي الصباح استدعى بخادمه فلم يجب فقرع له الجرس مرارًا فلم يحضر فظن انهُ نام في المدينة وانه ربما يلتقي بهِ على رصيف المينا فاحتمل جعبته وايقظ السيدة عائدة من نومها وخرج معها فركبا العجلة وسارت بهما الى رصيف المينا وكان

الوقت قد بلغ اذ ذاك حدّ الساعة الثامنة ونصف من الليل

وكان المستر فوج موءملا ان يلقى خادمه ويجد السفينة على اهبة المسير فلم يجد الخادم ولا السفينة لانها كانت قد سافرت في الليلة الماضية ولما خاب امله نظرت اليه السيدة عائدة بقلق فسكن خاطرها وقال لها

ـ لا تقلقي فما هذا الا امر عارض وما الامر العارض الا سحابة صيف لا تلبث ان تنقشع

وكان فيكس وراءهما يرقبهما من غير انقطاع فتقدم الى المستر فوج وبعد ان قام لديه بواجب التحية والسلام وجه اليه الكلام فقال

ـ لعلك يا مولاي مثلي قد حضرت بالامس على الباخرة رانجون؟

فاجابه

ـ نعم ولكني ما تشرفت بمشاهدتك فيها

ـ نظرني يا مولاي خادمك عليها

فسألته عائدة بتلهف

ـ واين هو

ـ لا علم لي يا مولاتي بمقره فربما يكون قد سافر على الباخرة ((كارناتيك)) التي اتمت تصليحاتها بالامس وسافرت بدون ان تشعر المسافرين بتغيير الاجل الذي ضربته لسفرها اولاً فانه كان يلزمني ان اسافر عليها والان قضى عليّ سفرها ان اتربص هنا مدة ثمانية ايام حتى يسافر البريد الثاني

ـ ونحن ايضاً كنا عاقدين العزيمة على ركوبها فتأخرنا مثلك .

فلما طرق اذني فيكس لفظ التاخر طفح فواده سروراً فغبط نفسهُ على الفوز بتأخير المستر فوج فى ثغر كون كون مدة ثمانية ايام علل النفس ان يرد اليه في خلالها امر القبض عليه من لوندره

وبعد فترة من الزمان انطلق المستر فوج بالفتاة عائدة واخذ يخطر على رصيف المينا املاً بأن يعثر بباخرة تكون مسافرة الى يوكوهاما فتاخذهُ اليها

ولحقه فيكس خانق القلب تائه اللب يغالب الغم والكدر ويطلب من الله تعالى المعونة والمدد على ذهاب امالي المستر فوج ادراج الرياح

وطاف المستر فوج مصحوباً بالفتاة

عائدة مدة ثلاث ساعات متواليات بدون ان يجد باخرة مسافرة الى يوكوهاما وبينما كان راجعاً بخفي حنين اقترب منهُ احد رؤساء السفن وبعد التحية قال له

ــ لعل مولاي يبحث على سفينة

ــ اصبت وهل لديك ما اطلب

ــ نعم لديَّ سفينة رقم عليها عدد ٤٣ تقطع في الساعة مسافة ثمانية ايام او تسعة اميال فتفضل وانظرها

فسار معهُ وبينما هما سائران سأله الرئيس

ــ اظنك تطلب التنزه على ظهر البحر

ــ لا وانما اقصد السفر الى يوكوهاما

فوقف الرئيس موقف المذهل ثم حملق بعينيه في المستر فوج وقال

ــ امازح انت بما تقول

ــ لا وكيف ظننت اني امزح فان اشغالي تقضي عليَّ ان اكون في يوكوهاما في ١٤ الشهر الجاري وقد فاتتني امس الباخرة كارناتيك وسافرت على غير علم مني بسفرها

فلما سمع رئيس السفينة مقاله اعتذر اليه على كونه لا يستطيع ان يلبي طلبه ويسافر به الى يوكوهاما فقال له فوج

ــ اعطيك اجرة مائة ليرة عن كل ساعة واعطيك ايضاً جائزة قدرها ٢٠٠ ليرة اذا اسرعت في المسير ووصلت بي الى يوكوهاما في رابع عشر الشهر الحالي

فاضطرمت في نفس الرئيس نار الطمع فهرع الى مطلة تشرف على البحر ليرى هبوب الريح وبعد برهة وجيزة عاد وقال للمستر فوج

ــ ليس من الصواب يا مولاي ان القي بنفسي وبذاتك الكريمة وبسفينتي وعمالها في مهاوي الاخطار طمعاً في المال فليس المخاطر محموداً ولو سلم فسفينتي صغيرة ولا تحمل اكثر من عشرين طناً والمسافة بين كون كون ويوكوهاما طويلة تبلغ الف وستمائة وخمسين ميلاً ونحن الان في فصل يكثر فيه هبوب العواصف والزوابع وهياج الامواج في قلب البحر العجاج وليس امامك يا مولاي سوى طريقتين فاما ان تسافر الى ناجاساكي التي تبعد من هنالك الف ومائة ميل واما ان تذهب الى شنغاي التي تبعد ثمانمائة ميل فقط وهذا لا يخل بحسابك لان بريد امركا لا يسافر الى

سان فرنسيسكو من يوكوهاما بل من شنغاي رأسًا ويعرج في طريقه على ناجاسا كي ويوكوهاما فقال لهُ المسترفوج

ـ هل انت متأكد ذلك

ـ نعم اني متأكدهُ جداً

ـ ومتى يبارح البريد شنغاي

ـ في الساعة السابعة من مساء ١١ الشهر الحالي واذا خدمتنا الريح تمكنا من الوصول اليها في هذا الميعاد باذن الله

ـ ومتى تسافر

ـ بعد ساعة واحدة

ـ وانت صاحب السفينة

ـ نعم يا مولاي انا جان بوسبي صاحب السفينة تانكادير

ـ اتريد عربونًا

ـ نعم اذا حسن لديك

ها ٢٠٠ ليرة

ثم التفت الى الوراء وقال للبصاص فيكس اذا اردت السفر معنا فتفضل فقال لهُ

ـ شكرًا لمعروفك وجميلك ومتى الرحيل

ـ بعد نصف ساعة

وقلقت السيدة عائدة لغياب باسبارتو فالتفتت الى المسترفوج وقالت لهُ

كيف تترك باسبارتو ولا تسأل عنهُ وتحت رحمة من تتركه

سافعل لاجله ما يمكنني ان اقوم به

قال هذا وانطلق معها الى مركز الضابطة فاعطى مأمور الشرطة علامات باسبارتو وترك لهُ عنده مبلغًا من النقود يكفي لنفقات سفره الى الاوطان ثم توجه الى القنصلية الفرنسوية فاعلم القنصل بما اجراه متعلقًا بباسبارتو وعاد الى الفندق ومنهُ الى المينا وكانت السفينة تانكادير مستعدة اذ ذاك للسير

اما السفينة فباخرة صغيرة محمولها عشرون طنًا محكمة الصنع طولاً وعرضًا سريعة السير تامة النظافة يلمع نحاسها كالشمس وسطحها ابيض كالعاج وهي ذات صاريين منحنيين قليلاً الى الوراء وكاملة المعدات من قلوع وحبال ومستهدفة الى الرياح من الوراء وقد حازت قصب السبق والجوائز العديدة في سرعة السير على سائر ما مثلها السفن

وتؤلف هيئتها من صاحبها واربعة اشخاص آخرين اقوياء واشداء خبيرين في فن الملاحة عارفين بالطرق البحرية

والمسالك الموءدية الى الجهات المطلوبة
اما صاحب السفينة جان بوسبي فهو رجل
ناهز الخمسين من العمر شديد البنية عالي
الهمة حاد النظر تلوح عليه مخائل الشجاعة
وعلائم الذكاء اسمر اللون من مؤثرات
الشمس اثناء الاسفار

ونزل المستر فوج والسيدة عائدة
الى السفينة فوجدا عليها البصاص فيكس
وبعد مبادلته التحية ساروا جميعًا الى غرفة
في مؤخر السفينة مربعة الزوايا نقشت
جدرانها بنقوش مستديرة وفيها مقعد
للجلوس وفي وسطها مائدة فوقها مصباح
صغير. وريثما استقر بهم المقام التفت المستر
فوج الى فيكس وقال له

ـ اعذر يا صاحبي فما الجود الا من
الموجود

ـ فطأطأ له فيكس رأسه احتشامًا
ثم قال في نفسه

ـ يالك من لص توفرت فيه شروط
الاداب

وفي نحو الساعة الثالثة والدقيقة ١٠
نشرت اشرعة السفينة وخفق فوقها العلم
الانكليزي فسارت والريح تخدمها . وقبل
مسيرها حانت من المستر فوج والسيدة
عائدة التفاتة نحو البر ليروا ما اذا كان
باسبارتو على الرصيف فيستدعون به
ولحسن طالع فيكس لم يكن باسبارتو في
الجهة التي التفت اليها فوج وعائدة

وما لبثت السفينة بعد ذلك ان
ثارت عليها الريح فسارت تشق العباب
باسم الله مجراها

الفصل الحادي والعشرون

كيف ان صاحب الباخرة تانكادير
خاطر بنفسه طمعًا بجائزة مائتي ليرة

وكانت هذه السفرة محفوفة بالمصاعب
والاخطار محدقة بها من كل جانب
خصوصًا وان السفينة صغيرة ومحمولها
٢٠ طنًا وامامها مسافة ثمانمائة ميل تجتازها
في فصل يشتد فيه هياج بحر الصين
وازدياده مع تعادل الليل والنهار في
شهر نوفمبر

وقد كان الاجدر بصاحب تانكادير
ان يذهب بركاب سفينته الى يوكوهاما لان
سفينته مأجورة بالمياومة وبقدر ايام السفر

يتناول الاجرة الا ان الغفلة ارخت على عقله برقع الجهل فلم يسلك طريق الكسب والانتفاع شأن من لا يفرق بين النفع والضرر او بين الحلو والمر فاقتصر على السفر الى شنغاي دون سواها وربما كان مصيباً في عدم انقياده للطمع ولكن سفينته كانت طافية فوق الماء كالعشب الاخضر

وقد قضت السفينة في اجتياز بوغاز كون كون بقية اليوم الذي سافرت فيه وكانت حركة مسيرها سريعة ولما دنت من سطح البحر استدعى المستر فوج بصاحبها وقال له

— اعلم اني قد شدت قصور آمالي على همتك وعقدت نواصي الاماني على عظم جدك واجتهادك فلا تخيب فيك رجائي فانهب البحر في السير نهباً وطر بسفينتك فاجابهُ

ـــ مولاي ساخلص لك الخدمة واسيّر السفينة على قدر ما تسمح به حالة الريح وزيادة

ـــ وكان فوج وقتئذٍ ينظر الى البحر متأملاً تلاعب الامواج فيه وكانت السيدة عائدة جالسة وراءهُ تتفرس في الاوقيانوس فيرتعش قلبها وتنظر الى السماء فترى فوق رأسها اشرعة بيضاء تخفق خفوق الفؤاد الولهان من حر نار الهجران

واقبل الليل فنشر فوق الافق خيام الظلام ثم لاح البدر فتجلى في كبد السماء وانار ظلمات الفضاء ولكن نوره كان ضعيفاً لانه كان في المنزلة الاولى من لياليه ثم اختفى عاجلاً وراء الشفق اختفاء البرق بعد وميضه

واعد صاحب السفينة المصابيح وعلقها على حبال السفينة موقدة فانارت طريق السفينة تفادياً من الاصطدام

وكان فيكس ملازماً للعزلة طالباً الانفراد معتصماً بالسكوت علماً منهُ بأن المستر فوج قليل العلاقات والصلات يأبى قتل الاوقات في قص القصص والحكايات ولو مهما كان موضوعها جليلاً

وكان قد امتعض من اسراع السفينة في المسير لانهُ موافق لرغائب فوج فناجاها ان قفي او سيري الهوينا ولم يكن يرتاب في تقاعس رجل الرحلة عن المسير متى بلغ يوكوهاما بل كان واثقاً بمبارحته لها على الفور وبتوجهه الى سان فرنسيسكو

فتطأ قدمهُ ارض امركا فيخلو له الجو فيبيض ويصفر رافلاً بحلل الهناء جاراً مطارف الصفاء وقد طاف ثلاثة ارباع الكرة ليبلغها ناعم البال لا يلقى في طريقه عيوناً بخلاف ما لو جاءها عن طريق الولايات المتحدة فتحدق به الانظار ولا يتمكن من الفرار وقد حتم فيكس على نفسه الاَّ يفارقهُ أيَّان سار والاَّ يبتعد عنه مسافة قاب قوسين مخافة ان يتوارى عن العين وقد حمد الله على انفصال خادمه باسبارتو عنه وتفاَّل بافتراقه عنهُ خيرًا

وقد كان غياب باسبارتو لدى سيده والسيدة عائدة باعثًا على القلق والارق فصرفا قسماً من الليل في التفكر بشأنه وتخمين الحالة التي صار اليها وما سكن جأشهما من قبله الا حين رجح لديهما امكان سفره على الباخرة كارناتيك الى يوكهاما حيث عللا الامل بلقائه

وما حلت الساعة العاشرة حتى عصفت الريح فنفخت اشرعة السفينة وزادت مسيرها بما حمل صاحبها على الخوف عليها من غدرات الامواج فاهتم لذلك باتخاذ الطرق والتدابير لوقايتها

وعند منتصف الليل انطلق المستر فوج والسيدة عائدة الى الغرفة التماس الرقاد وتبعهما فيكس للغاية نفسها وبات الربان وملاحوهُ مكتحلين بالسهاد يرعون نجوم الليل ويرقبون هياج البحر واستمروا كذلك الى ان انبلج الصبح وتجلت الغزالة باشعة انوارها الساطعة وكانت السفينة قد اجتازت اكثر من مائة ميل بمعدل سيرها من ثمانية الى تسعة اميال في الساعة (حسب ارشاد الاسلاك المنصوبة في البحر للدلالة على القياس) بحيث اذا لبثت الريح تخدم السفينة على هذا المنوال بلغ المستر فوج مرامه وادرك صاحب السفينة مراده ونال الجائزة التي وعد بها

وعند الظهر سكنت الريح مدة ساعتين ثم ثارت واستأنفت الهبوب من ناحية الجنوب

وكان المستر فوج والسيدة عائدة يأكلان بقابلية عظيمة وما ذلك الا لجودة هواء البحر وبينما كانا يتناولان بعض المآكل كالخبز السكري وغيره دعيا فيكس لتناول الطعام معهما فاجاب الدعوة شاكرًا ثم تناول شيئًا يسيرًا باطراف بنانه

وامسك عن الاكل لانهُ كان قد استصعب ان يسافر على نفقة المستر فوج ويتغذى من غذائه ثم يخونه متى تمكن من القبض عليه وبعد الفراغ من تناول الطعام خطر لفيكس ان ينفرد بالمستر فوج فانفرد به وقال له

ــ مولاي . لقد تكرمت عليَّ وانا شاكر لفضلك ذاكر لجميل لطفك واما الان فالظروف لا تسمح لي ان اقابل فضلك بمثله فاعذر واسمح لي ان ادفع ما يصيبني من النفقة فاجابه فوج

ــ لا شيء يستحق الذكر لاني دعوتك فقبلت دعوتي واجبت فشكري لك واجب وثنائي عليك ضربة لازب

فمني لسان فيكس عند هذا الجواب بالخرس ثم سار الى مقدم السفينة وصرف نهاره بدون ان ينطق بكلمة

وفي مدى ذلك اليوم تقدم الرئيس جون للمستر فوج دفعات متوالية فكان في كل دفعة يبشره ببلوغ ارب الوصول الى شنغاي في الاجل المضروب

ولا تسل عن خدمة السفينة فانهم كانوا باذلين الجهد في تسيير السفينة باوفر سرعة املاً في الحصول على الجائزة المعهودة وكلما مرَّت دقيقة كان يتفقد الحبال ويشدها ويعرض الاشرعة للرياح وعند المساء علم الربان من اسلاك القياس في الماء ان السفينة قطعت منذ مبارحتها لكون كون مسافة مائتين وعشرين ميلاً

وقد تفاَل المستر فوج خيراً من سير السفينة بهذه السرعة وايقن انه يبلغ يوكوهاما بدون تقديم او تاخير يرقمه في جريدة رحلته

وفي نحو غلس ذلك الليل دخلت السفينة بوغاز فوكيان الذي يفصل جزيرة فورموز عن حدود الصين في منتهى دائرة الانقلاب وكان البحر مزبداً في ذلك البوغاز والامواج تتلاعب بالسفينة فتميل بها ذات اليمين وذات اليسار بحيث لا يستطيع من يكون عليها ان يلبث واقفاً على ظهرها

وعند الصباح سكنت الريح فتبين الرئيس تغييراً في الهواء وتبديلاً في الجو فعمد في الحال الى ميزان الوقت ليستعلم منهُ عن العوارض الجوية فوجد في حركته اليومية غير الدقة الاعتيادية اذ رأى فيه

ارتجاجاً عظيماً في الزئبق فحوّل عنه النظر
الى البحر فرأى على ظهره هياجاً وفي قلبه
اضطراباً بادياً من الجهة الجنوبية الشرقية
ورأى اشتداداً في الامواج وتجمعاً استدل
منها على قرب هبوب عاصفة شديدة
فان الشمس بالامس كانت قد غربت
وراء سحابة حمراء في وسط لمعان فوسفوريك
الاوقيانوس

— فساء الرئيس تبدل الهواء وانقلاب
الريح على سفينته شر انقلاب فصرف
باسنانه وقذف من بينها الفاظا سمعته
الاذان وما وعته الاذهان ثم تقدم الى المستر
فوج وقال لهُ

ـ مولاي لقد انقلبت الريح علينا واخذت
تعاكسنا في المسير وامامنا على ظهر البحر
زوبعة شديدة

فقال فوج

ـ ومن اين مصدرها . امن الشمال
ام من الجنوب

ـ فاجاب الربان

ـ من الشمال . وقد رأيتها تتجمع كجيش
يستأنف القتال بعد طول النزال

فاجابهُ فوج

ـ اهلاً بالزوبعة الشمالية فانها تدفعنا
الى الامام

فقال الرئيس

ـ اذا كنت ترحب بالريح المعاكسة
لنا فما عليَّ سوى ان اتأهل بها على الرحب
والسعة

قال المؤلف ـ اما الزوابع في بداية
هذا الفصل من العام فتمر فوق البحار
باسرع من لمح البصر وتنحدر الى العمق
انحدار الاشعة الكهربائية الى الارض او
انحدار الشهب وانقذافها وقد يخشى من
شدة هبوبها في فصل تعادل الليل والنهار
فانها تكون اشد وطأةً فيه من اشتدادها
في غير اوقات

ودفعاً لوثبات الريح عن السفينة
وخوفاً من ان تزجها العاصفة في اعماق
اليم طوى الرئيس قلوعها مـا خلا قلع
واحد صغير مثلث الشكل ابقاه منشوراً
حفظاً للسفينة من التأخر الى الوراء ثم
خفض الصواري وجعل لوحاً فوقها كغطاء
لها لئلا تنفذ اليها المياه وجملة القول انهُ لم
يدع وسيلة الا استخدمها في سبيل وقايتها
وقد حظر على المسافرين الخروج

من غرفتهم لئلا يروعهم منظر الزوبعة الهائل وبما ان الغرفة كانت ضيقة الجوانب وقليلة الهواء الى المسافرون ان يمتثلوا لاشارة الربان فلبثوا جالسين على ظهر السفينة

وعند الساعة الثامنة اشرأبت اعناقهم الى السماء فرأوا الجو مظلمًا والغيوم سوداء والغيث يهمي وابلاً متدفقًا كافواه القرب وقد هبت العاصفة وجلجلت الرعود القاصفة ولمعت سيوف البرق على صفحات الافق فطارت السفينة بغير جناح من شدة الرياح وارتفعت في الفضاء ارتفاع الريشة في مهب الريح واذا قلنا انها كانت سائرة باسرع من سير سفينة تجارية باربعة اضعاف نكون قد بخسناها حقها

وقد لبثت طول النهار سائرة نحو الجنوب ومن شدة تضييق العاصفة عليها اوشكت على الغرق نيفًا وعشرين مرةً ولولا حذق رئيسها وادارته للدفة بمزيد الدربة والانتباه لغرقت وراح فوج وعائدة وفيكس فريسة الاسماك

وكانت المياه ترتفع فوق السفينة جبالاً شامخة حتى انخلع من هولها قلب فيكس خوفًا وارتعدت فرائصه رعبة وجزعًا اما عائدة فكانت تحاول اخفاء خوفها وتظهر البسالة والثبات وترمي المستر فوج بلحظ الانتقاد فلا ترى منهُ غير الرصانة وقلة الاكتراث بهياج البحر كأنه لم يكن لديه امرًا ذا بال

وما برحت السفينة سائرة مع طيار العاصفة والرعد يهزم والمطر يهمع والبرق يلمع حتى اشرفت في صباح ١١ الشهر على بقعة من الارضين تبعد عن مدينة شنغاي مائة ميل بعد ان اشرفت على الغرق مرارًا

وما بقي على السفينة بعد وصولها الى تلك البقعة الاَّ ان تقطع المسافة الباقية في مدة ذلك اليوم فنشر الرئيس الاشرعة ورفع الصواري وشد الحبال واطلق للسفينة العنان فسارت كما تشاء الريح لا كما يجب حتى صارت عند الظهر على بعد اربعين ميلاً من شنغاي وهي مسافة تستطيع ان تجتازها في ست ساعات من الزمان

على ان هذه المدة كانت بمثابة ايام واعوام لدى الرئيس ونوتية السفينة وقد

تمنوا ان يقطعوها بسفينتهم طيرًا لو استطاعوا وذلك خوفًا من تاخر وصولهم الى المدينة عن الاجل المضروب فيضيعوا جائزة المايتي جنيه التي وعدوا بها والحق يقال انهم ما تركوا وسيلة اثناء السفر الا عمدوا الى استخدامها تسييرًا للسفينة بالسرعة المطلوبة حتى اذا لم يدركوا الرغائب يكون ذلك من نكد الطالع وليس في الامر من توان واهمال

وعند الساعة السادسة صارت السفينة على بعد عشرة اميال من مينا المدينة وحلت الساعة السابعة وهي على بعد ثلثة اميال فحينئذٍ فقد الربان الصبر والجلد وتولاه اليأس والقنوط فقطع الرجاء من بلوغ المراد وقد نظر الى السماء فرأى وجهها قد غشيه دخان حالك السواد ففغرَ فاه وقذف منه الشتائم والتجاديف فسأله المستر فوج عن سبب كدره وغيظه فاجابه ان البريد اقلع الان من شنغاي فانظر الى دخان السفينة فقال له فوج ارفعوا الاشارات وراية الاستغاثة والضيق فلعلها ترى ذلك فتقف لاستطلاع الخبر ففعل الربان ما اوعز اليه فوج بفعله ولكنه لم يأت بفائدة واخيرًا اطلق مدفعًا كان في مقدم السفينة فراح دويه مع الهواء بدون ان يترتب عليه نفع ما

الفصل الثاني والعشرون

كيف ان باسبارتو احس بضرورة الدينار في تلك الديار

في الساعة السادسة ونصف من مساء سابع نوفمبر غادرت الباخرة كارناتيك مياه كون كون وسارت على اجنحة البخار تشق قلب البحار قاصدة جهات اليابان وفيها كمية وافرة من الارزاق وعليها عدد عديد من الركاب ضاقت دونه غرفها وفسحاتها ما عدا حجرتين كانتا برسم فيلاس فوج والسيدة عائدة

وعند الصباح خرج باسبارتو من غرفته الكائنة في الدرجة الثانية وخرق صفوف الجموع حتى وصل الى مقعد جلس عليه وكانت قدماه ترتجفان وعيناه زائغتين ورأسه مستلقٍ الى الوراء فاندهل الركاب من حالته وشدة كربته واخذت بعضهم الشفقة عليه ومنهم من سخروا به وضحكوا منه

واني الزم لك ايها القارئ جانب الايجاز في الكلام واتلو عليك ما وقع لباسبارتو حتى انهُ بات على تلك الحالة

مرَّ بنا الكلام ان البصاص فيكس بعد ان حمل باسبارتو على الاكثار من شرب الخمرة حتى كاد يغيب عن الحواس ناولهُ غليونًا من الافيون فتعاطاه الى ان اندس في رأسه سم مفعوله القتال فخر على الارض صريعًا فاقد الرشد والادراك

ومضى عليهِ ثلاث ساعات طوال وهو على هذه الحال من الاغماء ثم افاق قليلاً فرأى نفسه على سرير من العاج بين اقوام لم يبقِ الافيون فيهم ولم يذر مخجل من حالته وتذكر الباخرة كارناتيك فنهض من مكانه وحاول المسير وما زال بين نهوض وسقوط وقيام وقعود حتى خرج الى ما خارج الحانة فصرخ ((كارناتيك)) ((كارناتيك))

قال المؤلف . وكانت السفينة راسية على مقربةٍ من الحانة التي كان باسبارتو واقفًا امامها وكانت اذ ذاك على اهبة السفر فنشط باسبارتو للذهاب اليها ولا نعلم باي طريقة بلغها فانطرح على ظهرها اذ انهُ كان لا يستطيع نقل قدميه ولا يعي شيئًا

فلما رآه عمال السفينة على تلك الحالة احتملوه الى غرفته الكائنة في الدرجة الثانية فرقد فيها ولم يستيقظ من رقاده الا في الغد اي بعد ان ابتعدت السفينة عن كون كون مسافة مائة وخمسين ميلاً

هذا ما مرَّ على باسبارتو الى الصباح الذي خرج فيه من غرفته كما تقدم القول الى ظهر السفينة وجلس على متكاء وطفق يتذكر ما حدث بينهُ وبين فيكس في تلك الحانة ويخاطب نفسهُ قائلاً

ــ ما اقبح السكر وما اوخم عواقبه فانهُ يضر بصحة الابدان ويحط من شأن كل انسان ويلحق بمرتكبه العار والشنار والهوان والاحتقار فوا خجلاه من مولاي فماذا عساه ان يقول ولكن ((لا تكرهوا شيئًا لعله خير لكم)) فهذه امثولة استخدم نفعها مدى العمر واما فيكس الذي حاول ان يفرقني عن مولاي بما فعله معي من الامور المنكرة فقد رد الله كيده في نحره وسهل لي سبيل الحضور الى ظهر الباخرة قبل سفرها وانقذني من شر ذلك

اللعين فيكس الذي لا اشك في كونه
اتى الى الباخرة لكونه صار ربما رأيته منه
في حالة لايجسر بها ان يريني وجهه
المقوت ولكن هل من الصواب ان اعلم
مولاي بما وقع لي معه اوبما كان في نيته
ان يجريه اضرارًا بهِ فكيف هو يقتفي اثرنا
وباية حجة فلا لا . فلربما اكدر منه الخاطر
وازعج منه البال فالاوفق والافضل ان
اطلعه على هذا جميعه متى وصلنا با لسلامة
الى لوندره فانه لاشك يضحك من جراء
ذلك حتى يستلقي على قفاه واما الان
فمن الواجب أن امثل بين يديهِ واعتذر
له عن سوء سلوكي واقول له اني تبت
الى الله فان الله تواب كريم

ثم قام لساعته وانطلق الى حجرة مولاه
في موءخر الباخرة وهو في حالة لا توصف
من الجزع والاستحياء لا يعرفها الا من
يعانيها او يقع في مثلها ولما وصل اليها لم
يتجرأ ان يقرعها بل وقف شاخصاً الى
بابها ينتظر انتظار المتهم لقضاء الحاكم .
واستمر كذلك وقتاً طويلاً الى ان اندفع
الى الباب فقرعهُ فلم يجبه احد من داخله
فظن ان مولاه علم انهُ هو قارع الباب
فلم يفتحه اغيظه منه وسخطه عليه فاوشك
ان يقع على الارض غائبًا عن الصواب
ولكنهُ تجلد فسكن جاشه وكرر قرع
الباب ثم فتحه فلم يجد مولاه من داخله
فخطر له أنه ربما يكون قد لقي اناسًا على
شاكلتهِ مغرمين بلعب الويست فراح
يقتل الاوقات معهم بهذا اللهو وظن ايضًا
انهُ ربما كانت السيدة عائدة لم تفق من
نومها حتى الساعة فانطلق الى قاعة السفينة
الكبرى فلم يرَ مولاه فيهـا فقصد فرَّاش
الباخرة يسأله عن مولاه فاجابه انهُ لا يعرفه
فقال له ان مولاي طويل القامة اشقر
اللحية قليل العلاقات بالغير تصحبه فتاة
حسناء وهو يعرف باسم المستر فوج فاجابه
الفرَّاش لم اعرف هذا الاسم بين الركاب
كما انهُ لا يوجد عندنا رجل تصحبه فتاة
حسناء او شنعاء وهاك دفتر اسماء المسافرين
فانظر فيه ما اذا كان لمولاك اسم بين
ركاب السفينة

فتناول باسبارتو الدفتر بيديه واخذ
يقرأه ويكرر قراءته فلم يعثر على اسم مولاه
فيهِ فتوهم ان السفينة ربما لم تكن نفس
السفينة المعروفة باسم كارناتيك المسافرة

الى يوكوهاما فسأل الفرّاش بقوله

ـ ما اسم السفينة

ـ كارناتيك

ـ والى اين ذاهبة

ـ الى يوكوهاما

فلما تحقق باسبارتو عدم وجود مولاه في السفينة اطرق في الارض وتذكر ان كارناتيك اقلعت قبل الميعاد الذي تحدد لسفرها وان ليس لمولاه علم بذلك فلام نفسه حتى سقط على الارض مغشيًا عليه

وبعد مدة أفاق من غشيانه وطفق يندب سوء حظه وينتف شعور رأسه ندمًا على ما جناه على نفسه ويلطم خديه ويرفس برجليه ويتوعد فيكس بالموت الزؤام اذا وقع بين يديه ولعمري ان اقلام افصح الكتاب لتعجز عن شرح حالة باسبارتو وما استحوذ عليه من الغم عندما علم بعظم خطائه وما سيلحق بمولاه من الخسارة بسببه وبعد ان قضى حينًا من الزمان مستسلمًا للحزن مستهدفًا للكروب عاد الى الصواب وتأمل الحالة التي وصل اليها ولم يكن يحسد عليها اخذ يبكي بكاء مرًا ويرسل الدمع من عينيه سيلاً عرمرمًا على سوء مسيره وشوءم مصيره فانهُ كان سائرًا الى اليابان صفر اليدين لا يملك درهما ولا يعرف فيها احدًا من الناس

وفي غلس الثالث عشر من الشهر السابق الذكر دخلت السفينة (كارناتيك) مينا يوكوهاما المعدودة من مين الباسيفيك والمعروفة مرسىً لجميع الوابورات القائمة بخدمة البرد بين امركا الشمالية والصين واليابان وجزائر ماليزيا اماموقعها ففي جون يادرّو وهي اعظم مدائن مملكة اليابان وقد كانت كرسي الملك على عهد الملك كايكون قريبة من المدينة الشهيرة مياكو التي يقطنها الملك الروحاني ميكادو الذي يعتقد به اليابانيون منزلاً من السماء

ورست ((كارناتيك)) بالقرب من رصيف يوكوهاما وقبالة الجمرك ومخازنه وفي وسط سفن كثيرة تخفق فوقها اعلام جميع الدول

وبعد رسوها خرج باسبارتو الى البر واندفع هائمًا في مسالك المدينة هيام عين الناظر بادهش المناظر وسار في طرق لا يعرفها لغاية لا يدركها حائر الفكر

شارد العقل مسلوب اللب مخطوف الصواب يظن نفسه في منام وما يسمعهُ اضغاث احلام وبعد ان طاف الشوارع ومرَّت على انظاره مشاهد مدهشة اخذ يتنقل في حارات المدينة مستسلمًا للتقادير واستمر كذلك حتى ساقته التقادير الى الحارة اليابانية المعروفة عند سكان يوكوهاما بحارة بنتين (الاهة البحار التي يعبدها اهل الجزائر المجاورة) فطاف جوانبها حتى مرَّ تحت دهاليز كثيرة قائمة من خشب الصنوبر والارز ووصل الى ما امام هيا كل عظيمة ذات ابواب مزخرفة باتقان بديع يأخذ بمجامع الابصار فرأى في بعض زواياها قومًا من كهنة البوذيين التابعين لديانة كونفشيوس . اما الهياكل فتتفياء ظلال اشجار من الارز قديمة العهد فوقف باسبارتو فترة من الزمان ينظر الى الهياكل والاشجار ثم سار في طريق طويلة يكاد ان لا يكون لها حد فرأى فيها زمرًا وجماعات من صبيان ورجال قصيري القامة محمري الوجوه موردي الوجنتين يمشون في تلك الطريق مرحًا بين كلاب قصار الساقين طوال الشعور مقطوعي الاذناب يألفون المارَّة

وكانت تلك الطريق موءدة الى المدينة يطرقها المارَّة ذهابًا وإيابًا من غير انقطاع وقد رأى فيها باسبارتو حفلات زفاف وكهنة يضربون الطبول وجنودًا من حرس الجمارك بقبع مرصعة بصمغ اللك يتقلد كل منهم سيفين ورأى فيها ايضًا جنودا لابسين اردية زرقاء من المنسوجات القطنية عليها شريط ابيض ومتقلدين البنادق ورجالاً آتين من مدينة ميكادو مدججين بالسلاح وعلى رؤوسهم دروع حديدية ورأى جنودًا من جميع الصفوف والدرجات العسكرية لان وظيفة الجندي عند اليابانيين وظيفة شريفة يتداعى اليها الناس بخلاف الصينيين فانهم يحتقرونها احتقارًا شديدًا) ورأى رهبانًا يجمعون الاحسان وغرباء باردية طويلة ومدنيين بشعر مصقول حالك كالليل ورؤوس ضخمة مستديرة وقدود رشيقة نحيلة وافخاذ رقيقة ووجوه بلون النحاس ليس فيها احمرار بخلاف وجوه الصينيين

ولمح باسبارتو في تلك الطريق عربات ومركبات وهوادج وخيولاً وحمالين

ونسوة يتنعلنَ احذية مصنوعة من القش وقباقيب خشبية وعليهنَّ اردية من الحرير الاصفر بشريط من الحرير ايضاً ويشدون وسطهنَّ بشرائط مسترخية الى الوراء بأبن غير محبوكة (وقد اتخذت النساء الباريزيات هذا الزي عن النساء اليابانيات)

وقضى باسبارتو زماناً في اختراق صفوف اولئك الجموع ويرمي كلاً منهم بنظره حتى وصل الى شارع يدهش منظره الابصار ويسحر الالباب بما في دكاكينه ومخازنه من اللؤلو والمرجان والماس وغير ذلك من الحجارة الكريمة واصناف الحلى والمجوهرات وكان بالقرب من هذه الدكاكين حانات وقهاو للشاي والدخان الجيد ولا اثر فيها للافيون

وما تقدم باسبارتو طائفًا بين هذه الحوانيت والحانات حتى بلغ منتهى الشارع واشرف على حقل كساه الربيع حللاً خضراء وشبت فيه يافعات الاشجار المكللة بالازهار اليانعة الاثمار كالكرز والخوخ والتفاح التي يتفاخر الوطنيون بازهارها لا بثمارها التي لا يذوقونها وهم شديدو الحرص على ازهار هذه الاشجار يقيمون عليها خفراء من تماثيل خشبية ينصبونها

وبينما كان باسبارتو جائلاً في وسط الحقل اذ عثر بين اعشابه على نباتٍ من البنفسج فقال في ذاته . ويرزقكم من حيث لا تعلمون . ان هذا النبات يصلح اليوم لان يكون غذاء لي ولما ان اشتمَّ رائحته ولم يجد فيه رائحة البنفسج قال اعوذ بالله من افول نجم السعد

وكان باسبارتو قد تناول الطعام في صباح ذلك اليوم على مائدة الباخرة كارناتيك بشراهةٍ فائقة الحد علمًا منهُ بانهُ سيقضي النهار بدون اكل ولكنَّ معدته لم تلبث ان هضمت كل ما كان قد اكلهُ بطوافه المستمر في شوارع المدينة وطرقها

وعندما كان يجول في الاسواق كان يدقق النظر فيما اذا كان في الدكاكين لحوم ضأنٍ اومعز او خنازير فلم يجد شيئًا من ذلك لان اللحم نادر الوجود في اليابان وقد حظر فيها نحر الثيران اعتقاد انها خلقت لحراثة الارض فكان اهلها لذلك يتغذون بلحوم حيتان البحار وطيور الغاب ووحوش القفار

وعند المساء عاد باسبارتو الى المدينة شاردًا في طرقاتها المزينة بالمصابيح والانوار معرجًا على مضارب العاب الصراع واندية المنجمين الغاصة بالمتفرجين واستمر كذلك الى ان بلغ شاطئ البحر فرأى هناك عددًا من الصيادين يطرحون شباكهم في قعر البحر لصيد الاسماك ويستضئون بانوار موقدة من خشب الصنوبر

وعند الهجيع الاخير من الليل تفرقت الجموع وخلت المدينة من الضوضاء وانتشر الحرس العسكري (عسس الليل) في ارباضها يحافظ على الاعناق والارزاق

الفصل الثالث والعشرون

عسى الكرب الذي امسيت فيهِ
يكون وراءهُ فرجٌ قريبُ

وقضى باسبارتو ليلته متقلبًا على جمر كدرٍ احر من جمر الغضا ويقاسي الم الجوع وعلقم الظماء حتى زهقت منهُ النفس وكادت تبلغ التراقي فقال في ذاته ياليتني كنت ترابًا وما اشرقت شمس النهار حتى نهض من مضجعهِ وجلس يفكر فيما يسد بهِ جوعه فخطر لهُ ان يبيع ساعة جيبه تخلصًا من خطر الموت جوعًا ولكن شق عليهِ الامر واستصعب عليه النجاة ببيع الساعة ثم اخذ يحدث نفسه فقال

وهوّن عليك فان الامو
رَ بكف الله مقاديرها

وبعد ذلك عزم ان يسعى في طلب الرزق بممارسة مهنته القديمة وهي انشاد الاغاني على قارعة الطرق فيطرب برخيم صوته ويشنف الاذان بشجي انغامه وما ينتج لهُ القدر من الكسب يبذله في سبيل سد عوزه ولكنهُ رأى ان ملابسه تضر بمصلحته اذا ظهر بمظهره الجديد بتلاوة الاناشيد في اندية اليابان الذين يميلون كل الميل الى سماع الالحان ويقبلون عليها اقبال الظماء على موارد الماء فعمد لذلك الى تغيير ثوبه بثوب ادنى قيمةً واقل رونقًا وبعد مزيد التأمل لقي تاجرًا يتجر بجميع الاصناف فعرض عليه ثوبه بغية استبداله فقبلهُ منه بطيب الخاطر واعطاه ثوبًا على الزي الياباني وكان رثًا قذرًا ودفع اليه فرق الثمن عددًا قليلاً من الدنانير فاخذ باسبارتو الثوب والدنانير وانطلق على الفور

في طلب الطعام فدخل حانوتاً وأكل فيه من لحوم الطيور والارز ما اشبعهُ ثم شربَ حتى ارتوى فعاد بعد ذلك الى التأمل في مستقبلهِ فقال في ذاته — اما الان وقد شبعت وارتويت فلا يليق بي ان اطوف في ارض مملكة ابن السماء طوفان الحائم حول الماء بل الاجدر بي ان ابارح هذه الديار خوفاً من الويل والدمار ومتى اجتزت مسافة اربعة الاف وسبعمائة ميل على ظهر البحار ووصلت الى سان فرنسيسكو يفرجها عليَّ خالق الليل ومبدع النهار وللحال نهض وسار الى جهة البحر مستعلماً عن البواخر المسافرة الى امركا حتى اذا عثر على واحدةٍ منها عرَض نفسه الى ربانها لعلهُ يقبلهُ فيها بصفة خادم او طباخ يشتغل بدون اجرة حتى يبلغ سان فرنسيسكو ولكن ما لبث ان خطاء هذا التصور محتجاً عليه بقوله — اية سفينة مستعدة للاسفار تحتاج خداماً وعمالاً وان فرضنا المحال واحتاجت سفينة ما الى خادم فهل يقبل بخدمتها كل من يعرض نفسهُ عليها بدون كتاب توصية

او شهادة تدل على سابق خدمته وحسن استقامته

وبينما كان سائراً في طريقه تتجاذبهُ عوامل الافكار اذا به رأى رجلاً قرويّاً يطوف باعلانٍ انكليزي العبارة وهذه ترجمتهُ

الجوق الياباني

برئاسة ويليام باتولكار

الليالي الاخيرة من التشخيص

قبل مبارحة الجوق ثغر يوكاهاما
الى الولايات المتحدة الامركانية

رواية الانوف الطويلة · الانوف الطويلة
باستدعاء الاله طينجو

ويتلو التشخيص مناظر تدهش العقول
وتسر الخواطر

فتبع باسبارتو ذاك القروي وسار وراءهُ طائفاً اعظم شوارع المدينة حتى ادت بالاثنين خاتمة المطاف الى دارٍ فسيحة الجوانب تخفق حولها الرايات الوانًا وعلى جدرانها الداخلية نقوش ورسوم

وصور بعض المشعوذين مرسومة بلون بنفسجي. وكانت تلك الديار مسكنًا لباتولكار مدير جوق المشعوذين والقرويين والعاب تمرين الابدان . جمناستيك . فولج باسبارتو باب الرواق الخارجي من الدار والتمس مقابلة المستر باتولكار فحضر اليهِ وسألهُ عما يبتغيه فاجابهُ باسبارتو بتذللٍ وقلبٍ منكسر .

— ألست محتاجًا الى خادم امين يرضى لرضاك ويغضب لغضبك يصافي احبابك ويعادي اعداءك

فقال لهُ باتولكار

— لديَّ خادمان قائمان بفروض خدمتي حق قيام ولا يكلفانني غير الطعام وهما:

قال هذا واراهُ ذراعيه القويين النافرة منها العروق كالحبال فقال لهُ باسبارتو

— اود من صميم الفؤاد ان اسافر معك

— من اي جنسية انت

— من الجنسية الفرنسوية

— ولماذا انت متزيٍ بالزي الياباني

— بذا قضت الايام

— أأنت باريزي

— نعم

— هل تعرف ان تعوّج وجهك وتكشر انيابك

— نحن معشر الفرنسويين ما اختلفنا فيما تقول عن الامركان

— يمكنني ان استخدمك عندي بوظيفة (مُضحك) فهل لك بضروب الغناء المام

— في غاية ما يرام

— فانت منذ الان في خدمتي

فعند ذلك دخل باسبارتو الى دار المستر باتولكار واندرج في سلك المشخصين يتأمل مناظرهم ويضحك من ملابسهم

وقد كان موعد التشخيص في دار باتولكار في الساعة الثالثة من النهار وقبل حلول الاجل بزمن قليل تقاطرت الجموع من الاوربيين والصينيين واليابانيين من رجال ونساء واطفال يشاهدون غرائب التشخيص وبدائع التمثيل واتقان ضروب الالحان ويشنفون الاذان باستماع عزف الات الطرب واصوات الصنوج والطبول

وما حلت الساعة الثالثة المذكورة حتى ضاقت فسحات الدار المعلومة على سعتها بمن وفد عليها من المتفرجين تخطر في وسطهم ربات الجمال

كالورد خداً والهلال تباعداً
والظبي جيداً والقضيب تأودا

ويمايلن تمايل الاغصان فشخصت اليهن الاحداق وتطاولت الى مقاماتهن الاعناق فارسلن اسهم مقلهن الى قلوب العشاق وقد كان

بين السيوف المرهفات ولحظها
عهدٌ على سفك الدماء وموثقُ

ويحق للقلوب ان تهوى تلك الحسان وقد فقنَ الحور نحوراً والخيزران خصوراً وخطرنَ اغصاناً ولحن بدورا ومسنَ تيهاً وعجباً واكتحلنَ فتورا وملنَ فارخينَ على الخصور شعورا ثم تواريَنَ عن العيان بعد هذا الدلال فدخلنَ الى قاعة خصصت لذوات الخدور فرافقتهن قلوب اهل الغرام

وبعد ان اكتمل الجمع استوى عازفو الالات على كراسيهم فشدوا الاوتار ونفخوا بالمزمار وضربوا الطبول وقرعوا الصنوج ثم رفعت الستارة وشرع في تمثيل الدور الاول من رواية الانوف الطويلة وهي رواية تأخذ بمجامع العقول

وبرز المشخصون الى وسط المرسح فسحروا الالباب برشيق الحركات وحسن الالقاء وادهشوا الانظار بتنويع المشاهد واختلاف المناظر فانهم ظهروا بملابس الابطال في ساحات القتال ثم تبدوا باجنحةٍ عريضة مسترسلة الى الاكتاف وانوفٍ من الخيزران طولها من خمس الى عشر اقدام بعضها معوج وبعضها مستقيم وظهر اثنا عشر شخصاً يختبئون تحت الاجنحة ولا يرى منهم سوى انوفهم وقومٌ يدنون منها ويضربون عليها بقوة وعزم ثم يجتمع جمهور المشخصين ويدورون في وسط المرسح فيرقصون ويعقدون وينهضون آتين بضروب الهزل في معرض الجد بما سرَّت به الخواطر وقرت به النواظر

وفي الدور الثاني اندمج باسبارتو في سلك اللاعبين فارتدى بملابسهم وعندما شرعوا في الالعاب استلقى فريق منهم على الظهور ورفعوا انوفهم نحو السماء ثم جاءت فرقة من المتوازنين (ايكيلبريست)

فوقفت على ذيول طويلة واتت فرقة اخرى فوقفت على اكتافهم وتلاها فرقة رابعة ثم قام على انوفهم الطويلة ضريح اتصل بافريز المرسح

فسر الحضور بهذه المناظر وكثر تصفيقهم وضجيجهم وعزفت الموسيقى باصوات ضارعت هزيم الرعد ثم صدحت بانغام كانغام الاطيار حتى اسكر العازفون حضور الرواية بخمرة الانشراح وبينما كانت هذه الحالة جارية على اتم مرام والعيون ترصد اللاعبين اذ بهولاء فقدوا التوازن فسقطوا على الارض وسقط الضريح وكان مرجع الذنب عائد على باسبارتو فانهُ ترك مكانه واخترق صفوف المتفرجين ثم اقترب من احدهم صارخًا

— مولاي مولاي

فاجابهُ من بين الحضور صوتٌ قائل

— الحقني الى الباخرة

وكان الصوت صوت فيلاس فوج وبجانبه الفتاة عائدة فلما اوعز فيلاس الى باسبارتو بان يلحق بهِ خرج فوج وعائدة من المرسح وتبعهما باسبارتو وبعد ان تجاوزوا الدار لحق بهم المستر بوتولكار رئيس الجوق طالبًا تعويض الاضرار فطيب المستر فوج خاطره واعطاه كمية من سفاتج البنوكة

الفصل الرابع والعشرون

في اجتياز الاوقيانوس الباسيفيكي

بعد ان نكست السفينة تانكادير اعلامها — على ما مرَّ بنا بيانه — واطلقت مدافعها التماس المعونة والمدد من باخرة البريد المقلعة الى يوكوهاما توالت بعض الساعات على حالة هذه السفينة وهي في انتظار الاسعاف ثم اقتربت الباخرة منها فاخذت ركابها وعادت الى طريقها سائرة الى يوكوهاما فوصلت اليها في ١٤ نوفمبر وما رست في مياهها حتى خرج المستر فوج منها وانطلق مصحوبًا بالفتاة عائدة الى السفينـة (كارناتيك) يستطلعان خبر باسبارتو فعلما بملء المسرة ان باسبارتو كان فيها وانهُ خرج منها ساعة وصولها الى المينا

فبعد ان علم المستر فوج بخروج خادمه الى مدينة يوكوهاما خرج الى البر تصحبه الفتاة وساروا سوية في شوارع

البلد باحثين عن مقر الخادم فاستعلما عنه من قنصليتي فرنسا وانكلترة ولما لم يقفا لهُ على خبر ومضى على بحثهما وقت طويل عاد الى الباخرة المسافرة الى سان فرنسيسكو وفي اثناء عودتهما عرّجا على مرسح باتولكار ليشاهدا فيه الالعاب فعثرا بباسبارتو اذ رأياه يلعب على نحو ما تقدم لنا الكلام عليه فخرجا به كما اوضحنا وتوجه الجميع الى المينا وفي اثناء الطريق قص باسبارتو على سيده ما وقع لهُ ولكن بدون ان يذكر البصاص فيكس وبعد استيفاء حديثه دفع اليه مولاه قدرًا كافيًا من النقود ليبتاع لنفسه ثيابًا فاخذها بعد ان خلع عنهُ انفهُ الطويل وجناحيه العريضين

وكانت الباخرة الذاهبة من يوكاهاما الى سان فرنسيسكو من اتقن بواخر شركة البريد الباسيفيكي واسرعها سيرًا وهي تعرف باسم (الجنرال غرانت) وهي من ذوات العجلات تحمل الفين وخمسمائة طنًا وتسير اثني عشر ميلاً في الساعة ولها ثلاثة صوارٍ تامة اقمشة القلوع وكان فوق سطحها رفاس حديدي يرتفع تارةً و ينحط اخرى وعلى احد جانبيها يتحرك ذراع (البستن) وعلى الثاني يدور رأس (الكرنك) فيأتي بدل الحركة المستقيمة بحركة مربعة يصلها بعمود العجلات . وبالنظر الى ما كانت السفينة عليه من سرعة المسير عدّل المستر فوج انهُ يصل الى سان فرنسيسكو في ثاني ديسمبر والى نيويورك في ١١ منهُ والى لوندرة في ٢٠ بدل ٢١

ثم اقلعت السفينة من مرفاء يوكوهاما غاصة بالركاب من انكليز وامركان وضباط عسكريين من جيش الهند يقضون مدة اجازتهم السنوية في الطواف حول الارض . وفي هذه الرحلة كانت السيدة عائدة تهتم بشأن المستر فوج اهتمامًا خارق العادة وتنزعج من الموانع التي تحول دون اربه في رحلته وتنظر اليه نظرة المحب لا نظرة الصديق وتتفرس وجههُ فترى فيه جمالاً فائق الوصف يقيد قلبها بقيود الغرام فتطرق هيبةً واستحياء

اراكَ فاستحيي فاطرق هيبةً
واخفي الذي لي من هواك واكتمُ

وهيهات ان يخفى وانت جعلتني
جميعي لسانًا في الهوى يتكلمُ

وقد كانت مشغلة بما كان يمر برأسها من التصورات وبخاطرها من عواطف الحب والهيام فتنقاد لانفعالات النفس لان المستر فوج كان قد تملك فوادها بجزيل احسانه ووافر جميله . وكانت هي ايضًا والحق يقال تأخذ بالالباب وتعظم في العيون فانها مليحة الشباب كاملة المحاسن بهية الرواء رشيقة الحركة بلا تصنع وكان المستر فوج كلما نظر اليها يتهلل سرورًا وكانت كلما كلمتهُ ابدت له ابتسامةً لها في ثغور الحسان معانٍ لا يفهمها الا المحبون

دلائل الحب لا تخفى على احدٍ
كحامل المسك لا يخلو من العبق

وبعد مبارحة يوكوهاما بتسعة ايام كان المستر فوج قد بلغ من طوافه حول الارض نصف الكرة الارضية لان الباخرة (الجنرال غرانت) كانت في ٢٣ نوفمبر داخلة في النقطة المائة والرابعة والعشرين من دائرة نصف الكرة الشمالية المقابلة للوندرة وهنا سبيل للقول انه اذا كان قد مضى على طواف المستر فوج منذ قيامه من لوندرة حتى الان اثنان وخمسون يومًا ولم يقطع سوى نصف المسافة فكيف به يقطع النصف الباقي في مدة الثمانية والعشرين يومًا الباقية له من مدة الرهان

اقول : نعم ان المستر فوج ما بلغ حتى الان سوى نصف الطريق ولكن اذا وجهنا النظر الى المسافة جميعها نراه قد اجتاز اكثر من ثلثي الرحلة لانهُ يوجد مسافة طويلة بين لوندرة وعدن وكلكوتا وسنجابور ويوكاهاما واما الان فالطريق مستقيمة ليس فيها عقبات ولا مصاعب تحول دون المراد

وحدث انهُ في الثالث والعشرين من شهر نوفمبر افتقد باسبارتو ساعتهُ للاستدلال منها على الوقت فرآها منطبقة على ساعة السفينة فطرب وفرح وسرّ وابتهج كأنهُ ملك سعادةً عظمى وقال باعلى صوتهِ اين فيكس وماذا يقول الان لقد حصحص الحق وظهر لكل ذي عينين واتضح كذبه ونفاقه لحاه الله وخزاه فكم حاول اقناعي بما تفنن بهِ من ضروب

الكلام اذ قال لي ان ساعتي تتقدم كثيرًا وانه يلزم تطبيقها على ساعة كل جهة بلغناها فليأتِ ولينظر الان فان الله يحق الحق ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقًا

اما باسبارتو فكان هذه المرة في ضلالٍ مبين تائهاً في مفاوز جهله الفاضح فان عقرب ساعة السفينة كان دالاً على الساعة التاسعة من الصباح وعقرب ساعة باسبارتو كان دالاً على الساعة التاسعة من المساء ولو كان لساعة باسبارتو مينا رقم عليها ٢٤ ساعة لكان ميز الغث من السمين

اما فيكس فما وصل الى يوكوهاما حتى انطلق الى دار القنصلية الانكليزية فاستلم منها امرًا واردًا اليه من لوندرة بالقبض على لص البنك المستر فيلاس فوج فلما اطلع على الامر ونظر الى تاريخ صدوره وعلم انهُ قد مضى عليه نيف واربعون يومًا وان مفعوله لذلك بات باطلاً بالنظر الى طول المدة التي مرت عليه وبالنظر الى كون المستر فوج يدوس الان ارضًا غير انكليزية لا تسلم شرائعها بسجن احد قبل محاكمته وصدور القرار القضائي عليهِ فتميز حينئذٍ من الغيظ وصرف وقتًا طويلاً في الاستسلام الى الغضب واستمر كذلك الى ان افاق من غفلة غيظه وقال قد سبق السيف العذل فباطلاً اقتل الاوقات في الكدر وسوف اشفي حزازات صدري من فيلاس عندما يصل الى انكلترة ولو وصلها خاوي الوفاض لا اجد معهُ من السفاتج التي اختلسها شيئًا فانه قد انفقها في الاسفار والدعاوي والهبة ومشترى الافيال وغير ذلك شأن من يسرف مال غيره ولكن فلا بأس فمال البنك غزير

وعاد فيكس الى الباخرة (الجنرال غرانت) قبل عودة المستر فوج فصعد على سطحها يتأمل امواج البحر مبددًا جيوش الافكار التي طرأت على رأسه في ذلك النهار ثم رمى الزوارق القادمة الى الباخرةَ بالركاب فرأى في احدها المستر فوج والسيدة عائدة والشاب باسبارتو فساءه لقاه باسبارتو ونهض على الفور فانطلق الى غرفته ليتوارى عن عينيه

وفي ذات يوم حدث ان باسبارتو

كان سائرًا على سطح السفينة فالتقى بفيكس وجهًا بازاء وجه فكرّ عليه كرّ الابطال وقبض على عنقه قصد الفتك بهِ ثم رفع يده عن عنقه وجعل يلكمه حتى اسال الدم منهُ مظهرًا للمتفرجين من الامركان ان اللكم الفرنسوي (البوكس) يفوق اللكم الانكليزي شدةً وعزمًا وعندما اروى باسبارتو غليله منه سكن جأشه فقال لهُ فيكس

— هل شفيت غليل فوادك مني

فاجابهُ باسبارتو

— لا ولكن تعبت الان يداي من اللكم

— اسمح لي الان بالانفراد معك لاخبرك باني لم اعد القي في سبيلكما العقبات وانهُ صار من مصلحتي ان تعودا الى لوندرة عاجلاً وفيها تعلم يا باسبارتو انك تخدم لصًا

فكان باسبارتو يسمع ذلك بكل اصغاء متبينًا بعض الصحة في قوله انه انقطع عن اضطهاده لما الا في انكلترة ثم قال فيكس

— هل نحن صديقان حميان

— لا ولكننا رفيقان في السفر واعلم جيدًا اذا ظهرت لي منك خيانة ولو طفيفة اكسر رقبتك لا محالة

— لا بأس

وفي الساعة الحادية عشرة من ليلة ٤ دسمبر دخلت الباخرة بوغاز (البوردو) المؤدي الى سان فرنسيسكو وكان وصولها في الميعاد القانوني بدون تقديم او تأخير يرقمهُ المستر فوج في دفتر الرحلة

الفصل الخامس والعشرون

في براز ونزال

وطئت اقدام المستر فوج والسيدة عائدة والشاب باسبارتو ارض الامركان في الساعة السابعة من صباح رابع دسمبر ومن عظم ما استحوذ على باسبارتو من الفرح والسرور بوصوله الى ارض امركا وثب الى البر ساعة خروجه من الصندل فسقط على رصيف خشبي بنخره السوس فصرخ صرخة هائلة جفلت منها طيور

البط والبجع الحائمة حول تلك الارصفة المتحركة الممتدة في البحر والمياه حولها ترتفع وتنحط بحيث ان البضائع تشحن منها وتفرغ عليها بسهولة كلية وبالقرب منها ترسو سفن ومراكب وزوارق وبواخر تخفق فوقها الاعلام المتنوعة الالوان فان هذه المينا تكثر الواردات اليها من الاصناف والبضائع برسم البلاد الخارجية كالمكسيك وبيرو وشيلي والبرازيل واوربا واسيا وغير جزائر من جزائر الاوقيانوس الباسيفيكي

وريثما صعد المستر فوج الى البر توجه الى محطة السكة الحديدية مستعلمًا عن ميقات قيام القطار الاول الى نيويورك فاُخبر انهُ يذهب اليها في الساعة السادسة من مساء اليوم ولكي يقتل الاوقات بدون ضجر وانزعاج اكترى عربة بثلاثة ريالات وسارت حتى بلغت بهم النزل الاجنبي وحيث ان باسبارتو كان راكبًا على كرسي العربة بجانب السائق تمكن (بالنظر الى ارتفاع مكان جلوسه) من رؤيا المدينة وبناياتها الشاهقة وهياكلها العظيمة وقصورها الباذخة التي بعضها مبني من الاجر والبعض الاخر من الخشب وقد رأى في فسحات طرقاتها العربات والهوادج سائرة ورأى قومًا من الامركان والاوربيين والصينيين والهنود يزيد عددهم على المائتي الف عدًا

وكان الفندق الاجنبي شديد المماثلة لفنادق انكلترة في البنيان واصطلاح العادات وهيأة المباحث حتى ان باسبارتو ظن نفسه فيه انهُ لم يخرج من لوندرة وعلى الخصوص عندما وجد في طبقتهِ السفلى حانة ومائدة للطعام تقدمان المشرب والمآكل للمسافرين مجانًا

ودخل المستر فوج والفتاة الى حجرة الطعام فاكلا مريئًا وشربا هنيئًا وبعد ان شبعا وارتويا نهضا وانطلقا الى دار القنصلية الانكليزية قصد تسجيل تذكرة المرور وفي اثناء خروجهما من باب الفندق التقيا بباسبارتو فقال لمولاه

ــ ارى من الحكمة ومن الصواب ان نقتني اسلحة كالمدى والغدارات لندفع بها شر الشيوكس والباونس اذا عارضونا في الطريق ووثبوا على القطارات الحديدية يريدون توقيفها واقتلاع عجلاتها

فقال فوج

ـ افعل ما شئت

ثم ساق القدم الى دار القنصل وما نقل قدمه مسافة مائتي خطوة حتى عثر بفيكس الذي لما رآه ابتدره بالتحية فسلم عليه تسليم المشوق وابدى له الدهشة والانذهال من هذا اللقاء غير المنتظر واوضح له كونه مسرورًا سعيدًا بتلك المشاهدة ثم طلب ان يرافقه في زيارة المدينة فاجابه المستر فوج الى ذلك وساروا جميعًا في الشوارع والاسواق حتى وصلوا الى شارع فسيح الجوانب غاص باقوام تخفق فوق رؤوسهم الاعلام وتقذف افواههم هذه الالفاظ

. كوراح الى كاميرفيلد .

. كوراح الى مانديبوس .

فوقفوا يتفرجون على حركات اولئك الناس وبعد برهة اظهر البصاص فيكس للمستر فوج عدم ملاءمة اختراقهم لصفوف تلك الجموع خوفًا من الزحام وتسابق المزاحمين فيصيبهم لكمة اورفسة فاستحسن المستر فوج رأيه ولكنه كان على جهل تام بسبب الازدحام يتسآل عن سبب تجمع الناس وما كانوا يبدونه من البشر والايناس والتهليل باصوات ترتفع في الفضاء بنغمات تثير الاشجان الا انه نظر في وسط الجمع بطلين هامين يتباريان في ميدان المصارعة واسم احدهما . كاميرفيلد . والاخر . مانديبوس . وبينما كان مرسلاً نظره الى هذه المبارزة انطلق البصاص فيكس ليستعلم ممن كانوا على بعد دقيقتين منه من الاوربيين عن الباعث على هذه المسرات واذا بالجموع هاجوا وثاروا وتضاربوا وتلاكموا واوقفوا العربات وقذفوا الاحذية والقلانس في الفضاء واطلقوا العبارات النارية اشارة الى الفوز والظفر

وكان اولئك الجموع منقسمين الى حزبين احدهما ميال الى مانديبوس والاخر الى كاميرفيلد المتصارعين ولا بد ان يكون احد هذين البطلين قد استظهر على رفيقه فثار حزبه مفتخرًا على الحزب الثاني على ما تقدم القول

وحدث انهُ من شدة هياج القوم وازدحام الاقدام وجد المستر فوج والسيدة عائدة والبصاص فيكس انفسهم مندمجين في وسط اولئك الجموع الشاكي السلاح

المعتقلي الهراوات الرصاصية والقضبان الحديدية فحاروا في شأنهم وطلبوا النجاة ولا مناص لهم مما وقعوا فيه فجعلوا يدارون الفتاة من الصدام وبينما هم كذلك اذا برجل طويل القامة احمر اللون تقدم اليهم وابتدر المستر فوج بضربة كادت تكون القاضية لو لم يتلقها البصاص فيكس بساعديه فحملق المستر فوج بعدوه وقال له

— افٍ عليك من امركاني

فاجابه الخصم

— افٍ عليك من انكليزي

فقال فوج

— سوف ترى من طعنات حسامي
عند اللقاء ما يُشيب الطفل الرضيع

فقال الخصم

— لا لا : ما كل من رفع السلاح
كان لرفعه اهلاً

فقال فوج

— ما اسمك

— الكولونل ستامب بروكتور وانت ما اسمك

— فيلاس فوج

وبعد برهةٍ يسيرة سكن الهياج فتخلص المستر فوج ورفيقاه من مركزهم الحرج وحمدوا الله على نجاتهم ثم انطلقوا سائرين الى النزل الاجنبي فرأوا عند مدخله الشاب باسبارتو منتظرًا وصولهم مدججًا بالسلاح الجارحة والنارية فلما رأى فيكس اتيًا وراء مولاه نظر اليه شزرًا وضرب عنه صفحًا ثم سأل مولاه عما شاهده من العجائب في ارض الغرائب فقصت عليه الفتاة عائدة ما وقع لهم جميعًا وكيف ان فيكس اعانهما (اي اعان عائدة وفوج) فالتفت اليه باسبارتو وشكره بافصح لسان واجلى بيان وبعد ذلك دخلوا جميعًا حجرة الطعام فبعد الاكل استحضروا عربةً تحملهم الى المحطة وعندما هم المستر فوج على الركوب سأل فيكس عما اذا كان نظر الكولونيل بروكتور فاجابه فيكس سلبًا فقال فوج لا بد من الرجوع الى هنا بعد اتمام رحلتي لكي انتقم من هذا الكولونل اللئيم الذي اهان الشرف الانكليزي واساء معاملتي بما فعل ولسوف ينال جزاءهُ

وعند الساعة الخامسة والدقيقة ٤٥

وصلت العربة بهم الى المحطة وكان القطار على اهبة المسير وبينما كان المستر فوج ينقل قدمه الى احدى العربات اذ نظر احد مستخدمي المحطة فسأله قائلاً

ــ ما هو السبب الباعث على الزحام الشديد اليوم في شوارع المدينة

ــ في هذا اليوم تم انتخاب قاضٍ للصلح في المدينة

وبعد ان القى المستخدم هذا الجواب الى المستر فوج قام القطار وسار يطوي القفار

الفصل السادس والعشرون

في ركوب قطار الاكسبريس في سكة (الباسيفيك)

تنقسم السكة الحديدية الى فرعين وهما فرع الباسيفيك ويمتد بين سان فرنسيسكو واودجين وفرع اتحاد الباسيفيك ويمتد بين اودجين واوماحا التي يتشعب منها خمسة خطوط قائمة بذاتها تصل اوماحا بنيويورك

وسان فرنسيسكو ونيويورك يتصلان بخط حديدي مسافته ثلثة الاف وسبعمائة وستة وثمانون ميلاً يجتازها القطار في مدة سبعة ايام فكان المستر فوج لذلك يأمل ان يصل الى نيويورك في ١١ الشهر ويركب منها الباخرة المقلعة منها الى ليفربول

وحدث انه بعد قيام القطار بساعةٍ من الزمان تلبدت الغيوم واظلم الجو وهزم الرعد وهمت عيون السحب بمدامع الغيث المدرار ثم برد الهواء وامطرت السماء ثلجًا فكست الارض ثوب البياض

وفي الساعة الثامنة طاف المأمور (الكوميساري) عربات القطار واعلم الركاب بحلول ميعاد الرقاد وحينئذٍ مدت على الكراسي التي يجلس عليها المسافرون شراشف تفوق الثلج بياضًا ووضعت عليها الوسادات والاغطية وأُرخيت على المنافذ ستارات تحجب النور حتى خيل للركاب انهم في غرفٍ من سفينةٍ على ظهور البحار وما كانوا الاَّ ناهبين الارض عدوًا على مركبة تسير على قضبان الحديد سير البرق لمعًا وايماضًا في بطون فلوات واسعة ممتدة بين سان فرنسيسكو وساكرامنتو وتجه بما يمكن من السرعة نحو

الشرق لتلتقي بالقطار الذي يقوم من اوماحا فانه يمتد من سان فرنسيسكو الى عاصمة مملكة كاليفورنيا فرع حديدي على طول نهر - امركان - الذي يصب في خليج سان بابلو ومسافة طوله مائة وعشرون ميلاً يجتازها القطار في مدة ست ساعات وعند منتصف الليل مر القطار وركابه نيام بمدينة ساكرامنتو وبعد ان عرّج على عدة محطات وعند الساعة السابعة صباحاً مرّ بمحطة سيسكو وفي الساعة الثامنة نهض الركاب من النوم وحمدوا خالق الليل ومبدع النهار واطلوا من منافذ العربات ينظرون الى القفار التي يشق كبدها القطار والى عرائس النبات التي يميل بها الهواء والى جمال الطبيعة ومناظرها البديعة

وعند الساعة التاسعة كرّ القطار في وادي كارسون ماراً باراضي نيغادا سائراً في الجهة الشمالية الشرقية حتى اقترب من محطة رينو فوقف نحو عشرين دقيقة تناول الركاب في خلالها الطعام

وبعد الفراغ من تناول الطعام عاد المستر فوج والسيدة عائدة ورفيقاها الى محلاتهم واحدقوا في تلك الارض ومروجها الخضراء واوديتها وجبالها والحيوانات الهائمة فيها الشاردة في ضواحيها كالابقار البرية التي كثيراً ما تقف في طريق القطار فتعوقه عن السير

وفي الساعة الثالثة من مساء ذلك اليوم انتشر في طريق القطار قطيع من البقر مؤلف من ١٢ الف رأس وكان يمشي الهوينا على جسر السكة لا يخيفهُ سير القطار ولا شرار النار المتصاعد من فم الخلقين ولا سواد الدخان الخارج من المدخنة وكانت تلك الابقار ضخمة الجسم قصيرة الاذناب بارزة الاكتاف ذات قرونٍ مقوّسة ورؤوس ورقاب مغطاة بناصية ذات شعر طويل

وقد اندهش الركاب من منظرها فوقفوا امام منافذ العربات وفي مطلات القطار ينظرون اليها ويسبحون خالقها

اما المستر فيلاس فوج فما تحرك من محله بل لبث فيهِ ينتظر استئناف المسير وقد كدر باسبارتو هذا الوقوف وهم مراراً ان يطلق على هذه الحيوانات العيارات النارية

اما سائق القطار فقد اتخذ له الحكمة دليلاً ومنع القطار من المسير بين صفوف تلك الحيوانات خيفة ان تفتك بها العجلات وتكون عائقًا للقطار عن اتمام مسيره اذا مر عليها وخرجت العجلات عن القضبان الحديدية ولذلك آثر الانتظار على السير

وقد مضت على انجلاء القطيع عن الطريق ثلاث ساعات طوال أُذن بعدها باطراد المسير

وما حلت الساعة الثامنة حتى عبر القطار مضيق جبال هومبولدت وظل مارًّا بها يطويها حتى دنت الساعة التاسعة ونصف فبلغ ارض اوطاح ومقاطعة بحيرة (صالي) بلاد غرائب المورمون

الفصل السابع والعشرون

في مرسل مورموني

وسار القطار اثناء ليل سادس ديسمبر في بقعة من الارض تبلغ مساحتها ٥٠ ميلاً وما لبث ان تحول عنها الى الجهة الشمالية الشرقية حتى اقترب من بحيرة صالي العظيمة

ولما اقبل الصباح وقف باسبارتو في الساعة التاسعة قبالة مطلة القطار يستنشق النسيم فهبت عليه ريح الصبا فانعشت قواه وكان الجو اذ ذاك ذا لون اسمنجوني اشبه بلون البنفسج وكانت الشمس في كبد السماء مغشاة ببرقع من السحاب فظهرت من خلاله كقطعة ذهبية رائقة الصفرة وهو ما جعل باسبارتو ان يرتبك بتجزئتها الى ليرات انكليزية وبينما كان مشتغلاً بذلك الحساب اذا به رأى شخصًا تلوح عليه علائم الاثراء والشرف وملامح الوقار والجلال وكان طويل القامة اسمر اللون اسود الشاربين وكانت يداه مستورتين بكفوف سوداء وعلى رأسه قبعة من الحرير الاسود وعلى جسمه لباس اسود وفي عنقه رباط من الحرير الابيض وكان بالاختصار مستكملاً لمظاهر الترف والثروة وعلو المنزلة وكان يقترب من باب كل مركبة من مركبات القطار ويلصق عليه اعلانًا مكتوبًا بخط يده فدنا باسبارتو من الاعلان فقرأه واليك ترجمته

انا الموقع على ذيل هذا الاعلان

المرسل وليام هتش اغتنم فرصة وجودي في القطار المرقوم عليهِ عدد ٤٨ واتشرف بان اعلن لحضرات المسافرين الكرام انني عينت ساعة واحدة تبتدئ من الساعة الحادية عشرة صباحًا وتنتهي في الظهر لالقاء الدروس المقدسة في العربة المرقوم عليها عدد ١١٧ وذلك في الديانة المورمونية واشرح بالاسهاب افضال القديسين الذين ظهروا في الايام الاخيرة فاحث الركاب للحضور واني لهم من الشاكرين الامضا

وليام هتش احد مرسلي
الديانة المورمونية

ولما قرء باسبارتو هذا الاعلان قال في نفسه

— لا مانع من ذهابي الى مقرتلك الدروس لاحضر تعاليم وليام الدينية فاعرف شيئًا من تقليدات هذه الديانة التي من مبادئها الاولية اكثار الزوجات

وما دنت الساعة المعينة حتى ازدحمت العربة (١١٧) بالحضور واجتمع فيها ما ينيف عن الثلاثين شخصًا عدًا فقام فيهم المرسل هتش خطيبًا وافتتح الكلام بصوتٍ عالٍ فقال:

اقول ولا اخشى في الحق تعنيفًا ان (جون سميث) مات شهيدًا وهو الان في جنة الابرار نعيم الاخيارِ واقول لكم ايضًا ان اخاه هيرام مات شهيدًا ايضًا وهكذا سيموت الشاب برايغم فمن منكم يتجرأ ويقول بعكس ذلك . لا اظن ان احدًا يقدم على عكس هذا القول . واعلموا جيدًا ان الايمان يتأيد في زمن الاضطهاد وان الديانة تنمو في زمن الضيق انظروا الى حكومة الولايات كيف انها لما استولت على مقاطعة اوطاح سجنت جميع المورمون وفي جملتهم الشاب برايغم وهم الان يقاسون مرّ العذابات بفرحٍ وسرور

ان الديانة المورمونية موجودة منذ الازل وقد تلقاها من السماء نبيّ من سبط يوسف واودع وصاياها في كتابٍ سلمه لولده مورمون وبعد قرون ترجم الكتاب الى لغة المصريين حضرة الفاضل يوسف جونيور الذي كان صيدليًا ورُفع الى السماء عام ١٨٢٥ . اه

وكان هذا المرسل يتوقد في كلامهِ نطقًا ويلتهب حدةً ويذوب تصورًا

ويِنسيل رقةً مقلباً اوجه الحديث متفنناً في ضروبه متنقلاً في اساليبه باسطاً للعلم بحيث يقال عنه هذا آية الدهاء والذكاء مظهرًا للجهل بحيث يقال هذا مثال السذاجة والبله ولكنه اطال الكلام حتى ضجر الحاضرون فاخذوا في الخروج من العربة ولم يبقَ منهم الا عشرة اشخاص لبثوا يسمعون حديثه حتى النهاية

وكان القطار اثناء ذلك سائرًا بسرعة لا مزيد عليها وما حان اوان الظهر حتى اقترب من بحيرة صالي التي تصب في اردن امركا ويتدفق ماؤها على صخورٍ قائمة من حولها محدبة مسترسلة الى الارض التي يمد الربيع عليها بساطاً سندسياً مدبجاً بلالئ ازهار تنعش الافئدة بطيب شذاها . اما البحيرة فطولها يبلغ سبعين ميلاً بوجه التقريب وعرضها ينيف على الثلاثين ميلاً وهي تبعد عن البحر مسافة ثلاثة آلاف وثمانمائة قدم

وفي الساعة الثانية وصل القطار الى محطة اجدين فوقف فيها اربع ساعات متواليات خرج ابنسعر فوج في خلالها الى البر مصحوبًا برفقائهِ وساروا نحو مدينة (القديسين) قصد التفرج على ظرائفها ولطائفها وقد وصلوا اليها في الساعة الثالثة فطافوا شوارعها وطرقاتها وزاروا اجمل قصورها وابنيتها كدار الندوة وبلاط الملك والمسلحة وسائر ما تحتوي عليه من الاثار اما ابنية هذه المدينة فجميعها مبنية من الآجر المائل الى الزرقة وامامها ليوانات ومماشٍ وحولها بساتين فيها عرائس الرياحين واشجار النخل والخروب يتخللها النبات الاخضر ويكتنف هذه المدينة سورٌ مبنيٌ من الخزف منذ عام ١٨٥٣ ثم طافوا عدة شوارع بدون ان يلقوا في طريقهم انساناً كأن المدينة دار بلقع لا تأهل سكاناً . ولما وصلوا الى شارع الهيكل التقوا بنسوةٍ كثيرات مارات بالطريق ورأوا الغنيات منهنَّ يلبسنَ وشاحاً من الحرير الاسود خالياً من بهارج الزينة فاستدل باسبارتو من كثرة عددهنَّ على انهن مورمونيات . وهنا مجال للقول ان عند بعض المورمون (لا جميعهم)

سنة اكثار الزوجات خصوصًا عند اهالي مدينة اوطاح فانهم يتكرون على البنات العذارى البقاء في العزوبة ويسوقونهنّ الى الزواج قسرًا كالنعاج

وعند الساعة الرابعة عاد المتفرجون الى المحطة ونزلوا الى محلاتهم في عربات القطار وعندما صفر القطار دلالةً على السير واخذت العجلات تكر على القضبان الحديدية علا في الجو صوت ينادي السائق ان قف ولا تسر

وبما ان قانون السكة الحديدية لا يرخص لمهندسي القطارات في الوقوف متى سارت ظلَّ القطار لذلك سائرًا بينما كان ذلك الصوت ينادي السائق ان : اقف المسير : وبعد ثانية من الزمن رؤي صاحب الصوت راكضًا ثم والجًا فسحة المحطة ومنها انطلق عدوًا الى الرصيف فقفز منهُ الى سلم اخر عربة من القطار وكان هذا الرجل من اهل الديانة المورمونية

وكان باسبارتو مشاهدًا لذلك الحادث فاعجبهُ من المورمون خفتهم في القماص وسرعتهم في السير ولكنهُ كان جاهلاً للباعث الذي اخر هذا الرجل عن ركوب القطار وللداعي الذي اضطره الى هذا السفر المعجل وما علم ان المورموني كان هاربًا من الزواج

وبعد ان وصل المورموني الى القطار واستراح اقترب منهُ باسبارتو وسألهُ بقوله

— كم لك من النساء

فاجابهُ المورموني رافعًا ذراعيه الى السماء

— واحدة فقط وهي حسبي وكفى

الفصل الثامن والعشرون

في ان باسبارتو اخفى على مولاه امرًا ذا بال

وبعد مبارحة القطار لمحطة البحيرة (صالي) ولمحطة (اجدني) سار ساعة طويلة نحو الشمال الى ان وصل الى نهر « فيبر » وكان قد قطع تقريبًا تسعمائة ميل من حين قيامه من محطة سان فرنسيسكو

وبعد قيامه من نقطة نهر « فيبر » سار في مضيق جبال « واحسانش » في بقعة فاصلة بين هذه الجبال وبين

جبال روشيز حيث عاني المهندسون الامركان مزيد التعب في تخطيط السكة الحديدية وعقدوا مع الحكومة اتفاقًا على اجرة تبلغ ٤٨ الف ريال عن كل ميل في الجبال مع ان اجرة الميل في السهول ستة عشر الف ريال فقط

وعند الساعة السادسة مساء وقف القطار في محطة : فور برايد جير : وبعد برهة وجيزة بارجها وما اجتاز عشرين ميلا حتى بلغ ارض ولاية : رومينج : وسار في وادي جون : بيتر : وفي صباح سابع ديسمبر وقف القطار في محطة :جرين ويفر: نحو من ربع ساعة كان الثلج في خلالها يتساقط كثيفًا بما يبعث الركاب على الخوف من ان يكون سببا في وقوف القطار ولكن لحسن الطالع امسكت السماء قليلا ثم امطرت غيثًا مدرارًا فاذاب الثلج

وقد اضطرب باسبارتو لذلك وكلما احدق في الارض ويشاهد فوقها الثلوج تلالا كان يخالها تميد به في الطول والعرض ثم يقول في نفسه : اما كان الاجدر بمولاي ان يختار زمن الصيف لهذه الرحلة تخفيفًا للمصاعب التي يصادفها في زمن الشتاء ومجانبةً للموانع التي يلقاها في طريقه حينًا بعد حين من غير انقطاع

وفي اثناء وقوف القطار نزل منهُ بعض الركاب الى رصيف المحطة لتمضية الوقت ومن جملتهم الكولونل ستامب بروكتور وكانت الفتاة عائدة وقتئذٍ متربعة في عربتها منقبضة الصدر مشتتة البال قلقة الفكر من جراء الموانع التي كان يصادفها المستر فوج في رحلته ودفعًا للغم دنت من نافذة العربة واحدقت بصرها فيما خارجها فرأت اناسًا يخطرون على الرصيف وبينهم الكولونل ستامب الذي اساء معاملة المستر فوج في مدينة سان فرنسيسكو فتوعده بالاقتصاص منه ايما قصاص . فلما نظرتهُ الفتاة ارتدت عن النافذة لئلا يراها فيعرفها فجلست مستسلمةً لتباريح القلق ضاربةً في وهاد الاضطراب جازعةً من فكر مشاهدة المستر فوج لهذا الكولونل فيشتبك معهُ بقتال تسوء عاقبته سواء ظفر فوج او لم يظفر فانهُ يؤخره عن اطراد السفر

وعند قيام القطار من المحطة اغتنمت عائدة رقاد المستر فوج واخبرت فيكس وباسبارتو بوجود الكولونل بروكتور في القطار واطلعتهما على سؤ العاقبة اذا التقى بالمستر فوج فقال لها فيكس

ـ ان هذا اللئيم ساءني جدًا وسينال جزاءهُ مني

وقال باسبارتو

ـ ساخذ عبئ هذا الامر على عاتقي

فقالت لهما الفتاة

ـ ان شهامة المستر فوج تأبى ان تأخذا بثأره وهو رجل شديد الساعد قوي البنية ونحن الان في حالةٍ يجب ان نكتم فيها الامر على المستر فوج وألّا ندع لهُ فرصة يخرج بها من القطار حتى يصل الى نيويورك فلربما لا يشاهد عدوهُ في القطار ومتى بلغنا نيويورك لا نعدم طريقة اخرى لملافاة الامر

فوقع كلامها في الاذان موقع الاستحسان وعندها استيقظ المستر فوج فقطعوا الكلام وبعد التزامه السكوت مدة لم يفه في في خلالها احد بكلمة اقترب باسبارتو من فيكس وهمس في اذنه قائلاً لهُ

ـ الصحيح ما تقول من انك تدافع عن مولاي

ـ اجل فاني افرغ جعبة جهدي في سبيل سوقه الى اوربا سالمًا

فهاج عامل الغضب في فواد باسبارتو من هذا الجواب ثم صرف باسنانهِ ولزم الصمت . وبعد ذلك التفت فيكس الى المستر فوج وساق اليهِ الكلام فقال

ـ ان الساعات التي تصرفها قطارات السكك الحديدية في السفر لطويلة وقد كنت يا مولاي تقتل الاوقات على السفن التجارية في لعب « الويست » فالسيدة عائدة تتقن هذا اللعب وانا ايضًا اعرف بعض ضروبه وفي القطار يباع هذا الورق فاذا شئت مضينا الوقت في اللعب تخلصًا من الضجر المستحوذ علينا فاجابهُ فوج

ـ لا مانع من قبلي

فتوجه باسبارتو وابتاع ورق اللعب واحضره الى مولاه قائلاً في نفسه : الحمد لله فقد تمكنا من حصر المستر فوج فيما داخل القطار . وذلك لانهُ كان يخشى ان يخرج منهُ ويعرض نفسه لبعض اسباب الاعتياق

وعند الظهر مدّ سماط الطعام في احدى عربات القطار للسترفوج ورفقائه فاكلوا وشربوا حتى اكتفوا ثم نهضوا واستأنفوا اللعب وبينما هم يلعبون اذ سمعوا صفيرًا شديدًا خارجًا من آلة القطار فهزع باسبارتو الى الباب ونظر الى الامام فلم يرى شيئًا مانعًا من المسير ثم نزل الى الارض ليتحقق الخبر فرأى نحو اربعين راكبًا نازلين من القطار وفي جملتهم الكولونل ستامب بروكتور وكان القطار قد وقف امام علامة حمراء فنزل منهُ السائق والمهندس فوجدا وكيل محطة :بو: القريبة من تلك النقطة واقفًا فسألاه عن سبب ايقاف القطار فاجابهما ان هذا القطار مثقل بالركاب ولا يتحمل ثقله جسر :بو: فلما سمع الكولونل بروكتور هذا الجواب قال للسائق اومل الا تغادرونا هنا عرضةً للبرد والثلج فاجابه السائق ان قد طلب من محطة (اوماحا) قطار صغير لنقل الركاب وسيحضر بعد ست ساعات فصرخ باسبارتو مرددًا قول السائق (بعد ست ساعات) فقال لهُ السائق نعم وارى الاجدر بك ان تصرف المدة في الذهاب مشيًا الى المحطة التي لا تبعد سوى مسافة ميل لو لم تكن في الضفة الشمالية من النهر الذي لا يمكن اجتيازه بواسطة الزوارق لان المياه متجمدة فيهِ

وبعد ان علم باسبارتو جميع ذلك عاد ليطلع مولاه على الاسباب التي الجأت الى وقوف القطار في تلك النقطة وفيما كان سائرًا سمع صوتًا قائلاً : ايها السادة الركاب يمكننا ان نعبر الجسر على هذا القطار ولي ملء الامل في اتمام المسير بدون حدوث ادنى ضرر للقطارات والركاب والطريقة الوحيدة لذلك هي ان يسير القطار سيرًا سريعًا يحاكي وميض البرق مارًّا فوق ذلك الجسر المنهدم فيعبره غانمًا سالمًا وكان صاحب هذا الصوت مهندس القطار

فضج لهذا الرأي جميع الوقوف باصوات الاستحسان وعادوا الى محلاتهم في القطارات ثم عاد باسبارتو بدون ان يخبر مولاه بشيءٍ وما جلس في مكانه حتى صفر القطار وتأخر الى الوراء مسافة ميل ثم تقدم الى الامام سائرًا بسرعةٍ لا يعبر عنها

لسان فعبر الجسر باسرع من البصر وبعد عبوره باقل من رمشة عين اندك الجسر دكا وسقط سقوطًا مرعبًا

الفصل التاسع والعشرون
في مقابلة المستر فوج مع الكولونل ستامب بروكتور

وقضى القطار الليلة برمتها سائرًا حتى قطع صحارى : صودير : واجتاز مر : صيان : فوصل الى ممر : ايغان : حيث يبعد الخط الحديدي عن ساحل الاوقيانوس مسافة ثمانية الاف واحدى وتسعين قدمًا كان القطار يجتازها بكرات متواصلة ولم يقف الا في محطة الاتلانتيك الكائنة في وسط فدفدٍ منبسط شاسع تلتقي فيهِ الخطوط الحديدية الممتدة الى مدينة دينفر وهي اعظم مدن : الكولورادو : وفيها معادن كثيرة ذهبية وفضية وتأهل من السكان نيفًا وخمسين الفًا

اما القطار فكان قد قضى الى ذلك الوقت من يوم قيامه من محطة سان فرنسيسكو مدة ثلثة ايام قطع في غضونها مسافة الف وثلثمائة وواحدًا وثمانين ميلاً والقطارات تصرف عادةً مدة اربعة ايام فقط من سان فرنسيسكو الى نيويورك

وفي الساعة الحادية عشرة من الليلة نفسها دخل القطار ارض نيبراسكا ومر بالقرب من سيدجويك وعرج على جويسبورج الكائنة عند فرع الخط الجنوبي من نهر بلات الذي كان النقطة الرئيسية لاتحاد السكة : باسيفيك رود : ففي ٢٣ اوكتوبر من عام ١٨٧٦ حضر الى شاطىء النهر المهندس الشهير الجنرال دورج بتسعة قطارات تقل قومًا كرامًا وكان بينهم المستر توما والمستر دوران الشهيران لحضور افتتاح السكة ومدت لهم الموائد واقيمت لهم الالعاب النارية عند شاطئ ذلك النهر

وفي الساعة الثامنة من صباح الغد هب الركاب من الرقاد واقتربوا من المنافذ طلبًا لاستنشاق الهواء وكان القطار سائقًا في الضفة الشمالية من نهر : بلات : وعند الساعة التاسعة بلغ بهم المدينة العظيمة : نورث بلات : القائمة بين نهرين يحاطان بها احاطة السوار بالمعصم ويمتزج ماؤها بماء نهر : ميسوري :

وعاد المستر فوج ورفيقاه الى لعب (الويست) فقضوا الوقت من غير ضجر وملل من طول الطريق وقد لقي المستر فوج في هذه المرة ما يحسد عليه من حسن الحظ فكان الورق طوع رغائبه يأتيه حسب مرامه وبينما كان على وشك ان ينثر ورقة «البيك» اذا به سمع صوتًا خارجًا من قرب باب العربة فحانت منهُ التفاتة نحو مخرج الصوت فشاهد الكولونل (ستامب بروكتور) واقفًا بالقرب منهُ يقول لهُ

— تروم ايها الانكليزي ان تلعب «بيك» ولا تعرف هذا اللعب ايها البعير فالعب (كارو) اذا اردت

فاجابهُ فوج برصانة

— ومن يتقن هذا اللعب مثلي

ثم رمى بعشرة «الديناري» الى الارض واحتفز للقيام

فاصفرت وجنتا الفتاة عائدة خوفًا على منقذها وامسكت بذراعيه منعًا لهُ من القيام لملاكمة الكولونل فدفع يدها برقة ولطف دفعًا خفيفًا وكان باسبارتو اذ ذاك على وشك الوثوب على بروكتور لولا اشارة مولاه اليه بالعدول عن الهجوم عليه . وكان فيكس ايضًا قد نهض وخاطب الكولونل بقولهِ

— هل ذهب عنك انك اسأتني ولكمتني . فقال فوج

— اصغ اليَّ سمعًا يافكس فان الكولونل قد اهانني وحدي الان بقوله ان ليس لي الحق بلعب «البيك» ومن مقتضيات شرفي ان اقتص منه على هذه القحة

فاجابه الكولونل

— اين ومتى تروم استرجاع شرفك

فلما سمع المستر فوج هذه الكلمات نهض على الفور بالرغم عن محاولة عائدة لمنعه من مصادمة الكولونل وخرج الى ما خارج العربة مع الكولونل وقال لهُ

— لولا قصر الوقت وما تقضي عليَّ بهِ اشغالي من العود الى اوربا عاجلاً لكنت نزلت معك ميدان القتال وعندما صدرت منك ضدي تلك الاهانة في مدينة سان فرنسيسكو عزمت على العود للقائك متى وفرت عندي الفرص وسمحت لي اشغالي بالعود اليك

وسيكون ذلك عاجلاً ان شاء الله بحيث لا يمضي ستة شهور حتى تراني عائداً ابحث عليك

فقال الكولونل

ـ ولماذا لا تقضي اليوم ما عزمت على تأجيل قضائه الى حين وتكتفي مؤنة التعب في العود الى ديارنا فنحن الان مقبلون على محطة (بلوم كريك) فعندما يقف القطار فيهـا ننزل الى الارض ونتبادل اطلاق الغدارات فينتهي كل امرٍ بيننا

فاجابهُ فوج

ـ اصبت . قال هذا وعاد الى عربته على مقتضى عادتهِ من السكينة والهدو ثم هدأ بال الفتاة واستأنف اللعب . وعند الساعة الحادية عشرة اقترب القطار من محطة (بلوم كريك) فنهض المستر فوج وتقلد زوجاً من الغدارات واصطحب فيكس كشاهدٍ وانطلق كلاهما الى درج القطار فالتقيا بالكولونل وشاهده وعند ذلك هم الجميع على النزول الى الارض فمنعهم سائق القطار من النزول بقوله ان القطار لا يقف في هذه المحطة حسب عادتهِ لاننا ابتلينا بتأخير عشرين دقيقة يجب علينا ان نعوضها واذا كنتم مضطرين الى النزال فما الذي يمنعكم من القتال في قلب القطار حال مسيره فانهُ يوجد في مؤخر القطار عربة فسيحة الجوانب اخليها لكم لتكفروا فيها عن سيآتكم ثم مشى امامهم حتى اوصلهم الى العربة المعهودة وادخلهم اليها قائلاً

ـ من هذه العربة لا يخرج احد منكم وتركهم وراح يسوق القطار

فوقف المستر فوج في العربة وفيكس الى جانبه بصفة شاهد ووقف قبالته الكولونل بروكتور والى جانبه شاهده ثم اتفق الكولونل والمستر فوج على الشروع في اطلاق الغدارات حال تصفير القطار

وما ازف الوقت المعلوم حتى علت في الجو ضوضاء يتخللها قرقعة سلاح ودوي بنادق وصراخ هائل فارتعدت فرائص الكولونيل فخرج الى ما خارج العربة وتبعه المستر فوج وفيكس فرأوا قوماً منتشرين كالجراد على الخط الحديدي مدججين بالسلاح معتقلين البنادق والمراوي يهجمون على درجات القطار ويصعدون

اليها وقد صعد رئيسهم الى حيث المهندس فاوسعهُ ضربًا واثخنهُ جراحًا وقبض على مفتاح الآلة فحاول ايقافها ثم حرك المفتاح على غير دراية فطار القطار وسار سير البرق

وهولاء الاشقياء يعرفون بقوم (سيوس) وقد جعلوا حرفتهم منذ نشأة السكة الحديدية في بلادهم ان ينهبوا القطارات ويخطفوا العجلات ويذبحوا الركاب ويرجموهم

واستمر ذلك القتال نحو عشر دقائق كان الركاب في خلالها يدافعون عن انفسهم بكل بسالةٍ وثبات ولا سيما السيدة عائدة فانها كانت قابضة بيدها البيضاء على غدارةٍ ذات ست طلقات تطلقها على الاعداء حتى جندلت منهم نيفًا وعشرين قتيلاً ما عدا الذين جرحتهم وقد اصيب بعض الركاب بجراح بليغة تنذر بالخطر

وبينما كانت الحالة على ما تقدم عليه الكلام قال السائق للمستر فوج

ــ اذا لم يقف القطار قبل خمس دقائق هلكنا جميعًا لا محالة

ــ ولماذا

ــ لان (السيوس) ضاربون بين حصن كيرني والمحطة الآتية . وهناك يوقفون القطار ويهلكوننا جميعًا

فعند ذلك همَّ فوج على الوثوب من القطار فلما رأى باسبارتو ذلك قال لمولاه قف وقفز على الارض ثم سار بالقرب من عجلات القطار والسيوس يرمونهُ برصاص بنادقهم حتى وصل الى اول عربة مرتبطة بالآلة فحمل الزنجير الذي يربطها بالآلة فلبثت الآلة سائرة وبعد بعض كراتٍ وقف القطار على بعد مائة خطوة من محطة كيرني

وقد شعرت حامية الحصون بدوي البنادق فاتت لاغاثة الركاب . امـــا السيوس فقبل وقوف القطار شعروا بقدوم الحامية فولوا الادبار

وبعد وقوف القطار في المحطة نزل الركاب الى الرصيف واخذ وكيل المحطة يعدهم ليعرف من فقد منهم . وباستدعائه لكلٍ باسمه علم ان عددًا كثيرًا قد نقص منهم وفي الجملة الشاب الفرنسوي باسبارتو الذي كان السبب في نجاة الجميع

الفصل الثلاثون

في ان فيلاس قام بحق الواجب

وقد كان غياب باسبارتو داعيًا للغم والحزن عند المستر فوج والسيدة عائدة وقد تبادلا الاراء في شأن البحث عنه وكيفية الوصول الى افراج كربته اذا كان اسيرًا

اما الذين اصيبوا بجراح الهمة من الركاب فكانوا كثيرين وفي جملتهم الكولونل بركتور فانهُ اصيب برصاصةٍ في فخذه فخر على الارض صريعًا فنقل كباقي الجرحى الى المحطة لمداركة جروحهم قبل ان يتعسر شفاؤها

واما السيدة عائدة وفيلاس فوج فكانا سليمين لم يصابا بخدش ظفرٍ مع انهما قاتلا كالاسود الكاسرة بشجاعة وبأس وبسالة وثبات

وكانت قارعة الطريق وجسر الخط الحديدي ملطخين بالدماء وعليها جثث القتلى المشوشة الوجوه مجندلة تحوم عليها عقبان الغاب ووحوش الفلاة

وقد شق على المستر فوج فقد خادمه باسبارتو وعظم عليه هذا الخطب حتى هان عليه اخفاق الرحلة وفقد ثروته فاطرق في الارض مفكرًا يحاول اخفاء ما به عن الفتاة عائدة لئلا تتوسم فيه قلقًا فتكابد من جرائه عناءً مرًّا وبينما هو على هذه الحالة قبضت الفتاة على يديه وجذبتهما الى صدرها فغسلتهما بماء مقلتيها وقالت لهُ

— وما بك جعلت فداك . فاجابها

— ليس لي صبر على فراق باسبارتو الذي بذل حياته في سبيل انقاذنا جميعًا من مخالب اولئك القوم الاشقياء وقد اخلص لي الخدمة في كل المدة التي قضاها معي فلا بد من افراج كربته والسعي في انقاذه اذا كان عند السيوس اسيرًا

وبعد ان فرغ من كلامه تقدم الى قائد حامية كيرني الذي كان قد اتى لنجدتهم بمائة جندي وقال له ان ثلاثة منا اسرهم السيوس وعار علينا ان نتركهم بين انياب هولاء الوحوش يتقلبون على شوك القتاد ويتجرعون كأس الذل والخسف فالشرف والمروءة يقضيان علينا بانقاذهم مهما ترتب على ذلك من اراقة الدماء وضياع الرجال والاموال وان انقاذهم فرضٌ لابد من وفائه ودين

لا مناص لصاحب المروءة من قضائه ولاسيما ان الشاب باسبارتو بينهم وهو الفتى الذي انقذنا جميعنا من الهلاك

فقال له القائد

— ليس لدينا قوة كافية للهجوم وليس من الحكمة ان تراق دماء خمسين رجلاً في سبيل انقاذ ثلثة فقط

فحينئذٍ التفت فوج الى الحضور وقال لهم

— اني حرٌّ يفضل الموت على العار ولا يدع انصاره في حالتي اليأس والخمول فيلحق بي لننجي رفقاءنا الذين لاشك انه قد مرَّ عليهم الى الان من العبر ما هو جدير بان يكتب بالابر على اماق البصر

وما اتم كلامه حتى اضطرمت في رأس القائد شعلة المروءة فالتفت الى جنوده وقال لهم

— من منكم يدافع عن الانسانية بحياته

فلباه خمسون جنديًا بصوتٍ واحد فاختار منهم ثلاثين وامرهم بالذهاب مع المستر فوج بقيادة قائدٍ طاعن في السن ولكنهُ مدرَّب مروض الجسم في ميادين القتال

وطلب فيكس من المستر فوج ان يلحق به ايضًا فشكره وكلفه بان يبقى مرافقًا للفتاة عائدة وان يعتني بشأنها اذا مات شهيدًا في سبيل الدفاع عن الانسانية فشق على فيكس ان يفارق فوج لص البنك الذي تأثره من السويس ولكنه اجاب طلبه مضطرًا فاطرق في الارض مصفرَّ الوجه من الخوف على حياته اذ يكون تعبه قد راح سدىً .

ثم تقدم فوج الى الفتاة عائدة وسلمها جعبة السفر التي تحتوي على السفاتج وهز يدها هزة الوداع الى حين الاجتماع وسار بجملته الى حيث اراد ان ينقذ باسبارتو وكان قد سبق فوعد الجنود اللاحقة به ان يعطيهم جائزة الف ليرة اذا انقذوا الاشخاص المراد انقاذهم

وبعد ذهابه انفردت الفتاة عائدة في حجرةٍ بالمحطة واستسلمت للغم منقادةً للعذاب شأن الواقع في البلاء الجسيم والخطب العظيم وكانت تفتكر بالمستر فوج وما طبع عليه من الشهامة وكرم النفس فيزداد حبها فيه وشغفها به ثم تنتقل

من ذلك الى افتراض ان يفتك السبوس به فتتقد النار في مهجتها وتظلم الدنيا في عينيها وتزداد غمًا وعذابًا على غمها وعذابها

وعند الساعة الثانية بعد ظهر اليوم بينما كان الثلج يتساقط على الارض اذ سمع الركاب عن بعدٍ صفير آلةٍ بخارية فوجهوا الاذن نحو مصدر الصفير ثم اجالوا ابصارهم في الفضاء فابصروا عن بعدٍ آلة بخارية تشق البيداء قادمةً اليهم على عجل فوقفت على بعد عشرين ميلاً من محطة كيرني

وحدث انهُ عندما استولى السبوس على القطار كما تقدم الكلام وقبض رئيسهم على الآلة التي تقود القطارات كان المهندس والوقاد قد وقعا في مكانهما غائبي الرشد من شدة الضرب الذي ذاقاه ولما فصل باسبارتو الآلة عن القطارات على ما مرَّ بنا من الكلام ارتد السيوس الى الوراء ونزل من كان منهم على الآلة الى الارض لاحقين برفقائهم ولما اطفئت النار في الحلقتين وقفت الآلة في وسط الصحارى ثم انهُ عندما افاق مهندسها ووقادها من غشوتهما عادا بها الى محطة كيرني وعندما تبين الركاب ذلك فرحوا وابتهجوا وسروا سرورًا لا مزيد عليه

وعند الساعة الثانية بعد ظهر اليوم دنت الآلة البخارية من القطار فارتبطت بها واخذت في التأهب لجرّه فلاحظت ذلك السيدة عائدة واقبلت على السائق تسألهُ

— متى يسافر القطار

— في الحال يا مولاتي

— اتسمح لك شهامتك بترك المستر فوج مع حملته في هذه القفار

— ان واجباتي تقضي عليَّ بالسفر ولا سيما بعد ان تأخر القطار ثلاث ساعات عن ميعاده المعين

— ومتى يمر من هنا غير هذا القطار

— في مساء الغد فتفضلي يا سيدتي واركبي القطار اذا كنتِ مسافرة

— لا لا اسافر لا اسافر

وكان فيكس مصغيًا لهذه المحاورة وبعد ان كان شديد الرغبة في السفر شعر بمحرك مجهول يدفعهُ نحو ركوب القطار ويمنعهُ من التقدم والخروج من مكانه

وبعد ان نقلت الجرحى الى عربات القطار وفي جملتهم الكولونل بركتور سار القطار باسرع من لمح البصر وعادت السيدة عائدة الى الحجرة المعدة لها بالمحطة فوقفت امام نافذتها الزجاجية تنظر الى ما يمر بها وتحسب كل من تراه فيلاس فوج ولما اقبل الليل ولم يعد اشتد فيها عامل الاسى والاسف فاسترسلت للبكاء حتى تقرحت منها الجفون ومن شدة ما استولى عليها من الاضطراب سقطت على متكأ مكتبة وبدلت شدة الحزن هيئتها وغيرت محاسن خلقها وقد لبثت صامتة تصغي الى جلجلة الرعود وحركة تساقط الثلوج حتى بزغ الصباح فخرجت الى رصيف المحطة تنظر يمنةً وشمالاً ولما لم تنظر المستر فوج عادت الى حالتها من القلق والاكتئاب والخوف والاضطراب.

ويا عجبًا كيف لا تذوب اسىً على منقذ حياتها من الموت ومنتشلها من افواه الهلاك.

اما فيكس فبعد مبارحة القطار المحطة جلس على متكاء فيها لا يبدي حراكًا فاقد الرشد غائبًا عن الحواس لا يشعر بالبرد القارس ولا بتساقط الثلوج وقد لبث في مكانه حتى صباح اليوم التالي

وكان قائد حامية كيرني قلقًا مضطربًا على عدم اياب السرية التي ارسلها مع المستر فوج وقد حار فيما يجريه : هل يشفعها بشرذمةٍ اخرى من جنوده لتبحث عنها ام يلبث منتظرًا . ثم انهُ لما فرغ صبره آمر ضابط القلعة باستكشاف ناحية الجنوب وبعد وقتٍ يسير حضر الضابط من موقع الاستكشاف واخبر ان فوج عائد بالظفر والغنيمة

وبعد برهةٍ يسيرة من الزمان وصل فوج الى المحطة مصحوبًا بالشاب باسبارتو والاثنين الاخرين الذين اسرهم السيوس وكانت الجيوش من حوله تثني على بسالته وحسن تدربه في الفنون العسكرية وقد تقدمهم الجائزة حسب وعده

ولما بلغ فوج رصيف المحطة تقدمت السيدة عائدة لاستقباله راقصةً فرحًا لا تدري كيف تعلن سرورها وتفصح بسعادتها ولما وضعت يدها في يده وبادلته التحية رأى منها ما كاد ينطقها بلسان القائل

وحياتكم وحياتكم قسماً وفي
عمري بغير حياتكم لم احلفِ
لوان روحي في يدي ووهبتها
لمبشري بقدومكم لم اسرفِ

الفصل الحادي والثلثون

في اهتمام البصاص فيكس بشأن المستر فيلاس فوج

وكان وصول المستر فوج الى المحطة بعد قيام القطار منها بعشرين ساعة صرفها في انقاذ باسبارتو من اسره وبينما كان يبحث على وسيلةٍ يتمكن بواسطتها من استئناف المسير ومتابعة السفر وتعويض الوقت الذي فقده اقترب منهُ فيكس وحلق في وجهه ثم سأله قائلاً

ــ من اللازم ان تبلغ نيويورك في ١١ الجاري لتركب الباخرة المسافرة من مرفائها الى ليفربول في الساعة التاسعة مساء

ــ ومن يمكنني من ذلك وقد صار لديّ ضرباً مستحيلاً

ــ ان احد الامركان المدعو مورخ عرض عليّ بالامس آلة نقل تحملني الى حيث اريد وبما انني كنت في انتظارك فما وقفت على كيفية سير تلك الآلة فاكتفيت بان اجيب ذاك الامركاني بقولي له ان يحضر اليّ في هذا اليوم وهو يقطن كوخاً لا يبعد من هنا اكثر من عشرين خطوة

ــ واين كوخه

ــ بالقرب من حصن كيرني

فتوجه المستر فوج الى حيث الكوخ ورأى الآلة فوجدها غاية في الاتقان والانتظام فاكتراها من صاحبها بقدرٍ معلوم من الدنانير

وما ادراك ما هي هذه الآلة في بلاد الامركان

هي مركبة ليس لها عجلات تسع من ثمانية الى تسعة اشخاص تسير فوق الثلوج بقوة الرياح باسرع من سير قطار الاكسبرس · يقوم في مقدمها صارٍ طويل مشدود بحبال معدنية ومعزز بدعائم حديدية وفوقه قلع كبير مربع وفي مؤخرها دفة على شبه المجذاف تستعمل لتسيير المركبة في الطريق المقصودة وفي جوفها مثاقب لخرق الثلوج وكثيراً ما تستعمل في تلك الديار لنقل الركاب عندما يمنع

تكاثف الثلوج القطار من المسير

وقبل ان تسير المركبة في وسط تلك القفار الشاسعة اراد المستر فوج ان يترك السيدة عائدة تحت ملاحظة باسبارتو فيقودها الى اوربا بدون ان تقاسي المشاق التي يقاسيها هو فأبت الفتاة الافتراق عنهُ ولو مهما عانت من المصاعب والاهوال فسر باسبارتو باباءتها لذلك وعظمت في عينيه.

وعند الساعة الثامنة كانت المركبة مستعدة للمسير فركبها المسافرون وجلس سائقها امام الدفة وبعد فترة نشر لهـا قلعين فقط فسارت بها سير البرق على صفحات الافاق تقطع في الساعة مسافة اربعين ميلاً. واذا استمرت الريح تخدمها ولم يطرأ عليها حادث غير منتظر بلغت لامحالة محطة اوماحا قبل قيام القطار منها الى شيكاكو

ولقد كان لصاحبها همة وفية في تسييرها ورغبة شديدة في البلوغ بها الى اوماحا في الاجل الذي ضربه لهُ فوج حتى ينال الجائزة التي وُعد بها علاوة على الاجرة فلا عجب لذلك اذا رأيناه ناشرًا جميع قلوعها بقصد الاسراع في المسير

ولبثت الريح تخدم سير المركبة وتنفخ قلوعها الكثيرة بشدةٍ حتى جعلت لمسيرها سرعة يعجز عن وصفها اليراع ولا تضاهيها سرعة البخار وقد قطعت البيد والقفار باسرع من لمح البصر حتى إنهُ من فرط سرعتها وشدة اهتزازها لم يستطع الركاب اثناء الطريق ان يفوهوا ببنت شفة وعند الظهر اقتربت من نهر بلاث المتجمد الذي لا تبعد عنه محطة اوماحا سوى عشرين ميلاً

وكان السائق قد علم بقرب الوصول الى اوماحا ولكنهُ كتم ذلك عن الركاب قصد ان يباغتهم السرور

وما حلت الساعة الواحدة بعد الظهر حتى طوى السائق القلوع واوقف مسير المركبة وهرول الى الركاب فقال لهم

— بشراكم بشراكم قد بلغتم المراد ووصلتم الى محطة اوماحا وها القطار على اهبة المسير فاسرعوا بالنزول

فضج الجميع باصوات السرور ونقد المستر فوج السائق اجرته والجائزة التي وعده بها وانطلقوا جميعًا الى القطار وما

ركبوه حتى قام وطار يطوي السهول ويعد المستر فوج ورفقاءه ببلوغ المأمول كأنهُ عالم بالضرورة القاضية على المستر فوج بسرعة الوصول الى نيويورك

اما القطار فوصل في الساعة الرابعة من مساء اليوم التالي اي عاشر دسمبر الى محطة «شيكاكو» التي تبعد عن نيويورك مسافة تسعمائة ميل وقد قام بعد برهةٍ من هذه المحطة فسار نحو نيويورك ووصل اليها في حادي عشر الشهر المذكور عند الساعة الحادية عشرة وربع من المساء اي بعد قيام الباخرة شاينا الى ليفربول بخمس واربعين دقيقة

الفصل الثاني والثلثون

مثل الغريق نجا ووافى ساحلاً

فاذا الاسود روابضٌ بجوارهِ

في كل يوم حادث جديد يلقي في سبيل المستر فوج عقبات التأخير كأن الايام أبت الا ان تضرب عليهِ حجاباً من الموانع كثيفًا او كأنها آلت على نفسها ان تجعل لهُ اليأس حليفًا فهو لا يداوي جرحًا حتى تسيل جروح ولا يذلل مصاعب حتى تدهمه اخرى كانه هو وحده في الارض عدو للزمان

ولم يُبقِ فيه سفر الباخرة شاينا ولم يذر فقد ذهب ببقية امله وقطع رجاءه من نجاح رحلته بعد ان كابد من اجلها المشاق والاتعاب ولما بلغ هذه الدرجة من سوء الطالع عول على مكافحة نحسه بثبات لعله يظفر به فواعجباه ممن يضيقون ذرعًا ويفرغ صبرهم عند وقوعهم في احدى النكبات ولا ينشطون للتخلص منها كانهم لا يجدون لهم مخرجًا منها وهو داب الجبناء الاغبياء

واخذ المستر فوج يخطر على رصيف المينا ويسأل كل من وجده عن ميعاد سفر البواخر الى ليفربول رأسًا في تلك الليلة فلم يأته احد بالنباء الشافي لغليل فوادهِ فانهُ لم يكن في المرفاء بواخر برسم السفر رأسًا الى ليفربول وانما كان فيه سفينة فرنسوية من شركة الترانساتلانتيك على عزم ان تسافر في ١٤ دسمبر الى مياه الهافر لا رأسًا الى ليفربول ولوندرة وكان غيرها ايضًا سفن اخرى من شركات متعددة عازمة ان تسافر ايضًا في الميعاد

ذاته الى الهافر

وبعد ان سبر المستر فوج غور جميع البواخر العازمة على السفر ولم يجد بينها واحدة مسافرة على الفور قال في نفسه شرُّ الصباح ولا خير المساء

دع التقادير تجري في اعنتها
ولا تنمنَّ الا خاليَ البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها
يغير الله من حالٍ الى حال

وقد اكترى مركبة احتملته بمن معه الى فندق «القديس نقولا» حيثما عدت لهم فيه المبايت فنام المستر فوج تلك الليلة ملء جفنيه شأن من ليس لديه شاغل يشغل أفكاره فيقدح لاجله زناد فكرته اما السيدة عائدة والشاب باسبارتو فقد صرفا الليلة بتمامها يتقلبان على جمر الارق خافقي القلبين خامدي النفسين آسفين على اخفاق رحلة المستر فوج

واليوم التالي كان يوم ١٢ دسمبر فمن الساعة السابعة من صباحه حتى الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ من مساء اليوم الثاني والعشرين يبقى للمستر فوج تسعة ايام وثلاث عشرة ساعة و٤٥ دقيقة من ايام رحلته المعينة فلو سافر على الباخرة ثانيا لكان وصل الى لوندرة في الوقت المطلوب

وعند الصباح نهض المستر فوج من رقاده واستدعى اليهِ باسبارتو فاخبره بخروجه واوصاه بملاحظة الفتاة وإيقاظها من النوم وخرج من الفندق سائرًا حتى وصل الى شاطئ هيدسول فرأى السفن والبواخر راسية في مياه هذا النهر بالقرب من الرصيف وبينها باخرة تجارية يتصاعد الدخان من مدخنتها اشارةً الى قرب سفرها فتوجه اليها المستر فوج بسرعةٍ لم ينطلق بها احد من قبله وما وصل اليها حتى انفرد من ربانها وكان رجلاً قد ناهز الخمسين من سنيه واسمهُ القبودان اندراوس سبيدي دي كارديف واسم باخرته «هاريته» فسأله المستر فوج بقوله

— الى اين انت مسافر بالباخرة

— الى بوردو

— كم ميل تقطع هذه الباخرة في الساعة

— من ١١ الى ١٢ ميلاً

— اتريد ان تؤجرني اياها الى ليفربول

— ليس ذلك بامكاني لاني مسافر الى بوردو

— ولو مهما دفعت لك من الاجرة

— نعم

— اذا لم ترد ان تؤجرها فاني اشتريها منك

— كيف ابيعها وهي باب رزقي

فحار المستر فوج في امره ولم ينفعه الاسراف في هذه المرة ولا الدرهم الوضاح كما نفعهُ في كون كون فاكترى به السفينة تانكادير

ثم قدح زناد فكرته في ايجاد الطريقة التي تمكنهُ من استئجار الباخرة من ربانها فخطر بباله ان يطلب من الربان ان ينقله مع رفقائه الى بوردو فطلب ذلك من الربان فاجابه بقوله

— ان باخرتي لا تحمل ركاباً ولو نقدني الراكب مائتي ريال

فقال فوج

— اني ادفع لك الفي ريال عن كل راكب اي عبارة عن ١٠٠٠٠ فرنك

فقال الربان

— وكم يبلغ عددكم

— اربعة اشخاص

فلما سمع الربان لفظة الفي ريال عن كل راكب هاج فيه عامل الطمع فأمرَّ يده على جبينه شأن المتروي في الامر ولما تبين جسامة الاكتساب بدون ان يلحق بسفره تغيير ما التفت الى المستر فوج وقال لهُ

— استعد للسفر في الساعة التاسعة

وكانت الساعة اذ ذاك ٨½ فنزل المستر فوج الى البر وسار في مركبته الى فندق «القديس نقولا» فاحضر عليها الفتاة عائدة والشاب باسبارتو والبصاص فيكس الذي بات رفيقاً لهم غير مفارق فوصلوا الى الباخرة في ميعاد سفرها

وعندما علم باسبارتو بالاجرة التي ينقدها مولاه عن كل راكب صعد زفير التحسر والتأسف على المبالغ التي بذلت بسببه ولكن فيكس كان يتميز غيظاً من اسراف المستر فوج وتبذيره حرصاً على مصلحة بنك انكلترة لان مصاريف فوج بلغت الى الان فوق سبعة الالاف ليرة استرلينية

الفصل الثالث والثلثون

وقد سافرت بالافاق حتى
رضيتُ من الغنيمة بالاياب

وبعد مرور ساعة من الزمان مرت الباخرة بالسفينة البحرية الراسية في مدخل البوغاز لارشاد البواخر والسفن الشراعية الى طريق المرور فيه وتحولت نحو نقطة « ساندي هول » الى ان اعتلت ظهر اليم فاتجهت نحو الشرق بعد ان اجتازت طول الجزيرة التي تقذف المواد النارية من براكينها وظلت سائرةً في عرض البحر تشق العباب وتخترق الامواج حتى اقبل ظهر الغد الواقع في ١٢ دسمبر فصعد الى سطحها رجل واستلم قيادتها فحول سيرها الى نقطة يقصدها من سفره

وما ادراك من هو ذاك الرجل — هو المستر فيلاس فوج الذي يبتغي السفر الى ليفربول على ظهر الباخرة هانريته وما مكنه رئيسها من مقصده فاستعمل الخديعة والدسيسة في مدة الثلاثين ساعة التي مضت على وجوده عليها حتى استمال اليه خواطر ملاحيها بالملاينة وبذل الدينار فنبذوا طاعة ربانهم ظهريًا وغدوا لاوامره مطيعين طوع البنان فلما تبين الرئيس منهم التمرد والعصيان تمزق غيظاً وتركهم وشأنهم خوفًا من شرهم وانزوى في حجرته كئيبًا حزينًا فعند ذلك صعد المستر فوج الى ممشى الباخرة يسوقها الى ليفربول بالسرعة المطلوبة

وسارت الباخرة لازمة حد الاعتدال في سرعتها القانونية تقطع في الساعة من ١١ الى ١٢ ميلاً واذا لبثت الريح خادمة لها ولم يحدث في البحر انواء ولم تثر زوابع ورياح ولم يطرأ على الآتها تعطيل تصل بحول الله الى ليفربول في ٢١ دسمبر

ووقف باسبارتو على خديعة مولاه فغبطه على افلاح مسعاه وانطلق سعيدًا فرحًا يمشي على سطح السفينة مرحًا ويخطر بين نوتيتها مفعم القلب هناءً وسرورًا فتحولت اليه انظارهم واباحوا له ان يتكلم معهم حتى امتزج بهم امتزاج الارواح بالابدان وكان يقضي معظم الاوقات معهم بالضحك والمزاح فيقص عليهم النوادر الهزلية والقصص المضحكة مظهرًا لهم ما لديه من العلم وما فيه من الذكاء بافصح

لسان واعذب بيان وكان في بعض الاحيان يدير عليهم كؤوس المدام ويدعوهم بارق الالفاظ حتى استمالهم اليه بما فطر عليه من حسن الاخلاق وطلاقة الوجه ولين العريكة وقد كان الملاحون يبذلون ما في وسعهم في سبيل تسيير الباخرة بنشر القلوع وشد الحبال ابتغاء لمرضاة باسبارتو الذي تملك حبه قلوبهم اما فيكس فكان جاهلاً للامر لا يدري لقيادة فوج للباخرة سببًا ولا يعرف لانقياد الملاحين لاوامره سرًّا والذي خيل له والحالة هذه هو ان المستر فوج كما تمكن من سرقة ٥٥ الف ليرة من بنك انكلترة تمكن الان من سرقة الباخرة فاخذ يقودها الى حيث يشاء ويريد فلما خطر بباله هذا الفكر عض اصابع الندم على ركوبه فيها ولكن ماذا ينفع الندم وقد زلت القدم

ومرت الباخرة في ثالث عشر دسمبر بذيل كثيب من الرمال واقع في نقطة غير جيدة من البحر المحاط بالارض الجديدة يكثر فيها هياج الامواج وتكاثف الضباب خصوصاً في فصل الشتاء وقد سبق المستر فوج فعلم في الليلة الماضية من ميزان الهواء انهُ سيحدث تغيير في الجو وتبديلاً في الرياح التي ما لبثت ان هبت بين الشرق والجنوب وبناء عليهِ اشار الى النوتية بطي القلوع لئلا تلعب بها الرياح فتقود السفينة الى حيث تشاء

وعندما هبت الرياح وثارت الامواج باشد هياج في ذلك البحر العجاج وقع باسبارتو صريعًا يقاسي الم البحر والخوف من فقد الحيوة وتأخر الباخرة عن الوصول في اليوم المعين فيخفق مسعى مولاه ولا عجب اذا كان مكتئبًا حزينًا مضطرب البال منقبض الصدر منفعل النفس يروم للباخرة خروجًا من موقفها الحرج

وفي الواقع ان الباخرة كانت في خطر شديد من الغرق لان الرياح شددت عليها الوطأة والامواج ثارت عليها بشدة فكانت ترفعها وتخفضها وتندفع على سطحها وتقلبها تارةً يمينًا وطورًا شمالاً وقد ابدى المستر فوج شجاعةً كلية فائقة اذ لم يكبُ لهُ جواد جهدٍ ولم يخفق لهُ قلب ولم يضطرب لهُ بال بل كان

واقفًا يلقي الاوامر الى مهندسي الآلة والايعازات الى ملاحي السفينة بدون ان يعبأ بالخطر الذي يتوعده والشدة التي كان فيها وبدون ان يطلب من السماء تفريج الكربة الدهماء

واستمرت الحالة على ما تقدم الى ان اقبل اليوم السادس عشر من شهر دسمبر وكان هذا اليوم هو اليوم الخامس والسبعون من مبارحة المستر فوج لمدينة لوندرة ففي غضونه صعد مهندس الباخرة الى ظهرها وتقابل مع المستر فوج ودار بينهما الحديث وطال فما وعى منهُ باسبارتو غير الكلام الآتي

فوج · هل تاكد لديك ان الباخرة تقدمت كثيرًا في سيرها

المهندس · اني على يقين مما قلت لاننا اوقدنا النار في جميع خلاقينها ولذلك فالفحم اوشك ان ينتهي لانهُ لم يكن في سابق علمنا ان الباخرة ستقلع الى ليفربول ومن ثمَّ لم نذخر لها المؤنة الكافية لابلاغها الى بوردو فقط

فوج · سأتدبر الامر

ولما عرف باسبارتو ان مؤنة السفينة من الفحم على وشك النفاد ضرب اخماسًا لاسداس وانصرف عنهُ الالم الذي كان معتريًا اياه ثم اخذ يفكر في الفحم والسفينة حتى تقابل مع فيكس فاطلعهُ على الامر فقال لهُ فيكس

— اتظن ان المستر فوج يسير الباخرة الى ليفربول

فاجابهُ باسبارتو

— لا محالة

فهز فيكس كتفيه وطوى عنه كشحًا بعد ان قال لهُ

— يا لك من ابلهٍ مغرور

(عودٌ الى فوج) اما المستر فوج فكان واقفًا على سطح الباخرة يفكر في الوصول الى طريقةٍ تضمن للسفينة اطراد السير وبعد استغراق بضع ساعاتٍ في التأمل استدعى بالمهندس الذي حالما امتثل بين يديه تلقى منهُ التعليمات اللازمة وعاد الى مكان الالة فاشعل الفحم في جميع خلاقينها فصعد من المدخنة دخان كثيف حجب وجه السماء عن الابصار وبعد مضي يومين سارت بهما السفينة بسرعةٍ لا توصف نفد منها الفحم فاقبل المهندس على المستر

فوج يقول له قد نفد الفحم فما العمل

فاجابه : ضع ثقلاً على لولب الآلة ولا تخفف النار بل انتظر امامها حتى يأتيك ما توقده. قال هذا واستدعى في الحال بخادمه باسبارتو واشار اليه باحضار الربان سبيدي فذهب الى حجرة الربان لاستدعائه رغماً عن ارادته لانه لم يكن يجهل غيظه وحنقه على مولاه وفي الواقع ان الربان كان مستشيطاً غيظاً فخرج من حجرته لمقابلة المستر فوج كنمر خارج من مربضهِ اوكصاعقة قريبة الانفجار

ثم خاطب المستر فوج عن بعدٍ بحدةٍ ومقت وقال له :

— اين نحن

فاجابه فوج

— نحن في نقطةٍ تبعد عن ليفربول مسافة مائة وسبعين ميلاً

الربان . وماذا تريد مني اذا كان لك دراية تامة في فن البحر ولماذا استدعيتني اليك

فوج . اريد منك ان تبيعني هذه الباخرة لاحرقها لان الفحم فرغ منا

الربان . يا المجنون استحلفك بملائكة السماء وابالسة الجحيم ان لا تكلمني في مثل هذا الشأن فكيف اسمح لك باحراق باخرتي وهي باب رزقي وقد كلفتني من النفقات خمسين الف ريال

فوج . مد يدك فها ٦٠ الف ريال (٣٠٠٠٠٠ فرنك) ثمنها وما عدا ذلك فاني عندما اصل الى ليفربول اهبك الآلة البخارية وحديد السفينة وسائر ما ينجو فيها من الحريق ولا تعجبنَّ من اسرافي فللضرورة احكام لا بد من الرضوخ اليها والحالة تضطرني ان اكون في ٢١ دسمبر عند الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ ليلاً في لوندره واذا اخطأت هذا الميعاد اخسر مبلغ عشرين الف ليره

فتناول الامركاني السفاتج بيده وخمدت في قلبه نار الغضب المستعرة وابتهج محياه وابتسم ثغره وطفق يحسب قيم السفاتج وبعد ذلك دسها في جيبه . ولا تسل عن البصاص فيكس فانهُ عندما رأى الامركاني يعد قدراً عظيماً من السفاتج اصبح كمن اصابته جنة وتأجج فؤاده بنار الغضب والسخط على فوج الذي كان يبذل الدينار من غير حساب

وبعد ان قبض الربان سبيدي ثمن باخرته صار المستر فوج حرًّا بان يتصرف فيها كيف شاء وبناء عليه امر بتكسير اخشاب الغرف وسطح السفينة وتقديمها للنار فابتلعها اللهيب عاجلاً وفي تاسع عشر دسمبر قدموا للنار الصواري وخشب العنابر وقوارب السفينة وكان الملاحون يوقدون الاخشاب باجتهاد وباسبارتو يكسر القطع الكبيرة الضخمة وفي العشرين من شهر دسمبر نفدت اخشاب السفينة وما بقي فيها سوى الصاج والحديد والآلة الا انها كانت قد اشرفت على مدينة كينستاون من اعمال ارلنده فساقها المستر فوج نحو المرفاء فدخلتهُ سالمةً فخرج منها مع رفقائه الى البر وقد ودع الربان سبيدي ونقد النوتية والوقادين والمهندسين الجوائز التي وعدهم بها

وما نزل المستر فوج الى الارض مع رفقائه حتى اخذ فيكس يتدبر الحيلة في القبض عليهِ ولكنهُ استقبح ذلك بالنظر الى ما عامله بهِ فوج من المعروف والاحسان ثم ساروا جميعًا فركبوا القطار من كينستاون في الساعة الواحدة ونصف من الصباح فسار بهم الى دوبلين ومنها ركبوا باخرة صغيرة فوصلوا الى ليفربول في ٢١ دسمبر عند الظهر

وما وطئوا ارض ليفربول حتى تقدم فيكس الى المستر فوج ووضع يده على كتفه وقبض في يده الاخرى على الامر الذي تلقاه من لوندره بتوقيفه وقال لهُ

— انت المستر فوج بشخصك

— نعم

— اني القي القبض عليك باسم جلالة الملكة

الفصل الرابع والثلاثون

وما زلت اقطع عرض البلا
دِ من المشرقين الى المغربينِ
وادرعُ الخوف تحت الدجى
واستصحب النسر والفرقدين
واطوي وانشر ثوب الهمو
م الى ان رجعت بخفي حنينِ

ولما قبض على المستر فوج ادخل الى احدى غرف سراي الجمرك في ليفربول على عزم ابقائه فيها مسجونًا الى ان ير

الاوامر بنقله الى لوندره وعندما كان البصاص فيكس يلقي القبض عليه همَّ باسبارتو على الفتك به فردعه الشرط بالتهديد والوعيد اما السيدة عائدة فكانت واقفة موقف المنذهل الحائر ولما اطلعها باسبارتو على كنه الحالة تمزق فوادها اسفًا على منقذها المستر فوج ولما رأت نفسها عاجزة عن انقاذه جعلت دأبها النوح والبكاء

وكان باسبارتو يلوم نفسهُ اشد اللوم لكتمانه عن مولاه امر فيكس فكان يقول في نفسه لو انذرت مولاي بالامر وبحت لهُ بالسر لما عدم وسيلةً من اقناع البصاص ببرأته وعلو مكانته وترفعه عن التهمة التي يوجهها عليه ولكن ماذا ينفع الندم وقد سبق السيف العذل

وجلس باسبارتو مع السيدة عائدة على مقعدٍ تحت رواقٍ مستهدفٍ للريح الباردة والبرد القارس

وكان وصول فوج الى مدينة ليفربول في الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٤٠ من يوم ٢١ دسمبر اي قبل انتهاء مدة رحلته بتسع ساعات و٤٥ دقيقة يصرف منها ست ساعات في الذهاب من ليفربول الى لوندره ويستريح في داره الكائنة في شارع سافيل الى حلول الوقت الذي عينه لوجوده في الغلوب وبعد ان اصبح على يقين من نجاح رحلته العجيبة التي شهد فيها الاهوال ولقي المصاعب وذلل العقبات امسى في حالة اليأس لان فشله يجلب عليه العار والشنار وخراب الدار فانهُ يفقد قيمة الرهان ويصير مضغة في فم الزمان ويذوق طعم الذل والهوان ويقاسي الم الفقر المدقع وبعد ان دخل الى سجنهِ جلس على متكاء فيه ووضع ساعته على مائدة امامه فنظر الى حركة عقربها بدون ان يفوه ببنت شفة او تبدو على وجهه علائم القلق والاضطراب والغم والاكتئاب وبعد ان اغلق عليه باب سجنهِ انقبض منهُ الصدر وتأجج في فواده سعير الغضب فكان ينهض من مكانه ويتمشى في الحجرة طلبًا لمخرج يهون لهُ سبيل الفرار فيلقى على المنافذ قضبانًا حديدية تحظر عليه الخروج ويلقى الباب متينًا لا يستطيع كسره فيعود ويجلس في مكانه ويخرج من جيبه دفتر رحلته

فيقرأ السطور الاتية
(٢١ دسمبر) . (السبت) (ليفربول)
(٨٠ يومًا) . (الساعة ١١) (والدقيقة
٤٠ صباحًا)

ثم اعلن جرس ساعة الكمرك ان
الوقت بلغ الساعة الاولى من بعد ظهر
النهار فنظر المستر فوج الى ساعتهِ فوجد
فيها تأخيرًا بلغ زهاء الدقيقتين فافترض
حينئذٍ انه اذا ركب الاكسبريس القائم
في الساعة الثانية يصل الى لوندره
ويلج غرفة الغلوب قبل الساعة الثامنة

وعند الساعة الثانية والدقيقة ٣٢
سمع ضوضاء ثم صرير ابواب تفتح ثم صوت
باسبارتو ثم صراخ فيكس فنظر الى باب
السجن فرآه مفتوحًا والسيدة عائدة داخلة
منه ركضًا فاقتربت منه وقبضت على يديه
ووراءها باسبارتو فتوجه معها فوج الى
الباب فرأى البصاص فيكس مرخي شعور
الرأس غائبًا عن الحواس فلما رأى فوج
اطرق في الارض خجلاً منه وقال له
بصوت متلجلج

عفوًا .. عفوًا ... يا مولاي .. فبك
تشابه كلي .. وقد قبض على اللص منذ
ثلاثة ايام .. وانت مُطلق السبيل

فحملق فوج في وجهه واندفع نحوه
فلطمه لطمة كادت تكون القاضية فقال
له باسبارتو

— عافاك الله يا سيدي وحيَّاك لا
شلت يداك ولا اشمت بك اعداك اوسع
هذا اللئيم ضربًا فبالحقيقة يا مولاي

اذا انتَ اكرمت الكريم ملكتهُ
وان انت اكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى في موضع السيف بالعدى
مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

وبعد ذلك انطلق فوج بالسيدة
عائدة والشاب باسبارتو الى محطة ليفربول
فاستخبر عن ميعاد قيام الاكسبريس فقيل
لهُ انهُ قام منذ ٣٥ دقيقة فطلب من
وكيل المحطة قطارًا مخصوصًا فاعد له
قطارًا عند الساعة الثالثة (بعد ان
خلت السكة من القطارات الاعتيادية)
فركبه مع رفيقيه (بعد ان انفرد بالمهندس
ووعده بجائزة تقدية اذا طار بالقطار الى
لوندرة) وسار بهم وفي ظرف خمس ساعات
ونصف ساعة اوصلهم الى لوندرة

ولما خرج رجل الرحلة من العربة مع

السيدة عائدة وخادمه ووطئوا محطة لوندرة دقت الساعة ثماني دقات والدقيقة ٥٠ في انحاء لوندرة فكان تأخره عن الزمان الذي حدده في صك الرهان خمس دقائق فيكون اذن قد خسر الرهان

الفصل الخامس والثلثون

كيف ان باسبارتو نفذ اوامر مولاه عاجلاً

لو علم سكان شارع سافيل باياب المستر فوج لاخذهم العجب وكيف يعلمون بذلك وما رأوا فوج وما تبينوا في منزله تغيرًا من حيث فتح الشبابيك والابواب

وعندما بارح المستر فوج محطة لوندرة اتجه نحو منزله بالسيدة عائدة وامر باسبارتو بان يذهب الى السوق لابتياع بعض الحوائج واي يراع يمكنه ان يأتي بوصف حالة فوج عند عودته الى منزلهِ فوان يكن لم تبدُ على وجههِ علائم القلق والاضطراب والغم والاكتئاب ولكنه كان عائدًا لا شك يخفي حنين لاخفاق مسعاه بعد ان جاب الافاق وذلل المصاعب واقتحم الاهوال واصطنع اثناء طريقهِ المبرات وبعد ان كان على وشك الوصول الى المرام فعاقه عن كل ذلك من احسن اليه وهو ذاك البصاص الذي قبض عليه بصفة لص مجرم

ومن يعلم ان المستر فوج اصبح فقيرًا ولا يتأسف عليهِ لان المبالغ التي احتملها معه في رحلته وكان قد انفقها لم يبقَ منها سوى النزر اليسير ومبلغ العشرين الف ليرة الموضوع في بنك بارين اخوان قد فقده الان وامسى ملكًا لرفاقه الذي عقد معهم صك الرهان على الطواف حول الارض في ثمانين يومًا

وقد تخصصت حجرة للسيدة عائدة في بيت سافيل فدخلتها حزينة وانزوت فيها مكتئبة قلقة البال على حالة المستر فوج الذي ربما جرَّه القنوط كما جرَّ غيره من ابناء جلدته الى ما لا تحسن عاقبته واما باسبارتو فحالما صعد الى غرفته اطفأ نور الغاز الذي كان قد تركه موقدًا منذ ليلة الرحلة وقد وجد في صندوق الخطابات المعلق في حائط بيت سافيل بيان لثمن الغاز الموقود محرر من قبل شركة الغاز في لوندره

ومرَّ الليل عليهم جميعًا وهم على ارقٍ

وسهاد وعند الصباح قرع المستر فوج جرس الابتدعاء لخادمه باسبارتو وامره باعداد الطعام للسيدة عائدة وان يعد لهُ كاسياً من الشاي وقطعة من اللحم وقضى النهار بتمامه وهو يشتغل بترتيب بعض اشغاله وعند المساء طلب من السيدة عائدة ان يتفاوض معها بعض دقائق وكان طلبه لها بواسطة باسبارتو

وقضى باسبارتو النهار بطوله مستسلماً للغم متقلداً للحزن شأن من عرف خطاه فاقر بذنبه ثم عض اصابع الندم على عدم اخطار مولاه بمكنونات ضمير البصاص فيكس وما كان ينويه لهُ من الاذى والغدر بالقبض عليهِ متى سنحت لهُ الفرصة ومن عظم ما كان يبكته به ضميره هام في اودية التأمل ثم نهض وذهب الى حجرة مولاه وانطرح على قدميه قائلاً لهُ بصوتٍ متهدج

— مولاي مولاي انا السبب في غمك وكربتك وبلواك وحزنك وو . . .

فاستوقفهُ المستر فوج عن الحدوث واجابه بملء الرصانة

— لا لوم عليك ولا تثريب فاذهب وانظر الى واجباتك ·

فخرج وانطلق الى حجرة السيدة عائدة فالفاها على حالةٍ من القلق والكمد لا توصف فقال لها

— مولاتي اذهبي غير مأمورةٍ عند مولاي وانقذيه من عذاب الضجر واليأس تجلي لهُ في مظهر الجمال فانتِ بهجة الانظار وفتنة الافكار وانتِ لا تعدمين وسيلةً في تسلية خاطره وتفريج كربته

فاجابته عائدة بقولها

— وكيف اظهر لهُ بهيئة الغم والكمد العلهُ مرتاب في صدق ولائي وفرط ثنائي على ما عاملني بهِ من المعروف والاحسان واني ارى من الصواب ان البث متربصةً الى المساء فانهُ سيجتمع بي حسب قولك للمفاوضة معي

وكان يلوح في ذلك اليوم على بيت سافيل علائم الاستيحاش ومنذ ان سكنه المستر فوج لم يلبث فيهِ محجوباً عن اعين الناس النهار بطوله الا في ذلك اليوم ويا عجباه فالى اين يذهب · أالى الغلوب ان رفقاءهُ ليسوا بانتظاره لانهُ لم يحضر اليهم في الليلة المعينة حسب وعده

ام الى بنك بارين اخوان فان العشرين الف ليرة المطلوبة لهُ منهم قد فقدها بفقد الرهان فالاجدر بهِ والحالة هذه ان يلبث في منزله منتظرًا فرج الله العاجل

وكان باسبارتو اثناء ذلك النهار يصعد السلم وينزلها مرة بعد اخرى ثم يذهب الى غرفة مولاه فيجدها مغلقة فيعود الى حجرته ثم يخرج منها ذاهبًا الى غرفة مولاه ايضًا فينظر الى ما داخلها من ثقب قفل الباب ليرى مولاه كأَنهُ تصور ان تلك الحالة ربما افضت بالمستر فوج الى القنوط من الحيوة وقد خطر لهُ ايضًا ان ينتقم من البصاص فيكس غير انهُ بعد التروي والامعان علم ان فيكس لم يجنِ عليهِ ذنبًا فانهُ قام بواجب وظيفته ولو انهُ اخطأَ المرمى

وعند الساعة السابعة ونصف من المساء استأذن فيلاس فوج الدخول الى غرفة السيدة عائدة فدخل حجرتها وجلس على كرسيٍ بالقرب منها وبعد سكوتٍ استمر مدة خمس دقائق قال لها

— ارعني السمع يا مولاتي . قد اتيت بك هذه الديار الانكليزية على امل ان تعيشي بها ناعمة البال بما اضعهُ بين يديكِ من المال اما الان وقد اصبحت فقيرًا فاسمحي لي ان القي اليكِ ما بقي عندي من النقود الى ان يمن الله عليكِ بالفرج وقد بلغتِ الان ديارًا تأْمنين فيها شر اولئك الهنود الذين كانوا عازمين ان يميتوكِ شر ميتة

فاجابتهُ عائدة بقولها

— صدقت يا مولاي فانني لا انكر لك فضلاً ولا اكفر باحسانك

فلاشكرنك ما حييت وان امت
فلتشكرنك اعظمي تحت الثرى

ولكن يا مولاي قل لي ناشدتك الله ما سيؤول اليه امرك

— ساعيش بسرورٍ وهناء وسعادةٍ وصفاء

— اين اصدقاؤك واقرباؤك يفرجون كربتك

— ليس لي احد غير الله

— اي وخالق الحب والنوى وفالق الحب والنوى ان الموت لاهون عليَّ من الحيوة مبتعدةً عنك ولا يطيب لي العيش في بعدك فهلاً تجود عليَّ بامنية فؤادي

وتخذني زوجةً لك

فأثر هذا الكلام في فواد المستر فوج ثم نظر الى وجهها نظرة المحب وقال لها بأدبٍ واحتشام

ــ اني احبك حبًا فائق الوصف

ثم استدعى اليه بخادمه باسبارتو وكانت الفتاة قد قبضت على يديه وضمتها الى صدرها فنظر اليها نظر الواله ثملاً بخمرة الوجد وبينما هما على هذه الحالة اذ دخل عليهما باسبارتو ولما رآهما في حالة السرور استنار وجهه كالشمس حينما تبزغ من دائرة الانقلاب فقال لهُ مولاه

ــ الم يفت الوقت على استدعاء الاب صاموئيل ويلسون من كنيسة السيدة

فتبسم باسبارتو وقال له

ــ لا لم يفت الوقت وما الساعة الان الا ٨ و٥ دقائق

فالاوفق ان تخطر القسيس منذ اليوم ليستعد للحضور باكرًا يوم الاثنين

فالتفت فوج الى الفتاة وقال لها

ــ موعد اللقاء بيننا غدًا . فقالت له

ــ اصبت

ثم خرج باسبارتو ليخطر حضرة الاب صاموئيل

الفصل السادس والثلثون

كيف ان سوق فيلاس فوج استأنف رواجه في لوندرة

واختلفت الاقوال وتباينت الاراء في شأن جامس ستراند الذي أُلقي القبض عليهِ في سابع عشر ديسمبر لارتكابه سرقة بنك انكلترة وقد ذاع خبر جنايتهِ في جميع الولايات المتحدة فرمتهُ الالسنة باسهم الملام وعنفتهُ بامرّ الكلام

وقد كان المستر فوج منذ ثلاثة ايام مأخوذًا بصفة لص مجرم يقتفي اثرهُ رجال الحكومة للقبض عليهِ واما الان فقد حصحص الحق وظهرت برأته وعلم انهُ كان يتم رحلته حول الارض باكمل دقة وضبط اخذت اقلام ارباب الجرائد تخوض في بيان الامر حتى شغلت سكان لوندرة فاخذ القوم يستأنفون عقد الرهان بحيث انحصرت الاشغال في مسألة الطواف حول الارض

اما رفقاؤه الخمسة اعضاء الغلوب

فقد قضوا الثلثة الايام التي مرت من تاريخ القبض على لص البنك جامس ستراند في قلق واضطراب وكانوا يتوقعون عود فيلاس فوج اليهم بنافد الصبر مسترسلين في الظنون والتخامين فيما اذا كان قد عدل عن عزمه ام مات في الطريق ام سيعود اليهم في الحادي والعشرين من دسمبر في الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ من المساء

ولما لم يقفوا له على اثر بعثوا بالرسائل البرقية الى امركا وآسيا يستطلعون اخباره وكانوا يتفقدون صباحًا ومساء منزله في شارع سافيل لعله يكون قد آب اليه ويبحثون على البصاص فيكس الذي اخطأ المرمى فما وقفوا له على خبر

ولذلك بنت الايدي تعقد صكوك الرهان اعتقادًا ان المستر فوج فارس ذلك الميدان لا يصل الا في اخر دقيقة ولكن اوراقه انخفضت الى عشرين وعشرة وخمسة غير ان الشيخ الكسيح اللورد البرمال كان يشتري اوراق فوج بقيمتها الاصلية

وما اقبل مساء السبت حتى تقاطرت الناس نحو الغلوب ينتظرون اياب المستر فوج حتى ضاقت بهم فسحات الطرقات وانتصب بينهم ميزان الجدال وخصوصًا السماسرة منهم وقد احتدم بينهم الجدال حتى علت الضوضاء تشق كبد الفضاء وقد خيف بسبب الازدحام من حدوث امور مخلة بالراحة العمومية فتداخلت الشرطة وحاولت منع الازدحام فلم تفلح . وكانت الجماهير الغفيرة تزداد تجمعًا حول الغلوب كلما اشتد تداني الوقت المعين واجتمع في تلك الليلة منذ الساعة السادسة في قاعة الغلوب حضرات المتراهنين يوحنا جلليفان وصاموئيل فالنتين واندراوس ستوار وجونيه رالف (مدير البنك المسروق) وتوما فلاناجان وعندما نبهت ساعة الغلوب ان قد انقضت الساعة الثامنة والدقيقة ٢٥ قام اندراوس ستوار وقال

— سادتي لم يبقَ للمستر فوج الا ٢٠ دقيقة

فسأل توما فلاناجان عن الوقت الذي وصل فيه اخر قطار قام من ليفربول فاجابه جونيه رولف ان قد ورد قطار في الساعة السابعة والدقيقة ٢٣ وسيحضر قطار آخر عند منتصف الليل

فقال ستولر : لو حضر المستر فوج على قطار الساعة السابعة والدقيقة ٣٢ لكان وصل الينا فوالحالة هذه صار يمكننا الان ان نوقن باكتساب الرهن فاجابه فالنتين ان صاحبنا محب للضبط فربما يفد علينا في الثانية الاخيرة من الوقت المعين فقال ستولر اني لا اصدق ولو نظرتهُ بعيني فقال فلاناجان في الواقع ان مهمة المستر فوج لا يقبلها عقل فهو وان كان محبًا للضبط فلا يمكنه ان يتجنب تأخير يومين او ثلاثة وهذا يكفي لاخفاق مسعاه فقال سيللفان ان الطريق التي سار فيها مخاطة بالاسلاك البرقية ومع ذلك لم يرد الينا منهُ اقل نباء فاجاب ستولر بصوتٍ عالٍ قائلاً سادتي ان المستر فوج قد خسر الرهن واعلموا ان اسمهُ غير مرقوم في كشف الركاب الذين حضروا الى ليفربول على الباخرة شانيا واظن (لا بل اؤكد لكم) انهُ اذا ساعده الطالع يكون الان قد حضر الى امركا وسيكون تأخيره لا اقل من عشرين يومًا فبناء عليه نكون قد ربحنا خمسة الاف جنيه التي راهنا عليها اللورد البرمال وذلك علاوة على العشرين الف جنيه فاجاب جوتيه رولف : لقد اصبت فيما قلت وما علينا سوى ان تقدم طرس الحوالة الكائن في يدنا للخواجات بارين اخوان وتقبض بمقتضاه العشرين الف جنيه

وما اتم كلامه حتى دقت الساعة ٨ والدقيقة ٤٠ فقال ستولر : لم يبقَ للمستر فوج سوى خمس دقائق . فتبادل حينئذٍ هولاء الاعضاء النظرات وكانت قلوبهم تخفق كأَنها تنذرهم بخسارة الرهن . وقد عرض عليهم فالنتين ان يجلسوا ازاء مائدة ويلعبوا الويست ، فقال ستولر وهو آخذ في الجلوس ازاء المائدة اني لا اتنازل من حصتي (٤٠٠٠ جنيه) عن بارةٍ واحدة وحينئذٍ اشارت الساعة الى الساعة ٨ والدقيقة ٤٢ فتناولوا الورق ثم اخذوا يتبادلون النظرات من آنٍ الى آنٍ وعند الساعة الثامنة والدقيقة ٤٣ قطع فاناجان الورق ودفعهُ الى رالف ولم يسد السكوت دقيقةً واحدة في قاعة الاجتماع حتى علت ضوضاء في الخارج وعند الساعة الثامنة والدقيقة ٤٤ صرخ هيلليفان باعلى صوته قائلاً . لم يبقَ الا

دقيقة واحدة فامسك رفقاؤه عن اللعب وشخصوا الى عقرب الساعة . وعند الساعة الثامنة والدقيقة ٤٤ والثانية ٥٥ سمعوا اصوات ابتهاج فيما خارج « الغلوب » وتصفيق استحسان فنهض اللاعبون للوقوف على الخبر وما دنت الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ حتى فتح باب القاعة ودخل منه فيلاس فوج قائلاً لهم بصوت هادٍ

ها انا ذا

الفصل السابع والثلاثون

كيف ان فيلاس فوج لم يكسب من الرهن سوى الشرف

مر بنا الكلام على وصول المستر فوج الى مدينة لوندرة وكيف انه استدعى بخادمه باسبارتو (بعد ان صرف في منزله بشارع سافيل نحوًا من خمس وعشرين ساعة) وامره بالتوجه الى منزل الاب صاموئيل ويلسون ليحضر اليه في الغد ويكتب له عقد الزواج على السيدة عائدة . فذهب باسبارتو الى منزل الاب المذكور قرير العين مسرورًا وبعد ان انتظره في منزله نحوًا من عشرين دقيقة تفاوض معه قليلا ثم خرج من لدنه فرحًا مكشوف الرأس وسار في الطريق مسرعًا ينهب الارض ركضًا حتى انه عاد في برهة ثلاث دقائق الى مولاه ضنكًا من التعب لا يستطيع كلامًا فسقط الى الارض امامه فقال له فوج

— ماذا المَّ بك

فاجابه متلجلجًا بقوله

— مولاي ... الزفاف ... غير ممكن ..

— ولماذا

— لان يوم الغد هو يوم الاحد لا الاثنين فقم .. فقم .. واسرع ..

— الاحد .. اصدقني وافهم ما تقول

— أجل .. الاحد .. يا مولاي .. انت على غلطٍ في يوم واحد فاننا وصلنا الى هنا قبل الميعاد المعين باربع وعشرين ساعة . وناشدتك الله بان تقوم وتذهب الى الغلوب اذ ليس لديك من وقتٍ للجدال والاستفهام فاذهب غير مأمور الى قاعة الغلوب فانهُ لم يبقَ لك سوى عشر دقائق

فنهض فيلاس لساعتهِ وخرج من منزله . فاستدعى باحد ساقة العربات

ووعده بجائزة قدرها ١٠٠ ليرة اذا اوصله الى الغلوب في مدى عشر دقائق فاطلق السائق للخيول العنان فطارت بالعربة الى الغلوب واوصلت المسترفوج اليهِ في الاجل الذي ضربه للسائق والدقيقة التي يروم الوصول بها الى القاعة وبناء عليه كسب الرهن وهنا محل للعجب كيف ان هذا الرجل المحب للضبط المتروي في الامور يرتكب خطاء بحساب يوم واحد ولا يميز بين ايام الاسبوع بحيث لا يفرق بين الخميس والجمعة وبين السبت والاحد .

على اننا اذا نظرنا الى هذا الخطاء عرفنا الاسباب التي نشأَ عنها وهي في حد نفسها بسيطة جدًّا

فمن المعلوم لدينا ان المسترفوج شرع في الطواف حول الارض من جهة الشرق سائرًا امام الشمس ومن المعلوم ايضًا ان للكرة الارضية ثلثمائة وستين درجة ففي اجتياز كل درجة ينقص من ساعات النهار اربع دقائق واذا ضربنا الثلثمائة والستين درجة في اربع دقائق كان الحاصل اربعًا وعشرين ساعة وهذه

صورة العمل

٣٦٠ درجة
٤ دقائق
١٤٤٠ الحاصل

فحاصل الدقائق ١٤٤٠ وهاك تحويلهم الى ساعات

ساعات دقائق

١٤٤٠ | ٦٠
١٢ ٢٤ ٢٤
٢٤
٢٤

فحاصل القسمة ٢٤ ساعة

اما المسترفوج في سيره نحو الشرق فقد رأى الشمس مرت ثمانين مرةً في دائرة النصف مع ان رفقاءهُ في لوندرة رأوها مرت في تلك المدة تسعًا وسبعين مرة فمن هنا نتج للمسترفوج ربح يوم واحد وهو اليوم الذي نحن في صدده وبعكس ذلك لو طاف حول الارض من الغرب لحصل لديه زيادة يوم واحد على الثمانين يومًا

وقد كسب المسترفوج بذلك قيمة

الرهن ولكنه كان قد تكبد من النفقات اثناء الطريق مبلغ تسعة عشر الف ليرة وبما انهُ كان يقصد بطوافهِ نيل الشرف لا اكتساب المال فقد وزع الالف ليرة الباقية على خادمه باسبارتو والمنكود الحظ فيكس ومن اخلاقه الشاذة وطباعه الغريبة انهُ خصم من حصة باسبارتو ثمن الغاز الذي بقي موقدا في غرفته ايام الرحلة

وبعد ان عاد من الغلوب فائزًا بامنيته حاصلاً على بغيته باكتساب الرهن انفرد بالسيدة عائدة وقال لها

ــ هل انتِ مستمرة على عزمك من حيث الزواج

فاجابته عائدة

ــ مولاي كان الاجدر بي ان اوجه اليك هذا السوآل الذي وجهته اليَّ لانك عندما قبلت ان تقترن بي كنت فقيرًا اما الان فقد صرت بحمد الله غنيًا

فقال لها فوج

ــ صدقتِ ايتها الحبيبة المفداة بالروح ولكن انتِ التي انقذتني من الفقر المدقع ساعة حدثتني بامر الزواج فارسلت خادمي الى الاب صاموئيل فعاد وازاح الحجاب عن خطائي فلما سمعت عائدة هذا الكلام اخذت تدعوه بالطف اسماء المحبين وهو يجيبها باعذب الفاظ العاشقين كيف لا وقد عزما ان يرتبطا برابطة الزواج بعد ثماني واربعين ساعة ويكون باسبارتو شاهدًا عليهما لانهُ هو الذي انقذ الفتاة من الحريق ومولاه من الفقر والاعواز

وفي غلس اليوم التالي نهض باسبارتو من رقاده واتى حجرة المستر فوج فايقظهُ من نومه وقال لهُ

ــ مولاي قد اكتشفت الان على امرٍ مهم

ــ وما هو

ــ هو انهُ في امكاننا ان نطوف حول الارض في تسعة وسبعين يومًا فقط

ــ نعم يا بني ولكن اذا لم نقطع صحارى الهند ولو لم نقطعها لما كنا انقذنا السيدة عائدة من الهلاك ولما صارت زوجةً لي

قال هذا واغلق عليه باب حجرته بكل هدوٍ وسكينة

وخلاصة القول ان المستر فيلاس فوج طاف حول الارض في ثمانين يومًا ولم يقف على وسيلةٍ الا استخدمها في تذليل

العوائق وتسهيل سبل الانتقال من مكانٍ الى مكان فقد ركب البخار على اجنحة البخار وقطعُ الفيافي والقفار على القطارات الحديدية والمركبات والعربات والافيال وأظهر كل ما فطر عليه من غرائب الاخلاق وشدة التأني واحكام الدقة والضبط ومع ذلك فما الذي ربحه في رحلته وما هي الفائدة التي عادت عليه بعد تلك الاتعاب . انهُ لم يكتسب شيئًا غير الشرف ولم يربح الاَّ فتاةً بديعة الجمال يسلو بوجودها ما كابده من المشاق وقاساه من العناء فقد ملكت قلبه وسحرت لبه

ملكتكِ القلب فرفقًا بهِ
ما احسن الاحسان ممن ملك
استغفر الله فما انتِ من
هذا الملا ما انتِ الاملك

وفي الواقع ان الارض لا تطاف في اقل من المدة التي قضاها المستر فيلاس فوج في ذالك الطواف

(تمت)


Bibliotheca Alexandrina
04055960